

محمد بن تاروت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الأول



الوافي بالأدب العربي
في المغرب الأقصى

محمد بن تاروت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الأول

نشر وتوزيع



دار الفرافرة

34.32 شارع فيكتور هيكو

الدار البيضاء

تليفون : 26.23.75

الطبعة الاولى 1402 هـ 1982 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة

وبعد فهذه دراسة كانت نواتها الاولى قد ألفت في الاحاديث الاداعية التي عهدت الى منذ فجر الاستقلال فكانت الاذاعة الوطنية توجهها الى المستمعين بالداخل طيلة خمس سنوات ، كما كانت توجه أخرى نحو الشرق الأدنى في نفس المدة ، وباختلاف بسيط عن الاولى .

واثر ذلك كاتبى ، وأنا بمدينة بريتون Brighton أستاذ مصرى ، هو محمد عفيفى ، في شأنها ، فوجهت اليه بمجموعتى الاحاديث ، التى استخلص منها كتاب « الأدب المغربى » فكان بذلك شريكا فى التأليف ، الذى استقل فيه ، بالمقدمة ، والتمهيد ، واللمحة الجغرافية ، والتاريخية ، وما الى هذا حتى الفصل الاول من الكتاب (1) .

لقد كان عنوان تلك الاحاديث « تاريخ الأدب المغربى » . وبهذا كان النهج فيها مسابقة الحقب التاريخية التى عاشها هذا الأدب منذ بزوغ فجره الى ظهوره الذى يظننا .

نعم ، كانت الاحاديث استعراضا لشريط الأدب العربى فى هذه البلاد ، غالبا ، مع بعض الملاحظات والوقفات النقدية أو المقارنة أحيانا ، وانتهى ذلك الشريط عند نهاية القرن الثالث عشر الهجرى .

وتلت هذه الاحاديث محاضرات كنت ألقاها بكلية الآداب ، فى الرباط وفاس ، منذ بداية سنة 1960 ، مما استغرق أكثر من عشرين سنة . وانضاف اليه أحاديث اذاعية عدت الى القائنها عندنا بعنوان « قصة الأدب العربى بالمغرب الأقصى » .

فكان النهج فى هذه هو النهج فى تلك السابقة ، مع بعض الاختلاف الذى فرضه الزمان الفاصل بينهما ، والمعلومات التى نتجت فيه والملاحظات التى تولدت منه ، فكان التفسير

(1) ومن المؤسف أن هذا الزميل قد ترك بعض الفقرات التى وردت فى تلك الاحاديث على ما هى عليه ، بعد ما حذف مملقاتها من ذلك ما نجد فى الصفحة 206 من الطبعة الاولى هكذا :

« وقد أشرنا الى هذا من قبل ، وضربنا له أمثلة جميلة من اشعار المغاربة ، ولا سيما مالك بن المرحل منهم » .

فهذا كلام كان منا اشارة الى ما سبقه من أحاديث ، ولم يرد مضمونه فى هذا الكتاب ، كما جاء بعد فى نفس الصفحة :

« ونختم هذا الحديث بقراءات من رسالة طويلة لأبى القاسم العرقى »
فهو كلام فى هذا « الحديث » صارخ بهذا القبيل المذاع .

وكذلك نجد فى الصفحة 511 ما يلى :

« وفى الحديث الآتى سنتناول هذه المسألة »

فهذه أيضا اشارة اداعية منى على « الحديث الآتى » الذى تحقق فيه ذلك « المحال » عليه منى ، ولكنه لم يحقق فى هذا الكتاب ... وغير هذا مما يطول ذكره ، ومنه التعليق (1) بالصفحة 496 حيث الاحالة على الفصل السادس ، بما لا ذكر فيه ، وهو من حديث لنا

والتهذيب والتشذيب أحيانا والزيادة أحيانا أخرى ولعل سائلا يسائل :

ان كان النهج واحدا ، فما الحامل على تبديل العنوان ؟

والجواب ، أن هذا التبديل ، كان من ضمن نتاج ذلك « الزمان » الذى جعلنا نظمنا الى صحة هذا العنوان اطمئنانا تاما ، ونفضله على ذلك الذى لم نظمنا اليه هذا الاطمئنان الكلى ...

فالقومية التى دعا اليها الداعون فى الشرق ، وكنا من تلاميذهم نتحمس لها مبدئيا ، لم نجد لها مرآة صافية صادقة فى أدبنا ، ولا فى أى أدب كان وما زال فى باقى البلاد العربية ، وهو أدب الفصحى ، التى تهيمن — بحمد الله — علينا جميعا .

بل اننا حتى فى لغتنا العامية ، نقول ، اننا نتكلم العربية ، نقول ذلك فى المغرب والشرق ، ولا نقول ، نتكلم المغربية أو المصرية مثلا ، فما دام ذلك كذلك ، فلا يكون من الواضح أن نقول « الأدب المصرى » — كما قال بذلك أستاذنا الخولى يرحمه الله — والف كتابا بهذا العنوان. لأن الأدب الفصحى فى مصر ليس له من المعالم الخاصة المميزة له عن غيره شيء ذو بال .

وكذلك لا نقول « الأدب المغربى » كما قلنا بذلك ، وكتبنا فيه ، باحدى المجلات ، تحت عنوان « ظهور الأدب القومى العربى » (1) . لأن هذا الأدب الفصحى ليس له من مميزات خاصة به أيضا .

فالأدب الذى يستحق هذه التسمية الخاصة هو ما كان لأولئك الذين ظهرت آدابهم القومية أخيرا ، بعد ما ظهرت لغتهم بذلك المستوى الذى مكنتها من هذه الآداب (2) .

لقد كانت اللغة المستعملة فى اسبانيا أو الاندلس خاصة ، تدعى باللغة اللاتينية ، ولهذا وجدنا ابن حزم يسميها بذلك فى كتبه بالنسبة « اللاتينية » . وكانت العلوم والآداب فى باقى البلاد الأوربية ، قبل التاريخ الحديث ، تؤلف باللاتينية ، ولم تتخذ لغتها القومية فى علومها وآدابها ، إلا بعد أن ارتفعت لغتها العامية الى ذروة من الكمال ، وأصبحت قادرة على تأدية هذه المهمة قدرة تامة فانفصلت عن أمها وودعت حاضنتها الوداع الأخير ، وقد ردت هذه الى أرذل العمر وأشرفت على الفناء ، أو كادت ، فهى قابضة فى عقر دارها ، لا يلم بها إلا أفراد لا يتعدون عدد الأتامل ، بخلاف العربية فهى تتمتع برعنان شبابها ، يتكلمها الناس ويفهمونها فيها بينهم وتخطبهم فى الصحافة اليومية والإذاعات المستمرة ، وهى كل يوم ترشد هذه العامية وتهذبها وترفع من أفكارها وتقوم على تربيتها خير قيام . ولهذا فإن العامية فى حاجة ماسة الى هذه الأم الرؤوم والحاضنة الحنون . ومن قبل حاولت العامية فى مصر الانفصال عنها . فلم تقو على ذلك ، وباء الدعاة اليها بالفشل الذريع . فالحمد لله مرة أخرى على هذه الفصحى التى لاتنقسم عراها .

(1) كان ذلك سنة 1950 ونشر فى مجلة « القافلة » التى صدر العدد الاول منها بالبيضاء ، فكان الاول والاخر منها .

لقد كان الأستاذ أمين الخولى يدعو الى هذه القومية بكل حرارة وإيمان ، وكانت محاضراته فى هذا الاتجاه تنعش فى النقاش الذى يشارك فيه طلاب العالم العربى ، كما كان زملاؤه وعلى رأسهم المرحوم عبد الحميد العبادى يعارضونه فى كل لقاء ، حتى فى القطار الذى كان يحملهم من القاهرة الى الاسكندرية ، حيث جامعة فاروق الاول ، كل أسبوع .. وفى سبيل هذا خصص لنا أستاذنا للفرعونية ، كان نفسه ومعيدته الأستاذة عائشة بنت الشاطىء ، آنذاك ، يحضران معنا فى الصباح الباكر بكلية الآداب من جامعة مؤاد الاول .

(2) ونعلا فقد بدأت بوادر هذا فى أدبائنا الشباب الذين نخصصوا فى الأدب الحديث عندنا ، ومع ذلك فإن منهم من طلب من موظف — كان — بالمركز الجامعى ، أن يبحث له عن قصة كتبت ترجمتها عن التركيه وتحمل عنوان « أجر وحبر » فلم طلبها السيد « المحاضر » العلم عند الله .

منهاج الكتاب

لقد مهدنا بمقدمة في المراكز الاولى للثقافة المغربية ، وفيما يلابسها من ظروف تاريخية واجتماعية وجغرافية أحيانا ثم قسمنا الموضوع الى ابواب داخلها فصول ، حددناها بمراحل تاريخية ، وان لم يكن هذا التحديد حاتما فيما بينها : اذ كل مرحلة من مراحل التاريخ لا بد أن تكون موصولة بما قبلها ، غير مفصولة عما بعدها . على أن كل ذلك انما هو بحسب الغالب ، والا فان مرحلة من المراحل لا بد أن يشذ فيها ما نريد أن يكون منها ، فيأبى الا أن يكون سابقا عنها أو لاحقا بها .

ومهما يكن ، فقد جعلنا لهذا الادب أبوابا تضمنت فصولا ، يكون أولها ما قبل المرابطين ، وثانيها عصر المرابطين ، وثالثها عصر الموحدين ، ورابعها عصر المرينيين ، وخامسها عصر الوطاسيين ، وسادسها عصر السعديين ، وسابعها العهد العلوي الحالى .

فهى اذن مراحل تاريخية ، مرتبطة بالامارات والدول ، على سبيل التقريب ، لا على سبيل التحديد ، ولا ضمير في ذلك ما دام الغرض قد استبان ، والسبيل قد انضح لمن يريد أن يساير ادبنا العربى فيقطع معه الاشواط الزمنية التى قطعها فى الف او يزيد ، بالاضافة الى كون اغلب الآثار الادبية صادرة عن رجال كانوا من رجال الدولة او على اتصال بها وبرجالها .

ان المنهج التاريخى ، فى جل الدراسات ، خصوصا النظرية منها ، سليم قويم ، دعا اليه جمهرة من الفلاسفة فى الحديث والقديم ، واستعملوه فى دراساتهم الفلسفية ، فأتى بالنتيجة المطلوبة الصحيحة التى لا تحتل الجدل والتشكك فيها ، لانها مبنية على مقدمات .

كذا قال المناطقة فى أئستهم ، وكذا نقول فى دراساتنا لادبنا ، وهى دراسة صاعدة فى سلم النشوء والارتقاء لهذا الادب الذى نعتبر مراحلها الاولى مقدمات له ، صفرى فكبرى ، تتطلعان ككتاهما الى النتيجة التى

نعمل لها ويعمل الجيل الصاعد كذلك ، في غير فتور وفي غير لغوب منه .
ومهما صادفنا من عثرات في ذلك السبيل ، ومهما توقفت بنا القافلة،
أو انبهت علينا الطريق ، فإن ذلك لا يعنى الانتكاس حتما ، وإن تسرعنا
أو تشاعنا فوسمنا بعض الخطوات بذلك ، فالعقل البشرى والخيال
الانسانى ، كلاهما يستنيم في مدة من حياته ولكنه لا يموت ، موتا حقيقيا ،
بل تاخذه السنة أو النوم ، الى أن يستيقظ ، وهو متحفز للعمل مستعد
للاستمرار في سيره ، والتسنىم للارتقاء في مراقى عليائه . نعم إن المراحل
قد يعترضها ما ينحرف بها عن السبيل ، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون
انحرافا يعترى الانسان النامى انحراف في صحته ، ثم تعاوده
السلامة ، أن قدر له الاستمرار في مراحل الحياة الدنيا .

أذن فلننتظر من أدبنا الخطوات الصاعدة ، وإن تخللتها عثرات كما
سنرى ، والحلقات المتداخلة ، وإن ضاق بعضها بعد الانساع ، فذاك
كله من قبيل الاسترواح ، ليس غير ، وسنكثر من الاتيان بالنصوص في غير
الاختيار ، في المراحل الاولى لقلّة العثر عليها ، كما لن يكون منا اختيار
في مرحلة من المراحل القصيرة لنفس السبب أو لكونها لا تدع لنا اختيارا
في نتاجها .

المقدمة

من المفروغ منه أن الادب بالمغرب كان من الناحية التاريخية ، آخر ما تنفست به العربية في أقطارها المفتوحة ، فقد عرفت الاقطار الاسلامية على الاطلاق ، شرقا وغربا أدبا عربيا نشأ فيها أو فزح اليها ، قبل أن يعرف ذلك المغرب الاقصى ، بالخصوص في هذا التحديد الذي يخرج من نطاقه إمارة تاهرت الرسمية المتأخمة .

وهذا التأخير كان لاسباب جغرافية وحضارية واجتماعية وسياسية ، عملت فيها الفتن والحروب ، وعملت فيها أكثر من ذلك كله فتوحات الاندلس التي تسرب بها العنصر العربي من البلاد (1) بل تسرب منها عناصر مغربية كان يرجى منها أن باتى بأكملها في بلادها ، فأثت بذلك الاكل في البلاد التي نزحت أو آباؤها اليها ، وفي مقدمة هؤلاء أبناء موسى وطارق وأحفادهما كما في جمهرة الانساب لابن حزم .

ففتح الاندلس سد على بواكير الادب العربي الابواب وعاق سيرها في طريقتها المستقيم نحو النشوء والارتقاء في هذه البلاد المغربية ، ثم كان قاطعا لخطوط الهجرة العربية فيما بعد ، فما أمها عبد الرحمن بن معاوية ، وأقام برهة من الزمان بين أخواله نفزة بالريف حتى غادر مقامه وركب البحر من الزمة الى المنكب من الاندلس ، وهناك كان القرار النهائي ، وهناك كانت الدعوة الى آل بته والتابعين الى الاندلس التي استمرت فيها الاموية تلوح للعربية ورجالها فتاتيههم حبوا حتى من العراق خصيمها ، فكان هؤلاء لا يقتربون من تخوم البلاد حتى يتنكبون عنها الى الاندلس ، وفيهم القالى ومن أتى بعده وفيهم صاعد البغدادي ، وكلهم كانوا يشعرون

(1) ذكر منهم ابن الكردبوس خنش بن عبد الله الصنعاني وأبا عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد البجلي ، وعبد الرحمن بن شماسه المصري وأبا النضر حيان بن أبي جبلة مولى عبد الدار ، ويقال مولى بن حبل بن حسنة ، في عشرين رجلا منهم (أي التابعين) ويقول عبد الملك بن حبيب السليمي « ودخل الاندلس من التابعين ، سوى من لا يعرف ، نحو من عشرين رجلا » ، وبعضهم يذكر عبد الرحمن البجلي . . . وكان فيهم الشاعر القائد ، مغيث الرومي ، مولى الوليد بن عبد الملك ، وهو معروف جدا في التاريخ ، ومذكور في كتب الادب ، كفتح الطيب ، كما كان موسى قد أرسل مع طارق ، من رجالات العرب ، عبد الملك بن أبي عامر المعافري ، وعلقمة اللخمي .

وهم يقتربون منا ، شعور المتنبي وهو في شعب بوان ، كما أفصح عن ذلك القائل نفسه .

لهذا كله تأخر ظهور الادب العربي عندنا ، فكانت اول بادرة له في هذه البلاد أوائل القرن الثالث أو أواخر الثاني ، ان تحقق ما نسب للمولى ادريس الاصغر ، أما الخطبة المنسوبة لطارق فنكاد نجزم بكونها غير صادرة عنه ، وهو من مغاربة جيله المبكر وشاهد الانتقال فيها اختلاف نصها ، كما في الامامة والسياسة ، وعدم ذكرها بتاتا ، كما في الاكتفا لابن الكردبوس (1) .

والنتيجة ان الاندلس تعربت قبل المغرب ، ظهر بها الادب قويا قبل ما ظهر كذلك بالمغرب ، الذي سكت به صوت العروبة والادب الى حين اتى عليه ، ان كان قد نطق به أصحابه ، قبل هجرتهم الى الاندلس . وهذا لا نستغربه ، فهو — ان كان — ما حصل مثله حتى بالجزيرة العربية نفسها موطن العربية والادب الرفيع والشعر الصادح . فمئذ أن عرفت هذه الجزيرة الاقطار الاخرى ، انتقل صوت الادب الجهورى منها الى تلك الاقطار . وما مضى عليها زهاء قرن من الزمان حتى خفت ذلك الصوت ان لم يكن سكت نهائيا بها ، وترددت اصداؤه المدوية في جنبات بلاده خارج تلك الجزيرة . ولهذا لا نستغرب أيضا ان قرانا في التاريخ ان المولى ادريس الاصغر فرح بالمهاجرة العرب لانه كان وحيدا فريدا بين البربر .

حقا لقد نعم المغرب بالاستقرار على عهد هذا الملك ، استقرارا نسبيا ، ولكن سرعان ما قامت على موته فتن مبررة بين أبنائه وأحفاده ، وقضت أو كادت على الأخضر واليابس ، وان كان قد نشأ من ذلك الانقسام شبيه ما نشأ من انقسام الامارات في الشرق من تنشيط محلى ، الا ان هناك فرقا كبيرا ، بين الانقسام في المغرب والانقسام في المشرق ، فهذا كان حديث عهد بالعربية . وما نعم بهذا الاستقرار الذى كان الشرق قد نعم به . حتى ان الفتن والحروب قد تكون من بواعث تنشيط الادب ، وهو ما وجدناه في الشعر العربى القديم ووجدناه في الحرب العالمية الاخيرة ، ولكن هذا ان كان ، فانما يكون في الامم التى عرق فيها ذلك الادب وتلك اللغة ، أما

(1) فيه انه قال « تاتلوا حتى تموتوا » .

المغرب فكانت العربية وافدة عليه ، طارئة عليه في قومه ، فكانت تنتظر منهم التعرف عليها والاصاخة الى ندائها ، ولا بد في هذا كله من هدوء بال واطمئنان حال . وما كان هدوء وما كان اطمئنان ، ففتن الخوارج وغيرهم والثورات المندلعة في كل جانب ، ثم بعد ادريس الثاني ، كما تقدم كانت تلك الفتن الداخلية والحروب بين الادارسة انفسهم وبينهم وبين اغيارهم . ومن ورائهم العبيديون النازحون اليه والمستنزفون للبقية الباقية، ان كانت هناك ما زالت بقية ، نزحوا بها الى المشرق ، حيث لا عودة لها ، كانت ، الا بالرماح تتقصف والنصال تتكسر على نصال اخرى امتدت الى المغرب من الاندلس . فكان المغرب لاولئك وهؤلاء الميدان الخارجى ، الذى عرف في ايامنا ميدانا لاصحاب الحرب العالمية .

وعلى كل حال فبالاستقراء والاستئناس نجد ان مراكز الثقافة الاولى، كان جلها واقعا على السواحل الشمالية للمغرب ، مثل مليلية ، والنكور ، وسبتة ، وطنجة واصيلا ، والبصرة التى كانت تحاذى البحر او تقاربه ، يضاف الى هذه المراكز الساحلية العاصمة الخطيرة فاس ، بعد العاصمة الخارجية سجلماسة .

لقد كانت هذه المراكز حضارية ، في غالبيتها ، قبل الفتح الاسلامى ، احتفظت بنفسها او اقام الاسلام على انقاضها مدنا وعواصم ، فمدينة مليلية فنيقية كانت تدعى « روسادير » ولما نزلها طليل البربرى أحد قواد ادريس بن صالح الآتى ذكره ، اتخذها مقاما له ولقومه اليفرنيين . واستقل بحكمها ونسبت اليه ، وتوجه اليها انظار العلماء والادباء من الاندلس فأسسوا بها لمن بعدهم بنى العلم والادب . على حين كانت مدينة النكور القريبة من المزمة او هى هى ، كما يقول البكرى ، تقام على موقع او معسكر عتيق في تلك الجهات . وقد ادعى مؤسسوها أنهم عرب يمنيون ، وان كان اهل بلدهم يفتنون هذه النسبة ويقولون أنهم نفزيون بربر . ولا تعنينا صحة هذه النسبة ، بقدر ما يعنينا ادعاء أصحابها العروبة التى عملوا على تثبيتها وتدعيمها برجال العلم والادب من أندلسيين ومغاربة وهم ضمنهم فقد نشر في هذه الجهات رئيس القوم صالح بن منصور التعاليم الاسلامية ، وخلفه ابنه المعتصم ثم شقيقه ادريس المؤسس الحق ، فاخطت المدينة ، ثم اتبها ابنه سعيد ، فبنى مسجدها على غرار مسجد الاسكندرية . وهذا له

مدلوله في التعلق بالشرق العربي ونشر العلم به وكذلك سببة الفنيقية اسس بها امارتها الاسلامية بنو عصام الغماريون ، الذين كانوا يدينون بالطاعة للادارسة ، فقد خلف عليها عصام اباه الذي كان يدعى الرجل الصالح ، كما كان جد النكوريين يدعى بالعبد الصالح (1) فعمرت المدينة وعاد اليها نشاطها من الاندلس ورجال الثقافة والفكر لا محالة .

والامر في طنجة انها كانت أعرق حضارة من هذه البلاد جميعا ، اتخذها الفنيقيون مركزا هاما تجاريا على الزقاق ، واتخذها الرومان مركزا استراتيجيا ، واطلقوا اسمها على اقليم شاسع كان يتسع كل القطر المغربي أحيانا ، وبه عرف عند الفاتحين الاول ، وبها كان مركز الحكم والقيادة لطارق ابن زياد ، ثم كانت موطننا أساسيا لفرق الخوارج والمعتزلة ، الى ان جاء المولى ادريس .

وكانت روافد الاندلس القريبة منها بنحو سبعة عشر ميلا ، تمدها بالثقافة الاسلامية، بعد ما نزع القراء (2) عنها في الفتح الاندلسي ولا شك انها كانت المركز الاول للعربية في المغرب وانها كانت ستزدهر ازدهارا عظيما مبكرا لولا الفتح الاندلسي كان في مقدمته اولئك القراء كما كانوا باليامة وتليها اصيلا الضاربة في القدم فكان منها رجال خلدوها في سجل العلم والادب ، خصوصا بعد ما صارت احدى العواصم الادريسية وهذه المدن جميعها ، ما عدا النكور ، أصبحت أوائل القرن الرابع ، نابعة للحكم الاموي ، فازدادت الحركة الثقافية أصالة بها ، اما النكور فقد تعرضت للغزو الفاطمي ، ثم عادت الى اصحابها الذين عادوا اليها من مهجرهم بالاندلس ، ولكن الفاطميين اعادوا الكرة فأخربوها . واما البصرة ، فقد اختلف في موقعها ، فمنهم من يجعلها القصر الكبير ، الذي ما زالت به معالم للرومان ، ومنهم من يجعلها مولاى بوسلهام ومنهم من يجعلها سوق الاربعةاء ، وهذا لا يخالف ما قبله ، فربما كان اقليم هذه العاصمة للامير الادريسي يمتد الى الساحل ، ومنهم من يجعلها حيث حد الكرت ، وهذه ايضا لا تخالف ما تقدمها . فقد أجمع الذين ذكروها من الجغرافيين القدامى أنها كانت

(1) وكان في البرغواطيين صالح ابن طريف وصالح بن عيسى .
(2) في ابن خلدون كانوا سبعة عشر ولكن ابن الرنيق يجعلهم سبعة وعشرين انزلهم ابن نصر بطنجة . وهم الذين وجههم الى المغرب مبر بن عبد العزيز ، ولا شك ان ممثلهم صحب طارقا في فتحه للاندلس ، ليقوموا على رأس الجيش .

لعهدهم في منتهى السعة ، كما قال البكري « مدينة كبيرة واسعة وهى اوسع تلك النواحي مرعى » على أن البكري وسابقه يجعلونها غير تلك المدن ، كالأصطخرى وابن حوقل والمقدسى .

تصدها الشعراء من الشمال الافريقى ومن الاندلس ، بل حتى من الجزيرة العربية ، كما سنرى .

وقد صارت من الشهرة بحيث ألف فيها وفي رجالها بالقرن الرابع ابن الوراق ، وكان منهم اعلام ذكروا في طبقات المالكية ومشاهير اعلامها . وما كانت سجللماسة بدعا في هذه العواصم ، فقد كانت مركزا هاما للطرق الصحراوية وغيرها ، قبل الاسلام ، ثم اتخذها عاصمة لهم الخوارج الصفرية ونعمت بالاستقرار في حكم بنى مدرار وسرعان ما ارتبطت بامارة الرستميين ، التى تأسست بعدها في اواسط القرن الثانى ، فكان لهذا الارتباط بالمصاهرة وغيرها ، عامله في نطاق التعريب ، كما كان للاتصال مع الاندلس عامله أيضا ، وظهر رجال منها ذكروا بمعاجم الاندلسيين وغيرها ، وألف فيها كما ألف في البصرة وتوابعها (1) .

وأخيرا نتصل بأم البلاد والعاصمة الكبرى التى حملت راية العربية وعلومها أزيد من ألف سنة ، لم تضعها من يدها ولم تكل ولم تن في حملها ، مهما اشتدت الكوارث العصبية عليها ، انها عاصمة ادريس فاس العريقة في القدم ، والجامعة لجاليتين عربيتين نزحت احدهما اليها من الاندلس والاخرى من القيروان ، فكانت العدوتان ، عدوة الاندلس وعدوة القرويين ، وكانت جامعة هذه من اقدم جوامع العالم الاسلامى وفي هذه العاصمة رجال مبكرون من هذه الجالية عرفوا بأسمائهم ومناصبهم ، وظهر فيها أدب تنفس به ادريس الاصغر فبنوه واحفاده ، كما سجلت ذلك كتب التراجم والتواريخ وحتى كتب الجغرافية ، كما سنرى .

وبقدر ما أصيبت سجللماسة من كوارث الفاطميين ، نعمت فاس بعد تعرضها لخطرهم بالفتح الاموى واستقرار الحضارة الاندلسية بها طيلة القرن الرابع تقريبا ، وان تخلل هذه المدة هجمات فاطمية ، فكان جامع

(1) انظر مقالنا «نشأة دول الخوارج بالمغرب» نشر بمجلة البحث العلمى المدين 4 و 5 السنة 1965

القرويين يعج برجال العلم والادب لذلك العهد (1) .

وفيما يتصل بهذه المدن من رجال العلم والادب ، فاننا نكتفى ببعضهم فيما يلي :

من مدينة مليلية ، كان خلف بن مسعود الجراوى الملى ، وقاضياها احمد بن فتح الملى ، الذى كان فى علمه وادبه نظير بكر بن حماد التاهرتى معاصره .

ومن مدينة النكور ، كان الشاعر ابراهيم بن ايوب النكورى ، والعالم المتقن موسى بن ياسين ، مولى صالح النكورى ، وحسين بن فتح النكورى ، كما كان من مهاجرة الاندلسيين اليها شاعر الامارة الاحمى التلى او الطليطلى ، كما فى جغرافية البكرى .

ومن مدينة سبتة كان خلف بن على بن ناصر البلوى والشيخ محمد بن على الاموى وعتيق بن عمران الرفعى الفزارى ، قاضياها الفقيه المحدث وابراهيم بن ابنى العباس القيسى ويوسف بن حماد بن خلف الصدى ، وعبد الرحمن بن سليمان البلوى الشاعر وعبد الله ابن غالب الهمدانى ، ثم محمد بن يعلى المعافرى ، فابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضى . وهؤلاء الثلاثة مشهور ما قاله المعتمد ابن عباد فى حقهم وذكره ياقوت ، فى معجمه الجغرافى . وقد عرف للاولين شعر سياتى ذكره ، وعرف للآخر منظومة فى الكوائن والحوادث ، اشار اليها المقرئ فى ازهار الرياض ، وفيه كذلك نقل عن مقدمة ابن خلدون ابياتا من زجل الكفيف الزرهونى تشير اليه (2) .

ومن مدينة طنجة كان عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومى واحمد بن سليمان بن احمد الكناسى وعلى بن هرون القاضى بها وسليمان ابن يحيى بن سرواس الجمحى المحدث روى عنه ابو القاسم بن بشكوال بمسند الموطأ وغير هؤلاء كثيرون بتراجم الاندلسيين .

(1) انظر بحثنا المنشور فى مجلة تموزة Tamuda سنة 1956 تحت عنوان « بزوغ اللغة العربية بالمغرب » .

(2) منها قوله :

والجفر مى كتيباتا	ولى تاريخ كاتبنا وكيوانا
تذكر فى صفحها وايياتا	شق وسطيح وابن مرانا

ومن أصيلا كان أحمد بن عبد الله بن موسى الكتامي الأخذ عن ابن مسرة الاندلسي الشهير ، كما كان بها أسر عريقة توارثت العلم والادب مثل أسرة الفقيه محمد الاصيلي والد الشاعر ابراهيم وجد عبد الله الحافظ والمتكلم الاصولي النظار الشهير بتأليفه في المشرق والمغرب وهو والد الفقيه محمد الشهيير بالاندلس .

ومن مدينة البصرة كان العالم يحيى بن خلف الصدقي الذي كانت له رحلة الى المشرق ثم عاد بعلم وافر تلقاه عنه الاندلس والمغرب وتوفي بسببة ، ومنهم الفقيه الضليح أبو هرون عمران العمري ، نسبة الى عمر ابن الخطاب ذكر ذلك الحكم الاموي ، واطلع عليه القاضي عياض وأثبتته في ترتيب مداركه ، وله رحلة الى المشرق كذلك ، وكان يعاصره عالمان آخران من البصرة ، هما أحمد بن حذافة وبشار بن بركانة ، ولهما رحلة الى المشرق معه (1) .

ومن سجلهاسنة ، كان عيسى بن سعادة العالم الزاهد ، له روايات بالاندلس ورحلة الى المشرق صحب فيها القابسي وأبا محمد الاصيلي المذكور وأخذ عنه محمد بن أبي زيد الفقيه القيرواني ، ومن رجالها يحيى بن زكريا المعروف بابن الرباطي ، وجساس الفقيه الزاهد الرحالة أخذ عنه كتاب الزهد ليمان بن رزق بمدينة مجريط (مدريد) توجه الى المشرق فأخذ عن رجاله ، وسمع منه من الاندلسيين عبد الرحمن بن خلف .

(1) انظر بحثنا في مجلة تبوذة ، وترتيب المدارك لمياض ، وكتب التراجم الاندلسية ، مثل : معجم ابن الأبار ، والتكلمة له ، وكتاب الصلة لابن بشكوال ، وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرسي ، والفهرسة لابی بكر بن خير الاشبيلي وبغية الملمس للضبي ، وجذوة المتنبس للحميدى ، وصلة الصلة لابن الزبير يضاف الى هذه الذيل والتكلمة لابن عبد الملك المراكشي

الباب الاول

فيما قبل العهد المرابطي

لقد شاهد المغرب قبل قيام دولة المرابطين أحداثا جساما بدأت بالثورة على الخلافة الاسلامية بالشرق فكانت خوارج وشيعة ومعتزلة تضرب في أصقاع البلاد ثم انتهى هذا كله بقيام الدولة الادريسية (1) وان كان بسيط تلمسنا قد بقي على خروجه ونحطته المتطرفة ، كما بقي اقليم سجلماسة على استقلاله خارجيا صفريا غالبا ومالكيا في غير الغالب .

ثم كانت الفاطمية تعصف بالبلاد وتهدد دولة الامويين خارج البحار مما دفع هذه الى ان تعبر نحونا فتحتل الساحل الشمالى كله ما عدا النكور التى وقعت صريعة الفاطميين ويتقدم هذا الاحتلال الاموى نحو الداخل فيتمكن من احتلال العاصمة الادريسية فاس .

ويكون لكل من الجبهتين الفاطمية والاموية رجال وزعماء يعماسون لحساب كل منهما بل يكون من هؤلاء من يعمل حيناً لحساب الفاطميين وحيناً آخر لحساب الامويين ومنهم بعض الامراء الادارسة والزعيم الخطير ابن ابي العافية المكناسى .

وما تهدا العاصفة بعض الشيء حتى تتوزع البقعة المغربية الى امارات فيها مغراوة وبنو يفرن وغيرهما من زعماء البربر وفيها اماراة بنى حمود التى مدت سلطانها على سبنة وطنجة واصيلا وعلى بعض الاقاليم الغمارية والريفية ، الى ان يرث سلطانها هذا من مواليتهم المقربين اليهم مولاها سقط البرغواطى وابنه . فكان المغرب يحكمه جبهة من الامراء والزعماء يشبهون على عهدهم ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون البلاد الاندلسية بعد سقوط الخلافة الاموية بها . ولم يوضع حد لهذا التمزق والفوضى الا في النصف الثانى من القرن الخامس كما سنرى .

(1) انظر مقالنا « كيف أسس المولى ادريس مملكته » فى العدد 137 من مجلة « رسالة المغرب » السنة 1952

وفي معظم هذه الاحداث كان للادب بعض الاصداء الخافتة اغلبها
اصداء الشعر ودونها اصداء النثر . فمن الشعر نجد أبياتا للمولى ادريس
يتصل بعضها بسياسة الدولة وبعضها بعواطفه الخاصة . فمن الاشعار
السياسية ما كتب الى البهلول عبد الواحد المدغرى المنحاز عنه الى
ابراهيم بن الاغلب وهى معروفة فى كتب التواريخ المتداولة :

أبهول قد شمت نفسك خطة	تبدلت منها ضلة برشاد
اضلك ابراهيم من بعد داره	فأصبحت منقادا بغير قياد
كانك لم تسمع بمكر ابن اغلب	غدا آخذا بالسيف كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا	ومناك ابراهيم شوك قتاد (1)

هذه أبيات لا يهمننا أن كانت حقيقة لادريس أم نظما على لسانه إذ
المهم صدورهما أوائل القرن الثالث أو أواخر الثانى ، ويتصل بهذا بيتان
قالهما عن ارتجال — كما قيل — وهو اثر معركة خاضها :

ليس أبونا هاشم شد أزره	وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا	ولا نشكى مما يؤول الى النصب (2)

ومن الاشعار المتصلة بعواطفه الخاصة هذه التى قالها متشوقا الى
اهل بيته كما فى الحلة السراء لابن الابار :

لو مد صبرى بصبر الناس كلهم	لكل فى روعتى أو ضل فى جزعى
وما أريع الى يأس ليسلمنى	الا تحول بى يأس الى طمعى
وكيف يصبر مطوى هضائمه	على وساوس هم غير منقطع
إذا الهموم توافت بعد هجمته	كرت عليه بكأس مرة الجرع
بان الاحبة واستبدلت بعدهم	هما مقيا وشبلا غير مجتمع
كأننى حين يجرى الهم ذكرهم	على ضميرى مخبول من الفزع
تاوى همومى اذا حركت ذكرهم	الى جوانح جسم دائم الهلع

وينسب لابنه القاسم اشعار كذلك ، وتابعهما فى هذا ابناؤهما
واحفادهما .

(1) روض القرطاس لابن أبى زرع .

(2) البكرى وروض القرطاس كذلك واعمال الاعلام .

ومهما يكن ، فان امراء ادارسة قالوا شعرا ، فكانوا كبنى امية في
الاندلس ، مبكرين بالحركة الادبية ، وهكذا كان ادريس والقاسم ثم ابناؤهما
او احفادهما ، مثل ابراهيم بن الحسن ، الذى ومد على الخليفة الاموى
المستنصر عام ثلاثة وستين وثلاث مائة ومعه ولده محمد ، فاقاما بالاندلس
الى ان غدر ابن ابي عامر بالحسن بن جنون ، فقال ابراهيم يهجو به هذه
الابيات :

فيمما ارى عجا لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى لا كذب مقلتى فيمما ارى	حتى اتول غلظت فيما احسب
ايكون حيا من امية واحد	ويسوس هذا الملك هذا الاحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج	اعواده فيهن قرد اشهب
ابنى امية اين اقمار الدجى	منكم وما لوجوهها تتغيب (1)

ومن الاوائل سعيد بن هشام المصمودى القائل ، كما في المغرب للبكرى
والبيان المغرب لابن عذارى والعبر لابن خلدون ، منددا بالبرغواطيين وما
نالهم بموقعة بهت ، التى خاضها ابو غنير فى قتال الادارسة او مع ادريس
خاصة فى اوائل القرن الثالث وتوفى عام 320 :

قفى قبل التفرق فاخبرينا	وقولى واخبرى خبرا يقينا
هموم برابر خسروا وضلوا	وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبى ابو غفير	فاخزى الله ام الكاذبيننا
الم تسمع ولم ترى يوم بهت	على اثار خيلهم رنيننا
رينن الباقيات بهم ثكالى	وعارية ومسقطه جنينا
سيعلم قوم تامسنا اذا ما	اتوا يوم النشور مهيميننا
هنالك يونس وبنو ابيه	يوالون البوار مهطعيننا
اذا وريا ورى رمت عليهم	جهنم قائد المستكبرينا (2)
فليس اليوم ردتكم ولكن	ليالى كنتم متميسرينا (3)

(1) البيان المغرب لابن عذارى

(2) ورد هذا البيت فى نسخة من العبر هكذا وفى نسخة اخرى يختلف عنه ولا يستقيم وزن
مصراعه الثانى .

(3) يعنى بتميسرين الانتساب الى ميسرة الحقرى الصفرى الناصر عام 122 والمصمودى لعله
من مصبودة القصر الصغير .

ولأبراهيم بن أيوب النكوري أبيات حفظت له في مدح الامراء الادارسة
— كما يبدو — وهى (1) :

أيا أملى الذى أبغى وسولى	ودنياى التى أرجو ودينى
أحرم من يمينك رى نفسى	ورزق الخلق من تلك اليمين
ويحجب عن جبينك طرف لحظى	ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامه من نكور	إليك بكل ناجية أمون

وفى أواخر هذا القرن وأوائل الرابع وقد تحرك الفاطميون وصاروا
يكتسحون البلاد جرت بين شعرائهم وشعراء النكور نقائض ، تسجلها لهم
التواريخ ، كما فى البيان العرب والمغرب للبكرى والعبر كذلك فقد كان
عبيد الله كتب الى اهل المغرب عامة يدعوهم الى الدخول فى طاعته ، وكان
من جملة من كتب اليهم سعيد بن صالح الذى وصل اليه الكتاب مذيلا
بهذين البيتين :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم	وان تعدلوا عنى ارى قتلكم عدلا
واعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم	وادخلها عنوا وأملأها قتلا

فامر سعيد الاحمى التطيلى شاعره بنقض البيتين فقال ، وكتب
بهذه الأبيات اليه :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا	ولا عرف الرحمن من قولك فضلا
وما أنت الا كافر ومنافق	تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العيا لدين محمد	وقد جعل الرحمن همتك السفلى

ولما سقطت نكور وخر صريعا صاحبها الامير سعيد ، قال شاعر
العبيديين (2) :

لما طفى الارذل وابن الارذل	فى عصابة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معلى	أتاه محتوم القضاء الفيصل

(1) البكرى وغيره .

(2) الأرجوزة لأحمد بن المروذى كما فى البكرى والغالب انه لم يكن مغربيا ويذكر بانه شاعر
العبيديين أو يهمل ذكره بتاتا

من الاله المتعالى الاعدل فحل أرضا طالما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكلكل وجاء رأس رأسها المبذل
على القنا من الريح الذبل ذا لمة شعناء لم تقتل
ولحية غبراء لم ترجل

وفي اواسط هذا القرن تنبأ رجل من غمارة يدعى حاميم ، فقال فيه
شاعر من طنجة ، منددا به وبأصحابه (1) :

وقالوا افتراء ان حاميم مرسل اليهم بدين واضح الحق باهر
نقلت كذبتكم بدد الله شملكم فما هو الا عاهر وابن عاهر
فان كان حاميم رسولا فأننى بمرسل حاميم لاول كافر
روى عن عجز ذات افك كهينة تجاوز في أسحارها كل ساحر
أخاديت افك حاك ابليس نسجها يسرونها والله ببدى السرائر

ومن شعر ابراهيم الاصيلي قصيدة قالها في بنى زياد من هوارة الذين
كانوا يقطنون بجوار اصيلا ، ذكر منها ابن عذارى هذين البيتين :

سقى غريبى أرض بنى زياد سحائب ما يجف لها غروب
ولا زال النعيم يعم قوما ازأؤهم من الشرق الكثيب
وقوله في فاس كما عند البكرى وياقوت باختلاف بسيط :

دخلت فاسا ولى شوق الى فاس والجبن ياخذ بالعينين والراس
فلمست ادخل فاسا ما حييت ولو أعطيت فاسا بما فيها من الناس
ولابن بياع السبتى في ناقته :

وردت بها التنوفة وهى بدر فلم اصدر بها الا هلالا (2)
وللكاتب أبى بكر بن عطاء كاتب صاحب مبنة الحاجب بهاء الدولة
وكاتب أبيه قبله (3) :

سأمنع قلبى ان يكون لكم مثوى وأستدفع البلوى وأستصرف اللهوا

(1) البكرى وابن عذارى وهو كما في البكرى عبد الله بن محمد المكثوف الطنجى .
(2) الدخيرة لابن بسام .
(3) المطرب لابن دحية .

وما سرنى بعد الرضا اذ غدرتكم وغادرتكم بين الحشى هضبتى رضوى
وصيرتم العتبى عتابا فكلما ابثكم شجوى تزيدوننى شجوا
تضى الله ان اتصى واصفيكم الهوى وغرى يستدنى وان كان لا يهوى
وما كان ظنى قبل ذا ان حاسدى بمنهلكم يروى وانى لا اروى
وما جلت البلوى علي وانما شماتة اعدائى اجل من البلوى

ولابن غازى الخطيب احمد بن سعيد فى ناقة :

حرف كمثل الصاد الا انها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدرد قدره الله منازلا فى الافق حتى عاد كالمرجون

ولعله اخذ هذا من قول المعرى :

ولاح هلال مثل نون اجادها بجارى النضار الكاتب ابن هلال
مع قوله :

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدال يؤم الرسم غيره النقط
والعرب تشبه النون بالاهلة والرائى هو الراكب الذى يضرب رثتها
والدال هو السفين . فاستغل ابن غازى هذا كله كما يبدو لنا . والبيت
الثانى فيه توارد مع ابن بياح . (1) .

ولابن القابلة السبتي عبد الله (2) :

الشيب فى مفرتى حلا وعقد عهد الملاح حلا
وكان كالابنوس راسى فاحتله عاجه فحلا
وحرمت وصى الفوائى وقلن قتل العميد حلا

ولا شك انه قصد فى هذه المتشابه بكلمة « حل » :

وله :

(1) أما البيتان الواردان فى كتابنا « الادب المغربى » منسوبين لابن مرانة المذكور آنفا ، فليسا
له وانما هما للمنصى أبى الحجاج نعننى بهما :
انظر السى بهجة بليونش وحسن ذاك المنظر اللامع
تحكى الثريا عندها اسرجت بليلة الختمة فى الجامع
وهما مذكوران فى « ازهار الرياض » كما ذكر له ميه ستة ابيات فى الموضوع .
(2) كذلك واحله من الذخيرة التى عقد فيها فصل لذكره .

يارافيا قطع كل ثوب ويا رشا حبه اعتمادى
عسى بخيط الوصال ترنو ما قطع الهجر من فؤادى
وله (1) :

ووجهه حبيب رق حسن أديمه يرى الصب فيه وجهه حين ينظر
تعرض لى عند اللقاء به رشا تكاد الحميا من محياه تقطر
ولم يتعرض كى أراه وانما أراد يرينى أن وجهى أصفر (2)

وفى النفع عن الذخيرة ، أن ابن بسام اجتمع مع ابن عبادة وابن
القابلة السبتي بالمرية ، فنظر الى وسيم يسبح فى البحر ، وقد تعلق بسكان
بعض المراكب ، فقال ابن عبادة ، أجز :

انظر الى البدر الذى لاح لك

فقال ابن القابلة : فى وسط اللجة تحت الحلك
قد جعل الماء سماء له واتخذ الفلك مكان الفلك
وانشد له ابن بسام كذلك يصف القتلى :

تركنهم نهب الفلاة ووحشها شعورهم شعث وأوجههم غبر
تظل سباع الطير عاكفة بهم على جثث قد سسل أنفوسها الذعر
وقد عوضتهم من ثبور حواصلها فيا من رأى ميتا يطير به قبر
ومن شعر يحيى ابن الزيتونى الفاسى قوله فى استنجاز الوعد من
المعتضد بن عباد : (3)

سفينة الوعد فى بحر الرجا وقفت فامنن بريح من الانجاز يجريها
ومن شعر أبى بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى السبتي فى صفة
متجن : (4)

(1) شرح المقامات للشريشى . والابيات فى الذخيرة : ووجه محبى ...

(2) كذلك وعنوان المرقصات لابن سعيد .

(3) الذخيرة لابن بسام .

(4) طوق الحمامة لابن حرم وفيه يصفه بأنه كان شاعرا مقلدا .

سريع الى ظهر الطريق وانه الى نقض اسباب المودة أسرع
يطول علينا أن نرقع وده اذا كان في ترقيعه يتقطع
وهكذا قد راينا فيما تقدم ان الشعر المغربي ، تدخل في الحوادث
السياسية والصراعات العقدية ، ومعنى هذا أن الجو المغربي كان تابلا
للاستفادة من هذه الصرخات أو الدعايات الشعرية ، وأن الدول والافراد
استعملت هذا السلاح ، كما كان يستعمل تماما عند العرب أنفسهم في
جاهليتهم واسلامهم ، وهى ظاهرة يستبشر بها ، ولا شك أنها كانت تد
تحقق أهدافها وتراعت أبعادها .

وان كنا قد لاحظنا بساطة في تلك النماذج ، وبعض التعبيرات التى
تتكرر فيها ، مثلا وجدنا :

فقلت كذبتكم بدد الله شملكم فما هو الا عاهر وابن عاهر
لعبد الله الكفيف الطنجى .

وفى نفس التاريخ أو قريب منه ، وجدنا :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا وما انت الا كافر ومنافق
لشاعر الامير سعيد بن صالح ، ثم وجدنا :

لما طغى الارذل وابن الارذل فى عصابة من الطفاة الجهل
لشاعر العبيدين بعد ما قضوا على الامارة .

فهذه طريقة عامية ، متبعة فى سباب الغوغاء ، ومع هذا فان الشعراء
كانوا يسلكونها للتأثير على الشعب الذى كان يتأثر بها ولا بد ومهما يكن ،
فتلك اصداء كانت تتردد فى تلك الظروف ، منبعثة عن المعارك الطاحنة
والتيارات المتصادمة .

وقد تقدم ما نسب للمولى ادريس بن اشعار ، ويذكر الاصفهاني فى
مقاتل الطالبين أنه كان فارسا شجاعا جوادا شاعرا وكذا أبو الفدا
اما نشره فمنه الخطبة التى خطبها اثر بيعته كما نجد فى روض
القرطاس وغيره .

ومن النماذج النثرية في هذه الحقبة الزمنية ما صدر عن ابن أبي العافية من رسائل موجهة الى عبد الرحمن الناصر وهي مثبتة في الجزء الخامس من المقتبس مخطوطة الخزانة الملكية .

وبعد فقد اشرنا خلال ما تقدم الى العلائق الادبية التي كانت بين تلك الامارات وغيرها من البلاد الاندلسية والافريقية وغيرها . وفي هذا الصدد نثبت ما قيل في بعضها من اشعار وافدة او قارة بها فمن ذلك قول بكر بن حماد التاهري وهو في طريقه الى البصرة مخاطبا اميرها احمد بن القاسم ابن ادريس :

ان السماحة والمروءة والندى	جمعت لاحمد من بنين القاسم(1)
واذا تفاخرت القبائل وانتمت	فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلى	وعلى العضب الحسام الصارم
انى لمشتاق اليك وانما	يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث الى بمركب اسمو به	على اكون عليك اول قادم
واعلم بانك لن تنال محبة	الا ببعض ملابس ودراهم

فبعث اليه كما يقول ابن عذارى ببغلة سنية وصلة جزلة ، وكان له فيه امداح كثيرة ، وهو الذى استجلب هذا الشاعر ، كما قال البكرى في « المسالك والممالك » وفيه ان له علما وقدرًا بالمغرب وكان يعرف بالكرتى نسبة الى « الكرت » ، حيث كانت البصرة ، كما يقول بعضهم ويبدو انه صار شاعر الامارة فقال في بعض احداثها كما نجد في قوله لابي العيش في وقائمه :

سائل زواغة عن طعان سيوفه	ورماحه في المعارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها	والخيل تمرغ في الوشيح الذبل
غشى مغيلة بالسيوف مذلة	وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وكانت لابي العيش - كما في البيان المغرب - مدينة تلمسان وما والاها يسكنها مثل زواغة ونفزة .

(1) أخذ هذا الامتاع من قول حمزة بن بيض الحنلى في رثاء محمد بن القاسم :
ان السماحة والمروءة والندى لحمد بن القاسم بن محمد

ومن تاهرت أيضا أنى قاضيها أحمد بن فتح فمدح عيسى بن إبراهيم
ابن القاسم بشعر قال فيه :

ما حاز كل الحسن الا قينة	بصرية في حمرة وبياض
الخمير في لحظاتها والورد في	وجناتها هيفاء غير مفاض
في شكل مرجى ونسك مهاجر	وعفاف سنى وسمت اباض
تاهرت انت خلية وبرية	عوضت منك ببصرة فاعتاضى
لا عذر للحمراء في كلفى بها	او تستفيض بأبحر وحياض
ما عذرها والبحر عيسى ربهما	ملك الملوك ورايض الرواض

ويبدو أن هذا الشاعر كان يطوف بالمغرب ويتردد على عواصمه ،
ولهذا نجد له أبياتا أخرى في هجو فاس ، كما أثبتتها البكرى في المسالك
والممالك ثم ياقوت في معجمه .

وعلى الجملة فإن الشعر في هذه الجهات كانت له أصداء قوية ، ويذكر
أن شاعرا أتى فسكن في حصن كان مقاما على وادى ورغة فحمن الى
موطنه وقال :

ألا هل أتى أهل المدينة أننى	بورغة بين الاعجمين غريب
إذا قلت شيئا قيل ماذا تريده	لهم بين أحرار الوجوه قطوب

فالشاعر كما يبدو أتى الى المغرب من المدينة المنورة ، فهو من أولئك
الوافدين عليه من خارج افريقيا والاندلس . وشعره هذا يذكرنا بما قاله
المتنبى في شعب بوان ، وهو على كل حال ينبئ بها كان للادب والشعر
خاصة من نفاد في هذه الجهات وشيوع بها فمن الاندلسيين محمد بن اسحق
المعروف بالبجلى صاحب البيتين في مدح عدوة القرويين وهما :

يا عدوة القرويين التى كرمت	لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سرى الله عنك ثوب نعمته	أرض تجنبت الأثام والزورا

وهذا الشاعر كان قد هجا الأمير جنون القاسم بن إبراهيم المعروف
بالرهونى ابن محمد بن القاسم بن ادريس باهاج كثيرة كما يذكر البكرى
ويأتى ببعض أبيات منها .

وكان بيت ابراهيم الادريسي بيت علم وادب وكان ابنه أحمد — كما يقول البكري — عالمهم فكان يحفظ السير والتواريخ نسابة عاقلا حليما مبجلا وكان يعرف بأحمد الفاضل كما كان أحمد الأكبر بن القاسم له علم كذلك وكان يشهد مجلس يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس العلماء والشعراء وكان من جلسائه أبو أحمد الشافعي الذي قصده من المشرق لا محالة وكان ممن يتكلم عنده في العلم وكان له عديد من النساخ والوراثين ينسخون له كما كان ينتجعه الناس من الأندلس وغيرها فيحسن الى جميعهم وينصرفون عنه أكرم منصرف ، كما يقول البكري الذي ذكر أن هذا الأمير كان أهل فاس قد بايعوه فاقام بها مدة الى أن قدم بمصالة بن حبوس فتقدم الى مدينة الزيتون وكانت قاعدته قبل دخول فاس فخرج اليه وبعد حرب طاحنة انهزم وحمل الى المهديّة حيث هلك بها سنة 334 .

ولما استولى عبد الرحمن الناصر على سبّعة قال الخالدي معاصر ابن عبد ربه :

بسيّفك دانت عنوة وأثرت	بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها اذ تقربت	ولا حليت بالزى لما تحلت
ولكن أزالّت راسيات عقودها	عزائم لو ترمى بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مؤيد	تدال بحمد الله من شر دولة
فهذا أوان النصر منها وهذه	بشائره تروى الانام بسبّعة (1)

وفيما بعد هذا القرن وجدنا ابن دراج يقصد بنى حمود فينشد في المناسبات وفي غيرها اشعاره فيها مثل لاميته الفائقة التي اشاد بها ابن بسام في ذخيرته ومطلعها :

لعلك يا شمس عند الاصيل	شجيت لشجو الفريب الذليل
فكوني شفيعي لدى ابن الشفيع	وكوني رسولي لدى ابن الرسول

(1) هذا من ناحية الأندلسيين في ذلك الصراع مع الفاطميين أما بجانب هؤلاء فإن ابن هانيء شاعرهم تناول كثيرا من مواقفهم في المغرب كما نجد ذلك في ديوان شعره خصوصا بعد اتصاله بحوهر الصقلي .
وفي جمهرة الاسباب لابن حرم إشارة الى بعض الاتصالات الأندلسية بترك الامارات وأن عمر بن حفصون كان يخطب لإبراهيم صاحب البصرة وقد نشرنا سنة 1962 بمجلة تطوان جواب من العلاقات الأموية الأدرسية .

ومثل رائيته التي قالها بمناسبة مولود لهم ومطلعها :

هلال بنور السعد والحق مقمر اهل على الاسلام الله اكبر
وبعده كان شاعر آخر من الاندلس يؤم هؤلاء الحموديين وينشدهم
نونية طنت في أرجاء المعور وهو ابن مقان الاشبوني القائل فيها :

وكان الشهبس لما اشرقت	فانثنت منها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على	ابن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو هيبة لكنه	خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه	ادخلوها بسلام آمنين
وينادى الجود في آفاقه	يمموا قصر أمير المؤمنين

أما الشعراء المغاربة الذين وضعنا يدنا على نزر من تراثهم فان ابن
القابلة منهم يكون اشهرهم على الاطلاق وهو وحده الذى خصه بعنايته ابن
بسام من بين المغاربة حيث جعل له فصلا — كما تقدم — وساق نبذا من
شعره وأخباره على سبيل الاستحسان .

الباب الثانى :

العهد المرابطى

كان المغرب فى القرن الخامس وأواسطه بالخصوص ينعم بشىء من الاستقرار والنظام ، وان لم يخل من بعض الفتن والحروب بين الاقاليم بل حتى فى الاقليم الواحد .

لكنه بالرغم من هذا كله أصبح يضم بعض الامارات التى تنسم بسماوات الدول ، مثل امارة مغراوة بفاس و امارة بنى يفرن بسلا و امارة بنى حمود فى سبتة وطنجة واصيلا ثم امارة سقوط البرغواطى وابنه فى سبتة وطنجة كذلك .

وكانت لهذه الامارات صلات فيما بينها يطبعها النظام فى غالب الاحيان، فعرف المغرب امنا داخليا وسيادة لا ينازعه فيها منازع ، على العكس مما كانت عليه الاندلس آنذاك ، حيث كات الصلات بين ملوك طوائفها صلات العداء والحروب ، التى مهدت لها الفتنة المعروفة بالفتنة البربرية والتى اطاحت بالخلافة الاموية ، فوجدت النصرانية ثغرات فى الكيان الاسلامى تسربت اليها ومكنت لها فى عدة جهات و امارات منها ، فكان لهذا كله عامل قوى دفع الاندلسيين الى الهجرة وتطلعت أعين هؤلاء الى المغرب الذى نال نصيبا من حضارتهم وثقافتهم .

يضاف الى هذا هجرات القروانيين الذين اكتسحت بلادهم موجات من الاعراب المخربين فقصدهم المغرب ، وكان منهم الحصرى الضرير وعاصرتها هجرات الصقليين الذين تعرضت جزيرتهم الى الغزو النورماندى، فكان منهم ابن حمديس الصقلى الذى لجأ الى المغرب واقام به برهة من الزمن عاد بعدها ، بخلاف الحصرى الذى استقر به نهائيا ونوى بطنجة .

وأخيرا كانت اول دولة كبرى ينعم بها المغرب ، فتضم هذه الامارات وتجمع شتاتها وتمد فى بقعة مملكتها التى خلصت المغرب من هذا التمزق كما خلصته من تلك الامارة المبتدعة الضالة التى كانت شوكة فى جنب المغرب

الاسلامى عانى منها آلاما ممضة طيلة أربعة قرون وهى امارة البرغواطيين
ولم تكف هذه المملكة بضم شتات المغرب بل وجدناها فى الربع الاخير
من هذا القرن تضم تحت جناح لها الاندلس وتخلصه من ذلك التمزق وتدفع
عنه عادية النصرانية الفتاكة .

تلك هى دولة المرابطين التى هرع اليها كتاب الاندلس وشعراؤه
منعم المغرب بعهد الزاهر وقطف ثمار الثقافة الاسلامية وهى يانعة
الازهار طيبة الثمار .

فى هذا القرن كان الحصرى يتردد على سبتة وطنجة وكان ينشد
قصائده الطوال ، كما كان يتردد على مدن المغرب ابن حمديس الصقلى
فينظم الاشعار مخاطبا ومادحا ، ويختم هذه الحلقة المفرغة المعتمد ابن
عباد فينظم الاشعار كذلك ويتأوه فى بعضها ويرسل صيحاته فى أرجاء البلاد
فتتردد أصداؤها فيها وتستتر تلك الاصدااء حتى بعد وفاته فيما قال الشعراء
فى محنته وأنشدوه على قبره .

بعد ما كان الحصرى يقرئ بسبتة التى توفى له بها ابن كما توفى
له آخر بدانية فقال فى مطلع قصيدة :

استودع الله لى بدانية وسبتة فلذتين من كبدى
كما يتول فى مطلع اخرى :

ابنى مذ منحتك سبتة للعلا لم يرضها يحيى ولا ادريس (1)
وفى اقامته بطنجة قال فى مطلع قصيدة :

سئمت حياتى والمقام بطنجة كأن بلاد الله غير عراض
والمعروف أنه كان بها لما جاءها المعتمد فى طريقه الى منفاه وانه
قصده بشعره مستجديا فقال المعتمد الابيات المعروفة :
شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب ابعد مذهب

(1) يريد يحيى وادريس ابنى على بن حمود الذى كان سليمان الاموى - وهو المستمين -
قد اقطع سبتة وأخاه القاسم طنجة وأصيلة مع الجزيرة الخضراء .

سألوا العسير من الأسير وانه بسؤالهم لاحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخميلة طلى الحشا ساواهم في المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان نادى الصريح ببابه اركب يركب(1)

وكان الحصرى بطنجة منذ عام 483 الى وفاته . وغير هذه الابيات التي قالها المعتمد في المغرب فهناك عشرات المقطوعات التي قالها فيه وفي عدة مناسبات تربو على الثلاثين قطعة وتقارب ثلاث مائة بيت وكان الشعراء يقصدونه من الاندلس وغيره اما ابن حمديس فقد تردد على عدة مدن مغربية مثل اغمات وسلا وسبتة ولازم المعتمد في اغمات وكان قد مدحه ومدح المرابطين ويطولاتهم في الاندلس . ومن الذين مدحهم بالمغرب قاضي سلا ابن القاسم بلامية فريدة يقول فيها :

لقد بهرت شهب الدرارى منيرة مآثر منكم لا يكأثرها الرمل
ورثتم تراث الجد من كل سيد على منكبيه من حقوق العلا ثقل
فمن قمر يبقى على الافق بعده هلالا ومن ليث خليفته شبل
واصبح منكم في سلا الجور اخرسا وقام خطيبا بالذى فبكم المعدل

كما قال في المرابطين :

بنو الحرب غدتهم لبان ثديها وما استعذبوا منهن الا العلاتما
يحثون للهيجاء جردا سلاهبها وينضون في البيداء بزلا صلاهما
اذا طعنوا بالسهمرية خلثهم ضراغم تفرى بالقلوب اراقما
وان كر منهم ذو لثام مصمم غدا لقم الهيجاء بالسيف لاثما

وأشاد بيوسف بن تاشفين في عدة قصائد له مدح بها المعتمد بن عباد .

كل هذا يعيننا من غير المغاربة اذ كانت أصدأه تتجاوب ولا شك بينهم وتنعكس عليهم فيكون لها وقعها في هذا المحيط الذي ينجلي فيه اديبان عظيمان كان أحدهما قاضيا لطنجة وكان الآخر قاضيا لسبتة هما ابن زنباع وعياض والاول لا نعرف عنه الا ما ذكره ابن خاتان في قلائده من ترجمة

(1) ليستناد من هذه الابيات ، ان طنجة على اول عهد المرابطين بها كانت تضم شعراء ، تصدوا (كلهم) المعتمد ، وأن المغرب غيرها كان له شعراء أيضا ، تصد منهم من تصد المعتمد ، في تلك الحادثة التي كانت عام 484 .

مركزة في فقرها وأسجاعها ثم ما ذكره ابن القاضى عياض في التعريف بأبيه وأنه امتدت به حياته فكان ممن يقارضه الشعر عياض وهو قاضى سبتة في أبيات عتاب ذكرها له ومعنى هذا أنه عاش في أواسط القرن السادس ولم يميت ، كما قال بعضهم ، عام ثلاثة وخمسة مائة .

وعلى كل حال فالآثار الادبية التى بيدنا انما هى مما سجله له الفتح فى كتابه المذكور (1) ، وقد قال فيه ما يلى :

ملئ حياءً وقنئ استحياء ، طود سكون ووقار ، وروضة نباهة
يانعة الازهار ، وسمت صفحات المهارق غرره ، وانتظمت بلبات المغارب
والمشارق درره . ان نطق رايت البيان منسربا من لسانه ، والاحسان منتسبا
لاحسانه . حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى
تصاندها وأرجازها ، وعلم اطالها وآيجازها . وهو فى الطب موفق العلاج ،
واضح المنهاج وله نظم تزهى به نحور الكعاب ويستسهل الى سماعه سلوك
الصعاب . وقد اثبت منه ما تجتليه ، فتستحليه ، وتمثله ، فتثقله ، فمن
ذلك قوله : (فى الربيع) :

ابدت لنا الايام زهرة طيها	وتسرلت بنضيرها وقشيها
واهتز عطف الارض بعد خشوعها	وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت فى عنفوان شبابهها	من بعد ما بلغت عتق مشيها
وقفت عليها السحب وقفة راحم	فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعمجت للازهار كيف تضاحكت	بكائها وتبشرت بقطوبها
وتسرلت حلا تجر ذيولها	من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد اجاد المزن فى انجادهها	واجاد حر الشمس فى تربيها
ما انصف الخرى يمنع طيها	لحضورها ويبيحه لمغيها
وهى التى قامت عليه بدفئها	وتماهدته بدرها وحليها
فكأنه نرض عليه موقت	ووجوبه متعلق بوجوبها
وعلى سماء الياسمين كواكب	ابدت ذكاء العجز عن تغييرها

(1) وقد ورد ذكره فى الخريدة بابن ببايع كما ورد كذلك فى البصير لابن القاضى عياض فان لم يكن ذلك تحريفاً فانه المذكور بالذخيرة التى جعلته سبتيا واثبت له البيت الذى لم يرد بالفلاند وسبق ذكره بالباب الاول .

زهر توقد ليلها ونهارها
 فضلت على سير النجوم بأسرها
 فتأرجت أرجاؤها بهبوبها
 وتصوبت فيها فروع جداول
 تطفو وترسب في أصول ثمارها
 فكانما هي موجسات أساود
 فأدر كؤوس الانس في حافاتها
 فحديث اخوان الصفاء لذاذة
 واركض الى اللذات في ميدانها
 أعريت خيلك صيفها وخريفها
 او ما ترى الازهار ما من زهرة
 والطير قد خفتت على أفنانها
 تشدو وتهتز الغصون كأنها
 وتفوت ثأو خسوفها وغروبها
 وسروها في الخلفتين وطيبها
 وتعاقت ازهارها بنكوبها
 تتصاعد الابصار في تصويبها
 والحسن بين طفوها ورسوبها
 تنساب من انقابها للصوبها
 واجعل سدود القول من مشروبها
 تجنى ويؤمن من جناية حوبها
 واسبق لسد ثغورها ودروبها
 وشتاءها هذا اوان ركوبها
 الا وقد ركبت فقار قضيبها
 تلقى فنون الشدو في أسلوبها
 حركاتها رقص على تطريبها

ونلاحظ على هذه القصيدة أن أثر الاندلس قوى فيها وان بعض الاشياء التي اهتم بها الاندلسيون مذكورة في تلك القصيدة مثل الخيري الذي يتردد ذكره كثيرا في شعر الاندلسيين .. كما نجد ظاهرة اخرى ، وهي استغلال بعض المصطلحات العلمية التي برع شعراء الاندلس في استغلالها بأشعارهم مثل ابن زيدون وابن دراج وابن هانيء وابن عبد ربه وغيرهم ولم يكن استغلالهم هذا مما يستثقل في أشعارهم كما كان في شعر غيرهم . (1)

واذا كان للقرآن الكريم أثره البالغ في ادبنا ، منذ نشأته الى يومنا ، بحكم كونه البداية الاولى في تعليمنا ، فان هذه القصيدة الجميلة استعارت ابياتها الاولى صورا من القرآن ، من مثل قوله تعالى : « وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج » وقوله « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيى الموتى » وقوله « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وأن كانوا من قبل

(1) ولاشك أننا لمسنا شيئا من ذلك في النماذج الشعرية الواردة بالبواب الاول.

أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى اثر رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى « كل ما هناك » انه حول الاسناد مجازا فجعله للارض بدل العباد ، وانه اشتق « راحم » من اثر رحمة الله ، اشتقاقا مطابقا في معناه ، فلم يات بالصفة المشبهة بل باسم الفاعل ، وانه جعل السحب تبكى ، بدل أن يخرج الودق من خلالها . (1)

سوى هذا فاننا نلاحظ على القصيدة ، أن الشاعر فيها عمد الى بث الانسانية في وصفه لمظاهر الطبيعة ، فالايام قد تبدت وهى متسريلة بحلها ، والارض قد تملكها البهجة ، فاهتز عطفها بعد خشوعها ، وبدت النعماء على محياها بعد شحوبها ، وتطلعت الى الحياة فعدت الى عنقوان الشباب ، بعد ما كانت قد بلغت عتى المشيب ، وذلك بفضل هذه السحب التى ادركتها الشفقة عليها والرافة بها ، فوقفت عليها وقفة راحم ، باذل لرحمته منقذ للضعيف والعانى ، يحس بألمه ولوعته ، وبكت لها بعيونها وقلوبها ، وفى هذا التعبير ملائمة ، بين السحاب كائنات وبينها كالسحاب فى آن ، فهى تبكى بالعيون شأن الانسان وهى تبكى بالقلوب التى يخرج الودق من خلالها ، ثم لا يكتفى بهذا الوصف الانسانى ، حتى يحشر نفسه فيه ، واذا به يتعجب لهذه الازهار ، كيف تضاحكت ببكاء تلك السحب ، وكيف تبشرت بقطوبها ، وكيف ظهرت بزينتها متسريلة حلها تجر ذيولها زهوا ، بما فعلت فيها تلك السحب من لدم وشق جيوبها ، وهنا أيضا يقترب الى الحقيقة فى تصويره الانسانى ، فهذه المزن التى جاءت بها السحب ، قد اجادت فى انجاد تلك الازهار ، كما اجاد حر الشمس فى تربيتها ، ومع هذا فمن الازهار ، كالانسان عاق لأمه ، ناكرا لجميلها ، فهذا الخرى ما انصف أمه الشمس التى ربته ، فهو يمنع عنها طيبه ، اذا حضرت ، ويبيحها لغيرها اذا غابت ، وبذلك يكون الشاعر ، قد اتصل بالاخلاق ومثلها ووقف موقف المستفزع لهذا الجحود من الخرى العاق لأمه ، التى قامت عليه ، وهو طفل رضيع ، بدفئها وتمهدته بدرها وحليها ، وما أجمل تشبيهه أشعة الشمس الصافية بالدر والحليب ، وتستغرب بعد هذا من ذلك المنع الذى له ميقات ، وكما تبيت

(1) وقد تجلى الاستفلال الترانى فى الشعراء الاندلسيين السابقين كالاربعة المذكورين آنفا وقد سجلناه من اشعارهم نيبا كتبناه بمناسبة الذكرى التى كانت ستقام بالمغرب للشاعر ابن زيدون وعنوانه « بنظرة على شعر ابن زيدون » .

الصلاة ، فكانه مفروض على الخيرى المكلف ، لابد أن يقوم به ، فى وقت له موقوت ، يجب القيام به بمجرد وجوب تلك الشمس ، وبهذا لا يكتفى بالانسانية حتى يجعل لها دينا يوجب عليه صاحبها القيام بشعائره .

ثم جعل الياسمين كواكب فى سمائها ، الا أن هذه تخالف الكواكب الاخرى ، حيث ان الشمس فى طلوعها تعجز عن كشف نورها ، وبذلك فهى زهر تتوقد ليلها ونهارها ، ولا تتعرض للخصوف والغروب ، قد فضلت على النجوم بأسرها ، لظهورها ليل نهار وطيبها ثم نراه ايضا يلائم بينها أيضا كائنسان وبينها كأزهار ، فيجعل أرجاءها تتأرجح طيبا بهبوب الرياح ، ويجعلها « تتعاقب » بانصرافها عنها ثم يتصل بجداول المياه ، التى تتخللها ، فهى فى حركتها تأخذ صوبها منحدره ، بينما الابصار تتصاعد اليها فى انحدارها ، وهذه من المقابلات البديعية بين الازداد ، وهى تطفو وترسب تتخلل الاشجار المثمرة ، وما أحسنه من منظر ينعقد بين طفوها ورسوبها ، ثم يجعلها فى جريانها هذا كالاساود تفر خائفة موجسة ، تنساب من انقائها الى مضايق الجبال الوعرة والوديان .

وبعد ما يفرغ من هذا التصوير الذى جعلها كلها حركة ونشاطا ، زيادة على تلك الانسانية والتشخيص « البنورامى » احيانا عاد الى نفسه يستحثها على التمتع ببهاج الحياة فى هذه المباهج من الطبيعة ، فخطب صاحبه طالبا منه ان يدبر عليه كؤوس الانس على حافات تلك الجداول ، وان يجعل سديد الحديث من مشروب تلك الكؤوس ، لان حديث اخوان الصفا لاذة ما بعدها لاذة ، لا يعترها ما يكدرها اثما او لغوا ، وكأنه هنا استعان بالآية الكريمة : يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ثم يغرى صاحبه باللذات ، ولكنه يصوره فارسا عليه أن يقتحمها فى ميدانها ، وعليه أن يسد عليها المنافذ ، فلا يترك لها ثغرا او دربا ولا شك أن هذه الصورة ، منتزعة من الظروف الزمنية التى كان الشاعر يحياها فاستجابت لفنه فى هذا التصوير الذى يوغل فيه فيقول لصاحبه ، ان أفراسك التى تركضها ، طالما أهملتها وتركتها غير مسرجة لركوبك ، فى فصول الصيف والخريف والشتاء ، أما الآن وقد حل الربيع ، فقد جاء اوان ركوبها ، وهذا تشخيص للمعانى بهذه الافراس وغيرها ، ويزيده اغراء ، بأن الطبيعة الجميلة نفسها قد خفت لما دعاه اليه ، فهذه الازهار نفسها

كلها فارس وكلها ممتط فئار قضيبه ، كما يمتطى الفرسان صهوات جيادهم.

وليس وحده يدعوه الى هذه المذاذات ، بل الطيور كذلك تدعوه اليها ،
وهي تغرد على أفنانها ، تلقى فنون الشدو بأسلوبها فتسمعها الغموم
وتطرب لشدوها وترقص على تطريبها (1) .

ومن امداح ابن زنباع قصيدة ضادية استهلها بقوله :

أرى بارقا بالابلق الفرد يومض	يذهب جلباب الدجى ويفضض
كأن سليبي من أعاليه أشرفت	تمد لنا كفا خضيبا وتقبض
إذا ما توالى ومضه نفض الدجى	له صبغه المسود أو كاد ينفض
أرقت له والقلب يهفو هفوه	على أنه منه أحد وأومض
وبت أدارى الشوق والشوق مقبل	على وأدعو الصبر والصبر معرض
وأستجد الدمع الابى على الاسى	فتنجدنى منه جداول فيض
وأعذل قلبا لا يزال يروعه	سنى النار يستشرى أو البرق ينبض
تظنها ثغر الحبيب وخده	فذا ضاحك منه وذا متعرض
إذا بلغت منك الخيالات ما أرى	فأنت لماذا بالشخوص معرض
الى أن تفرت عن سنا الصبح سدفة	كما انشلق عن صفح من الماء عررض
وندت الى الغرب النجوم مروعة	كما نفرت عير من السيل ركض
وأدركها من فجأة الصبح بهتة	فتحسبها فيه عيونا تمرض
كأن الثريا والفروب يحثها	لجام على رأس الدجا وهو يركض
وما تيمرى فى الهتعة العين انها	على عاتق الجوزاء قُرط مفضض

فالابيات الاولى تتسم بالتقليد للقديم حتى فى ذكر البقاع بالابلق الفرد
الذى تواجهنا به لامية السموال . ولولاها لما شهر هذا « الإبلق الفرد »
ثم بذكر الاسماء ، التى وان عاش معنا بعضها ولكنه بحكم التشبث بالقديم ،
مثل «سليبي» فى البيت الثانى الذى حاول أن يتأنق فيه بهذا التشبيه الذى
ركبه على المصراع الثانى من البيت الاول على سبيل اللف والنثر المرتب ،
اذ التهذيب يناسبه الكف الخضيب عند البسط والتفضيض يناسبه عند القبض

(1) نجد شعراء المغرب قد أمججوا بهذا التصوير فصاروا يرددونه فى اشعارهم خصوصا
فى العصر العلوى .

لنصاعة البياض في صاحبه واصل الصورة من قول امرئ القيس :
أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدبين في حبلى مكلل
والبيت الرابع تنفس من البيت :
تعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأمل
وأخيراً في الأبيات الأربعة يأتى ذكر النجوم وفيها الثريا المذكورة
في المعلقة :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
كان الثريا علققت في مصامها بأمراس كتان الى صم جندل
ومعرفة مواقع النجوم وهياتها كانت لازمة للاديب والعالم الدينى ،
ففى القرآن « لا أقسم بمواقع النجوم » وفيه « وبالنجم هم يهتدون » فعلى
المفسر أن يفهم هذه المواقع وأن يدرك الاهتداء بالنجوم ، أما الادب والشعر
منه خاصة ، فيكفى أن نطلع على كتاب العمدة لابن رشيق ، فنجد فيه باباً
خصصه للنجوم ومنازل القمر (1) .

يذكر به أجزاء السنة ويتعرض للانواء وأسمائها والمنازل وما قيل
في ذلك من أوصاف وما اعتقد من اعتقادات وهذا ديوان الشاعر ابن مقبل وهو
شاعر مخضرم ، نجد فيه مهنساً خاصاً للنجوم الواردة في شعره ، الذى
تردد فيه الجوزاء والدبران والشعرى والمجرة وسهيل والسماكين .

(1) امتتحه بقوله « ولما رأيت العرب » وهم أعلم الناس بهذه المنار وأنوائها ، لأنها سقفت
بيوتهم وسبب معاشهم وانجاعتهم ، غلطوا فيها فقال أحدهم ، من الانجم العزل والرامة ،
وقال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت

فأتى بتعرض الجوزاء ، ورأيت كل من عنى بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع
المنازل مخطئاً ، لا شك في خلافه ، لأنه أما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها
لا تظهر في ليلة واحدة ، ولذلك قلت أنا احتياطاً في الليل من نسيب قصيدة ، مدحت بها
السيد أبا الحسن ، أدام الله عزه :

قد طال حتى حلتته من كل ناحيته وسط
وتكررت فيه المنازل منه لا منسى العسط

وجب أن أذكر هذه المنار وأنوائها ، واحتلال الناس فيها ، وعولت في ذلك على
ما ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي « .

وكذلك نجد ابن هانيء من شعراء الاندلس ، يتعرض في شعره لذكر
النجوم ومواقعها ، ومن أجمل ذلكم قوله في مطلع قصيدة :

بعيشك نبيه كأسه وجفونه	فقد نبه الإبريق من بعد ما أغفى
وقد ولت الظلماء تقفون نجومها	وقد قام جيش الفجر لليل واصطفا
ولت نجوم للثريا كأنها	خواتيم تبدو في بنان يد تخفى
ومر على آثارها دبرانها	كصاحب رداء كنت خيله خلفا
وأقبلت الشعري العبور مكبة	بمرزمها اليعسوب تجنبه طرفا
وقد بادرتها أختها من ورائها	لتخرق من ثني مجرتها سجفا
تخاف زئير الليث يقدم نثرة	وبرير في الظلماء ينسفها نسفا
كأن السماكين اللذين تظاهرا	على لبدتيه فامنان له حنفا
فذا رامج يهوى إليه سنانه	وذا أعزل قد عض أنمله لهفا
كأن رقيب النجم أجدل مرقب	يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
كأن بنى نعش ونعشا مطافل	بوجرة قد أضلن في مهمه خشنا
كأن سهيلا في مطالع أفقه	مفارق ألف لم يجد بعده ألفا
كأن سهيلا عاشق بين عود	فاؤنة يبدو وآؤنة يخفى
كأن معالي قطبها فارس له	لواءن مركوزان قد كره الزحفا
كأن قدامى النسر والنسر واقع	قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا
كأن أخاه حين دوم طائرا	أتى دون نصف البدر فاخطف النفا
كأن الهزيع الأبنوسى لونه	سرى بالنسيج الخسروانى ملتا
كأن ظلام الليل اذ مال ميلا	صريع مدام بات يشربها صرما
كأن عمود الفجر خاتان عسكر	من الترك نادى بالنجاشى فاستخفا
كأن لسواء الشمس غرة جعفر	رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا(1)

وهكذا نجده يتخلص الى مدوحه بعد ما أفرغ تشبيهاته في تلك
النجوم وهياتها ، وكذلك ابن زنباع كانت أبياته تلك في مقدمة مديح له
والهم أن ظاهرة النجوم في أشعار الجاهلية وما بعدها ظاهرة منتزعة من
البيئة الصحراوية ، أما ما قيل منها في غيرها فعلى التبعية .

يبقى بعد هذا كله صور التشبيه والاستعارة المتأنتة في نحو « نفص

(1) وهذا الصنيع المركز على « كان » للتشبيه في النجوم ومواقعها أصله للمهلل في تصديده
« أيلتنا بذى حسم أنيرى » .

الدجى له صبغه المسود أو كاد ينفض « وفيها إشارة من بعيد الى « ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

وفي الابيات من غير هذا القبيل ، محسنات بدعية ، من نحو الطباق في البيت الخامس منها ، ثم السادس في الدمع الابى الذى انجده بجداول فيض ، بعدما كان منه في البيت الرابع الذى نجد فيه القلب الحاد يهفو هفوه.

وفي الابيات من السابع الى آخرها ، يطغى هذا التأنيق في القلب المرتاع من سنى النار والبرق ، لانه يذكره بثغر الحبيب في نصاعة بياضه وبخذه في وهجه المتورد ، غذا ضاحك منه وهذا متعرض له ، ثم يأتى نمزق السدفة ، التى شبهها بنحو الجلباب ، على سبيل الاستعارة المكنية ، عن سنا الصبح ، كما ينشق الطحلب عن صفحة الماء النهر ، وقد هرعت النجوم مروعة نحو الغرب كأنها غير ركض نافرة من السيل ، على أن النجوم قد ادركتها بهتة من فجأة الصبح ، فهي تبدو وتختفى كأنها عيون نعالج بتمريضها ، وفي تلك النجوم ، كانت الثريا ، وقد اسنحتها الغروب ، كأنها لجام للدجى وهو يركض ، ففى هذا استعارة اخرى مكنية حيث شبه الدجى بفرس ادهم ، رشح له باللجام على الرأس وبالركض ، واخيرا اذا نظرت العين الى الهتعة ، فانها تجدها تماما كأنها قرط مفضض على عاتق الجوزاء ، فهذه الهياة لا يدركها الا الخبير بمواقع النجوم والكواكب ، وسنرى للقاضى عياض رسالة فى نحو هذا .

وعلى كل حال ، فقد وفق على اتباعه فهو يذكر أنه يرى برقاً يومض بهذا الجبل الشاهق ، وأن وميضه تعتوره الحمرة والبياض ، فهو بذلك يذهب جلباب الدجى ويفضضه ، فكأن لمعانه صادر عن حركة الكف الخضيب التى تمدها له ليمى وتقبضها ، وهى مشرفة من أعالي البرق فاذا ما توالى هذا الوميض ، فانه لا محالة يذهب بسواد الظلام ، وينفض الدجى بذلك صبغه المسود ، أو بكاد ينفضه . ولا شك أنه فى هذه الجملة على ذكر من قوله تعالى : « يكاد سنى برقه يذهب بالابصار » وهى جملة تؤدى الواقع لهذا الوميض الذى يبدو ويختفى وكذلك الظلام يختفى بدوه ويبدو باختفائه، ثم يذكر أنه ارق لهذا المشهد ، وان قلبه وجف له ، وان كان احد من هذا

البرق وأومض (1) ، وإن شوقته الى محبوبته « سليمي » التي تمثلها مشرفة من أعالي البرق ، استبد به كل الاستبداد فصار يداريه ولكنه يغلبه بقوة أقباله عليه ، ولا يسعفه الصبر الذي يدعوه ، فيعرض عنه ، فلم يبق الا أن يستنجد دبعه العصي على أساه ، فينجد به غزارة الجداول الفيض وينحى على قلبه باللائمة لكونه لا يفتأ يرتاع لسنى النار كلما اندلعت والبرق كلما نبض ، لأن النار المتوهجة تذكره بخد الحبيب المتعرض والبرق النابض يذكره بشعر الحبيب الضاحك وهنا يلتفت الى نفسه وجرده منها شخصاً يعترض عليه في كتابته للعاجه وتعرضه بالشخوص ، مع أن الخيالات قد بلغت منه مبلغها واعبت به أهواؤها ، وعاد الى قصته من حيث لم يرم مكانه فقد طلع عليه الفجر وتفتشت عن ضوءه سدفة الظلام كما انشق عن صفحة الماء النمر ما كان يغمرها من طحالب ، ويسجل عند هذا الفجر منظر النجوم وهي تجنح الى الغروب مسرعة كأنها مرتاعة ارتياح الحمر من السيل الجارف ، فهي جادة في ركوضها ، فهذه النجوم والصبح قد فاجأها بياها ضوءه قد صارت تخفى وتلمع كأنها عيون تعرضت للتمريض (2) أما الثريا منها والغروب يستحثها ، فكانها لجام على رأس فرس الدجا وهو يركض ، وأما الهقعة منها فلا تشك العين وهي تنظر اليها أنها قرط مفضض على عاتق الجوزاء .

وفي نهاية القصيدة ، سنراه يجيد في وصف الهيجاء ، وعوامل سيوفها ، وطعان رماحيها ، ووقع سنايك جيادها ، في الميدان الذي يتمدد ويتقلص بها ، وما يعتلى هذا الميدان من نقع مظلة كالسحاب ، الا أنها تمطر الصواعق ، ثم هذه الإبطال التي لزمت القتال مدة سهكت فيها جسومها تحت الدروع ، الى آخر هذه الاوصاف التي نجدها في هذه الابيات :

سل الحرب عنه والسيوف جداول	تدفق والارماح رقط تنفض
وبالارض من وقع الجياد تمدد	ولكنه فيما تروم تقبض
وبالافق للنقع المثار سحاب	مواخض لكن بالصواعق تمخض

(1) للمحة الجرمي اليمنى - وابن زبناع ينتمى الى اليمن - شادية يقول فيها :
 أرقت وطال الليل للبارق الوفض حبيبا سرى مجتاب أرض السى أرض
 وبات الحبيى الصون ينهض مقدما كهض المدانى قيده الموعث النفض
 (2) تقدم عن ابن خاتمان أن ابن زبناع كان « في الطب موفق العلاج » فيكون « التهريض » منبعا من ذلك الطب .

وقد سهكت تحت الحديد من الصدا جسوم بها علت من المسك ترحض
ومدت الى ورد الصدور عيونها صدور العوالى والعيون تغمض
وأشرفت البيض الرقاق الى الطلى لتكرع فيها والرؤوس تخفض
فلست ترى الا دماء مراقبة تخاض الي اكباد قوم تخضض

غير هذا فان حرف الضاد يتحاماها الشعراء ، او اغلبهم في قوافيهم ،
فلا نجد في شعراء الجاهلية من استعمله الا امرا القيس في قصيدة لا شك
ان ابن زنباع نظر اليها ايضا ، ومطلعها :

اعنى على برق اراه وميض يضى حبيبا في شماريخ بيض
ويهدأ نارات سناه وتارة ينوء كتعتاب الكسير المبيض
وتخرج منه لامعات كأنها أكف تلقى الفوز عند المبيض
قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين تللاع يثاث فالعريض

أما في الاسلاميين ، فنجد منهم سبعا في ديوان الحماسة لابی تمام
وخمسا للبحتري زائدا آخر هو أبو خراش الهذلى الذى وجدناه
مذكورا في الاول ، وكلهم يمنيون اجدادوا عموما وتعمد بعضهم يمينه كقوله :

قولا لهذا المرء ذو جاء ساعيا هلم فان المشرفى الفرائض
وكان عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، يفوقهم بضاديته (1) .

عصر الشبيبة ناضر غرض فيه ينال اللين والخفض
وهى ثمانية وخمسون بيتا قلدت قافيتها . وقد انتهى هذا التقليد الى
القيروان وصقلية والاندلس ، فكان من القيروانيين الحصرى وخصوصا في
مراثيه التى تكف قوافيها أما في مقلية فأحسن ما نجد لها على هذا الحرف ،
قصيدة لابن حمديس ، لا تعادلها في جمالها قصيدة أخرى على ما أعرف
وهى في نهر :

ومرو صدى الروضات يسحب دائبا على الارض منه جهلة تتبعض
اذا ما جرى واهتز للعين مزبدا حسبت به فورا من النسر ينفض

(1) و مدح خالد بن يزيد بن يزيد وقال المبرد : هو فيها أشعر من أبيه وحده .
وفى القلائد نجد ضادية لابی محمد بن القاسم مجيبا عن أخرى لابی العباس الوارد في
العليق ص 48 .

وتنساب منه حية غير أنها وتحسبه ان حبكت متنه الصبا
له رعدة تعتاده في انحداره كأن له في الجسم روحا اذا جرى
وما هو الا دمع عين كأنها اذا سرحت للسقى من كل جانب
يقيم عايتها الانس والصبح مقبل ويرحل عنها الوحش والليل معرض

وممن حاول في المغرب هذا الحرف في قوافيه ، الامير سليمان الموحّد ،
ولكن محاولته لم تتعد بيتين ثم نجد مالك بن المرحل يكلفه ضمن غيره وفي
الاندلس نجد لابن عبد ربه أبياتا أتى بها على سبيل التمثيل لثلاثة أبحر من
العروض (« أحرّم منك الرضى » « وفي الكلة الصفراء ريم أبيض »
و « وروضة ورد حف بالسوسن الغض ») ثم كان ابن دراج ينظم خمسة
أبيات ، باد عليها التكلف :

اذا سقيت أرض فقد بشرت أرض وعند عموم الكل ينتظر البعض
وجاء بعده ابن زيدون فنظم قصيدتين ، احداهما في أربعين بيتا كتب
بها الى ابن عبدوس :

اثرت هزير الشرى اذ رى ونبهته اذ هدا فاغتمض
والثانية في سبعة وعشرين يخاطب بها المعتضد ابن عباد :

غمرتنى لك الايادى البيض نشب وائر وجاه عريض
ثم كان ابن خفاجة ينظم قطعة ذات ثمانية أبيات يصف بها سرعة
ذهاب الشباب :

الا مضى عمر الصبا فانقضى وحبذا عصر شباب مضى
ولعله نظر فيها الى مقصورة ابن دريد ، وخصوصا في البيتين
الاخيرين :

لاح فنى عيني نور الهدى منه وفي قلبى نار الفضى
وأبيض من فودى به أسود كنت أرى الليل به أبيضاً

وهى أبيات قلدها على غير عادته واستمر منهم هذا التصنع الذى ختم بابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك . وكذلك الامر فى الشرق اذ قلده فيه ابو تمام والبحتري والمعري والحاي وسبط ابن التعاودى وابن سناء الملك، استمروا فى تقليدهم حتى آخرهم شوقي فى انس الوجود (1) ..

وهذه قصيدة أخرى له فى مدح وزير وقائد محنك كتب له الظفر فى بعض الفتوح :

<p>ويفخر الخط بالقنا الذيل بر الفتاة العروب بالرجل أحنى وتمهى السهام كالملق خير بين الدروع والحلل أشرقت المقربات بالنهمل قلوب أبطلهم من الوجمل ولا أطاقوا الصعود فى جبل يفرق بين الفتاة والبطل كمجرىء الغانيات فى الكلل مقام تلك اللاواظ النجل كى يسلّموا من حرارة الاسل لة من خفة الى ثقل جرى فصال سلكن فى الوحل قد أخاضت بالحديد والعمل دم وطعن كأعين الحجل ب وان كنت شاهدا فقل عنه مقام المكذب الخطل ر بلا مثبه ولا مثل وعظم الامر تم لا تسل سعودها والشموس فى الحمل</p>	<p>كذا تصان السيوف فى الخلل وتكرم الخيل فى مرابضها يعطف النبغ كالحواجب أو ويؤثر الشرة الكمى اذا فتح انارت له البلاد كما هدت له الروم هدة ملأت فما أطاقوا الولج فى نفق القوا بأيديهم ولا سبب فمجرىء الاسد فى مرابضها وربما لم تقم مناصلها تغامسوا فى الدروع زاخرة فما أفادتهم الدروع سوى النق كانهم والرماح تحفزهم جاءوا بها سبغا مضاعفة مثل عيون الدبى فصيرها هناك سل بالوزير من شهد الحر ولا تخف ان حكيت مغربة فانه الاوحد الذى نرك الدهر حدث بما شئت عنه من حسن ففضله يبهز الاهلة فى</p>
---	--

(1) ايها المنتهى ياسوان دارا كالثريا تريد ان تنقضا

وفى هذه يحارى البحتري فى قصيدته :

ايها العاصب الذى ليس يرضى نم هنيئا فليست اطعم غمنا

ويلاحظ على الشاعر أنه في أمداحه ، ان ابتعد عن مجال الوصف والنسيب ، لا يأتى فيها بجديد ، ولهذا فهو في هذه اللامية عموما متواضع . وهذه القصيدة يظهر أن شاعرنا قد نظر فيها الى قصيدة ابن هانيء الاندلسى في مدح المعز يفتتحها بقوله :

كدأبك ابن نبى الله لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول ولا شك ان قصيدتنا التى نحن بصدها ، قد قيلت في وقعة من الوقعات التى انتصر فيها المرابطون على النصارى بالاندلس ، وأن هذا الوزير كان قائدها أو من قوادها الانذاذ ، وقد بدأ ابن زنباع بالاشادة من أمرها فقال :

لئلهما تصان السيوف في قرابها ويفخر قري « الخط » بنسبة الرماح الذبل اليها ، ولئلهما نكرم الخيل في مرابضها ، وتبررور الفتاة المتحبة الى رجلها ، ولئلهما يعطف قضبان النبع لتتخذ للقسي عطف الحواجب أو أحنى من ذلك ، وتحد السهام تحديد المقل المسددة الى القلوب سهام نظراتها ، وفي مصافها يؤثر البطل شرة القتال ، فيفضل لبس الدروع على لبس الحلل الفاخرة ، انه الفتح العظيم والنصر المبين ، الذى ابتهجت له البلاد أو أشرقت أرجاؤها ، كما أشرقت تلك السيوف المقربة بنهلها من الدماء فلتقد هدت الروم بذلك هدة امتلات بها قلوب أبطالها خوفا وروعا ، فانهزموا جادين في فرارهم ، يتلمسون النجاة من هلاكهم ، ولكنهم والسيوف تلاحقهم ، لم يستطيعوا ولوج الانفاق ولا صعود شواهد الجبال فلم يكن لهم مناص من ان يستسلموا عن صفار وذلة ويستولى السبى عليهم وعلى ذريتهم فلا فرق في مشاهدتهم بين الفتاة والبطل وهنا تنبعث حاسة الشاعر ، نحو هذه الجميلات ، فيقول ان من يجرىء الاسود ويبيعها من مرابضها كمجرئ الفوانى وهن في كلها ، وان لواحق المقل ربما كانت أفنك في دفاعهن من مناصل أولئك الأبطال الاسود .

لقد تغافس جيش الروم في دروعهم الزاخرة ، ليسلموا من حرارة الرماح ، فما أفادتهم تلك الدروع الا التحول من الخفة الى الثقل فهاهم والرياح تتخطفهم كأنهم قطيع يخف مسرعا وكأنه يجرى في وحل يعوقه ، لثقل تلك الدروع السابغة المضاعفة التى أخلصت بأحديد المحكم الصنعة ، فكانت في دقة حلقاتها مثل عيون الجراد الصفار ، فصيرها الطعان النافذ

فيها كأنها عيون الحجل لاتساعها وتخضلها بالدماء .

وهذه قطعة له يفخر فيها بأصله الحميري ، كما ادعى ذلك قبله بنو صالح ، وكما سيدعيه ابو عمر الاغماتي ، وكما هو للقاضي عياض ، (وان لم نجد له افتخارا به) :

لهواك في قلبي كريقك في اغمي
فأدر على بمثلتيك كؤوسه
ان التلدد في هواك تلذذ
أحبب بحب لا بثبر ملامة
شغل النواظر والقلوب ولم يدع
ومن العجائب شغل شيء واحد
واقام أزمنة وليس بجوهر
با ايها القبر الذي انسانيه
لم أبد حبك غير أن جوانحي
لا ذنب لي علم الذي أسررت
وامرت بالشكوى اليك وانما
ولربما لم تشكني فأمتني
وتلافني قبل التلاف (1) فاننسى
الطاعنين بكل أسمر مدعس
والواردين الصادرين الى الوغى
ولعلمهم تسمو بهم هماتهم

غيرى يقول الحب مر المطعم
حتى يدب خماره في اعظمي
لو كان اقتل من ذعاف الارتم
ملئت بمولييه عيون النوم
من لم يسمه من الانام بميسم
في الحال امكئة ولم يتقسم
وجرى وليس بمائع مجرى الدم
يرمى اناسا للعيون بأسمهم
فاضت به فيض الاناء المفعم
نظرا ولم أرمز ولم اتكلم
ينمى الى الانسان ما لم يعام
يأسى فذرني تحت أمر مبهم
من حمير وسياخذونك في دمي
والضاربين بكل أبيض مخذم
لفحت بجمرتها وجوه الحوم
أن يدركوا في الظبي ثار الضيفم

اذن فالقصيدة يفخر فيها بكونه من اليمن ، ولعله يقصد أن يكون في ذؤابة الشرف منها ، سليم التي كان لها شأن عظيم في الجهاد والاستقرار بالشمال الاثريقي ، خاصة ، وسنرى فيها بعد أن أبا حفص الاغماتي ، ينظم قصيدة غزلية رائعة ، ولكنه في الواقع هدف بها الى ما هدف اليه ابن زنباع من الفخر بالاصل البهني ، وبساييم بالذات .

الا ان ابن زنباع لم يفصح بسليم ورمز له ، باستعمال يعرفه النحاة،

(1) يقول شاعر من شعراء « الزهرة » :

يولد ما يجل عن التلاسى

اذن فتلافنى من قبل ياس

وهو اجراؤهم القول مجرى الظن في العمل وان كان معناه الاعتقاد في هذا، ولا يشترطون في ذلك شرطا ، كما قال ابن مالك ، وهو ما صرح به سيبويه في الكتاب ، وسليم هذه قبيلة من جذام يمنية ، أو هي بطن من شنوءة من القحطانية .

وهذا الاستعمال نجده في أول بيت من القصيدة :

غيرى يقول الحب مر المطعم

فيقول بمعنى يعتقد ، وهو أبلغ وأنس بقوله :

لهواك في قلبى كريقك في فمى

وصنعة القصيدة انه يخاطب محبوبه بأن هواه في قلبه حلو لذيق لاذة رضابه في فمه ، فهو لا يعتقد مرارة الحب ، وهو المراد من غيرى وبذلك يستزيد من هذا الحب بأن تدبر مقلة المحبوب عليه كؤوسه فيسكر بذلك سكرا يدب خماره في عظامه ، فاللدادة في هواه لذة عنده حتى ولو كانت أقتل من سم الافاعى ، فاحبب بهذا الحب الطاهر الذى لا يبعث الملام ، وتقر به الاعين فتنام على رضى صاحبه ، وقد شغل النواظر والقلوب ولم يترك من الناس الا من لامس بصره وبصيرته ، فكانه بهذا يرمز الى الحب الالهى ، ويعجب من كونه ملاً حيزين وهو واحد بمكانه وهذا من المستحيالات الفلسفية ، التى كان يرددها علماء الكلام والتوحيد العقلى، كما انه اقام ازمئة وهو غير جوهر ، ثم انه يجرى مجرى الدم وليس بمائع، وبعد هذه التأملات يتوجه بالخطاب الى قمره الانسانى الذى يرمى الاناسى بأسهم العيون فيعتذر بأنه لم يبيع لسانه بحبه ولكن جوانحه فاضت به فيض الاناء المفعم وانه لا ذنب له في ذلك ، عام الذى امره نظرا ، فلم يرمز ولم يتكلم ، وانه قد أمر بالشكوى اليه ، وهل يشكى لمن هو عالم به مطلع عليه ؟ فلا ينمى الى الانسان ويشكى الا ما غاب عنه علمه ، ومع هذا فانه لو شكك اليه ربما لا يشكيه فيقضى حسرة ويأسا ، فخير له أن يظل في أمر مبهم بين اليأس والرجاء .

ومن هنا ينتقل الى المقصود ، فيطلب من صاحبه أن يتلافى أمره قبل أن يتلف روحه ، فهو من حمير ، وهؤلاء سياخزون صاحبه بدمه ويطالبون بشأره ، وهم الابطال الطاعنون بالرماح الضاريون بالسيوف الواردون

الصادر من الى الحروب التي تلفح الوجوه بنيرانها ، فلعلهم نسمو هماتهم ، فيدركون في الظبي ثار الضيغم ، يعنى محبوبه ونفسه .

فهذا الفخر هو المقصود ، وما قبله انما كان مقدمة على طولها ، وهذا الصنيع كان معروفا ، في الفخر والمديح خاصة ، فقد مدح ذو الرمة أحد ملوك بني أمية بتصيد طويلا ، أفاض في مقدمتها بذكر ناقته ووصفها ، وأخيرا ذكر مهدوحه في بيت ونصف ، فقال له الملك الأموي « ما مدحت الا ناقتك فخذ منها جائزتك » وكذلك وجدنا ابن زباج يمدح وزيرا بتصيدته اللامية ، فلا يذكره الا في البيت السادس عشر من القصيدة .

ويبدو من البيت الاول أنه يعنى بالخطاب « انسانا » سكره فيها بعد وقد تمثله حبيبا هام به ، فتلذذ بالتلذد في هواه ولكنه حب لا يثير لوما وأنه متمكن من القلوب مالىء للعيون وهى في سباتها كما في الحديث « تمام أعيننا ولا تمام قلوبنا » ومن هنا تجدنا في تريت من فهم هذا الحب ، وهو لم يترك انسانا الا « وسمه بميسم » ، اتراه يرمز الى الحب الالهى ، ولا يريد بالريق معناه اللغوى ؟ كما انه لا يريد بالمقلة الجارحة المعروفة ؟

هذا كان يمكن حمله على ذلك ، وينساق معه الكلام ، الى نهاية البيت السابع ، ولكن ثامن الابيات ، يضطرنا الى تاويل آخر فنرمز بالقمر للذات العلية ، ونحمل « الانسان » على « خلقها » مستانسين بالآية : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » ، وهذا ما يكون قد رمز بقوله « يرمى أناسا للعيون بأسهم » وتكون الابيات الثلاثة بعد هذا البيت ، لا غموض فيها ، وقد فسرنا قوله « وانما ينمى الى الانسان ما لم يعلم » بأن الشأن الا ينمى الى الانسان الا ما لا يعلمه ، فكيف ينمى الى الله السميع البصير ويشكى اليه ما هو به عليم خبير ، ويبقى الكلام بعد هذا منسجما ولكنه فيما يذكر بالبيت بقوله « وسياخذوك في دمسى » يصطدم بهذا التفسير الصوفى الرمزى الا ان يتكلف في تخريجه ، ويهرع الى ذلك « الانسان » الذى يستعير له « الظبي » فيما بعد ، ولو تمثيلا ، فانبتت عليه مقدمة القصيدة ، التى قصد بها الى الفخر بادىء ذى بدء .

ومن شعره قصيدة أعجب بببيت منها القلقشندى . أما القصيدة فيقول فيها :

نزاع ما أرى بك أم نزوع
يروك أو يربك كل داع
جهلت وقد علاك الشيب أمرا
ولولا ذاك ما قدرت أنى
فحسبك ، أو فحسبى منك دهر
وشوق تقتضيه نوى شطون
حملت الحب مؤتمنا عليه
لقد جثمت نفسك متلفات
وحال الصب تخضبه دموع
وقد تحمى الدروع من العوالى
ورب فتى ترع الاسد منه

والبيت الذى اشرنا اليه هو ما قبل البيت الاخير الذى تفرع عنه
فى المعنى وقد تفرع هذا من قول العباس بن الاحنف على لسان هارون
الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عنانى
ماى تطاوعنى البرية كلها
ما ذاك الا أن سلطان الهوى
وبه قوين أعز من سلطانى

وخالن من قلبى بكل مكان
وأطيعهن وهن فى عصيانى
وبه قوين أعز من سلطانى

ثم قول سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الاموى:

عجا يهاب الليث حد سنائى
فأقارع الاهوال لا متهيبا
وتملكك نفسى ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الابدان

وأهاب لحظ فواتر الاجفان
منها سوى الاعراض والهجران
زهر الوجوه نواعم الابدان

ثم قول ابن حديد على هذه الوتيرة وكرر فيها القول كما فعل ابن
زنباع : وبعدهما قال فى ذلك سليمان الموحد ثم المنصور السعدى فابنه
زيدان كما سيأتى فى محله .

وابن زنباع كما فى البيت السالف الذكر كان مأخوذاً بسحر العيون ،
فقد تقدم له فى ذلك :

ويعطف النبع كالحواجب أو
وربما لم تقم مناصلها

أحنى وتمهى السهام كالقمل
مقام تلك اللواحظ النجل

وقوله :

مأدر على بمقتليك كؤوسه حتى يدب خماره في أعظمي
يا أيها القمر الذي أنسانه يرمى أناسا للعيون بأسهم

وقد عنى في هذه القصيدة — شأنه في غيرها — بالحسنات البديعية التي نجدها في البيتين الأول والسابع منها وفيها توجيه الخطاب — كمادة الشعراء — الى نفسه . وهي قطعة غزلية رقيقة ، يدعى صاحبها صدورها عنه ، وقد جلل رأسه الشيب وأحدثت به الشيخوخة وربكه الهرم وهذا هو المقصود من الامر الذي يقوم بعلمه الرضيع ، على سبيل المبالغة منه ولكنه ما زال على صبوته واتباع غيه وجهله كما قال .

ومن اخوانياته قوله يخاطب الفتح ابن خاتان :

هو منجد يلقي بها الليل متهم	يصرح عنه الدمع وهو يجمجم
يبيت يدارى أو يدارىء ما به	ويغلبه أمر الهوى فيسلم
لاجفانه من كل شيء مؤرق	ومن أين للمشتاق شيء ينوم
وليس الهوى ما الراى عنه مزحزح	ولكنه ما الراى فيه مفخم
واعذر اهل الحب كل مدله	يرى أن من يهدى له النصح الوهم
واجاد أبناء الزمان مرزا	يقاسى خطوب الدهر وهو متيم
ويصعب حبل الهم والهم مفرد	فكيف ترى في حمله وهو توام
ولولا أبو نصر ولذات أنسه	تقضت حياتى كلها وهى علقم
فتى فتح الله المعارف باسمه	ومن دونها باب من الجهل مبهم
تأخر فى لفظ الزمان وانه	بمعناه فى أعيانه متقدم
ابوا بالمعانى وهى در منظم	وجاء بها من أفقها وهى أنجم
وما يستوى فى الحكم راق وغائص	لقد نال اسنى الرتبة المنسجم
اليك ابا نصر بديهة خاطر	توالى عليها الشغل وهو مقسم
اهبت بها للقول وهو لما به	فلبى ولم يسعده نطق ولا فم
وكم مصقع لا يرهب القول فعلة	ثنته خطوب ما انثت وهو مفحم
ولو لم يكن الا وداعك وحده	لاشفق منه يذبل ويللم
فما يصنع الانسان وهو بفهمه	يحبس بأثنيات الامور ويفهم
وقد كنت تشكىنى من الدهر داثبا	فقد صرت أشكو منك ما أنت تعلم

عليك سلام تسحب الريح ذيله فيعبق منه كل ما يتسئم
وان لم يكن الا وداع ومرتة فان مؤادى قبلك المتسئم

وجمال هذه القطعة يكمن في مقدمتها ذات السبعة الابيات ، على ما
بها من تصنع ولعب بالالفاظ ومقابلات في البيتين الاولين ، وعلى فتور في التعبير
بالببيت الثالث ، وتبقى بعدها الابيات الاربعة خالية من كل مأخذ .

وبعد هذا كله لا شيء في ابيات التنويه والاشادة ، التي صدرت عنه
« بديهة خاطر » وهو في حالة من القلق وتراكم الاشغال وتوزع الافكار ،
تلك الخطوب التي تفتت في عضد المصانع من البلغاء والفصحاء .

ويبدو أن هذه العواطف المبداء كانت على اثر وداع بين الاخوين
الصديقين تلته مرتة مبرحة تصدع القلب بها كما تفهم الابيات الخمسة الاخيرة

والمهم من هذه الاخوانية انها تبرهن على الشيوع الادبي الذي كان
الاخوان يتجاذبون اطرافه لذلك العهد ، كما نجد له مثالا آخر صدر عن ابن
زنباع ، قاله على الارتجال ، وقد زاره نفر من اخوانه ، وهو هكذا على
تواضعه :

اهلا وسهلا بكم من سادة نجب كالذبل السمر أو كالانجم الزهر
أجهلتمو وتفضلتم بزور تكم وليس ينكر فضل من ذوى حسب
أضاء منزلنا من نور وجهكم وطاب من عيشنا ما كان لم يطب

ومن قبيل الاخوانيات القصيدة التي اجاب بها الوزير ابا محمد بن
القاسم معزيا في قريب له وهذا الوزير قد أقصى عن مكانته ، مما تشير اليه
الابيات الآتية (1) :

(1) أبو محمد بن القاسم ، كان من وزراء علي بن يوسف ، ثم « نفذ في امره ما نفذ ،
وانفصل عن أمير المسلمين وانتدب ، خيره في بلاد المغرب فاختر سلا ، واعتقد انه يأنس
فيها ويسلى ، بمجاورة بني القاسم الذين غدوا بدور سبائها ، وصدر أسائها ، فلما
حلبها انتفض عنه أبو العباس انقباضا نعى عليه أقيح نعى ، ونسب فيه الى قلة الوفاء
والرعى » ، وكتب (الوزير أبو بكر بن عبد العزيز) الى الوزير أبي محمد بن القاسم
كيف رأى مولاي في عبد له وهو أنا يرى الوفاء ديننا وملة ولا يعتد في حفظ الاحياء ملة ، ، ،
وكتب اليه مسلما من نكته « الوزير الفقيه آدام الله عره وكناه ما عره أعلم بأحكام
الزمان من أن يرفع اليها طرفا أو ينكر لها حرفا » ، ولما نكب الوزير أبو محمد بن القاسم
النكبة التي أنبات بتعذر الاوطار ، ، ، خاطبه كل زعيم مسلما عن نكته ، ، ، فكتب اليه
(أبو عبد الله بن أبي الخصال) ، ، ، برقة مستبعدة ، وهى ، مذك ثبت الله فؤادك =

لعلك من جواد قد أجادا
وبشر بالتى يسمو اليها
فانى قد رايت الدهر طلقا
ومنذ بخت حظك وهو كبر
ولن يرضى الزمان وانت فيه
ومثلك وهو انت ولا مزيد
ومن وتذته بالنوب الليالى
ولولا ما كففت به فؤادى
ومن يطفى بنزر الماء نارا
جزاك الله خيرا من صديق
ورد عليه صبيرا ضل عنه
وانجده على خطب عراه

ونال الغاية القصوى وزادا
سواك فلا تبلغه مرادا
تنزل عن خلائقه وحادا
أحال على الورى سنة جمادا
تدافع عن مطك أو تعادى
شفى وكفى الملمات الشدادا
فكيف يطيق عدوا واشتدادا
من الحكم التى تسلى تمادى
فليس يزيدها الا انتقادا
أفاد صديقه مما استفادا
وأقسم لا ينال له قيادا
وأدرك فيه ثارا فاستقادا

هذا ما يتصل بالقاضى ابن زنباع أما القاضى عياض فقد ولد عياض بن موسى اليعصبى الأصل السبئى النشأة عام ستة وسبعين (1) وأربع مائة ، وتوفى عام أربعة وأربعين وخمسائة نشأ أبو الفضل فى بيت عفة وصيانة ونبل وثقافة ، فتلقى تعليمه ببلده سبتة ، على جلة من العلماء ذكروا بالتعريف لابنه محمد ويكتاب الاحاطة لابن الخطيب وغيره ، ولما كان سنه اثنتين وثلاثين سنة توجه الى الاندلس - والغالب أنها لم تكن وجهته الاولى - فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرها ، ثم عاد الى سبتة ، فأجلسه أهلها للمناظرة عليه فى المدونة ، ثم جلس للشورى بها ثم ولى قضاءها ، ثم نقل الى غرناطة فقتل خطة قضاها ، ثم عاد الى سبتة التى ولى قضاءها لثانى مرة ، وصار رئيسها على قيام الدولة الموحدية ، التى بايعها لأول الامر،

== وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآذك يلقى دهره غير مكترك .
انظر « قلائد العقيان » ومنه نقلت هذه الفقرات »

جميع النصوص المذكورة لابن زنباع وردت فى « قلائد العقيان » وهو المصدر الاول فى هذا وجميع من تناولوه انما كان اعتمادهم على القلائد أساسا وعلى غيرها تبعا والحق ان الشاعر غير مقطوع بتعريبه بالرغم من ذكر نسبه اما كونه قاصيا على طنجة فهذا لا يثبت كونه منها ولكن الأصل الاصطحاب كما يقولون .
على أنه ان كان نفس الشاعر ابن بياض ، فقد سبب هذا ابن بسام الى سبتة وذكر له بيتا لم يرد فى القلائد ، كما أشرا الى ذلك فيما سلف فان ثبت ان ابن زنباع حقا معربى فانه بذلك يكون شاعر العهد المرابطى لا يضاويه معربى فى ذلك ولا يدانيه .
(1) وليس عام ستة وتسعين كما ورد فى كتاب النبوغ بطبعته الاولى والثانية .

ولكنه بدا له في نشأتها ما جعله ينأى عنها ويتابعه أهل بلده فيخلعون ربة الطاعة من عنقهم ، وبعد التغلب عليهم ، حمل قاضيهم الى عاصمة الدولة ، وابتقى عليه فولى قضاء تادلة التي كانت عمالة كبرى ، فكان مقره بقرية داي وتوفي بعد سنة من نقله .

وعلى حين لا نجد من آثار ابن زنباع والتعريف به الا ما ذكره الفتح ابن خاقان ، والا اشارة اليه في كتاب التعريف ، فان القاضي عياض قد طبق المغرب والمشرق واشتهر بأخباره وعلمه وادبه ، وتآليفه فيهما ، حتى قيل « لولا عياض لما عرف المغرب » .

الحقيقة ان عياضا يعد أعجوبة عصره ، وموسوعة شاملة لما كان يحيط به من ثقافات واسعة واتجاهات فيها ، فهو ناظم نائر ، منشئ ومؤلف ناقد ، وهو حافظ واعية ، فقيه مجتهد ، كما يصفه بذلك ابن الخطيب في احاطته ، وهو خطيب مصقع ، وصوفي متزن متمكن من طريقته .

واذا أردنا أن نجعل للمغرب اوليات ، فآثار القاضي في مقدمتها ، لا يتقدمها غيرها البتة ، واذا أردنا أن نضع لرجاله مجلين ، فهو في الصف الاول منها ، بل هو المقدم فيها ، على الاطلاق ، وهذه نماذج من آثاره ، تنبئ عن كونه بحرا لا ساحل له بل ان الايام ما زالت تطالعنا في الفينة بعد الاخرى بكنوز من تلك الآثار ، وضروب واللوان من تلك المقومات .

نجد في نظم عياض ، وهو أضيق ميادينه ، كما ذكر في التعريف لابنه . يقول ابنه : ان ابا الحسن بن زنباع (1) كان بينه وبينه في الشبيبة ، اخاء كبير ، وفي الكبر ، الى أن ولى رضى الله عنه القضاء ، وهما على تلك الحال ، فبعد وقع بينهما تقاطع ، فبلغ أبى رحمة الله عليه ، عنه كلام ساءه ، فكتب اليه الابيات القديمة :

الى كم وكم اشياء منك تربيئى	أغمض عنها لست عنها بذى عمى
أحاذر أن أكاف عنها بمثلها	تكون لأسباب القطيعة سلما
سأمبر حتى يبلغ الموت بى ولم	أخذك ولو جرعتنى الدهر علما

(1) كما في النسخة المطبوعة ، أما الخطية ففيها « ابن بباغ » ، وهو ما أشرنا اليه آنفا ويستناد من هذه القصة انه كان في سن القاضي عياض تقريبا ، وبهذا لا يعقل ان تكون وفاته سنة 503 ، كما ورد في النبوغ بطبعته الاولى ، وحسب ما أرخ به ميلاد عياض ، كما سلف ، فان وفاته تكون بعد ميلاد عياض بنحو سبع سنوات فقط وهو خطأ في منتهى النداحة والعفلة

وله بين يدي رسالة — كما في التعريف وازهار الرياض — :

تسل للاماجد والحديث شجون	ما ضر أن شاب الوقار مجون
ولئن غدوت من العلوم بموضع	تومى اليه أصابع وعيون
فلدى للاداب عين (1) صبة	فيها الى ملح الظروف ركون
كنا افترقنا عند دعوى خطة	ساعت بها — فيها فهمت — ظنون
فأنيت بالبرهان فيها نيرا	وعدت عواد بعد ذا وشؤون
وبعثت الان (2) بها ليعلم أننى	عين الزمان وسره المكنون

وله متغزلا وقد ضمن حديثا في الآخر :

أذات الخال كم ذا' تنتضيها (3)	على سيوف عينيك انتضاء
بمطلك لى مواعد اقتضيها	من التوريد واللعس اقتضاء
فمضى وعد مطلق وانجزيه	« خيار الناس احسنهم قضاء »

وله — قال ولده : ما كتبت من خطه — :

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا	أيرى لكم قبل الممات قفول
أما الفؤاد فعندكم أنباؤه	ولواعج تنتابه وغليل
أترى لكم علم بمنترح الكرى	عن جفن صب ليله موصول
أودى بعزمة صبره وابائه (4)	طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم وأضنكم (5) بتحية	يحى بها عند الوداع قتيل
ان البخيل بلحظة أو لفظة	أو عطفة أو وقفه لبخيل

وله — كما في التعريف أيضا — :

إذا الاخلاء لم تحمد غيوبهم	وخان ميثاقهم في البعد أوحالا
فلى بأغيات خل لا أذم له	مدى الحياة وان شطت نوى حالا

وله في خامات زرع بينها الشقائق :

-
- (1) في الازهار « نلى »
(2) في الازهار « وبعثت حينئذ » وينبغى تسهيل همزة « الآن » للوزن .
(3) حذف النون كما تحذف في المسند لواو الجمع والفتحة أحيانا تخفيفا لا لضرورة كما هنا .
(4) في الازهار « ولبابه » .
(5) في التعريف المطبوع « ما ضركم أو أضنكم »
وفي البيت الوارد أخيرا تصدير كقول أبى تمام :
واسق الاناسى من شئونى ربها « ان الشنين بدمعه لشنين »

انظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست امام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وينسب اليه متغزلا البيتان الشهيران (1) :

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر تمرا ولكن رايت بعينها ورات بعينى

وفى لزوم ما لا يلزم وفيه اغراض :

يا من تحمل عنى غير مكرث لكنه للضنى والسقم اوصى
تركنتى مستهام القلب ذا حرق اذا جوى وتباريح واوصابى
أراقب النجم فى جنح الدجا سمرا كائننى راصد للنجم اوصابى
وفيه كذلك :

اذا ما نشرت بساط انبساط فعنه فديتك فاطو المزاحا
فان المزاح على ما حكى اولسو العلم قبلنى عن العلم زاحا
وايضا :

الله يعلم انى منذ لم أركم كطائر خائنه ريث الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم لان بعدكم عنى جنى حينى
وقوله فى قرية « بليونش » :

بليونش جنسة ولكن طريقهما يقطع النياطا (2)
كجنسة الخلد لا يراها الا الذى جاوز الصراطا
وقوله عند ارتحاله عن قرطبة :

أقول وقد جد ارتحالى وغردت حدائى وزمت للفراق ركائبى
وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتى وصارت هواء من فؤادى ترائبى
ولم تبسق الا وقفنة يستحثها وداعى للاحباب لا للحبائب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا وسقى رباها بالعهاد السواكب

(1) انظر النبوغ ، وفى « ديوان الصبابة » لابن أبى حجلة التلمسانى ، انها للمستوى
الأزلى العراقى ، ولم يرد ذكر لها فى التعريف لابن القاضى ، ولا فى الأزهار للمبرى .
(2) نسبا له فى الأزهار ونسبا لابن مجبر فى النفع .

وحى زمانا بينهم تد الفته
الخواننا بالله فيها تذكروا
غدوت بهم من برهم واحتفائهم
طلیق الحیا مستلان الجوانب
مودة جار او مودة صاحب
كأنى فى اهلى وبين اقاربى

ويقول مخاطبا بعض أصدقائه الذين ودعهم :

لك الخير عندى لذاك النزاع
يعز علينا تنائى الديار
لكم امل كان لى فى اللقا
فلسم اجن منها سوى حسرة
لئن حمل القلب ما لا يطاق
فمقل يهيم وقلب يـراع
وذاك سلامك لى والوداع
وامنية قد طواها الزماع
فوجد جميع وانس شماع
فما كلف الجفن لا يستطاع

ويقول مخاطبا الوزير ابن القاسم كما يبدو (1) .

عنى تعرف العلياء ذنبى الى الدهر
وقد حال ما بينى وبين أحبة
هموا او دعوا قلبى تباريح لوعة
على أن لى سلوى بأن فراقهم
سأفزع للريح الشمال لعلى
تبلغ منها للوزير تحية
تظلل من حر كل هجيرة
وتنبئه انى اكن صباية
أهز بها عطفى من غير نشوة
وانى اشدو فى النوادى بذكره
أجل وعساها أن تبلغ مهجتى

وله مراجعا الفتى بن خاقان :

أبا النصر ان شدوا رحالك للنوى
وان تتركوا قلبى مقبىا وترحلوا
فان جميل الصبر عنك بها شدوا
فماذا ترى فى مهجة معكم تغدو

وله فى مدينة الرسول ، بعد نثر فى « الشفا » تقديمه فى ذلك :

يا دار خير الرساين ومن به
هدى الانام وخص بالآيات

(1) والابيات مذكورة فى الغلائد والارهار وفى هذا أنه قالها معتذرا لمرص عرض له .

وتشوق متوقد الجمرات
من تلکم الجدران والعرصات
من كثرة التقبيل والرشفات
أبدا ولو سحبا على الوجنات
لقطين تلك الدار والحجرات
تغشاه بالآصال والبكرات
ونوامى التسليم والبركات

عندى لاجلك لوعة وصبابة
وعلى عهد ان ملات محاجرى
لأغفرن ممدون شيبى بينها
لولا العوادي والاعادى زرتها
لكن ساهدى من جميل تحية
اذكى من المسك المفتق نفحة
وتخصه بزواكى الصلوات

وله في زيارة المقام الشريف (1) :

لاحت علينا من الاحباب انوار
فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار
هذى منازلهم هذى هى الدار
وذا هو الجزع فابك ذا هو الفار
له بتقديمه رسل وأحبار
ليلا وقد ضربت بالليل أستار
لنا على غيرنا فضل وآثار
هذا الذى تربه كالمسك معطار
للمذنبين اذا ما اسودت النار
قبل الممات فلا تشغلك أعذار
أو لم تزره فان الشوق زوار
بر عطوف لفعل الخير أمار
قد أثقلت ظهري آثام وأوزار
أخاف تحرقنى من أجلها النار
ومن خطايا فان الرب غفار
ورق وما نفحت في الروض أزهار
ما لاح نجم وما تنهل (2) أمطار

قف بالركاب فهذا الربيع والدار
بشارك بشارك قد لاحت قبابهم
هذا المحصب هذا الخيف خيف منى
هذى قباب قبي آثار وطئهم
هذا النبي الحجازى الذى شهدت
هذا الحبيب الذى أسرى لخالقه
هذا الرسول الذى بن أجله شهدت
هذا الشريف الذى سادت به مضر
هذا اشفيع الذى ترجى شفاعته
بادر وسلم على انوار روضته
ان لم تعاین ثراه العين يا أسفى
يا أهل طيبة حل ربكم قمر
ياخيرة الرسل يا أعلى الورى شرفا
واشغلتنى ذنوب عنك مؤلة
فكن شفيعى لما قدمت من زلل
صلى عليه الاله العرش ما سجعت
وآله وعلى أصحابه السعدا

(1) القصيدة من مخطوطة بالخزانة العامة للرباط في مجموع من ورقة 66 ا - 68 ا (رقم 774

(2) بالامل « هطل » ولا يستقيم بها الوزن والمعالب ان القصيدة لم تصدر عن مياض نهى
مواضعة في منها عابية في لهجتها .

وهذه أخرى في التوسل (1) :

اليك مددت الكف أستعطر الفضلا
دعوتك مضطرا فعجل اجابتي
عليك اعنادي في جميع مقاصدي
وانت ملاذي يا مرادي وسيدي
نداء من الاعماق يا خالق النوى
يتيم من الطاعات عفوك يرتجى
لك الشكوى ياربى يقوم تسربلوا
بجناه رسول الله فارحم نضرعى
لجأت الى باب الكريم لفاقتى
كئيبا حزينا بافتقار وضيعة
فانزل عليهم من علاك صواعقا
وصل على قطب الوجود محمد

واستكشف البلوى واستعطف الطولا
بنفريج كرب طالما واصل الهولا
اليك رفعت الامر والقول والفعلا
فسامح مسيئا قد جنى الجد والهزلا
وياسامع النجوى وما من هو الاعلى
قه الفقر والافلاس والفقد والذلا
رداء من البلوى اذاعوا به الويلا
ونفس هموى كلها الفرع والاصلا
فليس لنا مغن سواه ولا مولى
ذليلا حقيرا اهل الفرض والنفلا
تصير مدى الاعصار اخبارها مثلا
صلاة تعم الرسل والصحب والاهلا(2)

وهذه قصيدة يتوسل فيها أو يناجى بها المقام النبوى (3) :

يا عين هذا السيد الاكبر
فشاهدى في حرم المصطفى
يا عين ذا ما كنت تبغينه
هذا مقام المجتبى احمد
واى فهم فيه لا ينجلي
ودت نجوم الاثاق لو انها
ما كان اننا مهجتى لو غدت
كل مقام قد سما قدره
تجمع الفضل بها والندى
الى ثراها الزعفران انتهى

وهذه الروضة والمنبر
من نوره الساطع ما يبهـر
فما لاجفائك لا تطـر
فمثله الاعين لا تنظـر
واى كسر فيه لا بجبر
كائن قناديل به تزهر
مطوعة فيه لمن يخطر
فى هذه الحضرة مستصغر
والجود والسودد والمتجر
ومن شداها المسك والعنبر

(1) من مخطوط بالخزانة في مجموع من 239 ب - 260 ب رقم 1625)
(2) وهذه القصيدة بعيدة ان تصدر عنه هى عامية في عمومها وخشنا اربعة ابواب منها لشدة تصحينها .
(3) والقصيدة باسمائها نعلنا نطعن الى حصة نسها ، ويقع في المخطوطة التى ذكرت أولا بالرقم 774 .

قد حسدتها سدرة المنتهى
والكعبة الغراء والمنحنى
فاستبشرى يا مقلتي باللقا
قد ذهب الهم وزال العنا
لما حوت والفلك الانور
والحجر والاستار والمشعر
فمن رأى الاحباب يستبشر
وكل ما يخشى وما يحذر

وله — وانشده ابنه — كما فى التعريف له :

اليك بوئت بذنبى
وامنن على بلطف
فتقد ركبت ذنوبيا
وطال تقصير سعى
وقد أسأت فأحسن
وجئت اطلب توبيا
فأقبل بفضلك توبى
وعافنى واعف عنى
فاغفر خطاياى ربى
تجير به صدع قلبى
سودت منهن كتبى
فى كل فرض وندب
فلم تزل محسنا بى
اذ ضاق بالذنب رجبى
واغفر برحماك ذنبى
فانت يا رب حسبى

وله — كما قال ولده عند توجهه لحضرة سيدنا أمير المؤمنين (ثم قال
— غير انه ضاع لى منها بيت —) :

اقهرية الادواح بالله طارحى
فتقد ارتقتنى من هديك رنة
لعلك مثلى يا حمام فائننى
فكم من فلاة بين داي وسبته
تصنق فيها للرياح لواقح
يذكرنى سح المياه بأرضها
ويعجبنى فى سهلها وحزونها
(لعل الذى كان التفرق حكمه
أخا شجن بالنوح أو بغناء
تهيج من برحى ومن برحاء
غريب بدای قد بليت بداء
وخرق بعيد الخافقين قواء
كما ضعفتنى زفرة الصعداء
دموعا أريقته يوم بنت ورائى
خمائل أشجار ترف رواء
سيجمع منا الشمل بعد تناء) (1)

ومن نظمه — كما بالازهار — (2) :

لاتيان مال مال كل مؤمل ولكنهما سبيل صعاب المسالك

(1) هذا هو البيت الضائع منه والمثبت فى الازهار ج 4 ص 268 .
(2) الجزء الرابع وكذا الابيات الواردة بعد جلها من الجزء الرابع .

كذلك جنات النعيم ودونها صراط وكم نجا هناك وهالك
ومن نظم هذه القطع الطليقة . ففى الاعتبار وشكوى الزمان والخلان
يقول :

أترانى وما عسى أن ترانى
سلبتنى صروفه كل علق
كلما حزت بفيتى بفلان
عمرك الله هل سمعت بحى
كل يوم طليعة لفراق
فاسأل الشعريين عنها وحسبى
ودع الفرقيدين أن جهلاها
وله أيضا متغزلا :

يا خليلي فاحملا بعض قولى
بلغنا عنى الثريا سلاما
خلت انى ملكتها واذا بى
لست أنسى وكيف لى أن أنسى
هل الى نظرة سبيل فأنى
وقال أيضا فى عرس مرابطى :

ليهن العالى أن زفت الشمس للبدر
وقرت عيون المجد اية قرة
لدى ساعة أفضت الى كل بغية
قران كلا السعدين فيه تلاقيا
لتجر المنى فى حلبنيه مغدة
بسعد امير المؤمنين تطلعت
تهنأه نجل الملك حظا ممتعا
تمن بها الايام ثم تردها
وقال أيضا فى مثله :

سمح الزمان بليلة غراء جامعة السرور

أجنت أكف جنانها
ما فض طين ختامها
دارت عالى فلك السعوى
من كل ما ملأت مها
ما إن ترى الا أمية
تخذوا القلوب أسرة
فمايهم وقف العلا
قطف الامانى والحبور
فيما تقدم من دهور
د بمثل أشباه البذور
بته العيون أو الصدر
را حاز ارثا عن أمير
وثنوا بها عوض السرير
ء وان تدولت الامور

وخاطب السلفى الاصبهاني بقوله (1) :

أبا طاهر خذها على البعد والنوى
بلوى لك ما بين الضلوع مودة
يناجيك بالذكرى فيشفي غليله
أنبت عمود الدين والاثر الذي
وطاراك أنصبت البعيد فأرخت
فما من ثرى الا بذكراك عاطر
بقيت لاسناد الحديث تقيمه
ولا زلت تحوى كل فضل وسؤدد

وقال أبو الحسن بن شاکر الشقورى : أنشدنى القاضى عياض لنفسه :

ولله قوم كلما جئت زائرا
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة
أولئك مثل الطيب ، كل له ثذى
وجدت نفوسا كلها ملئت حلما
ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
ومجموعه يزداد ريحا إذا شما (2)

ومما اشتهر من كلامه على طريق النروية - يصف غداة باردة :

كان كانون أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعا من الطلل

(1) وجواب الاصبهاني عنها في التعريف لابنه (103 - 104) .
(2) قال القرى : قلت : كذا ذكر غير واحد عن الشقورى ، وفي ذلك - عدى - نظر ،
يتبين بما تراه الآن وذلك أن ابن خاتمة ، ذكر في مزية المارية في ترجمة أبى القاسم بن
ورد ما نصه : وحكى أبو عمر بن عات قال : رأيت أن أبا بكر بن العربى ، حدث
أبا القاسم ابن ورد ، أن أبا حامد ، كان ينشد في آخر مجلسه :
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة
ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
فوصله أبو القاسم بن ورد ببنتين ، أحدهما قبله ، وهما المذكوران

أو الغزالة من طول المدى خرفت
ومن وصاياه قوله :

يا طالب العلم استمع قول امرئ
العلم في أصلين لا يعدوهما
علم الكتاب وعلم الآثار التي
جاءت بها الإثبات منهم واعتنت

وهذا نظم للقاضي عياض - رحمه الله يشبهه ما سبقه في الجفاف (2) :
تتعد عن الأسفار أن كنت طالبا
تشوق أخوان وفقد أحبة
وكثرة إichاش وقلّة مؤنس
فان قيل في الأسفار كسب معيشة
فقل كان ذا دهرا تقادم عهده
فهذا مقالى والسلام كما بدا

ومن قبيل نظمه قوله كما في التعريف والازهار :
أعوذ بربى من شر ما
واسأله رحمة تقتضى
فما للخلائق من ناره
يخاف من الإنس والجنّة
عوارف توصل بالجنّة
سوى فضل رحماء من جنّة

فهذه أبيات تعليمية على نحو مثلث قطرب نعد من النظم ولا تعد من
الشعر في روحه وجوهره ولعياض في مكانة أهل العلم وعلى رأسهم مالك
ابن أنس :

يا سائلا عن حميد الهدى والسنن
وعقد قلبك فاشدده على ثلج
واسلك سبيل الالى حازوا نهى وتقى
هم الأيمة والاعتطاب ما انخدعوا
اطلب هدمت علوم الفقه والسنن
لا تطوبنه على شك ولا دخن
كانوا فبانوا حسان السر والعلن
ولا شروا دينهم بالبخس والغبن

(1) وجاء في ترجمة محمد بن محمد الطيب المالكي التافلاى سلك الدرر للمرادى بيتان على
غرار السابقين وهما :

كان كائنون أهدى من منازلهم
أو المزالة تاهت في تنقلها
لشهر نسيان أصنافا من التحص
لم تعرف الهدى والثور من الخرف
(2) « السعادة الأبدية » لابن الموقت .

خير القرون نجوم الدهر والزمن
نجاة من بعدهم من غمرة الفتن
اهل النهى والنقى والعلم والفتن
مشهر الذكر في شام وفي يمن
نهجا الى كل معنى رائق حسن
امام دار الهدى والوحى والسنن
ودع زخارف كالأحلام في الوسن
والمقتدى بالهدى في ذلك الزمن
شهادة المصطفى ذى الفضل والمنن
تنضى المطايا وتنضى بدن البدن
طى القلوب كمجرى الماء في الغصن
قولا وان قصروا في الوصف عن لسن
ومن رضاه كصوب العارض الهقن
تسقى برحماء متوى ذلك اليفن (1)

اصحاب خير الورى اخيار ملته
بن اهتدى بهداهم مهتد وهم
وتابعوهم على الهدى القويم هم
واختر لدينك ذا علم تقلده
حوى اصولهم ثم اقتفى اثرا
وبالك المرتضى لا شك افضلهم
وعنه خذ علمهم ان كنت متبعا
فهو المقلد في فقه وفي نظر
وعالم الارض طرا بالذى حكمت
ومن اليه بأقطار البلاد غدت
من اشرب الخلق طرا حبه وجرى
وطال كل لسان في فضائله
عليه من ربه أصفى عواطفه
وجاد ملحه وطفاء هاطلة

فهذه قصيدة الغالب أنها كانت من بواكير منظومه ، فهي من الكلام
المفسول من زينة الشعر ، وان حوت نوائح وأوصافا كريمة لاهل العلم
والنقى ، وخصوصا امام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، ومن فقر التعبير
فيها الشطران :

وعالم الارض طرا بالذى حكمت من اشرب الخلق طرا حبه وجرى
فهذا التأكيد المكرر دليل على كون صاحبه كان على عتبة الانتاج الادبى
المبكر ، ويصح أن توضع القصائد بين منظوماته في الحكم والنصائح ،
كما تقدم ذكر بعضها .

وكذلك نجد من مشهور نظم القاضى عياض هذه القصيدة التعليمية
التي نظمها على نسق سور القرآن ، وضمنها مدح النبى صلى الله عليه
وسلم وآله والعشرة المبشرين وهي :

في كل « فاتحة » للقول معتبره حق الثناء على المبعوث « بالبقرة »
في « آل عمران » قدما شاع مبعثه رجالهم « والنساء » استوضحوا خبره

(1) البين الشيخ الكبير وبالأصل « الجن » ولا معنى له هنا فأصلحناه بما يقرب منه في الحروف
والقصيدة واردة في « ترتيب المدارك »

تد مد للناس من نعماه « مائدة »
 « اعراف » رحماه ما حل الرجاء بها
 به توسل آذ نادى « بتوبته »
 « هود » « ويوسف » كم خوف به امنا
 مضمون دعوة « ابراهيم » كان وفي
 ذوامة كدوى « النحل » ذكرهم
 « كهف » رحماه قد لاذ الورى وبه
 سباه « طه » وحض « الانبياء » على
 « قد افلح » الناس « بالنور » الذى شهدو
 اكابر « الشعراء » اللسن قد خرسوا
 وحسبه « قصص » « العنكبوت » اتى
 فى « الروم » قد شاع قدما امره وبه
 كم « سجدة » فى طلى « الاحزاب » قد سجلت
 « سبا » هم « فاطر » السبع العلى كرما
 فى الحرب قد « صفت » الاملاك تنصره
 « لغافر » الذنب فى تفضيله سور
 « شوراه » ان تهجر الدنيا « فخرقها »
 عزت « شريعته » البيضاء حين اتى
 فجاء بعد « القتال » « الفتح » متصلا
 « بقاف » « والذاريات » الله اتسم فى
 فى « الطور » ابصر موسى نجم سؤدده
 « اسرى » فنال من « الرحمن » واقعة
 اراه اشياء لا يقوى « الحديد » لها
 فى « الحشر » بوم امتحان الخلق يقبل فى
 كف « يسبح لله » الحصاة بها
 قد ابصرت عنده الدنيا « تغابنها »
 « تحريمه » الحب للدنيا ورغبته
 فى « نون » قد « حقت » الامداح فيه بما
 بجاهه « سال » « نوح » فى سفينته

عمت فليست على الانعام مقتصره
 الا « وانفال » ذاك الجود مبتدره
 فى البحر « يونس » والظلماء معتكره
 ولن يروع صوت « الرعد » من ذكره
 بيت الاله وفى « الحجر » التمس اثره
 فى كل قطر « فسبحان » الذى فطره
 بشرى ابن « مريم » فى الانجيل مشتهره
 « حج » المكان الذى من اجله عمره
 من نور « فرقانه » لما جلا غرره
 كالنمل اذ سمعت آذانهم سوره
 اذ حاك نسجا بباب الفار قد ستره
 « لقمان » وفق للدر الذى نثره
 سيوفه فأراهم ربه عبـره
 لمن « ياسين » بين الرسل قد شهره
 « فصاد » جمع الاعادى هازما « زمه »
 قد « فصلت » لعان غير منحصره
 مثل « الدخان » فيعشى عين من نظره
 « أحقاف » بدر وجند الله قد حضره
 واصبحت « حجرات » الدين منتصره
 ان الذى قاله حق كما ذكره
 والافق قد شق اجلالا له « قمره »
 فى القرب ثبت فيها ربه بصره
 وفى « مجادلة » الكفار قد نصره
 « صف » من الرسل كل تابع اثره
 فاقبل « اذا جاءك » الحق الذى قدره
 نالت « طلاقا » ولم يصرف اها نظره
 عن زهرة « الملك » حق عندما ذكره
 اثنى به الله اذ ابدى لنا سيره
 حسن النجاة وموج البحر قد غمره

وقالت «الجن» جاء الحق فاتبعوا
«محدثا» شافعا يوم «القيامة» «هل
في «المرسلات» من الكتب انجلا «نبا»
الطافه «النازعات» الضيم حسبك في
اذ «كورت» شمس ذلك اليوم و «انفطرت»
وللسماء «انشقاق» «والبروج» خلت
«فسبح اسم» الذي في الخلق شفعه
«كافجر» في «البلد» المحروس غرته
«والليل» مثل «الضحى» اذ لاح فيه «الم
ولو دعا «التين والزيتون» لا بتدرا
في «ليلة القدر» كم حاز من شرف
كم «زلزلات» بالجياد «العاديات» له
له «تكاثر» آيات قد اشتهرت
«الم تر» الشمس تصديقا له حبست
«ارابت» ان اله العرش كرمه
«والكافرون» «اذا جاء» الوري طردوا
«اخلاص» امداحه شغلى فكم «فلق»
ازكى صلاتى على الهادى وعترته
صديقهم عمر الفاروق احزمهم
سعد سعيد زبير طلحة وأبو
وحمزة ثم عباس وآلهما
اولئك الناس آل المصطفى وكفى
وفى خديجة والزهرا وما وادت
عن كل ازواجه أرضى وأوثر من
اقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحى

«مزملا» تابعا للحق لن يذره
اتى «نبيء له هذا العلى ذخره
عن بعته سائر الاخبار قد سطره
يوم به «عبس» العاصى لما ذعره
سماؤه ودعت «ويل» به الفجره
من «طارق» الشهب والاملاك منتشره
و «هل أنك حديث» الحوض اذ نهره
«والشمس» من نوره الواضح مختره
نشرح لك «القول في اخباره العطره
اليه في الحين «واقرا» تستبين خبره
في الفجر «لم يكن» الانسان قد قدره
أرض «بقارعة» التخويف منتشره
في كل «عصر» «فويل» للذى كفره
على «قريش» وجاء الروح اذ امره
«بكوثر» مرسل في حوضه نهره
عن حوضه فلقد «تبت يدا» الكفرة
للصبح أسمعت فيه «الناس» مفتخره
وصحبه وخصوصا منهم عشره
عثمان ثم على مهلك الكفرة
عبدة وابن عوف عاشر العشره
وجعفر وعقيل سادة خيره
وصحبه المقتدون السادة البسرره
ازكى مديحى سأهدى دائما درره
أضحت براءتها في الذكر مشتهره
كالروض ينثر من أكماله زهره

أثبتنا هذه المنظومة التعليمية ، من كتاب أزهار الرياض ، حرصا منا
على ذكر ما للقاضى من نظم مجرد ، لا أنها شعر بمعناه وسواها وان كان
بعضه مما يدخل فى عمود الشعر ، الا انه ليس بالدرجة التى عليها أشعار
زميله قاضى طنجة ابن زنباع وابن القاضى فى تعريفه يشير الى كون والده

لم يكن يقول من الشعر الا مجازاة لاصحابه ، لا فطرة منه فطر فيها على الشعر وفنه وكذا القول في تلك الالوان البديعية النى هدف اليها في بعض قطع من اشعاره ، جاء فيها بعض الجمل ، ولكن أصبع التصنع أو التعليم تشير اليها من خلالها ، يكون ذلك الجمال لم يكن المقصود ولا الداعى الى نظمها ، والفن الذى لا يقصد اليه لا يعد من حسنات صاحبه ، ولو لمحت فيه لمحة من الجمال ، لان الفن صنع الانسان ، لا بد فيه من تحرى الابداع ، والا فهو رمية من غير رام لا فضيلة لصاحبها فيها ، ولو أصابت هدفها المطلوب منها وغير المقصود من صاحبها .

وصدق الحديث (انما الاعمال بالنيات) تطبق القاعدة على كل شيء ، وفيه الكلام الجميل في نفسه الصادر عن الاطفال ونحوهم اما نثره فأجمله الرسائل الاخوانية التى اختارها له الفتاح في القلائد ، ويمكن أن يعمم هذا حتى في شعره المختار فمن تلك الرسائل أو من فصولها قوله مخاطبا الفتاح ابن خاقان ، محملا اياه تحية للرئيس ابي عبد الرحمن بن طاهر .

عمادى ابا نصر ، مثنى الوزارة ووحيد العصر ، هل لك في مئة تفوت الحصر ، تخف محملا ، وتبلغ املا ، وتشكر قولاً ، وعملاً ، نترنم شكراً به الحداة ثقبلاً ورملاً ، اذا بلغت الحضرة العلية مستلماً ولقيت الطاهر بن طاهر فخر الوزارة مسلماً ، وحطت من فنائه الارحب حرماً ، ولست بمصانفته ركن المجد يندى كرماً ، فقف شوقى بعرفات تلك المعارف ، وانسك شكراً بمشاعر تلك العوارف ، واطف اكبارى بكعبة ذاك الجلال سجعاً ، وبوىء لودادى فى مقر ذلك الكمال ربعا ، وابلق عنى تلك الفضائل سلاماً ، يلتئم بصريح الحب التثاماً ، ويحسن عنى بظهر الغيب مقاماً ، ويسير بارج الحمد انجاداً واتهاماً .

فنلاحظ على صنيعه ، بالاضافة الى السجع محسنات مختلفة ، من قبيل المعنوى هذا الطباق ، فى « مثنى ووحيد » و « انجاداً واتهاماً » ومن قبيل اللفظى ، هذا الجناس فى « مستلماً ومسلماً » و « حرماً وكرماً » و « المعارف والعوارف » .

وفى هذا الفصل من التضمين ، قوله « ويحسن عنى بظهر الغيب مقاماً » فهو من قوله تعالى « حسنت مستقراً ومقاماً » وفى صدره تحليل

قول الشاعر ، في نفس الموضوع ، وهو تحميل التحية للمحبين .

يا صاحبي فدت نفسي نفوسكما وحيثما كنتما لقيتما رشدا
ان تحملا حاجة لى خف محملها تستوجبا منة عندي بها ويدا
أن تقرأن على أسماء ويحكبا منى السلام وأن لا تشعرا أحدا

وفيه من قبيل الاصطلاح النحوى « المثنى » المقابل بالوحيد ومن الموسيقى « الثقل والرمل » والفقهى ما انتزع من شعائر الحج في الاستلام ، والحرم ولمس الركن والوقوف بعرفات وانسائك المشاعر والطواف بالكعبة سبعا ، وبهذا يطفى عليه الطابع العلمى ، وان صاغه صياغة أدبية .

لنترك هذه الرسالة ولنتعرض الى رسالة أخرى كتبها الى نفس الصديق . يقول فيها : في علمك سدد الله على حكمك ، ما جمعه فلان من جلائل تشذ عن الحصر ، وفضائل يعترف بها نبهاء العصر ، يقول فيختلس العقول ، ويعين ، فيذهل الالباب ويجن ، ان نظم فعبيد او لبيد ، او نثر فعبيد الحميد او ابن الحميد ، او صال فأبو نعمة ، او أنال فكعب بن مامة ، او فأخر فشجرة سيادة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، او ذاكر فبحر معارف لا تكدره الدلاء ، الى همة تصفع هامة الثريا ، وعزة تمتهن الفضل ابن يحيى ، ولهجة تخرس العجاج ، وبهجة تزرى بنصر بن حجاج ، ولو كنت بن أبى هالة ، لما بلغت المنتهى له ، على انى لم أنبه لشأنه ذا جهالة ، لكنه الكلام يطرد ، والبداية حسب ما ترد ، واللسان ينطق ملء فيه ، والجنان يرشح بما فيه .

فهذا الفصل المتأنيق في نسجه ، المتنق في سجعاته ، قد حوى توريات وتضمينات ، فمن شخصياته المتراقصة ، الشاعران عبيد ولبيد ، والكاتبان عبد الحميد وابن الحميد ، والفارسان الجوادان ، أبو نعمة وكعب بن مامة ، والاول اسلامى ، وهو قطرى بن الفجاءة الخارجى ، والثانى جاهلى ، وهو المكنى بأبى داوود ، من الفرسان الذين يضرب بهم المثل في حسن الجوار .

ثم يستمر فيذكر الفضل بن يحيى البرمكى ، والعجاج الرجاز المشهور باغرابه ، ونصر بن حجاج الذى شهر بجماله في خلافة عمر الذى سمع منشدة تقول :

هل من سبيل الى خبر فاشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج
فنفاه من المدينة ، اتقاء الفتنة من جماله .

واستمر في التلميح بهذه الشخصيات ، فذكر ابن أبى هالة ، وهو
هند بن أبى هالة بن النباشى بن زرارة ، زوج خديجة أم المؤمنين فابنه هذا
ربيب النبى عليه السلام ، من الصحابة ، كان يتحلى بأخلاق نبيلة ، رباه
عليها من كان على خلق عظيم .

وكما تقدم لعياض فى شعره كثير من المتشابهات ، فاننا نجده كذلك فى
هذا الفصل ، يستعمل منها « هالة » من قوله « انتهى له » فتكررت
« هالة » بنهاية كلمة المنتهى ثم الجر والمجرور « له » وأخيرا تاتى فى
« جهالة » فبحذف جيمها ، تبقى « هالة » وكذلك يفعل بكلمة « فيه » فى
قوله ملء « فيه » فيعتقد به التشابه مع قوله بعد يشرح بما فيه فتكررت
كلمة فيه مع اختلافها ومن التضمين القرأتى فى هذا الفصل ، قوله « فشجرة
سيادة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ولا يكاد يخلو له فصل من هذا
التضمين .

وهذه رسالة لا تختلف فى صلبها عن العمود الاول الذى وصفناه ،
وكلتاها تتخذ طريقة ابن العميد مسلكا . الا أن الاقتباس فى هذه لم يكن
من نوع تلك ، وانما هى اقتباسات أديب من معارفه التى لا تعدو نطاق
الادب بذكر شعراء وكتاب وأشخاص عرفوا فى التاريخ الاسلامى من عهد
عمر بن الخطاب الى عهد المأمون ابن الرشيد وكلها شخصيات شرقية
لا ذكر لغيرها من بينها ، ولا لمعاصر كان يعيش على ذلك العهد فهى طريقة
تقليدية عرفها الشرقيون خصوصا فى القرن الرابع . على أن هناك رسالة
أخرى لا نجد فيها أثرا لهذا الاقتباس الا فى فقرة واحدة وهى :

وصلت لمعظمى قرب الجلال ، وزهيت به رتب الكمال ، وحامت على
مشرع مجده العذب طيور الآمال ، وغصت أفنية جنباه الرحب بؤسود
الاقبال ، لا غرو اعزك الله أن من لاحظ من آثار فضلك الرائقة لحظة ،
أو حظى من سماع محاسنك الرائقة بلفظة ، أن تسير به هيمته فى لقائك
واحدا ، وتعتسف الطرق الى ورد جلالك وأفدا ، حتى يشاهد الكمال لم
يجوج الى نقص ، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى شخص .

فهذه الفقرة الأخيرة هي وحدها المقتبسة من البيت المعروف لأبي نواس:
ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد
ونحو هذا فصل من رسالة أخرى هكذا :

لا بد اعزك الله لكل حين ، من بنين ، يحلون عاطله ، ويجلون فضائله ،
ولكل مجال ، من رجال ، يقومون بأعبائه ، ويهيئون في كل واد بأنبيائه ، ولئن
كانت جهرة الأدب خامدة ، وجذوته هامة ، ولسانه حصيرا ، وانسانه
حسيرا ، فلن يخليه الله من هلال يطلع ، فيشرق بدرا وزلال ينبع ، فيغدق
بفضائه بحرا ، وشبل يشدو ، فيزار من غابه ليثا ، وطل يبدو ، فيمطر
من ربابه غيثا .

نفى هذا اقتباس واحد من قوله تعالى « ألم تر أنهم في كل واد
يهيمون » .

ومما صدر عنه عفو خاطر ، ولم يحتفل به احتفال ما قبله ، ما راجع
ابن خاتان ، في الغفارة التي تأخر صرفها عليه ، ادام الله ياويلي جلالك ،
وأبقى حليا في جيد الدهر خلالك ، الغفارة عند من ينظر فيها ، وقد بلغت
غير مضيع تلافيتها ، ويرجى تمامها قبل الصلاة وادراكها ، وتصل مع رسولى
وكانما قد شراكها ، وان عاق عايق ، فليس مع صحة الود مضايق ، والعوض
رايق لايق ، وهو واصل ، وانت بقبوله مواصل ، والسلام عليك ما ذر
شارق ، وومض بارق .

ومع هذه العفوية فانها لم تخل من تأنقات في مثل جلالك مع خلالك
وفيها مع تلافيتها وادراكها مع شراكها وعايق مع مضايق ورايق لايق وواصل
مع مواصل .

ومن رسائله العجيبة التي تنم عن باع له في هيئة النجوم ، ما كتب به
الى الوزير أبى محمد ابن القاسم ، وهى :

تد وقفت اعزكما الله على بدائعكما (1) الغريبة ، ومنازعكما البعيدة

(1) يعنى الفتح ابن خاتان معه ، وكان قد كتب الى ابن القاسم مودعا ، برسالة وصف النجوم ،
لراجعه ابن القاسم بمثلها ، واشتهر امر الرسالتين وتبوى فيه .

القريبة ، ورايت ترقيكما من الزهر الى الزهر ، وتنقاكم الى الدرارى بعد
الدر ، فأبحتما حوى النجوم ، وقذفتماها من ثواقب افهايكما بالرجوم ،
وتركتماها بعد الطلثة ذات وجوم ، فحللتما بسيطها غارة شعواء ، لها
ما عوت اكلب العواء .

هناك افنرست الفوارس ، ولم تغن عن السهاك الداعس ، وغودرت
النثرة نثارا ، وأغشى لالاؤها نقما مئارا ، كان لكما قبلها ثارا ، وأشعرت
الشعريان ذعرا ، قطعت له احداهما اواصر الاخرى ، فأخذت بالحزم منها
العبور ، وبدرت خيلكما وسيلكما بالعبور ، وحذرت للحاق عن أن تعوق ،
عن منحى العيوق ، فخلفت اختها تندب عهد الوفاء ، وتجهد جهدها فى
الاختفاء ، وكان الثريا حين ثرتم بقطينها اتقتكم بيمينها ، فجذتكم بنانها ،
وبذلتكم للخصيب أمانها ، فعندها استسهل سهيل الفرار ، فأبعد بينه
القرار ، وولى الدبران اثره مدبرا ، وذكر البعاد فوقف متحيرا ، وعادت
العوائد بشامها ، والقت الجوزاء نلامانى بنطاقها ونظامها ، فمهلا اعزكما
الله سكنا الدهماء ، فقد ذعرتما حتى نجوم السماء ، ففادرتماها بين برق
وفرقي ، وغرق أو حرق ، فنزحزحا فى مجدكما قليلا ، واجعلا بعدكما للناس
سبيلا ، فقد أخذتما بأفاق المعالى والبدائع لكما قمرها والنجوم الطوالع
فهذه أيضا كغيرها يسودها السجع ، وتتضمن تلميحات وإشارات ، كما فى
قوله « وبذلتكم للخصيب أمانها » فلعله يشير الى بيت أبى نواس :

نفس الخصيب جميعه كذب وحديثه لجليسه كرب

كما نجد اشارة الى قول الشاعر ، فى غير هذا ، وهو :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف ياتقيان
هى شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يمان

وبشير فى غير ذلك كله الى ما عبر عنه آخر بقوله :

اذا دبران منك يوما لقيته أو مل أن القاك يوما بأسعد

وفيهما من الاقتباس نحو « واجمل بعدكما للناس سبيلا » فهو من الآية
« ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ونحوه من القرآن ، فهو
تعبير قرأنى على كل حال .

وهذه رسالة الى زملائه الذين تباروا في الحاق سطور تتخلل رسالة
 لابی القاسم ابن الجد وهى التى قد قدم بين يديها القطعة المذكورة
 فى شعره وهى : فارقت السادة الجلة ، ادام الله عزهم ، بثبات قدم
 عميدهم ، وأبقى عليهم ظله ، عند مجاراتنا الحاق الكتاب ، فكانها كانت منى
 دعوى ، توجب الارتياح ، وكان الفقيه أبو فلان صديقنا اعرف بالقصد الى
 الزيادة ، فى رسالة الوزير أبى القاسم بن الجد ، على ايجاز الفاظها واندماج
 اغراضها ، وجلالة قائلها ، واعندال أواخرها وأوائلها ، فلم أقدم تلك
 العشية شيئا على تسويدها وتذييل برودها ، وان كان المتحكك لذلك الطود
 العظيم ، كموقع الوثنى بالاديم ، ولكن بحكم الاضطرار ، وقصد الاختيار
 للاختبار ، وطرقتنى لصاحبها من الحادث الكارث ما شغل عن صقل وجوهها ،
 وأذهل عن توجيهها ، وحين وجدت الآن فجوة ، وانست العشية وان لم تكن
 سلوة ، وجهت بها بشرطة رفع الدعوى ، وامتحان البلوى ، وصرف عين
 الانتقاد ، وتحسين الظن والاعتقاد ، وقد أعلمت على الزيادة بالحمرة ،
 لتكون فصلا بين الكلامين وعبرة ، ولم يمكنى مفارقة المنزل ، مراعاة لحق
 من يقصد وينزل ، وحذرا أن ينتقد ، من لا يجد ، فليكن الكل عندكم بالامانة
 حتى نجتمع والسلام عليكم يطول اعظاما لجلالكم ويتسع ، ورحمة الله
 تعالى وبركاته (1) .

وبهذه الرسالة نكون قد اتصلنا بنموذج آخر من نثر القاضى عياض ،
 وهى رسالة متممة كانت على سبيل المباراة بين الانداد ، كما اشارة الى
 ذلك ابنه بقوله ، تذاكر رحمة الله عليه مع جلة زعماء ، وقادة علماء ،
 وسادة أدباء ، تعاطوا بينهم كأس الادب ، حتى ذهبت بهم فى التغلفل فيه
 كل مذهب ، فتسابقوا فى ميدانه ، وجرى كل ملء عنانه ، الى أن تصدوا
 التعجيز ، وسدوا باب المسامحة والتجوز ، وقالوا : الغاية القصوى ،
 المعربة عن كل مدح فى الادب دعوى ، أن نكتب رسالة معربة المعانى رائقة ،
 ذات أصول ثابتة وفروع سامقة ، فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها ،
 ولا تخل من مبانيها ، فتطاول لها ، رحمة الله عليه ، وازهار آدابه ثم ،
 وقال : انا لها ولكل أمر مهم ، وعينت له الرسالة ، وكتب ما تقف عليه .

(1) الرسالة المشار اليها بالزيادة فيها مثبتة بالتعريف الصفحة 91 وما بعدها .
 أما أبيات التقديم نسبت بنهاية الصفحة 50 وبداية 51 من هذا الكتاب .

ومن فصول رسائله الاخوانية الواردة بكتاب التعريف قوله :

ليت شعري ااعتب ام اعتب ، واعترف بالذنب ام اذنب ، لا جرم لو علمت لنفسي جرما ، لجعلت عليها برد الشراب حراما ، ولسلبتها لذيت المنام عزا ، حتى يقىء اليها ، من وجد عليها ، ويرضى عنها ، المنظلم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ، واين ما تدعيانه من الوفاء ، احين جدت بنا الحال وشدت للنوى الرحال ، ودعا بنا داعى الزماع ، وخلجت يد وعين للوداع ، اتخذتماني ظهريا ، وصرت عندكما نسيا منسيا ، لا أعلم لكما علما ، ولا القاكم الا حلما ، كان شملنا لم يزل متصدعا ، وكأنا « لطول افتراق لم نبت ليلة معا » ماذا يريب الغريب ، من اغياب الاحباب ، أمجالسة السلطان وموانسة الاوطان ، أبى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يابيت بالعلياء بيت ، أم صدود وملال ، ينافية ذلك الجلال ، أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتهما من الذى يعطى الكمال أم ثم ذنب يوجب الصدود ، ويودى بود الودود ، أسمعاه لارجع الى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عوض الكتاب ، فأعذر ولا أعذر ، وأنصف من نفسى وأعدل ، والسلام .

فهذه رسالة لا تختلف عن غيرها ، وفيها من التضمين ، شطر بيت لمتهم ابن نويرة ، وهو فى قوله :

فلما نفرقنا كائنى ومالكنا لطول افتراق لم نبت ليلة معا
كما ان من القرآن فيه « اتخذتموه وراكم ظهريا » « وكنت نسيا منسيا » .

وهذا فصل آخر من ذلك القليل :

مالى ولك ايها الماجد ، وقاك الله شر كل حاسد ، تسح على سحب بيانك ، وتجرى قبلى طلقا ملء عنائك ، وتكلفنى من مباراتك ما ليس فى وسعى ، وتحملنى من مجاراتك ما يعجز عنه قلمى وطبعى فمهلا قليلا ، لعلنى أشفى من مراجعتك غليلا ، وأعمل فى محاورتك ذهنا قليلا ، والا فاطو فى ذلك بساط العتاب ، وأقنع منى بما يرفع حرج الكتاب ، واكتف بأطال الله بقاءك ، ووصل علاك ، ووقفت على كتبك ، وما تضمنه من آدابك ،

وانا شديد الشوق اليك ، والسلام الجزيل عليك (1) والا فمتى تخطيت الى اكثر من ذلك ، لم تجدنى هنالك ، لا زالت التحيات متوالية لديك ، مترادفة بالامانى عليك ، والسلام الاحفل عليك ورحمة الله .

نكتفى بهذه النماذج من رسائله ، وهى على مستوى عال ، بحكم ذلك العصر الذى كان يحرص كل الحرص على تلك الزينة التى تبدت بها ، وهى على تفاوت فيما بينها من جمال ، يختلف النقاد — ولا شك — فى المناضلة فيها ، وانا افضل الرسالة الثالثة لما فيها من هذه الصور المتلاحقة المتراسة ، بوصول قرب الجلال ، وزهو رتب الكمال ، وجوم طيور الآمال على مشرع مجده العذب ، وكون جنبه الرحب يفص بوفود الاقبال ، السى آخر الرسالة المتخففة من زينتها ، الا ما كان من السجع الذى اصبح لازما والا اقتباسا واحدا ، اثرنا اليه فيما سلف .

أما خطبه ، فهى فى وزنها بين الخطب تختلف كذلك ، واثقلها واخفها فى الميزان ، ما صدر عنه على سبيل التعليم كما يأتى . وما دامت تلك الخطب تلقى على جبهة العوام من المصلين ، فلا ننتظر منها أن تكون على مستوى يروتنا ويهجننا ، كما وجدنا فى رسائله التى توجه بها الى العلية من طبقات الكتاب والوزراء فى الدولة المرابطة ، وكلهم كانوا من الاندلسيين الذين شغلوا مناصبهم هذه بالاندلس نفسها أولا ، ثم استدعاهم يوسف قابنه الى الحضرة ، فكانوا زينتها ومفخرها ، بما فاقت به حاضرة بغداد ، كما فى المعجب .

ومهما يكن فهذه خطبة من خطبه ، يستهلها بقوله :

الحمد لله الذى سبق كل شئ قدما ، ووسع كل شئ رحمة وعلمنا ونعما ، وهدى اوليائه طريقا نهجا أمماو « انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ، لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتن فيه أبدا » أحمد على مواهبه وهو أحق من حمد ، وأسأله أن يجعلنا أجمع ممن حظى برضاه وسعد ، واستعينه على طاعته وهو أعز من استعين واستنجد ، وأستهديه توفيقا فان « من

(1) يكى بهذا من بسيط الاساليب فى الرسائل الاخوانية .

يهدى الله فهو المهند ، ومن يضل فان تجد له وليا مرشدا « الى ان يقول :
ايها السامع ، قد ايقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته ،
ووعظك كتاب الله بزواجه وعظاته ، فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته « وأتل
ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا »
أين الذين عتوا على الله وتعظموها ، واستطالوا على عباده وتحكموا ، وظنوا
ان لن يقدر عليهم حتى اصطلموا « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا
لمهلكم موعدا » غرهم الامل وكواذب الظنون ، وذهلوا عن طوارق الغير
وريب المئون « وظنوا أنهم اليئلا لا يرجعون » « حتى اذا راوا ما يوعدون
فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا » (1) .

نفى هذه الفقرات ، لا يسير على وتيرة واحدة من السجعات ، بل
انه يخللها بآيات ، لا تجمع بينها سبعة منها وفيها من التضمين في الاسلوب ،
توله « وظنوا ان لن يقدر عليهم » فهو من قوله تعالى « فظن ان لن نقدر
عليه » . وصار يذكر بأحوال القبر ومواقف القيامة ، وما تنتهي اليه من
جنة ، ذات بهجة وحدائق ، او نار ذات لهب وصواعق ، وضمن ذلك آية
واحدة فقط .

وقد اقتصر ابنه في التعريف على الخطبتين اللتين سقنا منها هذه
الفقر ، وذكر ان خطبه مجموعة في كتاب .

وهذه خطبة له في الحز على التوكل تكاد في صوغها لا تختلف عما قبلها :
عباد الله ، سلموا الامور الى من بيده أزمة مقاديرها تنجحوا ، واشتروا
تلويكم باخلاص التوكل على الله تريحوا ، واعلموا أن الحرص لا يزيد المرء
على ما قسم له ، وتصاريق الدهر تقطع لكل أمل أمله ، وانما يدرك الانسان
بسعيه ما كتب له لا ما طلب ، ويبلغ بكده ما قسم له لا ما أمل واحتسب ،
فأجملوا رحمكم الله في الطلب توفقوا ، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا ،
وأريحوا أنفسكم من النصب في طلب الدنيا والكد فانه لا مانع لها اعطى الله ولا
معطى لها منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، الا وأن التوكل على الله والثقة
به أحد ابواب الايمان ، ومن أفضل درجات العدل والاحسان ، وهو حقيقة
العبودية والتوحيد ، وموجب الرضى والتسليم للرقيب الشهيد ، فقد جرى

(1) وردت كذلك بالاحاطة كما ورد بها كثير من اشعاره السالفة .

القلم بما كان ويكون ، ونفذ قضاء الله بكل خير وشر وحركة وسكون ، وانقطعت الاطماع عن تأمل غير ما تقدم من مشيئاته ، (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) ، ففيم التعب والطلب وقد سبق لك في الكتاب ما سبق ، وعلى م اللهف والاسف على أمر قد فرغ منه قبل أن تخلق ، الم يضمن لك ربك رزقك وما وعد في سمائه ، الم يعلمك أنه لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، فعامل ربك أيها العبد بالتوكل والتسليم ، تفز بالعيش الهني والثواب الجسيم .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال ، كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال يا غلام ، انى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الاقلام وطويت الصحف ، ان احسن الحديث وأبلغ المواعظ كلام الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) جعلنى الله واياكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، واتقاه سبحانه حق تقاته ، وغفر لى ولكم ولجميع المسلمين .

وهناك خطب أخرى اتى بها المقرئ في أزهار الرياض منها خطبة في سور القرآن على نحو القصيدة السالفة فيها ، وشك المقرئ في نسبتها اليه لنزول أسلوبها عن أساليب عياض ، ولا معنى لهذا الشك في تلك الخطبة التعليمية والا لكانت القصيدة بذلك الشك . وعلى كل حال فائنا لا نلتمس لعياض مزية في تلك الخطب الملقاة على العوام ، والخطبة التى أريد بها تسجيل الصور القرآنية وانما نلتمس له بعض المزية — لا كلها — في الخطب التى اغتتج بها كتبه ، فمنها خطبته لترتيب المدارك هكذا :

« الحمد لله الذى أسبغ على عباده بفضلته نعمة لا تحصى ، وقدر على من شاء بعدله أن يطاع ويعصى ، وعين أهل الجنة والنار بقبضة القضاء ، وميز في ظهر آدم بين طائفتي السعادة والشقاء ، ثم انتقى منهم ليتم عدله خواص وأصفياء ، وجعل فيهم رسلا وأنبياء ليوضح بهم لمن أراد هدايته منهاجه ، ويقيم على من صد عنه وصدف عن آياته حجاجه ، فبذلوا في ذات

الله جدهم ، ونصحوا العباد جهدهم ، الى أن اختار الله لهم ما عنده ، وتقضى كل واحد منهم ما كتب له من أثر ومدة ، عليهم من صلوات الله ما لا يحيط به حصر ولا عدة ، ثم تمم الله على المؤمنين فضله ، وختم أنبياءه ورسله بأرجحهم ميزانا ، وأرفعهم مكانا ، وأكرمهم أخلاقا ، وأطيبهم أعراقا وأطولهم في الفضائل باعا ، وأكثرهم أمة وأتباعا ، أبى القاسم سيد ولد آدم ، صلى الله عليه وسلم ، كما شرف وكرم ، فجاهد في الله حق جهاده ، وزايل الجلائل الصعبة في ارشاد عباده ، حتى أقامهم على سواء محجته ، وأخذهم طوعا وكرها ببالغ حجته ، وساقهم في السلاسل الى جنته ، ودخلوا في دين الله أفواجا بدعوته ، فأنجز الله به وعده ، وعبد الله تعالى وحده ... الى آخر المقدمة .

ومثلها خطبة كتاب « الشفاء » هكذا :

الحمد لله المنفرد باسمه الاسمى ، المختص بالملك الاعز الاحمى ، الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى ، الظاهر يقينا لا تخيلا ووهما ، الباطن تقدسا لا عدما ، وسبع كل شىء رحمة وعلما ، وأسبغ على أوليائه نعمًا ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أنفسهم عربيا وعجما ، وأزكاهم محتدا ومنمى ، وأرجحهم عفة وحلما ، وأوفرهم علما وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم رافة ورحما ، زكا روحا وجسما ، وحاشباه عيبا ووصما ، وآتاه حكمة وحكما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا وآذانا صما ، فأمن به وعززه ونصره من جعل الله تعالى له في مغنم السعادة قسما ، وكذب به وصدف عن آياته من من كتب عليه الشقاء حتبا ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » ، صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى ، وعلى آله وسلم تسليما ..

أما بعد أشرق الله قلبى وقلبك بأنوار اليقين ، ولطف لى ولك بما لطف بأوليائه ، الذين شرفهم بنزل قدسه ، وأوحشهم من الخليقة بأنسه ، وخصهم من معرفة ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة ، ووله قلوبهم فى عظمتة حيرة ، فجعلوا همهم به واحدا ، ولم يروا فى الدارين غيره مشاهدا ، فهم بمشاهدة جماله وجلاله ينعمون ، وبين آثار قدرته وعجائب عظمتة يترددون ، وبالانقطاع عليه والتوكل عليه يتعززون

الى آخر المقدمة التى فيها نفحة صوفية نبوية ، تمتاز بها عن الاولى

أما من الناحية الفنية ، فالقديمان ، تلتزمان السجع - على العادة - وهذا يكلفهما أحيانا بعض الكلف ، خصوصا في الأخيرة ، مثل « أنفسهم عريا وعجبا » وتستعملان محسنات ، كالجناس في « تحصى ويعصى » و « باعا واتباعاء » و « محجته وحجته » و « نعماء عماء » و « أنفسهم وأنفسهم » و « حكمة وحكما » و « تنبو وتنمى » و « وصد وصدف » و « الإسمى والاحمى » و « جبرة وحيرة » و كالطباق في « يطاع ويعصى » و « الجنة والنار » و « السعداء » و « الثقاء » و « طوعا وكرها » و « الظاهر والباطن » و « عريا وعجبا » و « روحا وجسما » و « فآمن به وعززه وكذب به وصدف عن آياته » و « السعادة والثقاء » (في المقدمة الثانية أيضا) و « أوحشهم » و « ملأ قلوبهم وولع عقولهم »

وكالانتباس في « والظاهر والباطن » و « جاهد في الله حق جهاده » و « دخلوا في دين الله أفواجا » و « ووسع كل شيء رحمة وعلما » و « بعث فيهم رسولا من أنفسهم » و « آتاه حكمة وحكما » و « فآمن به وعززه ونصره » و « صدف عن آياته » فهذا من قوله تعالى : (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وقبله (وعزروه ونصروه) وقبل هذه (وآتاه الله الملك والحكمة) وجاء الى جانب هذا الانتباس بتضمين نص الاى ، مثل « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » وقل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ثم هناك انتباس من الحديث « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » .

وهي خطبة تذكر بالانعاظ من صروف الدهر وزواجره ، وتحدث على تهذيب السرائر بالتقوى والاخلاص الى الله والشكر لنعمه ، والحذر من نقمه ، وفي هذا الصدد يأتي بالآيات القرآنية العديدة ، يختم الخطبة منهما بهذه « ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

وهذه خطبة أخرى يفتتحها بالحمد لله مبدى الحقائق ، ومبىدى الخلق . ومبدع السبع الطرائق ، ومزينها بالكواكب الشواهد واسمى على هذه الوتيرة التى تتخللها الاسجاع القافية ثم يتوجه الى المستمعين ويحضهم على سلوك جادة الطريق وترك ما عداها « ولا تفرنكم الدنيا

بكواذب المخارق ، فانها كثيرة البوائق ،،، نازكة لمن هام بها مفارق ،
تدير دوائرها بكل صامت وناطق ، كم اهلكت قبلكم من الخلائق ، وطوت من
الفراعين والعمالق ، وطوحت من القياصر والبطارق ، وطرحت العصم من
اعلى الشواهد ، واستقطعت من الجو كل خرق الجناح خافق ، وكم ذى بشطة
ومنظر فائق ، بعيد الصيت في جميع الخوارق ، قد شيد الحصون في كل
حالق ، واوصد الابواب والمغالق ، وارصد الجيوش والفيالق ، بفترا
بمساعدة دنياه واثق ، فما راعه وهو في بلهنية من عيشه الرائق ، حنى
رمته بثالثة الاثافي وحالقة الحوائق ... »

وهكذا استمر في سوق هذه الاسجاع ، التي عرفت بها العربية في
خطبها بالجاهلية والاسلام ، كما عرفت بتلك المواقف الاعتبارية في العصور
الخالية ، وملوكها الجبارية ، منذ خطبة ابن ساعدة الايادي .

زيادة على هذه الجناسات المتأنقة في « مبدى الحقائق ومبـدئ
الخلائق » « وطوت وطوحت وطرحت » وغير هذه مما نجده في باقى الخطبة
وقد ضمن هذه الخطبة شيئاً من القرآن ا كتوله : قطينا لذلك الحفر
الى « يوم تبلى السرائر » وتعرض الخلائق .

ومن تتبع قراءة كتبه التي بأيدينا فلا يعدم ان يجد بها نماذج طيبة من
النثر ، مثل قوله في الشفاء ، قبل الابيات الواردة في مدينة الرسول عليه
الصلاة والسلام :

وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل ، وتردد بها جبريل وميكائيل ؛
وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح ؛
واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم ما انتشر ؛ مدارس آيات ، ومساجد وطوات ،
ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ؛ ومناسك الدين ،
ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومنبؤا خاتم النبيين ؛ حيث
انفجرت النبوة واين فاض عبابها ، ومواطن طويت فيها الرسالة ، وأول
أرض مس جلد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ترابها (1) ؛ — ان تعظم

(1) أخذ هذا من قول الشاعر :

بلاد بها نيلب على تماثيى وأول أرض مس حدى ربها

عرصاتها ، وتنقسم نفحاتها ، وتقبل ربوعها وجدراتها .

وللقاضى عياض وقفات نقدية تنعكس على آثاره الادبية التى قدمنا ، وهو جانب هام فى كتابه « بغية الرائد » وهذا الجانب الذى يهمنى من الكتاب ، فى النقد الأدبى ، يعد من أقدم ما لدينا للمغاربة فيه ، ولا غرو فى هذا فالقاضى عياض بآثاره العديدة ، أقدم شخصية علمية فى التاريخ المغربى على الإطلاق ، وما زالت الايام تطالعنا أو تطلعنا على كنوزه الخفية ومنها هذا النقد الادبى ، الذى لم يعرف للمغاربة منه الا القليل جدا ، وفى لمحات خاطفة كذلك ، كما نجد للشريف السبتي والسجلماسى وابن البنا . واستمر النقد هكذا ، حتى كان فى القرنين الحادى والثانى عشر ، احمد بن يعقوب الولاى المكناسى ، ينبعث به فى شرحه للتلخيص « مواهب الفتاح » ففى هذا الشرح نجد له كثيرا من المواقف النقدية الهامة (1) .

وصنيع عياض فى كتابه فريد ، وهو وليد له ، كما قال « مما لم يتقدم فيه كلام بلغه عظمى وانتهى اليه ذكرى » هكذا قال ، وان كان فى مواقفه النقدية الادبية يفصح باعتماده على علماء النقد والبلاغة ، كالرمانى والباثلانسى والحامى والثعالبى والبستى والامدى والخفاجى والاخفش والمعرى .

ويستشهد بها يستشهدون به أشعارا غالبها من ديوان الحماسة لأبى تمام ، ولم يذكر من شواهد مغربية الا واحدا له فى المتشابه وهو (2) :
إذا ما بسطت بساط انبساط فممنه فديتك فاطو المزاها
فان المزاح كما قد رآه أولو العلم قبل عن العلم زاحا
والنماذج التى يستجدها كثيرا ما نجده فيها يصف الكلام ، بكثرة فصوله وقلة فضوله ، مختار الكلمات واضح السمات ، قد قدرت الفاظه قيس معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، ووصف آخر ، بصدق تشبيهه ، وصقالة وجوهه ، قد جمع من حسن الكلام انواعا ، وكشف

(1) اشرنا الى بعضها ، فى تناولنا لتاريخ البلاغة العربية الذى جعلناه كقدمة على كتاب « دلائل الاعجاز » الذى علقنا عليه ولم نكن آنذاك قد اطلعنا على هذه « البغية » والا لجعلنا ما فيها تاجا على مرق النقد الادبى للمغاربة ، كما اننا لم نكن قد اطلعنا على « منهاج البلغاء وسراج الادباء » لحازم القرطبى ، والا لكنا قد توحنا به حركة النقد الادبى عند الاندلسيين .

(2) هكذا ورد البيتان ، والمعروف لنا فيهما « فممنه فديتك » ثم « كما قد روى » وهو اظهر واليق بالتركيب والاصطلاح .

وطبق بعض نظراته على ما ورد في أحاديث النسوة ، فقال في قول
أحدها « زوجي لحي جمل غث ، على رأس جبل وعر أو وعث » :

ان هذه المرأة أودعت أول كلامها تشبيه شيئين بشيئين ... فشبّهت
باللحم الغث بخله وقلة عرقه ، وبالجبل الوعث شراسة خلقه وشموخ
أنفه ... ففصلت الكلام وقسمته ، وأبانت الوجه الذى به علقت التشبيه
وشرحته ، فقالت ، لا الجبل سهل ، فلا يشق ارتقاؤه ، لأخذ اللحم الغث
المزهود فيه ، لان الشيء المزهود فيه ربما أخذ اذا جاء عفوا ... ثم قالت
ولا اللحم سمين فيحتمل في طلبه ... مشتقة صعود الجبل ومعاناة وعورته ...
فقطع الكلام عند تمام التشبيه والتمثيل ، وابتدأه بحكم التفسير والنفصيل ،
التيق بنظم الكلام ، وأحسن من نفى التبرية وسرد الصفة في نمط البيان ،
وأجلى في رد الاعجاز على صدور هذه الاقسام .

ثم أتى بنظائر لهذا التقسيم المفصل من القراءان الكريم ، فقال في
ذلك : وحيث وردت المنفيات فيه لصفات أشياء ، او لشيئين يخنص كل
واحد منها بوصف ، وقصد كل شيء منها بنفى عيب ، ابتداء الكلام حينئذ
مستأنفا فقال : « بفضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول » ، ولا هم عنها ينزفون »
فقوله « لا فيها غول » من صفات المشروب وقوله « ولا هم عنها ينزفون »
من صفات الشاربين ، وهذا من الترتيب البديع والتناسب العجيب ... ومثله :

قلبى وطرفى منك هذا فى حمى قىظ وهذا فى رياض ربيع

فانه حمل « حمى القىظ » ، على القلب .. وحمل « رياض
الربيع » ، على الطرف ... فتناسب النظم على نسقه ، وتطارد
الترتيب ، وفى الفصل الذى عقده أخيرا للبيان ، تعرض — كما قال —
لفنون البلاغة ، والابواب الملقبة بالديع ، من لفظ رائق ، ومعنى فائق
ونظم متناسب ، وتاليف متعاقد متناسق ... من الكلام الفصيح الالفاظ ،
الصحيح الاغراض ، البديع العبارة ، البديع الكناية والاشارة ... فكرر ما
سلف له مختصرا ، فى كون جمال الكلام من حيث الانسجام واحسان النظم
فيه ، مع مراعاة فصاحة الفاظه وصحة معانيه ، وتلون العبارة بصور
البيان والبديع ، من نحو الكناية والاستعارة والتشبيه ، كما جاء ذكره بعد
قوله السالف .

ويقول في مهمة التشبيه ، انه « أحد أنواع البلاغة ، وأبداع أفانين هذه الصناعة ، وهو موضوع للجلء والكشف ، والمبالغة في البيان والوصف ، والعبارة عن الخفى بالجلي ، والمتوهم بالمحسوس ، والحقير بالخطير ، والشئ بما هو أعظم منه واحسن ، أو أخس وأدون ، وعن القليل الوجود ، بالمعهود المألوف ، وكل هذا لتأكيد البيان ، والمبالغة في الايضاح ، ثم صار يمثل بآى من القراءان الكريم لذلك ثم قال ، وقد يتع تشبيه الشئ بالشئ تشبيها مجردا ، ليس فى شئ من الابواب المتقدمة ، كقول امرئ القيس :

كأن تلوب الطير رطبا ويابساً لذي وكرها العناب والحشف البالى
لكنه يلحق بنوع التوليد والتخريج ، الذى بلاغته الفطنة لادراك التشبيه ، لا غير ، وصدقه فيه ، وان كان لبعضهم فى هذا البيت مقال لا ارتضيه .

ومن قبل هذا مثل للتخريج والتوليد لغريب الشبه ومخيلة المتال ، وهو وجه بلاغته ، بقول المعرى فى كف الثريا :

كان يمينها سرقتك شيئاً ومقطوع على السرقة البنان
وعلى كل فقد شرط فى التشبيه ان يكون صادقا من الوجه الذى وقع به التشبيه ، والا اختلف به الكلام ، كما قال :

اما بيت امرئ القيس الذى نظر الى معناه الآن ، فقد سبق له ان نظر الى وصفه ، وأعجب به من حيث التناسب فى الاتيان بالعناب للقلوب الرطبة وبالحشف لليابس منها ، على الترتيب والتسويق فى الذكر ، الاول للاول والثانى للثانى ، كما قال بعضهم :

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد ملء السامع والامهام والمقل

وفى الترصيع قال ، وقد يسمى بالموازنة وبالتسميط وبالتضفير وبالتسجيع ، وهو ان تتضمن الفقر او بيت الشعر مقاطع اخرى بقوافى متماثلة ، غير فقر السجع وقوافى الشعر اللازمة ، فيتوشح بها القول ، ويتفصل بها نظم اللفظ ، كما اتت بجمال فى وسط الفقرة الاولى وجبل فى وسط الفقرة الاخرى ، فيما به التمثيل آنفا ، وجعل منه « فائرن به نقعا

فوسطن به جمعا « ففيه مقابلة . وبعد ما تكلم عن المجانسة ، قال : واختلف أرباب البلاغة والفقد في هذا النوع (من البديع) اذا لم يكن مشتقا من أصل واحد ، فسموها بعضهم مجانسة تغليبا للاكثر ، وأما أبو الفرج قدامة ، فسمى هذا النوع مضارعة ، ومثل له بسرى مع شرى ، وغساح مع فياح ، وعجز مع بجر وتعشيش مع تغشيش ، ولكنه قال : وأما التجنيس الحقيقي فهو أن يكون في الكلام لفظتان ، أحدهما مشتقة من الأخرى ، مثل « انصرفوا صرف الله قلوبهم » ومثل « الربا ويربى » أو بمنزلة المشتق نحو « تتقلب فيه القلوب » ونحو « وأسلمت مع سليمان » وكله من القرآن الكريم أو تكون لفظتان على صيغة واحدة مختلفتى المعانى ، نحو « الظلم ظلمات » وقريب منه « ناضرة الى ربها ناظرة » .

وكان أبو الفتح البستي يسمي ما كان على قول الأفوه « ملقى عظام لو علمت عظام » متشابهها ، قال عياض ، « واخترع قوم من المتأخرين أنواعا غريبة سموها تجنيس التركيب ، كقول المعري :

مقاليتا مقاليتا ومطايا مطايا

وهو — كما قال — نوع متكلف من غير حدود البلاغة ، اذن فشرط البلاغة عنده خلوها من التكلف ، وهى قولة قيمة ردها غير ما مرة ولكنه مع هذه القاعدة ، استثنى فقال ، « ربما يندر منه المستحسن ، كقول الميكالى :

تمت محاسنه فما يزرى بها مع فضله وسخائه وكماله
الا قصور وجوده عن جوده لا عون للرجل الكريم كماله

وقال البستي « فهل لمنهاجى من هاجى » « فدعنى فان يقينى يقينى » وقول الآخر « ارى قديمى اراق دمي » .

والحقوا به تجنيس التصحيف ، وهو مشاركة صورة الحرف في الخط دون اللفظ ، وهذا — كما قال — لا يدخل في باب البلاغة المستجادة ولا المتكلفة أصلا ، ولا في شئ من حدود الكلام ، ولا صناعته ، اذ لا يقرع السمع منه لهجة ، ولا يقوم له في النطق حجة ، وقد رأيت أبا منصور الثعالبي ، قد عد هذا الباب في باب التجنيس ، وذكر فيه قوله تعالى « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » وأشبهها لهذا من الكلام ، وليس عندي من

هذا الباب ، وهو من الباب الاول الذى سماه قدامة بالمضارعة ، وهو التجنيس فى أكثر الكلمة أو بعضها ، وذكر فى هذا الباب قول بعضهم ، النار فى الفتيلة كالتعادى للقييلة ، والصب مع الصب ... وشبه هذا فلم يحسن هذا ، ولم يقل شيئاً لأجل صورة الحروف ، إذ لاحظ لهذا ، كما قلنا ، فى الفصاحة ، ولاحظ له من التجنيس .

وفى كلامه على المطابقة قال ، هو مقابلة الشيء بضده ، ومثل له بالوعر مع السهل ، والغث مع السمين ، وهو مما يحسن الكلام بمقابلته ، ويروق بمناسبته ... واختلفوا فى تلقيه ، فكان قدامة يسمى هذا بالتكافى ، وخالفه فى هذا الجميع ، ولا يكون هذا النوع عنده ، متكافئاً إلا إذا كانت الكلمة وضدها الحقيقى ، مثل السمن والهزال والسهولة والوعورة ، والسواد والبياض ، والنطق والسكوت ، أما البياض مع الحمرة ، والسواد مع الضوء ، فبعضهم يجعله طباقاً ، ويجعل آخرون طباقاً غير محض أو مخالفاً ، والاول مطابقتاً .

أما نحو أسد وفهد ، فهو مقابلة ، ولا يسمى طباقاً ، ثم مثل للمقابلة أيضاً بقول المرأة « لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى » عند أهل النقد مقابلة ، كما قال ، فحملت (المرأة) اللفظ على اللفظ ، وردت المقدم الى المقدم ، والمؤخر الى المؤخر ، فتقابلت معانى كلماتها ، وترتبت الفاظها ، كما تقدم لها وفى الآية بعد ذلك .

ثم تكلم عن لزوم ما لا يلزم قال ، وبعضهم يجعله أحد أنواع الترصيع ، فى « فيرتقى وينتقى » التزام القاف والتاء قبل القافية الالف المتصورة وكذلك التزام القاف فى « ينتقل ويتوغل » قال ، وهذا نوع زيادة فى تحسين الكلام وتماثله ، واغراق فى جودة تشابهه وتناسبه ... وأولع به المتأخرون ، فمن مجيد ومن مقصر ، وبالجمل ، فلا يحسن منه ، ومن جميع ما بخضنا القول عنه ، إلا ما ساقه الطبع ، وقذف به خاطر ، دون تكلف ولا مقاساة ، ووجد لفظه تابعا لمعناه ، منقادا له ، موضوعا عليه ، غير مرغم فيه ، ولا منافر له .

فهو يكرر هنا شرط عدم التكلف والاكراه ، ويجعل الزينة اللفظية خادمة للمعنى ، وبذلك وبالنظم سلفا ، يكون كعبد القاهر الجرجاني وكالذين

قائلوا ان المعانى ارواح والالفاظ اشباح ، وقال بذلك الجاحظ نفسه ، مع تقديره للالفاظ فى الشعر ، كما قال به ابن شرف القيروانى .

نكتفى بهذه اللحات والالاعات ، كما سماها عياض ، وهى تدل على ما كان عليه الرجل من اطلاع ونفوذ نظر ووضوح بصر بالنقد وقد اشرفنا على العهد الموحدى ، نريد أن نلقى نظرة على هذا العهد المربطى الذى سنودعه ومعهم القاضى عياض لقد كان الادب لهذا العهد ادبا يطبعه الطابع الاندلسى فى شكله وموضوعه ، ينجلي ذلك فى ابن زنباع وعياض اللذين اتصل ادبهما بشخصيات كانت من جهاذة الادباء الاندلسيين ، ومن رجال الدولة التى كانت عناصتها تزخر بهم (1) كما كان المعتمد ابن عباد ، حيا وميتا ، بالمغرب ، عاملا من عوامل هذا الطبع الاندلسى فى ادبنا ، فلقد كان الشعراء وعلى رأسهم ابن اللبانة وابن حمديس الصقلنى ، الذى لم يكن شعره كذلك يختلف فى شىء عن الشعر الاندلسى ، يترددون على هذا الملك الاندلسى أو يلزمونه ، فيطارحونه الشعر ، ويكون لذلك اصداؤه عند غيرهم ، كما كانت اصدااء المراثية ، التى أنشدتها ابن اللبانة على قبره تفعل فى الناس فعلها الصاحب ، الذى يصوره كتاب الثلاثد ، وكأنى بالقوم عامة كانوا مستعدين لهضم ما كان يلقى من ادب غرض شهى على مائدتهم الحافلة ، فابن عباد يجد من يداخله فى ميوله ، حتى فى أولئك الفاسيين الذين كانوا يشاركونه ظلام السجن ويسامرونه فى أهواله ، ولهذا نجده يحزن كل الحزن ، حينما يفارقونه مودعين وقد أطلق سراحهم ، ويصور ذلك الحزن لفراقهم فى شعر شجى صدر عنه ، ضمن اشعاره الشجية .

(1) اذ نرى انه بالرغم من سيطرة الفقهاء على يوسف بن تاشفين فان المراكشى يقول « وانقطع الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم (عهد الرشيد والمأمون) واجتمع له — ولابيه من بعده — اعيان الكتاب وقرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار ومن كتب لامير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله ابوبكر المعروف بابن القصيرة احد رجال الفصاحة والحائز تصب السبق فى البلاغة » . ثم كتب له ولابيه بعد ابى بكر الوزير ابو محمد عبد المجيد بن عبيدون . ويذكر أيضا فى كتابه المعجب ان على بن يوسف كان يد هذه الحركة بكثير من رجال الاندلس فيقول : ولم يزل أمير المسلمين أول امارته يستدعى اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجيد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة وابى بكر محمد المعروف بابن القبطرنة وابى عبد الله محمد بن ابى الخصال وابى مروان بن ابى الخصال وابى محمد ابن عبيدون عبد المجيد بن عبيدون .

حقيقة ان أولئك الذين أعولوا في أغبات ، وصادقوا في جنبات السجن ، لم يكن ذلك كله منهم ، للدب بقدر ما كان منهم لذلك العز الذى ذل ، وذلك العرش الذى زلزل ، ولكن مع ذلك لا ننسى عامل الادب فيه ، مهما كانت الظروف .

لقد كانت قصيدة ابن زنباع الربيعية ، قصيدة لو رأى مثيها صاحب « البديع » لالحتها بأشعار الاندلسيين في « الربيع » كما كانت ابيات عياض وهو بقرية داي ، أندلسية في روحها وتنفساتها ، وكانت قصيدة ابن زنباع ، وهو يشكر الوزير ابن القاسم على تعزيتة في مقعد عزيز له ، أندلسية في جوهرها وعرضها ، وكانت قصيدة عياض ، التى وجهها الى وزير ..» الغالب أنه كان ابن القاسم ؛ ورسالته التى الحقها برسالة أبى القاسم ابن الجد ، مفعمتين كلفاهما بالجو الاندلسى الخالص .

واذا توجهنا الى الاغراض ، فهى في الادبين ، تتضمن مديح الكبراء ، ومخاطبة الاخوان من الوزراء ، والاشادة بأعمالهم وأخلاقهم وتتضمن وصف المشاهد ، من القاضيين معا .

كان هذا منهما لا يتعدى المحيط المذهب ، فليس لهما هجو ، وان لم يخلوا من عتاب أخوى ، وهذا اندلسى في مظهره العام ، لان شعراء الاندلس ، كانوا قليلا ما يلجون بالهجو ، كما حصل من ابن عبد ربه ومنافسه القلقاط ، وكما حصل بعدها من اليكى متلا ، كما أن الرئاء لم يكن منهم مثلما كان بالشرق وعند العرب قديما ، بل كان منهم مواقف اتعاطية وامعانيات في سر الحياة والموت ونطاقتهما الذى لا يفلت منه الجبابة وطفاة الدهور الغابرة ، مما نجده في مرثية ابن عبدون لبنى الافطس ، واخيرا في برثية صالح الرندى للاندلس الاسلامى .

والرئاء كالهجاء ، لم نجد لهما حسا فيما تقدم من شعر المغاربة ، وما قيل في تلك المواقع والمواقف الحاسمة ، لا يعد من قبيل الهجاء بمعناه العاطفى ، بقدر ما يعد داخلا في السياسة وخطوطها العريضة التى كانت مع الاندلس في نحو ما قال الخالدى عند فتح سبنة وما قاله غيره في الادارسة وعاصمتهم ، مما نجده في البكرى متلا ونادرا ما عثرنا على الهجو في عصرنا كما حصل من ابراهيم بن الحسن الادريسى وعبد المومن السجلماسى

الشيء الوحيد الذى وجدناه فى الاندلس ولم نجده فى المغرب لذلك العهد ، هو الخمرىات ، وان كان لها حسيىس عند ابن زنباع الذى ذكر الكؤوس والشراب وما يقعله فى النفوس على سبيل التشبيه فى ذلك وليس على سبيل الحدوئ من صاحبه .

وكانت الرحلة الى المشرق ، سواء فى ذلك ادناه وأوسطه ، فى العهد المرباطى على أشد ما تكون رحلات المغاربة اليه لأن الدولة نفسها كانت متعلقة بالشرق تعلقا كليا ، لدرجة انها كانت تعتبر خايفة بفداد ، هو الخليفة الشرعى للبلاد ، فتنخذ العملة باسمه ، وتذكره فى الخطبة وتتخذ شعاره الأسود فى اعلامها وغيرها ، وهذا مما زاد ولا شك فى اتجاه المغاربة ورجال العلم منهم خاصة نحو المشرق ، ونظرة الى كتب التراجم المشرقية ، تجعلنا نشاهد من هؤلاء مثل ، أبى هرون موسى بن عبد الله بن ابراهيم الاعماتى ، الشاعر العالم النظار الذى قصد مصر والحجاز والجال (ما بين أصفهان الى زنجان) وخراسان واقام بنيسابور وبخارى متفقا بها كما يقول ياقوت الذى ذكر فى معجم الأدباء عند ترجمة عمر النسفى انه الف كتابا فيه سماه « عجالة النخشىبى لضيغه المغربى » ، ومثل على بن يقظان النسبى ، الذى ورد على مصر ومضى منها الى اليمن ، وزار العراق ودار فى الآفاق بشعره ، ومثل أبى محمد عبد الله بن تويت اللمتونى ، الذى قدم المشرق للحج وطلب العلم فاقام به طويلا ، كما قدم اليه أخوه الفقيه أبو يعقوب يئان المتوفى بزبيد من اليمن ، ومثل عمران موسى بن محمد بن خطاب الكندى السبى الذى توجه الى المشرق وانشد به شعرا كثيرا للمغاربة ، كما انشد لنفسه . وهؤلاء الثلاثة ذكرهم السلفى فى معجم السفر ، اما الاول فقد ذكره العماد فى خريدة القصر . وقد نشأ من هذا النشاط لون جديد فى أدبنا كما سنرى . ولاول مرة نجد المصادر الشرقية شعنى برجال المغرب وعلمائه . والملاحظ من هذه المصادر ، ان اماكن كثيرة اخرى صارت تنفس بالادب ، مثل مدينة اغمات ، ومراكش التى ذكر منها العماد عبد الله بن حماد المراكشى ، بعد سجلماسة التى ذكر منها عبد المومن بن يحيى السجلماسى ، ومثل مكناسة التى ذكر منها محمدا المعروف بينطلق ، كما ذكر العماد من فاس حماد بن الرفا الفاسى .

ومن شعر عبد الله بن حماد المراكشي قوله :

بست ليلى اناثر النوم حتى لاح لى الصبح لا اغمض عينا
وكأنى لما وعدت ضرير اجزم قد اناك يطلب دينا

ومن شعر عبد المؤمن السجلماي قوله فى هجو قاض :

ايا عرة فى جميع القضاة واجور قاض قضى واحتكم
امثلك يصلح فى قطننا يلى الحكم فى الشرع بين الامم

ومن شعر ينطلق قوله فى الفراق :

ان يوم الفراق يوم عسير يتوقى وقوعه المهجور
كم اديلت للشوق فيه دموع واستحرت للبين فيه صدور
واغتدى العاقل الصبور جزوعا للنوى والنوى عليه امير
اى عقل ييقى واى اضطبار لحب فؤاده مستطير
اذ احباؤه اشاعوا ارتحالا بينهم غدوة وقالوا المسير
ومطايهاهم تشد ولم يي ق سوى ان يقال للركب سيروا
لو ترانى يوم ارتحال المطايا وينان الحبيب نحوى يثير
لرايت امرا اجن من الشو ق فاضحى كأنه مسحور
ليس يستطيع ان يودع حيا دونه كاشح له وغبور
لم يزل يتبع الحبيب بطرف دمه للفراق دمغ غزير
وينادى والشوق يضرم فى الاحد شاء نارا لها لديه سفير
بالاهى قرب مزار حبيبي ولانت القدير نعم النصير

ومن شعر حماد بن الرما الفاسي قوله من قصيدة فى الاستعطاف :

دع العنب وارجع لى حنائيك للعتبي وواصل الى الكتب واغتفر الذنبا
وكن كالذى ما زال فى الناس محسنا وان هم اتوا ذنبا وهاجوا به كريبا
وللعفو عن ذنب المسىء عبادة تطيب بها ذكرا وترضى بها الريا
وتحرز فى اثنائها خير مكسب يكون جمالا فى الحياة وفى العتبي
فان اعتراضى اننى لك مذنوب يجدد لى عهدا ويثير لى قريبا
لعل الليالى نستجد لقاءنا فاشكو بعبادا زادنى فيكم حبا
لقد طال هذا البعد حتى اذاقنى عذابا ولقائى به خطبه خطبا

الى ان يقول :

إذا الريح هبت من سماء أرضكم
واستخير الركبان عنكم لعننى
فلا مبلغ عنكم الى رسالة
فارجع مكلوم الفؤاد معذبا
لعمل الذى اقضى بنا لفرق
يسنى لنا لقيا ويسنى لنا قريبا

ومن شعر ابن يقطين المذكور قوله :

صبا الفؤاد لريم رمته فابى
عاطيته الكأس فاستحيت مدايتها
حتى اذا غازلت اجفائه سنة
ظلنا به طربا من حسن نغمته
وله ابيات :

الخواننا ما حلت عن كرم العهد
وكم من كؤوس قد ادرت بؤدكم
احن الى مصر حنين متيم
ومنها :

اراهم بلحظ الشوق فى كل بلدة
ولو ان طعم الصاب جرعت قههم
وتخلص فقال فيها :

فكم قد قطعنا من مناوز بعدهم
الى ان وصلنا الموصل الآن فانتهت
وخضنا بها الصعب المرام من الوهد
بنا لجمال الدين راحلة القصد

ومن شعر ابن شقرق قوله فى سفينة :

تخذت جناحا مثل تلبى خافقا
تسرى وترجيبها الرياح اذا سرت
تستعذب الملح الاجاج لدى الظما
وحوت قوادم كل طير مسرع
وتمر مر العارض المتشبع
مهما العطاش وردن عذب المشرع

وقوله في مولود ولد عند موت أخيه :

الله اكبر بدر تم اطلعا	في اثر بدر بالانول تقنعا
وبكى الغمام لذاك منتحبا كما	ضحك الزمان لذا غداة تطلعا
فمعبت من قمرين ذلك آمل	بادى السرار وذا تبلج مطلعا
وعجبت من غصنين ذلك ذابل	بادى النحول وذا رطيب اينعا
وعجبت من عين بذا قرت وقد	سخت بمصرع ذاك في حال معا
يا من رأى من سر حالة حزنه	ورأى الهناء مع العزاء تجمعا (1)

ومن شعر الأغماتى قوله وهو بنيسابور :

لعبس الهوى انى وان شطت النوى	لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في اقصى خراسان نازحا	فجسى في شرق وقلبي في غرب (2)

وقبل أن نودع العهد المرابطى نرى أن أدبيه الشاعر هو ابن زنباع ،
ان صحت مغربيته ، وأن أدبيه النائر هو القاضي عياض على الاطلاق
والاستفراق .

(1) تمامها في المريدة مع أبيات أخرى له كثيرة تركناها كما تركنا غيرها من شعر ابن يظان المذكور .
(2) وأنظر سلوة الانناس .

الباب الثالث

المعهد الموحد

يعتبر هذه المعهد تجسيدا للقيمة التي انتهى اليها الأدب المغربي في شتى ألوانه وفي مختلف أنشطته ، فكان بحق يمثل الاستمرار النبائي لتلك الحركة التي باركها المعهد المرابطى وقام بدورها الكامل القاضى عياض ، الذى أسلم شعلتها المتأججة الى عهدنا هذا .

لقد أدى الدور الاول فى هذا المعهد رجال برزوا فى المعهد المسالف ، وكان سيكون منهم عياض نفسه لولا أن المنية لم تمهله الا قليلا ، فمضى نحبه وانتظر منهم شعراء كان فى مقدمتهم ابن حبوس الفاسى ، وكتاب ، كان فى طليعتهم أبو جعفر ابن عطية وأخوه أبو عقيل .

أما ابن حبوس ، فهو :

أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس ، مولى بنى أبى العافية ، وصفه ابن الأبار فى كتابه « التكملة على الصلة » بأنه كان عالما محققا وشاعرا مفلحا يتقدم بذلك أهل زمانه ويوقف على جودة شعره فى ديوانه ، وكذلك يقول فيه ابن عبد الملك فى كتابه « الذيل والتكملة » اذ يصفه بأنه شاعر مفلح من جلة فحول الشعراء مثقف فى معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة وغيرها . ويهمننا منه ناحية خاصة هى الناحية الادبية بل تهمننا من هذه الناحية ، أخص منها (هى) ناحيته الشعرية . فابن حبوس الفاسى اشتهر كشاعر أكثر مما اشتهر بشيء آخر دونه ، وشعره هو الذى استطعنا ان نجد فيه بعض آثاره الادبية العديدة ، اما غيره فاننا لا نجد له الا قطعة نثرية جميلة نقلها عن مذكرته عبد الواحد فى كتابه « المعجب » وهى :

دخلت مدينة « شلب » من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة ايام لم اطعم فيها شيئا ، فسألت عمن يتصد اليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل ، يعرف بابن الملح ، فمعدت الى بعض الوراقين ، فسألته سحاة

ودواة فأعطانيهما ، فكُتبت أبياتا أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فاذا هو في الدهليز ، فسلمت عليه فرحب بى ورد عاي أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبا ؟ قلت نعم ، فقال لي من اى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته انى من اهل الأدب ، من الشعراء ، ثم انشدته الابيات التى قلت ، فوقعته منه أحسن موقع ، فأدخلنى الى منزله ، وقدم الى الطعام ، وجعل يحدثنى ، فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ، ومعه عبدان يحملان صندوقا ، حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبع مائة دينار مرابطية ، فدفعها الي وقال هذه لك ، ثم دفع الى صرة فيها أربعون مثقالا ، وقال هذه من عندى ، فتعجبت من كلامه وأشكل علي جدا ، وسألته من اين كانت هذه لي ؟ فقال لى سأحدثك ، انى أوقفت أرضا من جملة مالى للشعراء ، غلقتها فى كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق اليك ، وأما هذه فمن حر مالى . يعنى الاربعين دينارا ، فدخلت عليه جائعا فقيرا ، وخرجت عنه شبعان غنيا .

ولاشك ان هذه الحادثة وقعت له حينما فر من المرابطين الذين كان شاعرهم ، فبلغتهم عنه — كما يقول صاحب المعجب — حماقات ، خاف مغبتها ففر الى الاندلس . ونزل باقليم الغرب منه حيث مدينة شلب البرتغالية على ساحله الجنوبى .

لقد كان فى هذه القصة ماهرا فى سردها وتصوير تنسيقها بتفاصيلها المعجبية . وفيها يذكر انه وجد الرجل الذى قصده بدهليزه وان هذا لما رد عليه السلام أحسن رد ورحب به سألته عن هويته ، فكان ذكيا فى الاجابة « من اهل الأدب ، من الشعراء » وانه لما وقعت منه القصيدة أحسن موقع ، أدخله الى منزله وقدم له الطعام ، وجعل يحدثه ثم انصرف ، وعاد « ومعه عبدان يحملان صندوقا ... » ففتحه ، فأخرج منه سبع مائة دينار « فدفعها اليه ثم دفع الصرة وفيها أربعون مثقالا ، وقال ما قال بها عجب له الشاعر ، فسألته عن السر الذى قص عليه قصته الغريبة وأخيرا علق على انحادثة بتلك الالتفاتة التى نشد المستمع الى الورا وتجعله بعد ذلك يتأثر ويعجب فيصطرع فى نفسه هذا التأثر والتعجب ، ثم ينحسب نفسية القاص وهو يلتمس ويتسائل ويستهدى فيهدى الى رجل لا يعرفه مطاقا ولكنه

يقتلع خطواته فيتجه بها الى هذا الوراق الذي يسأله سحاة من الورق فيسلمها اليه ، ثم يعصر قريحته ويمسح جبينه بعد ما تستجيب اليه شاعريته الجائعة . ها هو ذا قد انتهى الى الرجل الذي استقبله في الدهليز ، استقبالا حسنا ، فسأله بعد ما علم انه غريب : من أى الطبقات انت ؟ هنا يجيب في لباقة « انى من اهل الادب » ولم يقل من الشعراء لاول وهلة ، فالشعر والشعراء يحيط بهما هالة لابد من اخرى تحافظ عليها فتحفظها من مفاهيم الناس الذين لم يكونوا قد عرفوها بأعيان أصحابها المحققين ، ثم يتبعها بقوله من الشعراء وسرعان ما يدفع عنه تهمة الادعاء فينشد الابيات التى برهنت عن شاعريته المثلى وجدارته فوقعته من صاحبه احسن موقع واذا به يأخذ بيده ، فيدخله الى منزله ، بعدما كان يحادثه في الدهليز ، وقدم اليه الطعام .

ولا شك ان الماضى الذى مر بقساوته وضراوته يجعلنا ندرك ما تحت هذه الجملة الاخيرة ، وكيف تنفس بها صاحبها وكيف تحركت لهواته فيها ، ثم هذه الابهة والرفاهية مع هذا الاحترام الذى ناله منها « عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه (صاحب المنزل بنفسه ، بين يدي وفتحته فاخرج منه (كذا) فدفعه الى وقال الى آخر القصة التى ختمها بهذه « العقدة » العجيبة » فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شبعان غنيا !!

أما شعره الذى اشتهر به فحسب الترتيب الزمنى مايلى :

من تصيدة في بجاية عام 547 ، مخاطبا اولا الخليفة عبد المومن عند حصاره لها :

عصفت بدعوتك الرياح الهوج وسطا بأمرك ذابل ووشيج
وتقدمتك الى العدو مهابة يشقى بها في سده ما جوج (1)
ثم مخاطبا صاحبها :

شدت اليك على الرياح سروج اين الفرار بأهلكم ياجوج

(1) البيان من زاد المسافر ، والذى يليها من المن بالامامة ، وجعله اولا واه لا انشده « قال الخليفة يكتفي البيت وأمر له بجائزة » .

ولما تم افتتاحها قال :

من القوم بالغرب تصفى الى
جروا والمنايا الى غاية
بأيديهم النار مشبوبة
يقودهم ملك أروع
تخيره الله من آدم
الى الناصرية سرنا معا
الى برزة فى ذرى أرعن
يعوذون منا بمولاهم
وأكسبه خوفه خفة

ولعله قال فى هذه المناسبة مادحا الخليفة (1) :

أبى المؤمنين لقد أضاء الز
لكم شرقا البلاد ومغربها
يسير اليكم من ناء عنكم
فمن قد فر عنكم من عدو
ولو خوفتم أعلام رضوى

وله بمناسبة احتفال الخليفة بالمصحف العثمانى الذى أتى به عام 552

تصديتان ،، احداهما هكذا :

فعل امرىء دل على عقله
ان الذى يكرم فى جنسه
والمرء لا يشكر عن نفسه
والخير والشر لهذا وذا
لا يترك اللازم ملزومه
وكل مفطوم على شيمه
لا يدرك الطرف على شدة
والناس أشتات وفى الطبع ما
اضافة السفلى الى علوه

والفرع منسوب الى أصله
هو الذى يكرم فى فصله
وانما يشكر من فضله
أهل فرج الخير من أهله
والشخص لا ينفك عن ظله
لابد أن تظهر فى فعله
ما يدرك الطرف على رسله
قد يعطف الشكل الى شكله
اضافة العلو الى سفله

(1) زاد المسائر

ما غاية العالم في علمه
ولا الذى يشكر عن بذله
عمري لقد حمل امر الورى
من لم تزل انوار افكاره
ذاك سراج الكل بل شمس
تضىء انوار النهى حوله
زوى (1) الفضل الى وقته
هذا كتاب الله جل اسمه
خير امام آخر جاءه
اليه يهيم كل (ما) مصحف
أجرى ابن عفان الى نصره
أنيسه في وحشة الدار اذ
رمى به الخابط في غيه
وصار من اوكد شغل امرى
صيانة الشيخ له اوجبت
حتى اتى الأمة من نهبت
فأيقظ الاجفان من نومة
عرف ما يجهل من حقه
ومال في تعظيمه ميله
البسه من رائق الحلى ما
وزاد ما ابطن من بره
نشز يضىء النجم في علوه
فمن حمى الياقوت حصباؤه
كأنها الاصباغ فيه وقد
زخارف النوار في روضه
فاض أتى الحسن في كله
لم تر عين قط شبها له

كفاية الجاهل في جهله
مثل الذى يشكر عن بذله
مضطاع بالعبء من حمله
تهيم على المحل في محله
بل عقله الفعال في عقله
في عقده المبرم أو حله
ليقدم (2) المثل على مثله
بخط عثمان وفي دخله
خير امام كان من قبله
تأنق العالم في نقله
وخصلكم زاد على خصله
تواطى القتل الى قتله
وضمه الحاطب في حبله
في تركه الاعراب عن شغله
لجاجة الباغين في بذله
شهادة الرسل على عدله
صحا بها المخبول من خبله
وضم ما فرق من شمله
اعادت الفرع الى أصاله
يعجز جيد الدهر عن حمله
على الذى أظهر من حمله
ونبرات الشهب في سفله
وتبره يغنيه عن رمله
تألف الشكل الى شكله
هراق فيها الليل من طله
فكله يعجب من كله
ولم تصخ أذن الى مثله

(1) في الاصل هذه الكلمة غير واضحة ولعل الصواب ما اثبتناه من زوى الشيء جميعه
وتبشه وطواه ونحاه .
(2) كان بالاصل « فيقدم »

أذاعت الحكمة سر النهى
تقيد اللحظ به فهولا
وذاك من فضل إمام الهدى
كانما العمال آلاته
جهابذ الأفاق قد بلدوا
وكلهم برز فى سبته
ما خطو من يعدو به سابح
وليس من يعرف من نهره
ولا الذى يمرح مرخى له
ولا حسام نال منه الصدا
التمر معزو الى نخله
والقدس محفوظ على أهله
عجائب العالم مختصة

ومن الثانية هذا المطلع لها :

سيشكر المصحف أكابكم
أذكرتم الأيام ما أغفلت
مصحف ذى النورين عثمان ما
ما اختار شيئا مؤنسا غيره
أوسعتم الدنيا أطراحا وما
يحنو عليه العطف منكم ولا
أحببتم المولى فأحببتم
البستموه حلية لم يكن
لم تدرك الأعراب ما كنيتها
لا أسفرت سفرتكم هذه
تكفل السعد بمقصودكم
عناية الله بكم جمعة

أما قصيدته الأولى ففسار بها

أنوك من عبد ومن عرسه
ما من يرى أنك فى وعده

فيه ومات الخبط فى جهله
يصرفه الناظر عن نبيله
وكلنا نعزى الى فضله
تفعل ما يصدر عن فعله
فى فصل ما يفصل أو وصله
وأحرز الخصل على مهاله
كخطو من يعدو على رجله
مثل الذى يعرف من سجله
مثل الذى يمرح فى شكله
مثل الذى بولغ فى صقله
والشهد منسوب الى نطه
وانتم تالله من أهله
بأولياء الله أو رسله

عليه اذ أوجده الفقد
من بره اذ قدم العهد
كان لكم عن صونه بد
حين أتى واقترب الوعد
كان لكم الا به وجد
يغبه الاشفاق والود
ما خطه من وحيه العبد
يسمح للكف بها الزند
ولا ادعت ادراكها السغد
عن واضحات نجحها نقد
وبانت الوجهة والقصد
له عليها الشكر والحمد

على نبط قول المتنبي فى هجو كافور :

من حكم العبد على نفسه
كمن يرى أنك فى حبسه

وانما يظهر تحكيه	ليحكم الانسان في حبسه
العبد لا تفضل اخلاقه	عن فرجه المتن أو ضرسه
لا ينجز الميعاد في يومه	ولا يعى ما قال في أمسه
فلا ترجى الخير عند امرئ	مرت يد النحاس في رأسه
وان عراك الشك في نفسه	بحاله فانظر الى جنسه
مقلبا يـؤم في ثوبه	الا الذى يـؤم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره	لم يجد المذهب من قنسه

وشعر ابن حيوس هذا وان كان ابن عبد الملك المراكشى ، قد أثنى على صنيعه في كتابه الذيل والتكملة الا أننا ازاءه نراه اشبه ما يكون بالنظم . .
لقد قال أولا : وهى عندي من غرر قصائده ، ثم قال بعد اثباته بالقصيدة :
اثبت هذه القصيدة الفريدة بأسرها استجابة لها واستغرابا لما حوته من
(انواع الحكم والامثال السائرة) .

نعم انه في تأملاته ، وحكمه التى سردها بطريقة ، خطتها المنطق
انصورى الارسطى ، لعل اهمية للمتمعن فيها ، ولعل ذلك ما دفع ابن
عبد الملك الى حكمه المشار اليه .

ثم ان هذه الأبيات ، تشبه الى حد ما منظومات أبى العناهية في
زهدياته ، ببساطتها وتقليب صورها رأسا على عقب ، أو طردا وعكسا
كما يقول الميقاتيون .

اضافة السفلى الى علوه	اضافة العلو الى سفله
ما غاية العالم في علمه	كفاية الجاهل في جهله

ومع هذا فان فيه بعض الصور الشعرية ، مثل قوله :

نشر يضىء النجم فى علوه	ونيرات الشهب فى سفله
كانما الاصباغ فيه وقد	تألف الشكل الى شكله
زخارف النوار فى روضه	هراق فيها الليل من طله
فاض اتى الحسن فى كله	فكله يعجب من كله
لم تر عين قط شبها له	ولم تصخ اذن الى مثله
اذاعت الحكمة سر النهى	فيه ومات الخطب فى جهله
تقيد اللحظ به فهو لا	يصرفه الناظر عن نبله

لا شك ان البيت الاخير اسعفه بيت لامرئ القيس في معلقته ،
واصفا سرعة الغرس ، بقيد الاوابد ، وان كانت الصورة غير الصورة هناك
والمنزغ فيها غير المنزغ هناك أيضا . وفي الدالية مسحة من التفكير
ويبدو عليها بعض الاستعمال المنطقي وهذا ما كان عليه الشاعر من ثقافة
عقلية .

سوى هذا ففى النموذجين معا ، أهمية تاريخية ، يستفيد منها الدارسون
كثيرا ، فقد عرف عن الدولة مبادئها الشيعية (بل الشيعية الاسماعيلية
بصفة خاصة ، كما سنرى فيما بعد ، ومع هذا فيبدو ان القوم لم يكونوا
دقيقين أو متجردين لمذهب بعينه ، ولهذا نجد المؤرخين ، يسمون دعوتهم
بانها قد اختلفت فيها مذاهب ثلاثة ، الشيعية والخارجية والاعتزال ومع
هذا فيبدو انهم لم يكونوا متحمسين لها تماما .

وقد سمعت من مفكر كبير وعالم جليل ، ان دعوة محمد بن تاورت
حتى الآن لما تعط حقيها من عناية الدارسين المتعمقين فى الدرس فهى دعوة
لا تشبهها فى عقدها الحكمة دعوة للدعاة فيما مضى .

ومهما يكن ، فالشيعى كالخارجى لا يسمح بالاشادة بعثمان ، ولا
يصيخ الى هذه الابيات بارتياح :

مصحف ذى النورين عثمان ما	كان لكم عن صونه بد
ما اختار شيئا مؤنسا غيره	حين اتى واقترب الوعد
هذا كتاب الله جل اسمه	بخط عثمان وفى دخله
خير امام آخر جاءه	خير امام كان من قباه

اما الموضوع فقالوا ان هذا المصحف كان رابع اربعة انتهى الى بنى
امية ، ونقل اليهم بالاندلس ، فظل عندهم الى ان صار الى عبد المومن ،
وبعد الموحدين صار الى بنى عبد الواد ، ثم الى المرينيين ، الذين كانوا
يتنقلون به ، كما فعل الموحدون قباهم ، ففرق ايام ابي الحسن ، ضمن ما
غرق له من رجال ومتاع ، وهو بالمياه النونسية ماتا .

لقد كان اهتمام الموحدين ، وأولهم عبد المومن ، عظيما بهذا المصحف ،
وكان مبعثا عظيما للشعراء خاصة ، كما كان مبعثا لغيرهم فى وصفه والننويه
به ، ومن أوائل الواصفين له عبد الواحد المراكشى ، الذى يقول فى كتابه

المذكور ، متحدثا عن ابي يعقوب :

بلغنى انه اتصلت اليه منه (اى من ملك صقلية الذى صالحه)
ذخائر لم يكن عند الملك مثلها ، مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر ،
جعلوه فيها كللوا به المصحف على قدر استدارة حافر الفرس ،
هو فى المصحف الى اليوم مع احجار نفيسة .

وهذا المصحف الذى ذكرناه (يقول) وقع اليهم من نسخ عثمان ،
رضى الله عنه ، من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين ايديهم انى
توجهوا ، على ناقة حمراء ، عليها من الحلى النفيس ، وتياب الديباج
الفاخرة ، ما يعدل اموالا طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج
الاخضر ، يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصيان ، عليهما لواءان
اخضران ، وموضع الاسنة منهما ذهب شبه تفاحتين ، وخلف الناقة بغل
محلّى ايضا ، عليه مصحف آخر ، يقال انه بخط ابن تومرت ، دون مصحف
عثمان فى الجرم ، محلّى بفضة ممهوه بالذهب ، هذا كله بين يدي الخليفة
منهم .

ويعد فلا ندري لم اختار ابن حبوس قصيدة المتنبي ، لينظم على نمطها
فى مدح الخليفة عبد المومن ، وهى فى منتهى السخرية والاقذاع الذى نال به
كافورا ، ولم ينل بمثله احدا من مهجويه ، على أن قصيدة المتنبي نفسها
ناظرة الى اخرى فهى على نسق قول محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد
الله التميمي القرشي :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب الى مثله
من ذم شيئا واتى مثله فانما يزرى على عقله

ونلاحظ عليه انه لا يبدو فى شعره قصد للالفاظ الا نادرا ، ومن هذا
ما تقدم فى البيت :

فاض اتى الحسن فى كله فكله يعجب من كله
كما سيأتى له :

رمت أن ترقى سريعا فتريديت صريعا
فهذا جناس قليلا ما يصادفنا فى شعره ، أما الطباق وهو من المعانى ،

فيصادفنا أكثر من هذا ، وقد وجدناه في البيت الأخير الذى فيه الجنس ،
بين « سريعاً » و « سريعاً » اذ فيه طباق أيضاً في « ترقى »
مع « ترديت »

وفيما عدا هذه الحلية الخفيفة فابن حبوس شاعر معان أكثر منه
شاعر الفاظ ويصح أن نعهده من مدرسة المتنبي الذى يقلده كثيراً
فالمزية الحقيقية في شعره ليست الالفاظ الخداعة ، ولكنها في المعانى التى
تبرهن عن قيمتها وتعلن عن نفسها بواقعها .

وبهذا سنرى له من الاوصاف ، ما ضربت الرثم القياسى في مبالغاتها
المهولة ، ولكنها في الفاظها معتادة للناس .

لقد كان شاعرنا ، يعرض ما يخلو في عين ممدوحيه ، ولهذا قال
المستحيل في مديحه اياهم ، ولم يكن يتورع في حرفته هذه شأنه فيها شأن
ابن دراج الاندلسى ، الذى كان يدور مع أطماعه كيف دارت ، ويمدح من
ترجح كفته ، فاذا خفت هذه الكفة ورجحت كفة غيره عليها ، قلب ظهر
المجن ، وانقلب مدح السابق ذماً وهجاء ، وكذا الامر واقع مطرد في كل
ممدوح ، ولهذا وجدنا ابن حبوس يمدح الوزير ابا جعفر ابن عطية ، لما
كانت كفته راجحة ، فلما خفت ووقع في المحنة ، نحا عليه بالذم والهجو ،
ارضاء لسيدده الموحى لقد مدحه بقوله فيما مضى فقال :

الا زار من أم الخشيف خيالها	ومن دونها البداء يخفق آلهها
لقد اوقدت في القلب منى جرة	بدا في سواد العارضين اشتعالها
شكلت الليالى عند غيرى سلمها	وروقة دنياها وعندى قتالها
اتحسدى في أن أعيش كأنها	إذا فسدت حالى ستصلح حالها
أما تتقى أن يشرئب لنصرتى	تسوى إذا رام السماء ينالها
وماذا الذى ينأى عليه وائه	لذو قدم أم النجوم نعالها
وزير العلى عندى من القول فضلة	رويتها في مدحكم وارتجالها
وما كنت أخشى مدة الدهر أن أرى	تبديد بى الدنيا وأنتم جبالها

فلما قتل هو وأخوه أبو عقيل ، كما سيأتى ، ذلك عام 553 ، قال
متسلفاً فيه ، وبايعاز من الخليفة لا محالة شعرا هاجيا كما سنرى .

ولا غرابة في هذا فالشاعر كان من أولئك الشعراء الذين يعرضون

شعرهم على واجهات الراغبين يصورون فيها ما يريدون وينطقون بما لهم يحمدون فهم مرتزقة الفنون وهم « في كل واد يهيمن » كما قال الله فيهم وعلى كل حال نفى هذه الأبيات الأولى التي مهد لها بالشكوى من الزمان وعثراته فيه ، كما يفعل ابن دراج قبله ، والمتنبى قبل هذا ، نراء يبالغ في وصف الوزير بأوصاف ، قد تناكب تلك التي سنجدده يصف بها الخليفة الموحدى ، فهذا الوزير اذا رام السماء نالها ، وكيف لا يكون كذلك ، وهو لا ينأى عنه مطلوب ، والنجوم صارت كبراهها نعالا لتقديمه .

فيا وزير العلى ، عندى فى مدحك أقوال لا تفنى ، أرتجل فيها تصائدى آنا وأروى فيها آنا أخرى ، فأنت ملاذى لا أخشى بك ما يصبب الناس من دنياهم ، فكيف تميد بى الدنيا ، وأنتم جبالها الراسية بها ، ولا شك أنه استفاد هذه الصورة من الآية « والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » أو الآية « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » .

وابن حبوس نادرا ما يقتبس من القرآن ، كما يفعل عياض ، ولكنه مع هذا يستفيد من بعيد بعض المعانى من القرآن ومهما يكن فهذا مدح للوزير وهو فى ذروة المجد يتسنى المكانة الرفيعة فى الدولة الناشئة فلما حلت به النكبة قال فيه هاجيا :

أندلسى ليس من بربر يختلس الملك من البربر
لا تسلّم البربر ما شيدت بالملك القيسى من مفخر

وهذه نغمة تطفح بالعصبية البربرية ، لم نعهد لها فى غيره من أدبائنا (1) كما أنها تحاول أن تنفى عن ذلك البساط من المجد ، هذا الوزير المنكود الحظ ، لأن أصله أندلسى ، وإن ولد وعاش فى المغرب ، وهى دنية تضاف الى خلقه الدنى الذى ظهر به فى هذا الموقف .

ومن شعره ما قاله فى فتح المهديّة عام 555 أو 554 مخاطبا الخليفة عبد المؤمن :

بطالع الاسد أخط البناء بها لكنك الاسد الدامى الاطامر
باب حديد وأبراج ثمانية تسخر العقل فيها أى تسخير

(1) وان جعلها تشيد مغرها بالملك العربى القيسى يريد عبد المؤمن الذى كان ينتهى الى هذا الاصل العربى

ثم كان ينشد الخليفة بجبل طارق عام 556 :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا
الى ان يقول :

فلأنتم الحق الذي لا يمتري
ولأنتم سر الاله وامركم
عزلت ولادة الحس عن ادراكه
كانتكم زهر النجوم أسنة
ومنعتكم الريح الهبوب لأنكم
صدت تمشى القهقري ولو انها
ومنها في صفة الرياض :

ان رنت الريح الخفوق ازاءها
شرب النشاط سلافة حتى انثنى
ومن امداحه له — كما في نظم الجهان — قوله :

بخليفة المهدي سيدنا اغتدى
وتفجرت عين النباهة بعدما
قد صير العقول قلبا مائلا
ورعى جسيم العلم في اوطانه
وافيت حضرته المقدس تربها
ووقفت وسط سباطه فوجدته
لم السق الا عالما وازاءه
ومدارسا تسع الرياضة لو رأى
وسمعت كل مذاهب الحق التي
وبصرت بالطوسي يفهق حوله
لم الف الا مصقما او مفلقا
والكل في علم الامام مقصر

(1) الأبيات في « زاد المسائر » وقد افتقر في « المعجب » على الاولين منها وقال في صاحبها
انه كان يقلد ابن هاني في « تصد الالفاظ الرائعة والتعاقب الموهلة واثير التعمير » وهو
حكم جائر في حقه ..

فاترك عكاظا والوفود بسوقها حذقا وسحبان الخطيب ودغفلا
يعشوا لها الأعشى بنار محلق ويضم علقمة اليها جـرولا
والحق بحضرته السنية واستمع للقول واحذر ويك أن تتقولا
فيها كمال الدين والدنيا معا وسعادة الأرواح في أن تكملـا

ففى هذه الابيات ، نجد الشاعر لم يحتفل بالالفاظ ، البتة ، ولم يتأنق في سرد هذه الصور التى أشاد فيها بمجالس العلم التى كانت للموحدين ، وخص بالذكر فيها العلوم العقلية ، التى تيسرت لطلابها ، بفضل خليفة المهدي ابن تومرت ، غصار نهج العلوم به مذلا معبدا ، واصبحت النباهة قد تنفجرت به ينابيعها ، وفاضت عيونها ، بعد ما كان التناصد اليها قد اصابه الوهن والعجز ، فجعل علوم العقول ماثلة لمن يريد ، فيقتنصها في سهولة ، ويصيب قلبها فيتكن منها ، وانتشر التعليم في البلاد فتأتى رعى مراعى العلم المتكاثفة النبات ، في اوطانه لمن كان منها لا يتيسر له التنقل عنها الى الاقطار الاخرى وانى قد أتيح لى أن وافيت حضرة الامام ، تقدست تربتها ، فشاهدت ما لا يتخيل في مخيلة الناس ، فقد وقفت مبهوتا وسط حلقات العلم بها ، فوجدتها أسواقا تقام على العلوم والمعارف ، ولم يكن بتلك الاسواق ، الا عالم أو متعلم ، متقل أو مبتكر ، ووجدت مدارس متنوعة ، تسع الرياضيات ، التى لو رآها سقراط ، لاحترق الهيكل الذى كان يحتويه وباقى الفلاسفة لعهد ، وسمعت في تلك المدارس الى جانب هذه العلوم ، دروسا في الهداية والتنوير ، لا يعدل عن مقتضى مذاهب الحق فيها ، ففيها نجد من العلماء من هم في درجة الامام الغزالي ، يفيض علومهم ، ومن هم في مرتبة امام الحرمين الجويني ، تبيننا وتلقينا ، وكلا الرجلين من اساطين الاشعرية ، التى كان على مذهبها محمد بن تومرت وخليفته والموحدون عامة .

ثم يستمر في وصف هذه المجالس بكونها طافحة بالخطباء والشعراء ، والمتكلمين المجادلين عن عقيدتهم ، والكاتبين المترسلين في بسط شئون دينهم ، وجميع هؤلاء لا يصل الى المدى المعلوم النى كان عليها الامام المهدي ، فحسب المبرز منهم أن يدركه الليل في طلب علمه ، وأن يسهر في التماسه ، فهذه هى سوق العلم حقا ، فاترك جانبا ، سوق عكاظ وما كان يضطرب بها من شعراء وخطباء وعلماء ، كسحبان وائل ، الخطيب ،

ودغفل بن حنظلة النسيابة ، وأعشى ميمون الشاعر ، الذى قصده المحلق
فمدحه بقوله :

لعمري لقد لاحظت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ويات على النار الندى والمحلق
والقصيدة تنظر فى بعض أبياتها ، الى رائية المتنبي فى ابن العميد ،
كما ينظر بعضها الآخر الى ابن زيدون فى داليتة فى المعتضد بن عباد
فهى أبيات ، ينظمها النسق المعتاد فى النصائح ، ولا ضجة فيها للالفاظ ،
ولا سخابة بصلصلتها ، وما لنا نذهب بعيدا عن البيتين ، اللذين ذكرهما
عبد الواحد المراكشى ، فألفاظهما ليس فيها من هذا القبيل شئ ، كل ما هنالك ،
مبالغات معنوية ، حيث جعل الزمان قد بلغ ما كان يأمله من الهداية ،
فى فضل هدى الخليفة عبد المومن ، فكأن الزمان نفسه ، كان ضالا حائرا ،
فارتفع عنه هذا الضلال ، ونزح عن كاهله كابوس الحيرة ، بهدى عبد
المومن ، وأن الايام كانت جاهلة جائرة ، فتعلمت به العدل ، بين الناس وقضت
لهم بموجبه ، ويكفى هذا الزمان ، ان كان لا يستقر على حال ، ولا يتمثل
فى شكل ، فوجد الاستقرار فى هذه الهداية ، وتشكل بصورتها
ومهما يكن فان هذه القصيدة جاءت على نمط قصيدة للمتنبي .

قد قالها فى ابن العميد وهى التى مطلعها :

باد هواك صبرت ام لم نصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جرى
وكان ابن دراج فيما قبل نظر إليها فى قصيدته :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فأسفرا
أما نظر ابن جبوس هذا فواضح فى قوله :

لم اللق الا عالما وازاء متعلما متكثرا متقللا
فهو من قول المتنبي :

وسمعت بطليموس دارس كتبه متكلم متبديا متحضرا
وفى قوله :

وبصرت بالطوسى يفهق حوله وأبى المعالى مجبلا ومفصلا

فهو ينظر الى قول المتنبي :

ولقيت كل الفاضلين كأنها رد الاله نفوسهم والاعصرا
ثم كان من امداحه لعبد المومن قصيدته الرائية التى انشدها وهو برباط
الفتح ، استهناها مخاطبا البحر المحيط :

الا ايهاذا البحر جاورك البحر وخيم فى ارجائك النفع والضر
وجاش على امواهك الحلم والحجا وفاض على اعطافك النهى والامر
وسال عليك البر خيلا كماتها اذا حاولت غزوا فقد وجب النصر
لعاك يطفيك اشتراك سمعنه فذلك بحر لا يشاكله بحر
وليس اشتراك اللفظ يوجب مدحة ولكنه ان وافق الخبر الخبر
فمالك من وصف تشاركه به سوى خدع فى النطق زخرفها الشعر
ومالك من معنى يشير الى الذى تفوه به الا السلاطة والهذر
فأنت خديم الشمس والبدر ونخدمه فى أمره الشمس والبدر
ويحويك شطر الارض نغم بعضه وفى صدره الافلاك والبر والبحر
وقد وسع الايام جودا ونجدة وليس لما تأتى به عنده قدر

الى قوله :

هنيئا لاهل الارض أن حلها امرؤ وبشرى لهذا السيف ماء لحده
بنى (فرضة) أم البلاد فكلها لقد بهرت فبه الساحة والبشر
تكنفها الملئان من كل جانب يسبح عليها من مراضعها در
فهذا عليه المد والجزر دائبا نقبضان ذا حلو المذاق وذا مر (1)
ومنها :

غدت نقطة فى ضمن دائرة الدنا فلا أنق ينأى عليها ولا قطر
فمن حيث ما رمت الجوانب نلنها بيسر ولا كد عليك ولا عسر
فذلك أعماق الجسوم وطولها وان بعدت يعنى بامدادها (البحر)
يفوح تراب الارض من طيب نشره فمن معطس الايام من طيبها نشر

(1) اخذ مضمون البيت من قوله تعالى : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه
وهذا ملح اجاح » كما ركز على مدم هذا الاستواء حل الالبات فى القصيدة .
وهى من الاعلام بعد تصحيح ما اسلمنا من تصحيحها .

ولا شك ان هذه التصيدة تفوق بكثير التصيدة السالفة .

وهكذا فهو يخاطب البحر المحيط ، الذى وقف على ساحله فى حضرة
مدوحه الخليفة ، فيفتتح الخطاب بهذا النداء الذى فخم من شأنه ، بأداة
الافتتاح ، ويحرف أى ثم بالإشارة التى شفعها بهاء التنبيه كذلك ، فقال ،
الا + أى + ها + ذا . وبعد هذه المنبهات الاربعة ، انصح بالمنادى
« البحر » مخاطبه بأنه الآن فى جوار بحر آخر ، يفوقه بكونه يحمل كل
طاقات الحياة اذ بيده النفع والضرر ، وبأنه يجيش بالعقل ويهوج بالنها
على مياهك ، وأن فيضانه على أعطافك ، انما هو بما يصدر عنه من امر
ونهى وان ساطانه وقدرته ، كان بهما البر يسيل على البحر ، يسيل
بهذه الخيول المطهمة، التى تمتطيها الشجعان والابطال، المعتود على نواصيها
الوية النصر دائما ، فهى ان همت بغزو ، وجب لها النصر ، بآدى ذى بدء ،
قبل ان تباشر القتال .

فلربما اغتررت أيها البحر ، حينما سمعت ، ان بحرا قد جاورك ،
فان هذا البحر لا تضاهيه فى شىء من عظمته فهو بحر لا يشاكلة بحر من
البحور ، فهذا الاشتراك الذى اغتررت به بين البحرين ، انما هو من قبيل
المشكك وليس من قبيل الاشتراك فى الواقع ، بل انه يكاد يكون من قبيل
المخالف ، فأنت خديم الشمس والبدر تتحرك بالضرورة وفق أمرهما ، مدا
وجزرا ، أما ذاك البحر فالشمس والقمر يخدمانه طوع أمره ، وهو بجوده
وسطوته يسع الايام ويحتوى الانام ، ولا قدر لما تأتى به فى حسابه ،
ولاشك أن هذا الوصف المبالغ ، انما استاقه من وصف الكرسى « وسسع
كرسيه السماوات والارض » .

اذن فقد سلبت أيها البحر كل ما يمكن ان تشارك به هذا البحر
العظيم ، وليس لك من معنى يجمع بينكما ، الا ان يكون هذا الخداع اللفظى ،
الذى نجده فى كلمة « البحر » واستقله الشعر فزخرفه ، حيث جعلك
تجاوره ، وما لك من صفة تفوق بها الا ان يكون ما تدعيه لك من قبيل
الوقاحة والجرأة المتناهية فى التهور والهذيان فى الادعاء ، فليس
الاشتراك اللفظى لك مدحة ما .

سوى هذه الامداح وما اليها فلاين حبوس قصيدة يهاجم فيها الفلاسفة
وهى (1) :

(الزم) ظمءك فى شريعة احمـد
(واظم بـ) اعطان الديانة علها
(لذ) بالنبوة واقتبس من نورها
واذا رايت الصادرين عشية
الدين دين الله لم يعبا بمبـ
تالوا بنور العقل يدرك ما ورا
بالشرع يدرك كل شىء غائب
من لم يحط علما بغاية نفسه
ولقد نرى الفك المحيط وعلم ما
سعد المجرة بالكواكب دائم
من خص بالسفلى جرم البدر أم
ما شاهق الطود المنيف وان علا
وجواز عكس الامر فى ذا واضح
ذاك اختصاص ليس يعلم كنهه
خفض عليك ابا فلان انها
سالت علينا للشكوك جداول
وتبعقت بالكفر فينا السن
اعدائنا فى ربنا احبابنا
كشف القناع فلا (هوادة بيننا)
ستنالهم منا الفداة قوارع
وتصوب فيهم سحبنا بصواعق
من كان يضربهم بسيف واحد
ولعمر غيرهم وتلك الببة
قالوا الفلاسف قلت لك عصابة

تسقى اذا ما شئت غير مصرد
تدنيك من حوض النبى محمد
واسلك على نهج الهداية تهتد
عن مذهب الدين الحنيف فأورد
تدع ولم يحفل بضلة ملحد
ء الغيب قلت قدى من الدعوى قد
والعقل ينكر كل ما لم يشهد
وهى القربة من له بالابعد
فى ضمنه اعى على المترصد
فى زعمهم وقسيمها لم يسعد
من خص بالعاوى جرم الفرقد
الا بمنزلة الحضيض الاوهد
للعقل فازدد من يقينك ترشد
من ليس يوصف بالبقاء السرمدى
نوب تطالعنا تروح وتغندى
بعد اليقين بها ولما تنفذ
لا تفقد التضليل من لم تفقد
جرحوا القلوب واقبلوا فى العود
حتى نفادرهم وراء (المسند)
ان لم تغلهم غولها فكان قد
تلك النى جلبت منبة أريد (2)
فأنا (لأضربهم بألف مهند)
ان الحمام لجمعهم بالمرصد
جاءت من الدعوى (بما لم يحمد)

(1) من الاعلام لعباس بن ابراهيم وما ورد فيها بن هلالين فهو ساقط او مصحف صححناه
واثبتناه حسب اجتهادنا .

(2) هو اخولبيد الذى مال فيه :
أخشى على أريد الحثوف ولا أرهب نوء السماك والاسد

خدعت بالفاظ تروق لطائفة فماذا طلبت حقيقة لم توجد
 ذو علمهم لو كان شاهد علمنا ورأى جهابذة الكلام المؤيد
 لعراه من حسن هنالك لؤلؤ وأقام بين تحير وتلبد
 أسفى لو أنى (قد) نصرت عليهم (لظمت) فى المهجات كل مهند
 يلغى كتاب الله بين ظهورهم وجميع مسنون النبى محمد
 يقاتل الاله الجهالة انها ورق لأغصان الشباب الاملد (1)

انه فى هذا ، وهو الذى درس الفلسفة ، وظهرت آثارها على شعره ،
 لم يكن الا مدافعا عن نفسه مهاجما لأولئك الذين زحزحوه عن مكانته التى
 كان يتمتع بها أيام عبد المومن بالذات ، فلما كان عهد ابنه أبى يعقوب يوسف ،
 كان للفلاسفة مكان مرموق عنده ، حيث قرب ابن طفيل تم ابن رشد ، وصار
 ينقطع اليهم أحيانا ولا يظهر للناس ، لانشغاله معهم فى معالجة المسائل
 الفلسفية ، وطرق المواضع المعتاصة منها ، كما صور ذلك معاصره
 عبد الواحد الراكشى ، فى كتابه المعجب ، اذ يقول « ولم يزل يجمع الكتب
 من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وكان ممن صحبه ممن
 العلماء المتفنين أبوبكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، كان
 متحقتا بجميع اجزاء الفلسفة ، » ، وكان أمير المومنين أبو يعقوب شديد
 الشغف به ، والحب له ، بلغنى انه كان يقيم فى القصر عنده ليلا ونهارا
 لا يظهر ولم يزل أبوبكر يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار ، ، وهو الذى
 نبهه على أبى الوليد محمد بل احمد بن محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه
 ونبه قدره عندهم (يقول ابن رشد متحدثا عن أبى يعقوب) سألنى
 ما رأيهم فى السماء ؟ يعنى الفلاسفة ، أقديمة أم حديثة ؟ وجعل يتكلم
 عن المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطالس وافلاطسون
 وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم الى آخر
 ما فى المعجب ، مما يدل على مكانة الفلاسفة عند هذا الملك ، الذى فتر عنده
 ما كان لابن حبوس من حظوة لم يتمالك نفسه أن حدثها فى تلك القصيدة .
 ولم يكن ابن حبوس وحده قد بخس حظه ، بل اهل الادب وبقية
 العلوم كما يقول ابن خلكان : وكان ميله الى الحكمة والفاسفة أكثر من ميله
 الى الادب وبقية العلوم .

(1) الاعلام وجعلنا كلمات بين توسين بصويا منا أو نقيما حسب الامكان .

فنرى في هذه الأبيات حقدا متقددا ، وتسفيها مدحضا لهؤلاء الفلاسفة ولما يدلون به ، ويزورونه في الفاظ خلافة للاحقيقة وراءها كما يقول ، ولكنه يقابل هذا كله ، بما يدعيه له ، وهو المقصود ، ولغيره ، وهو لا يعنيه ، من التفوق في صوغ الكلام الجيد ، بحيث لو شاهد أولئك الفلاسفة هؤلاء الجهابذة وهم يحبرون كلامهم لعراهم الذهول ولاخذوا بجمال هذه الآلى التى ينظمها غيرهم ، فاستولت على أولئك الحيرة والتبلد . ولا شك أن أصحاب هذه اللآلى ، ما هم الا نظامها ، وما المعنى منهم ، الا ابن حبوس نفسه ، فكلامه كما يقول أصحاب الأصول ، من باب العلم الذى أريد به الخاص . وهنا تشتد به الحفيظة ويستولى عليه الغيظ ، فيتمنى لو كانت له القدرة على الفكك بهذه الفئئة ، ويأسف لكونه لا ينصر عليها وكأنه يريد ان يبرر قصده هذا ، بأن هؤلاء تحل دماؤهم ، حيث الغى بهم كتاب الله وسنة نبيه :

يلغى كتاب الله بين ظهورهم وجميع مسنون النبى محمد
ياقاتل الله الجهالة انها ورق لاغصان الشباب الأملد

اذن فأصحاب الجهالة ، أغرار لكونهم حديثى عهد بالشباب ، فمن هم هؤلاء الذين يعينهم الشاعر ، أهم الفلاسفة أم الذين يتبعونهم ؟ ان كانوا الآخرين ، فلا شك أن الشاب الموحدى ، الذى كان سنه دون الثلاثين ، على رأسهم ، فاعله يعنيه في قرارة نفسه وعلى العموم ، فالشاعر تهكم على الفلاسفة فيما يعتقدونه مما بعد الطبيعة ، معتمدين في ذلك على عقولهم الننى يدرك بنورها ما وراء الغيب ، كما قالوا ، مع ان الانسان لا يحيط علما بنفسه وهو متلبس بها ، فكيف به أن يحيط بما هو في غاية البعد عنه ، وفي هذا الصدد تعرض لأبطال علم التنجيم أو علم أحكام النجوم (1) .

(1) لان هذا العلم كان من صلب الفلسفة منذ القديم وقبل العصر المسيحى ، وكان منشاء عند الكلدان والمصريين واليونان ، ولاتى رواجاً عظيماً لأول ما ترجمت الفلسفة في الاسلام ، وسيطر على عقول العباسيين ، فوجدنا أبا تمام يسخر مما ادعاه أصحابه في منيح عمورية ، بل وجدنا من فلاسفة الاسلام من سحر منه ، وهو الفارابى في رسالة نقلها عنه أحد تلاميذه البغداديين .

وهى ضس ما جمع للمارائى من رسائل مطبوعة ، ولكن العلم هذا بالرغم مما أخذ عليه ظل ممحولا به عند مخلف الامم الاسلاميه ، فكان في القرن الرابع أهم ما تناولته رسائل اخوان الصفا ، التى ورد فيها « ان النقاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتسكين ، قد نهوا عن النظر في علم النجوم » ، لان علم النجوم جزء من علم الفلسفة .

ومن شعره في الاعتبار :

(الحي في) حمامه عبرة	وانما يعتبر العاقل (1)
يذكر بالكونين من جنّة	ومن جحيم ذكرها هايل
وانما يعرض انموذجا	من ذا وذا لو نبه الغافل
نعيمه فيه الثقاء الذي	يشفق منه العالم العامل
كعاد نفس المرء من حره	تزلزل لولا أنه زايل
نحن طليان فيبادر بنا	من قبل ان يقتنصنا الحابل
بحر سلطنا منه في ساحل	فما ترى ان غمر الساحل
في حيث لا تنجى الفتى حيلة	سواء الفارس والراجل

واخيرا نجد الشاعر يتنكر لفنه فيقول (2) :

يا غراب الشعر لا طر	ت ومنيت الوقوعا
فاذا استيقظ شهم	قـرم زدت هجوعا
هبك لا تقتنص عزا	لم تقتنصت الخضوعا ؟
رمت ان ترقى سريعا	فتريديت صريعا
ربما اصطاد بغاث	شبعما واصطدت جوعا
ولقد غال حبيبا	منك ما غال صريعا
بسطا الايدي حتى	منعما الطير الوقوعا
واستباحا الشيخ ذا الكب	رة والطفل الرضيعا
واعدا الشعر للعل	م سيوفنا ودروعا

وهكذا نرى ان ابن جبوس قد فسد ما بينه وبين فنه الشعري في هذه القصيدة ، وانه اتى باللائمة عليه وعلى السابقين من بنى فنه كآبى تمام وصريع الفوائى .

فكان بذلك متشائما من شعره ، فناداه بغراب الشعر ، كانه غراب البين ، ويدعو عليه ان يكون مهيب الجناح فلا يقوى على الطيران ، فان طار فمناه الله بالوقوع ، واذا استيقظ من الطيور شهما القرم ، فليزدد

(1) من الاعلام وسقط منها ما جعلناه بين هلالين اجتهدا منا .
(2) زاد المسامر .

هو هجوعا على هجوع .

انك يا غراب ساقط الهمة ، فان كنت لا تنقص عزا بكسبك ، فلم
تحامات وقنصت الخنوع والخضوع ؟ فكنت في هذا تحاول أن ترقى سريعا ،
ولكنك ترديت صريعا خائر القوى ، لم تثل حتى ما يناله بغاث الطير ،
وصغارها ، فربما اصطاد هذا ما نال به شبعه ، أما أنت فاصطدت جوعا . ولقد
أصاب الناس من فلك بلاء عظيم منذ القديم ، فغالى حبيبا منك ، ما غال
صريع الغواني ، فكلاهما استرقهما الطمع ، فبسطا أيديهما للناس ، حتى
سدا بتلك الأيدي المبسوطة الفضاء ، بحيث لو سقط طائر من حالق ،
لما وقع على الأرض ، واستجديا جميع الناس ، من الطفل الرضيع حتى
الشيخ الهرم ، على الرغم من مكانتهما في منهما ، الذي جعلاه للعلم سيوفا
يصول بها ودروعا تقيه عادية الجهالة .

لقد استيقظ ابن حيوس من غفوته وثار لنفسه ، وانتفض انتفاضته
الكبرى . ولكن الصدمة داهمته فصاح بهذه الصيحة :

رد الطرق (1) حتى توافى النمرا	فرب عسير أتاح اليسيرا
وأرسل قلاوصك طورا شمالا	وطورا جنوبا وطورا دبوراً
وشن على غازيات البلاد	من النقع والرمل جيشا مبيرا
وفر ماء وجهك حتى يجم	وأطف السموم به وأهجيراً
وطرح حين أنت قوى الجنا	ح لا عذر عندك أن لا تطيرا
ولا تقمن وأنت السليـ	م حيث تضاهى المهبط الكسيرا
فأم الترحل تدعى ولودا	وأم الاقامة تدعى نـزورا
وذو العجز يرضع ثديا حدورا	وذو العزم يرضع ثديا درورا
يعز على النبل أنى غدوت	أكنى أديبا وأسمى فقيرا
وانى ثبت لكف الزمان	يعرق عظمى عرقا مبيرا
وما ذاك أنى هيايلة	أخاف الرحيل وأشنا المسيرا
ولكن بحكم زمان غدا	يحط الجياد ويسمى الحميرا

نفى هذه القصيدة نرى أمشاجا من النصائح ، وألوانا من التوثبات

(1) الماء المطروق فهو عكر لذلك والابيات من الاعلام المذكور بعد تصحيح بعض التصحيح فيها .

تنتهى بالتعنى على الزمان ، الذى أصبح يحط الرفيع ويعلى الوضع فهو ينصح بالمدارة ، فان وجد الانسان نفسه مضطرا أن يصيب التلفه من الامور ، فلا يحجم عنه ، ريثما ينال عظيمها ، فرب عسير يكون وسياسة لليسير ، ولا يقف الانسان عن المخاطرة فى طلب ما يريد ، حتى ولو كلفه هذا ان يطوف البلاد جميعا ، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وأن يقتحم البلاد ويثير فى وجهها غبار الاسفار ورمالها ، غاديا ورائحا ، وليحافظ على كرامته ، فلا يرقى ماء وجهه بالخلود الى راحة الاقامة ان كان فى هذه الاقامة هوانه ، فليحتفظ بهذا الماء وليوفره عنده ، حتى يطفىء به ، ما يواجهه من حر الهجير والسموم فى ترحاله وليخف طائرا بجناح العزم ، حينها يجد فى نفسه قوة على هذا الطيران ، ولا يتقاعس عنه ، اذ لا عذر له فى هذا ، والا وقع فى الحضيض ، وهو سليم الجناح ، مضاهيا كسير الجناح مهيبه ، لان الترحل لايتأتى الا بالخير العقيم ، فأم هذا الترحل ولود اما الاقامة فأمها عقيم أو نزور ، والعاجز لا يصيب شيئا ، فهو يرضع ثديا حدورا ، لكن ذا العزم ينال مطالبه ، فهو يرضع ثديا درورا . هذه نصائح لابد أن يعمل وفقها ، ولكن واحسرتاه ، وواسفاه على النبل ، الذى يفت فى عضده ، انى غدوت ادعى ادبيا ، ولكنى فقير مملق ، وانى ثبت للزمان ، يعرقنى بكفه عرقا مبيرا ، وما كان تحلى هذا الهوان ، لانى هيابة للاسفار ، اخاف رحيلها ، واكره مسيرها ولكن حكم الزمان ، الذى قضى بأن يخفض من شأن الجياد ، ويرفع من شأن الحمير .

وبهذه النفثة المصدورة ، ينهى بها تصيدته هذه ، لينشد أخرى ، وقد ساء ظنه فى الناس عامة ، وكفر بالمثل العليا ، فقال (1) :

اعبد لنا بـحـيـك عـصا	واقضم ماضفيك حصي
وشعشع للورى شـرقا	مع الساعات او غصصا
وكن وردا خبـعثـة	يراوغ منهم قنصا
وغـمـض عينك النـجـلا	حتى تنعت الحوصا
وهـز لمـعـشـر سـيفا	وهـز لآخـريـن عـصا
وكاثر من يدب لك الضـ	را واخرص كما خرصا

(1) من زاد المسافر .

ولا تعتب عليه فلو	ظفرت به لما خلصا
وسؤ ظنا بكمل أخ	يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة	يخال الشحمة البرصا
ولا تحرص فرب فتى	مضاع عندما حرصا
وحرص الطائر الواقع	مع صير جوفه قفصا
لقد رخص الفلاء وأهـ	ون الأعلاق ما رخصا
وقد ذهب الوفاء فلا	يقول مغالط نقصا
فلا تلزم مكان الظـ	ل ان وأفيته قلصا
وغن لذا الزمان اذا انـ	تشى وازمر اذا رقصا
ومن شهد الخطوب وعـ	ش مثلى يشرح القصصا

هذه حصيلة التجارب التى انتهى اليها الشاعر السوداوى الطبع فى عمره المديد ، وتقلبه ، فلقد تنمر لأهل زمانه هذا الذى املى عليه ، أن يتسلح بكل وسائل الايذاء فليحمل العصا ، ليقتذع بها كل من يتعرض له ، كأنه كلب نابح ، وليلق صلب الاحجار فى فم من يحاول أن ينال منه ، كأنه يهضغ عرضه ، وليشعشع الناس كؤوسا يغصون أو يشرقون باحتساء ما تحتويه ، وليكن مأكرا مكر الثعالب أو الآساد المختلسة التى تراوغ لتفتك بفريستها ، وليعامل بالخديفة ، كل من يلتقى من الناس ، وليبادر الى انتهاز الفرص منها وليبد الغفلة لهم ، خداعا ومكرا ، فيغمض لهم عينه النجلاء ليجعلهم يحسبون أنه أحوص ضيق حدقتها ، كأنها خيطت لضيقها ، وليتحل بحلا الشر ، فيلوح لجماعة بسيفه المطت ، ويهز الآخرين عصاه الغليظة ، وليكاشر عن أنيابه ، كل من يختاله ، وليكذبه الحديث حين يكذبه كذلك ، ولا تعتب على هذا فى هذه الصفات الماكرة ، فانك لو ظفرت بصاحبك لما نجا منك بها ، كما قال المتنبى قبله :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عنة فلعلامة لا يظلم

وان سمعت من أخ ثناءك ، يقاسمك به ، فسؤ ظنا به ، ولا تحفل بامعة يوافئك على كل ما ترى ، ويحسب المظاهر الخلابة حقائق مفيدة ولا تكن حريصا ، فرب حريص خانه ما يحرص عليه ، وكثيرا ما كان حرص الطائر الذى ينزل ليلتقط الحب قد جعل جوفه قفصا لحبسه وهذه نصيحة

مقبولة في ظاهرها ، ولكنها كانت فاتحة لهذه الامتعاضات ، من كون الغالى
اصبح رخيما ، والشريف عد خسيسا ، وان الوفاء قد ذهب بالمرة ، فلم
يعد ينعت به أحد من الناس ، فلا يغالط منهم من يدعى أنه نقص عما كان
عليه .

وبعد ذلك يعود الى النصح ، بالتنقل في طلب العيش ، كما سلف
منه في التصيدة السابقة ، ولهذا فلا يلزم الانسان الظل الذي ان استظل
به نقص عنه فيئة وقلص مده . وهى نصيحة مقبولة كما نرى ، ولكنه يعود الى
وصوليته المعهودة ، ونفاقه المشهور ، فينصح بمائلة الناس على باطلهم ،
فحينما يسكر زمانك سكرته وينتشى بها ، فغن له وازمر اذا رقص من نشوته .

ولا تلمنى في هذه النصيحة ، لان التجارب التى عرقتنى بقساوتها
فرضتها على ، فان قدر لك ان تعيش مثلى ، ويمتد بك حبل الحياة ، فنشاهد
خطوبها ، فان هذه الاحداث والخطوب ، ستشرح لك قصصها شرحا وافيا .

انه ابن حبوس الشاعر الذى لم يخف شيئا في نفسه ، فهو وان كان
مهالئا متكسبا في شعره بأمداحه للملوك والوزراء والكبراء ، يطوف البلاد
مغربها واندلسها ، في طلب العيش ، فانه كالمتنبى ، يحمل في جنب له
طمعا ، وفي جنب آخر تعاظما وكبرياء مضعضعة ، تنقسمها الحيرة ، وتعمل
على تأريثها الحسرة ، ولا نملا جوف طمعها ، ولو كانت خزائنها مليئة بكل
صامت وناطق فقد حصل ابن حبوس على أموال طائلة ، جبتها له امداحه
الكثيرة ، ولكنه لم يثنع بها ، كما كان المتنبى ، بتلك الصفة ، فتنقل بالبلاد
في طلبها ، وقافلة جماله ، تحمل تلك الاموال ، التى مدح من اجلها العبيد
والاحرار ، حتى اذا دوهم في طريقه لاكتناز المزيد منها ، لفظ نفسه الاخير
وهو يدافع عن نفسه وعن تلك الاموال ، فيقضى نحبه ويقضى من كان معه من
الرفاق ، وفيهم ابنه وقلدة كبده .

وعلى كل فان هذه نتيجة الية انهى اليها الشاعر ، وقد ضرسته
التجارب بهاسيها ، وارقتة الاحداث بتنمراتها ، ولكن الشاعر ، كما يبدو
كان سوادى الطبع حاد المزاج ، لا يختلف في هذا عن الحطيئة أو أبى
نواس أو ابن الرومى ، وان كان في اتجاهه أو فراره من الواقع أقرب الى
منهج ابن الرومى ، فقد حرم ابن الرومى من ميزة تمتع بها غيره ، فحقق

عليه ورماء بالحمارية ، فقال :

ان تطل لحية عليك وتعرض فالمخالسى معروفة للحيير
وكذلك وجدنا ابن حبوس لما انتهى الى الحرمان مما صار يتمتع به
غيره ، قد قال :

ولكن بحكم زمان غدا يحط الجياد ويسمى الحميرا
فهذا ان دل ، فانما يدل على الحقد والحفيظة والشاعر الحق له
حكمة ، وموقفه الذي يعذر فيه ، او يلتمس له العذر عند ذهوله عن كل شيء
الا عن شعوره الفياض ، ذلك الشعور الذي جعل ابن حبوس يذهل عن
التعاليم الدينية ، وهو المسلم المتحمس لاسلامه فيما رأينا ، فينادى بهذه
المبادئ التي لو صيغت في النثر لقلنا ان صاحبها يدعو الى المكيافيلية ، ولكنها
صيغت في الشعر ، فقلنا ان صاحبها في شطحة متمرده ، لا يلبث ان يقلع
عنها او تقلع هي عنه ، انها طبول مزعجة جعلته يصرخ صرخته :

وسؤ ظنا بكل اخ يقاسمك الثنا حصصا
ولا تحفل بامعة يخال الشحمة البرصا
وانه الاخفاق في المسمى ، الذي عبر عنه وشيكا :

ولا تحرص فرب فتى مضاع عندما حرصا
وحرص الطائر الواقع صير جوئه قفصا

اذن فالشاعر ، تعرض لظروف انطقته بتلك النصائح الهدامة للاخلاق ،
فاندفع وقد رفع عقيرته فيها وهو يشعر بالضميم وبالبخس لمكانته :
« لقد رخص الغلاء واهون الاعلاق ما رخما » ولم يجد بجانبه من يرفع من
شأنه ، وكان له اصدقاء ببادلونه الود ، فتركوه يعاني ظلمة الكفران ويقول :
« وقد ذهب الوفاء فلا يقول مغالط نقما » ولهذا فقد وجبت النقلة والابتعاد
عن هذا الجو الخائق : « فلا تلزم مكان الظل ان وافته قلما » فهو لا يعنى
بنصيحته الا نفسه ، ولا يهيمه من غيره شيء البتة ، ولكن الشيخوخة تقمده
وتضطره الى الاستنامة او الاسلام ظاهرا فيقول : « وغن لذا الزمان اذا
انتثنى وازمر اذا رقما » ويفصح عن موقفه المضطر اليه ، بقوله :

(ومن شهد الخطوب وعا ش مثلى يشرح القمصا)

وهكذا فابن حبوس، نستولى عليه الحيرة وتربكه، وتغمره بمشاعره او نخنقه ، فينفس عنها بهذه الآهات اليائسة او المستيئسة ، وينفجر عن دخليته ، انفجارا مدويا ، ولعل هذا الصدق في التعبير ، هو الذى وسمه بالتهور أو الحمق فيما سلف عنه فتعرض لغضب المرابطين .

والى جانب هذا فقد قال ابن حبوس فى اغراض أخرى كالنسيب الذى ذكرت له فيه بمحاضرات الابرار للحاتمي هذه الابيات :

اسكنان نعمان الاراك تيقنوا	بانكم فى ربع قلبى سكران
ودوموا على حسن الوداد فاننى	بليت باقوام اذا احفظوا خانوا
سلوا الليل عنى مذ تئاعت دياركم	هل اكلت بالنوم لى فيه اجفان

بعد ابن حبوس ، شاعر الخلافة ، كما بزداد المسافر ، نتصل بآخر (أبو العباس أحمد الكراوى) الذى ذكر بهذا اللقب كذلك ، وشاركه بمناسبة قال فيها شعرا كذلك ،،،،، والكراوى هذا من تادلة ولد فى العقد الثالث من القرن السادس فتلقى تعليمه بمراكش وفاس ثم انتقل الى الاندلس ، التى تقلب فى انحائها ، فتلقى هناك كذلك عن شيوخه ولا نعرف اكثر من هذا عن اوليته ودراسته ، ولكنه منذ ان اتصل بالبلاط الموحدى اثر ابن حبوس امر امره به فكان شاعره واشتهر ذكره بالمغرب والاندلس وتونس ، كما اشتهر ذكره بالشرق ، وتناوله كثير من كتاب التراجم سواء فى ذلك منهم من كان فى الشرق ومن كان فى الغرب ، ومن تناوله من المشاركة ابن خلكان فى كتابه وفيات الاعيان ، ومن رد ذكره بالمغرب ابن عذارى ومن الاندلسيين ابن ادريس وابن الأبار وابن سعيد فى كتابه الفصول الياينة، وقد ذكر حينما تناول ترجمته انه نقل فيها من كتب التراجم العديدة فى ذلك فقال : وتلخيص ذلك انه من تادلا ، عمل مشهور بين مراكش وفاس ، ثم ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة .

وعلى كل حال فان هذا الشاعر اتصل بعبد المومن وسجل وقائعه فى قصائده التى مدحه بها كما سجل وقائع من بعده من الخلفاء الثلاثة فمن امداحه قصيدة قالها لاستيالة العرب سنة 553 ثم القصيدة التى قالها بمناسبة فتح المهديّة 555 ، ثم أخرى فى وقعة انتصر فيها الموحدون على الاسبان سنة 556 كما سنرى . وتوفى قبيل وفاة محمد الناصر بسنة واحدة

فإذا جعلنا تلك القصيدة التي قيلت سنة 553 أول قصيدة له في هذا البيت الملكي، فإنه بذلك يكون قد قضى من عمره المديد قرابة ستين أو نيفا وخمسين سنة وهو يمدح هؤلاء الملوك الأربعة . وعلى هذا فلا بد أن يكون ديوانه من هذه الدواوين الكبار التي تضم الآلاف ، وخصوصا أنه اشتهر كما يقول ابن سعيد بالقصائد الطوال ، واشتهر كذلك بالهجاء اللاذع فكان رجلا بالاضافة الى امداحه هجاء مقذعا ؛ مما يدل على شكاسته ومع هذا وذاك كانت له بعض الابيات أو الاشعار في أغراض شتى ، كالغزل واشعار المناسبات الشخصية ، الا اننا مع ذلك لا نعثّر له على كمية كبيرة من الشعر ، وأهم مرجع يسجل امداحه البيان العربي .

أما قصيدته الاولى فهي (1) :

<p>احاطت بغايات العلى والمفاخر وزانوا سماء المجد عودا وبداة هم المضربون الذين سيوفهم اوانلهم في الجود للناس غاية وكم فيهم من مثل كعب وهاشم وكم قد اقاموا من عروش موائل وكم لهم من حكمة تبهر النهى ومن خطبة تستنزل العصم من عل هم اطلعوا في ليل كل عجاجة هم مزقوا بالببيض كل ممزق اجيبت بهم في آل ساسان دعوة مآثر اسلاف تلاها بنوهم وأخر مجد شفعموه بأول لهم كل جلد في الجلاد مثمر هزبر عليه لبده من مفاضة</p>	<p>على قدم الدنيا هلال بن عامر بسبر القنا والمرفهات البواتر دواعق بأس تنتحى كل كافر وكم تركوا من غاية للأواخر وكم لهم من مثل عمرو عامر (2) وكم قد اقالوا من جدود عوائر ومن مثل في الشرق والغرب سائر ويتضى بتكبيل النفوس النواير كواكب أطراف الرماح الخواطر مهالك شادتها ملوك الاكابر بخير عباد الله بباد وحاضر بأئالها اكرم بها من مآثر وأول مجد شفعموه بأخر سريع الى صوت الصريخ مبادر وناب وظفر من سنان وباتر</p>
---	--

(1) ذكر في الملحق بشاعر الحلافه الحراوى للناسي وهذا الملحق من مخطوط الاستاذ المونى وسقط البيت الثالث منها وذكر في « الفحوص اليابسة » والغريب أن الاستاذ الناسي لم يطلع على هذا المصدر فعلق على الابيات السبعة الواردة فيها بقوله « مثل هذه الابيات صاحب (مشاعر رجال المغرب) ... ولم يذكر المصدر » وتكرر هذا التنصيص عنه واعتبره عادة منه متبعة .
(2) لعله يريد عمرو بن الزبير وعامر بن عبد الله بن الزبير ابن ابيه .

موارد موت ما لها من مصادر
على مثل فتحاء الجناحين كاسر
وان خفت الابطال آخر صادر
حديد شبا الانياب دامي الاظافر
ويقضى عليه دارعا غير حاسر
الى الموت تصميم الليوث الخوادر
فانكم اهل النهى والبصائر
على الكفر تبقى غامرا كل عامر
وتسكن امواج البحار الزواجر
تعم به الدنيا وفود البشائر
وجامع اثنتات العلى والمفاخر
واكرم مأمول وأحلم قصادر
يروح ويغدو كل ناه وآمر
رعى الدين والدنيا له طرف ساهر
بهنصور رايات على الكفر ناصر

اذا سال يوم الروع اورد قرنيه
تعاين منه مثل باز مصرصر
اذا شبيبست الهيجاء اول وارد
يبادر منه القرن اغلب غالب
يثور اليه حاسرا غير دارع
بنى عامر انتم صميم فصمموا
ولا تتوانوا في حظوظ نفوسكم
ومن شكر آلاء الخليفة صولسة
نبيل الجبال الثم منها مخافة
ولا بد من يوم على الكر ايسوم
دعاكم لسا يحييكم وارث الهدى
وأحزهم من ساس الديانة والدنيا
الى امره في كل امر ونهيه
اذا نامت الاملاك عما يههما
فلا برح الاسلام منه مؤيدا

وفي هذه اقتباس من القرآن ولا يكاد شعر للجراوى يخلو منه كما
سنرى فيما ياتى من شعره .

وكانت هذه على لسان الخليفة عبد المومن الذى له اشعار فى هذا
الغرض كما ان هناك اشعارا اخرى لغيره فى الغرض نفسه .

وهكذا نجد الدولة تستميل هؤلاء العرب ليكونوا فى جيشها ، ولكننا
مع ذلك نراها حذرة منهم ، فهى تبعث بهم الى خوض المعارك فى بلاد
الاندلس لتستفيد من شجاعتههم كبداة اعراب ، ولتخلص من شوكتهم
ننتقل بعد هذا الى شاعرنا وهو يلتقى هذه القصيدة مادحا لعبد المومن
حينما كان محاصرا مدينة المهديّة ، يقول فيها ، بتاريخ عام 555 :

عنها وآثارهم فيها مقيمات
هبت اليك رباها والقرارات
بل لم تكن قبل ان كان العطيات
يثنى يرى أنها فى الجود غايات

كانت محل أناس قبلنا فخلوا
تالله لو علمت مقدار وارثها
تالوا العطيات احياءا فقلت لهم
اما سمعت جريرا عن هنيذته

وأين من حسبته الآلاف من ذهب
وأين من قيس عيلان أرومته
ومن يكن من أمير المومنين فقد
أهنا إمام الهدى فالقول منبسط
أعيت مأثركم من أن تنال وكم
وكم أرادت رواة الشعر تحصرها
دمتم ودام لكم أسعاد سعدكم
ولها فتحها قال :

لمن الخيول كأنهن سيول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت
يفزو أديم الأرض من صهلانها
فصهيلها محض الثناء وان يكن
تنشئ على الملك الذى أيامه
عم البسيطة ملكه فكانه
جهل النصارى انه الملك الذى
أهل الجهالة هم فكيف الوهم
الى أن يقول :

فغنوت عفو القادرين نكرما
شكر البلاد مع العباد خليفة
لو نطق المهديتان (2) لقالتا
بالامس يملأ سمعها ناقوسهم

هنيذة من سواده أو هنيذات (1)
وقيس عيلان أملاك وسادات
قامت على فضله منه الشهادات
والدين منتظم والكفر أثتات
شنت عليها من الاقوال غارات
فأخفقت دونها منهم ارادات
ما دامت الأرض والسبع السماوات

غصت بهن سباب وهجول
دان وأبطأ سيرها تعجيل
مثل اسمها حتى تكاد تزول
لا يفهم الاقوام منها صهيل
سنر على هذا الورى مسدول
سيل على كل البلاد يسيل
يرث البلاد وعذرهم مقبول
وعلمت أن الطبع ليس يحول

عنهم وعفو القادرين جميل
هو بالبلاد وبالعباد كفيل
في الشكر ما لا يدرك التحصيل
واليوم يملأ سمعها التهليل

فهذه القصيدة مدوية هادرة، زادت على جلجلة هذه اللام المضمومة المسبوقة
بالردف في قافيتها : هجولو، تعجيلو، تزولو، صهيلو الى آخرها وفيها هذا الوطء

(1) هنيذة مائة من الإبل لا تدخل عليها أداة التعريف نهى علم جنس لا تصرف . والشاعر
الجرأوى يشير بقوله الى قول جرير في مدح يزيد بن عبد الملك :

أعطوا هنيذة يحدها ثمانية ما في عطائهم من ولا سرف
انظر ادب الكاتب لابن متية .

(2) يريد المهدية التى اخطأها المهدي أولا والمهدية الثانية التى اخطأها بعدها الى حبيبها
وحمل بينهما قدر طول ميدان كما في معجم البلدان .

النأشء عن أشباع حركة الروى وهو الواو بعد تلك الضمة ، كما رأينا ،
وكما نجده فى اللامية المنسوبة للسؤال :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحبل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

ففيها نجد الكلمات : قليلو ، كهولو ، ذليلو ، الى جانب اخواتها
وهى ترن رنيناً حاداً مزعجاً ، يناسب موضوع القصيدة من الفخر
وذكر الأمجاد ، وكذلك قصيدة الجراوى ، وهى تصلصل بنواتيس الظفر
والنصر ، وتدق طبول الفتح والاستيلاء والبنود خافقة والإبطال منتشية
متدافعة ، أما تلك التى قالها قبل أنجاز الفتح ، فكانت لهجة الاعتبار والاعتاظ
تقدمها ، فى هدوء صامت وتفكير مسنغرق .

كانت محل أناس قبلنا فخلوا عنها وآثارهم فيها مقيمات
وكذلك ان صارت لنا محلاً ، فسجلو عنها ونخلف بها آثارنا « تلك
أمة قد خلّت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . ويكفى من قصيدتنا ، البيتان
فى مطلعها :

لمن الخيول كأنهن سيول غصت بهن سبابس وهجول
طويت لها الدنيا فأبعد ما انتحت دان وأبطأ سيرها تعجيل
فما كان أجدر بالشاعر ان يثاب عليها وحدهما ، كما أثيب قبله الشاعر
السمعاني ، على بيته :

ما هز عطيفه بين الببض والأسل مثل الخليفة عبد المومن بن على
ولكن عبد المومن لم يذكر فيهما ، فلم يوهى الشاعر بالاعتصار عليهما ،
فكان لابد من الاستمرار حتى البيت :

تنهى على الملك الذى أيامه ستر على هذا الورى مسدول
وهذه القصيدة تنظر الى قصيدة لابن هائىء الاندلسى يمدح بها
المعز لدين الله الفاطمى بمناسبة انتصاره على الروم ، ومطلعها :
يوم عريض فى الفخار طويل ما تنتضى غرر له وحجول

وهو ينظر فيها الى قصيدة المتنبي في سيف الدولة ، ومطلعها :

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

اما تصيدتنا ففيها الايات الآتية :

انت الذى تراث البلاد لديهم	فالأرض مال والسجود دليل
جاءوا وحشو الأرض منهم جفيل	لجب وحشو الخافقين صهيل
خاضته أوظفة السوابق فانتهى	منهن ما لا ينتهى التحجيل
فلتعلم الاعلاج علما ثابتا	ان الطيب وقد عززت دليل
وليعبدوا غير المسيح فليس فى	دين الترهيب بعدها تأميل
اهل الفرار فليت شعري عنهم	هل حدثوا أن الطباع تحول
رجعوا فابدوا ذلة وضراعة	والى الجبله يرجع الجبيل
فاذا قبلت فمنة مشكورة	لك ثم أنت المرتجى المامول
وليسمن صليلها فى هامهم	ان كان يسمع للسيوف صليل
وليلفن جياذ خيلك حيث لم	يلغ صباح مسفر واصيل
فوراءهم حيث انتحوا وامامهم	تطوى بهن تنائف وهجول
ورعية هذاب عدلك فوقها	سنر على مهجانها مسدول
والوصف يمكن فيه الا انه	لا يطلق التشبيه والتمثيل
ترد العيون عليه وهى نواظر	فاذا صدرن فانهن عقول
غامرته فعجزت عن ادراكه	لكنه بضائرى معقول

وهذه قصيدة للجراوى كان أنشدها سنة 556 وقد انتصر الموحدون

فى موقعة « فحصى بلقون » على النصارى (1)

أعليت دين الواحد القهار	بالشرافية والقنا الخطار
ورأى بك الاسلام قرة عينه	وغدت بك الفراء دار قرار
وسلكت من طرق الهداية لاحبا	طوبى لمن يمشى على الآثار
وجرت معاليكم الى الامد الذى	بعدت مسافته على الاسفار
وقفت على ما قد أردت سعادة	وقفت عليها خدمة الاقدار
لا نخلق الايام جدة ملككم	ابدا ولا تبلى على الاعصار

(1) يقول « هويسى ميرندا » فى هذا المكان انه غير معروف لديه .

لا غرو أن كنت الاخير زمانه
وافيت اندلسا فأمّن خائف
وحللتهم جبل الهدى فحللتهم
جبل الهدى والفتح والنصر الذى
لو بدلوا اقدامهم بقوادم
ثم يقول :

فالفضل للاتصال والاسحار
وسمى لاخذ النار رب النار
منه عقود عزائم الكفار (1)
سبقته بشائره الى الامصار
طاروا عن الاوطان كل مطار

لو راء (2) موسى ما فعلت وطارق
اتهمت ما قد املوه ففاتهم
بعراب خيل فوقهن اعارب
اكرم بهن قبائلا اقلالها
وانظر اذا اصطفيت كتابها الى
لو انها نصرت عليا لم ترد
هم اظهروه مع النبى وواجب
ملك الملوك لقد انفت الى العلى
انت السبيل الى النجاة فكلنا
وجريت فى نصر الاله الى مدى
قد ضاق ذرع الكفر منك واهله

زريا بما لهما من الآثار
من نصر دين الواحد القهار
من كل مقتحم على الاخطار
فى الحرب يغنيها عن الاكثار
ما تحمد الكتاب للاسطار
خيل ابن حرب ساحة الانبار
أن يتبعوا الاظهار بالاظهار
ونظرت من فوق الى الاتدار
لولاك كان على شفير هار
يكبو ورايك فيه كل مجار
بموفق الايراد والاصدار

انها كانت قصيدة جزلة صاخبة استمد الشاعر فيها كثيرا من أبى
تمام ، وبقي أن نذكر أنه الى جانب هذا تبدو على القصيدة المسحة الشيعة
فى مثل قوله :

لو انها نصرت عليا لم ترد
ثم يقول :

خيل ابن حرب ساحة الانبار

هم اظهروه مع النبى وواجب
ثم يقول :

ان يتبعوا الاظهار بالاظهار

اخليفة الهدى دمت مؤيدا بالله منتقما من الكفار

(1) حللتهم الاول من الطول ، وان كان معناه فى الاصل لا يختف عن الثانى ، لكن لما حذف
منعوله « الرجل » أصبح لازما فكان مصدره الفعول (باطراد كمدا) وما بعده طرف مكان
(2) لغة فى رأى . والابيات واردة فى البيان المغرب .

وهناك شيء آخر له دلالة تاريخية وهو أن هذه الواقعة انتصر فيها أولئك العرب من قبائل بنى هلال وغيرها لأنه يقول فيها :

بعراب خيل فوقهن اعراب من كل مقتحم على الاخطار
اكرم بهن قبائلا اقتلها في الحرب يغنيها عن الاكثر
وكما أشرنا فانه في هذه القصيدة ينظر الى قصيدة أبي تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم والله قد أوصى بحفظ الجار
ومنها :

موتورة طلب الاله بثارها وكفى برب الثار مدرك ثار
وبعد ما عرضنا نماذج من أمداح الجراوى فى الخليفة عبد المومن ابن على ، نتصل بشعره مادحا لابنه يوسف وهنا لابد أن نقول ان شعر الجراوى قد تحول فى لهجته كما عهدناها من الجزالة والصخابة واستبدلها بلهجة أخرى ، كما سنرى ذلك ، فان الشاعر الذى يربط نفسه بركاب الامداح ، لا يريها ، قلما يكون شاعرا يخلص لفنه ويصطبغ بلونه ، بل هو فى الواقع تاجر يتأجر ببضاعته التى لا يراعى فيها الا ما يطلبه الناس فاذا انصرفوا عن صنف منها وطلبوا غيره ، انصرف هو كذلك عنه وطلب غيره للناس هؤلاء والا افلس وبارت بضاعته ، ودخل فى خبر كان ، وكذلك كان الجراوى ، لا يريد أن يدخل فى خبر كان ، بل روج بضاعته فى سوقه التى ظلت له يعرض فيها مدة تربو على نصف قرن من الزمان ، فكان عليه أن يلائم بينها وبين أذواق طالبيها ، بكل ما وسعته الحيلة وأسعفته القدرة كان عبد المومن مأخوذا بالعظمة والصلصلة التى يقول فيها : « بمثل هذا تمدح الخلفاء » ، أما ابنه فكان فيلسوفا ، دقيق الحس ، فلم يوخذ بذلك كله ولم تعجبه تلك الاصداغ التى كانت منبعثة عن ابن هانئ مدوية فى شعر الجراوى ، كما لم تعجب أشباهها الفيلسوف أبا العلاء فمات فيها « رضى نطحن قرونا » ، بل وجدنا ملكنا أو خليفتنا المتفلسف ، ينقطع الى فلاسفة الاندلس ، ويخلد الى شعرائها ، وعلى رأسهم أبو عمر ابن حربون ، شاعر المعانى العميقة والاساليب الرقيقة ، فأصبح شاعرنا الجراوى مضطرا الى تغيير

بضاعته ، معلنا عن امعاضه في بعض المناسبات ، كما سنرى .

والحق اننا لا نعرف شاعرا ، لم يكذب يشعر الا لغيره ، كما عرفنا ابا العباس الجراوى ، وبهذا لا نستغرب أن وجدنا في شعره الآن تحولا ، وأول ما نجد ذلك في قصيدة له قالها سنة 564 بمناسبة استرداد بطليوس، ورد فيها ما يلى :

نظر بكل سعادة مقرون	نالته به الدنيا المنى والدين
تقديم من شهد الوجود بأنه	ما زال بالتقديم فيه تمين
عائق ثمين زينت الدنيا به	وافاء علق الملك وهو ثمين
تغزو المهابة عنه كل معاند	ولو انه اشتملت عليه الصين
وتشب حيث توجهت عزيماته	حريا كما وصفت لنا صفين
ان أصبحت رهن البرامك أمة	في ظلمها فحسامه هارون
من قيس عيلان الذين سيوفهم	أبدا تصول ظلماتها وتصون
دانت له في الفخر كل قبيلة	من شأنها الا تكون تدين
وكفاهم أن كان منهم مفخرا	معنى الوجود وسرها المكنون
ملك اذا اضطرب الزمان مخافة	لم يعيه التسكين والنامين
القى على اهل الضلالة ككلا	فلهم عويل تحتته وانين
وجرى الى الامد الذى لم يجره	ملك ولم تصعد اليه ظنون
ومن العجائب ان يوجد بمثله	للخلق هذا الدهر وهو ضنين
حمال ائثال الورى متهلل	في حيث تعترض الحتوف الجون
في راحتيه لمعتف ولعتد	يومي ندى ووغى منى ومنون
عذرا ابا يعقوب ان علاكم	قد أفنت الأمداح وهى فنون
لا يبلغ المنثور بعض مآثر	ترضى لك العليا ولا الموزون
كم مدحة لك بعدها مذخورة	تزن المدائح كلها وتزين
لو لم يسد الا نظيرك لم يجز	فيه الامين مدى ولا المامون
قد كان ما قد قلت يرتب حينه	حتى اتى ولكل شئ حين
ما زال أمركم الذى هو عصمة	والعز لا يعدوه والتمكين

فهو في هذه القصيدة لم يتخلص تماما من لهجته الاولى ، وكأنه احس بعجزه ، فاعتذر الى الخليفة ، ولم نره يعتذر فيها سبق لأبيه ، وكان هذا

ما تقضى به طبيعة النشوء والارتقاء ، ولا شك أنه نظر في القصيدة الى ابن هانيء أيضا ، وهو يمدح المعز بتصيدته :

هل من اعقة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين
وهذا النظر واضح في الابيات التالية :

هذا المعز متوجا والدين	هذا معد والخلائق كلها
بدا الاله وغيبها المكنون	هذا ضمير النشأة الاولى التى
لم يعقب الحركات منه سكون	لو ان هذا الدهر يبطش بطشه
والمدركان النصر والتمكين	الطالبان المشرفية والقنا
بالثوب اذ فغرت لها صفين	القت بأيدي الذل ملقى عمرها
جفلت وراء الهند منها الصين	او لم تشن بها وقائعك التى
ملك على سر الاله أمين	ورمى الى البلد الامين بطرفه
دفع القضاء اليه وهو يتين	لـ يدر ما رجم الظنون وانما
الا وانست لخوفها تامين	لم تسكن الدنيا فواق بكية
ما قدرك المنثور والموزون	لك حمدنا لانه لك مفخر
مامون حزم عنده وامين	الله يعلم ان رايك فى السورى

ولعلنا قد لاحظنا صورة مكررة فى قوله :

وجرى الى الامد الذى لم يجره ملك ولم تصعد اليه ظنون
مع ما سبق له فى قوله :

وجريت فى نصر الاله الى مدى يكبو ورايك فيه كل مجار
فالشاعر المتكسب بشعره كان من أولئك النفعيين — وما أكثرهم فى زماننا — يدور مع أحداث الزمان ، كيفما دارت ، ولا يستغرب هذا من مثله وكأن تكلفه أوقعه فى هذا السخف :

« حمال ائثال السورى متهلل » فإى ملك يحتمل هذا الوصف البدوى الغليظ الذى ان احتمل من الخنساء فى أخيها فهو هنا كجوة وقع فيها الجراوى محاولا التأنق على ان الخنساء جعلت أخاها يحمل الوية الحروب . فذاك « الحمال » للالوية يختلف عن الحمال للاتقال .

وقال فيه بمناسبة جوازه للاندلس ، ودخوله الى اشبيلية ، على هيئة حافلة قصيدتين يقول في الاولى :

حللت من العلى اسمى ذراها	وجاريت النجوم الى مداها
وواليت السباح فقد تناهت	أمان للعناة وما تناهها
وجودك نعمة لله عمت	وجودك نعمة أخرى سواها
ارى ذلك الزمان وثناء الا	تقارن في الامور ولا تضاهها
وصلت وصلت فالامواه تجرى	وغلب الاسد تخدر (1) في شراها
وعذر الشمس لو حسدتك باد	لأن سنك أشهر من سناها
تنال المارقين بكل ارض	ولا طارت ولا نقلت خطاهها
لقد أخنى الزمان على النصارى	بسوط مؤيد صدعت صفها
وانصف بعضها الاسلام منها	وادرك في العقوبة منتهاها
خطوب اذهلت عقل ابن سعد	وزادت عن لواظله كراها
وقد كانت تشد بها قواه	فما لغبت قواه ولا قواها
يردد آه من أسف وحزن	وما تنجى من الغمرات آها
وهل يبقى وقد ففرت اليه	منيته المريحة منه فاهها
لقد ولى عن الخير اختيارا	ووالى اللات والعزى سفاهها
وأثر معثرا ضلوا سبيلا	فما عرفوا النبى ولا الالهها

يريد في الابيات الأخيرة محمد بن سعد بن مردنيس ، الذى خرج عن ربة الطاعة وتحالف مع النصارى وكان بلبس لباسهم ويقتدى بهم فتوجه اليه اخوه الخليفة أبو حفص وتغلب عليه ، فأشار الى ذلك الجراوى في هذه القصيدة ، التى صار يتأنق فيها باستعمال الجناس في

وجودك نعمة لله عمت	وجودك نعمة أخرى سواها
وصلت وصلت فالامواه تجرى	وغلب الاسد تخدر في شراها

وهذا على سبيل اللف والنثر ، فوصلت من الصلة تناسبه الامواه تجرى ، وصلت من الصولة ، يناسبه غلب الاسد نخدر في شراها والقصيدة في نسجها تشبه قصيدة أخرى ، كان السيد أبو حفص قد بعثها

(1) في البيان المغرب « تحذر » وهو تحريم لنخدر ، بالخاء المعجمة والذال المهملة ، من خدر الاسد في عرينه لزمه .

في طي كتاب ، من انشاء ابن عياش ، بهزمه لابن مردنيش 560 مطلعها :

لقد بلغت جياذكم مداها	ونالت ما أرادت من عداها
وها هي فاسالوا الاصباح عنها	بحمد الله قد حمدت سراها
تعد رضاكم عزا وجاها	فما تشكو على حال وجاها
تهيم بحب طاعتكم فتطوى	بساط القفر حتى قد طواها

ففى هذه زيادة على الجرس تلاعب بالالفاظ على نحو ذلك الجناس ،
«وجاها وجاها» «فتطوى بساط الارض حتى طواها»، ومثل «قواهولا قواها»
بعدها فالغالب ان الجراوى قد نظر اليها صادرة عن الكاتب ابن عياش
كما سلف وكان هذا الكاتب شاعرا كذلك من شعراء الدولة المسجلين
لاحداثها (1) ويقول اول الثانية (2) :

ضربت عليك لواءها العليا	وتحيرت في وصفك الشعراء
وقضى الذى اعطاك سعدا مقبلا	الا يفارق حاسديك ثقاء
ما شك ذو النظر الصحيح ولا امترى	ان الورى ارض وانست سماء
الامر امر الله ليس يضيره	ما حاولت من كيدہ الاعداء
والحق ابلج والمعاند عينه	عمياء عنه واذنہ صماء
لو كانت الجوزاء من اعدائه	لم تنج من غاراته الجوزاء
سائل اذا ركب الدجا وتحيرت	زهر النجوم ونامت الرقباء
يهدى ويهدى منعما ومعلما	لازال منه الهدى والاهداء (3)
اوفى بها ترك النبى محمد	والقائم الهدى والخلفاء

الى ان يقول :

اولى بعهد المومنين ومن به	كمل السرور وتمت النعماء
العيد اولى ان اهنيه بكم	فعليه منكم بهجة وبهاء
انتم سنا الدنيا فلولاً انتم	ما فارقتم آفاقها الظلماء

(1) وردت التصيدة كلها في « المن بالامامة » .

(2) ذكرت منها ثلاثة عشر بيتا في « المعرب » .

أوردنا منها اثني عشر ، وتركنا بيتا سقطت منه بضع كلمات هكذا :

وجلى الحقائق للورى ،،،،،، وتركا بيتا سقطت منه بضع كلمات هكذا :

(3) في هذا البيت ايضا لف ونثر .

فهذا الشعر نزل عن مستواه فهو أولى بأن ينسب الى معاصريه من
الاندلسيين المتأنيين في تصنيفهم وتصنيعهم أحيانا ، وان كانت الاخيرة تنظر
من بعيد الى قصيدة ابن هانيء في المعز ، ومطلعها :

الحب حيث المعثر الاعداء والصبر حيث الكلة السираء
وقد سبق للشاعر أن استعان ببعض أبياتها ، مثل :

جهل البطارق انه الملك الذى أوصى البنيين بسلمه الآباء
فقال :

جهل النصارى انه الملك الذى يرث البلاد وعذرهم مقبول
ومثل :

اعززت دين الله يا ابن نبيه فاليوم فيه تخمط واباء
فقال :

أعليت دين الواحد القهار بالمشرفية والقنصا الخطار
ومن شعره فيه هذه القصيدة التى أنشأها بمناسبة انتصار يوسف
في معركة حارب فيها الملك النصرانى فرندو البيبوج بن الادفونش احد
ملوك الاسبان سنة 569 :

عن أمركم يتصرف الثقلان	وبنصركم ينعاقب الملسوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم	تتحرك الافلاك فى السدوران
جاهدتم فى الله حق جهاده	ونهضتم بحماية الإيمان
وتركت أرض العدى وقلوبهم	فى غاية الرجفان والخفقان
وغزاهم الدين الحنيفى الذى	كتب الظهور له على الأديان
كتب الله لكم فتوحا فى العدى	هذا لها وسواه كالعنوان
هذا مقام المصطفى باقوز من	حاز النيابة فيه عن حسان
من يعرف الرحمن حقاً يعترف	بحقوقه لخليفة الرحمن

فهذه أبيات ، اذا استثنينا البيتين الاولين منها ، وهما فى مبالغتهما
معروفان للشعراء عامة ، لا ترتفع الى ذلك المستوى الشامخ الذى

عهدناه في امداحه للخليفة عبد المومن . بل ان اسلوب الشعراء بعيد عنها وفيه الاقتباس القرآنى نحو « وجاهدوا في الله حق جهاده » كما ان فيه من العبارات المتواضعة نحو « وقلوبهم في غاية الرجفان والخفقان » و « كتب الظهور له على الاديان » و « يعترف بحقوقه لخليفة الرحمن » وله كما يقول ابن عذارى من قصيدة اولها :

بسيبك صال الدين في الشرق والغرب ودارت على الاعداء دائرة الحرب
واذعن نساء واستقام معاند ولان قيادا كل ممتنع صعب
وفي المصراع الثانى من اولهما اقتباس « عليهم دائرة السوء » القرآنية.
وللجراوى في الخليفة قصيدتان بمناسبة ابلاله من مرض يقول في الاولى :

ستملك ارض مصر والعراقا	وتجرى نحوك الأمم استباقا
اذا لم يتفق رأى ورأى	افسادا في محبتك اتفاقا
صفا لك كل قلب غير صاف	وزحزح عن ضائره النفثا
وحقكم وحقكم عظيم	لقد حسن الزمان بكم وراقا
وقد بلغ الوجود بكم مناه	وقد امنعت عصا الدين انشقاقا
تبادرت الفتوح اليك تجرى	غرائبها وتستبِق استباقا
امير المؤمنين ومن عليه	سنا الاسلام ياتلق اثلاقا
ويا ملكا احنت كل ارض	الى ارض اقام بها اشتياقا
يحن اليك يوم غير آت	ويشكو الذاهب الماضى الفراقا
شكوت فأى قلب غير شاك	وأى العيش لم يمرر مذاقا
ولولا عطفة الابلال كنا	بنار الوجد نحترق احتراقا

أبيات — على عمومها ، بسيطة في صورها ، وان تخللها تصنيف
البديع في نحو :

صفا لك قلب غير صاف

وهو في هذا من البساطة بـمكان ، بحيث يمكن ابعاده من هذا الصنيع
وفيها من الاقتباس القرآنى الموجود في قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع
النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم » .

ومن ناحية أخرى فان تصوير الفتوح ، بغرائب الابل ، تجرى اليه

استقبلتها ، لا يستحق التنويه ، كما أن الامعان في المكان والزمان ، بحنين
ارض الى ارض يقيم بها الخليفة ، وحنين الايام المستقبلية الى ايامه ، وشكوى
الماضية من فراقه كل هذا عمل فيه تأنق الصنعة ، التي صار شاعرنا
يمارسها ، ويجارى زملاءه فيها ، استجابة لاعجاب الخليفة بها ، كما
في قوله :

شكوت فباى قلب غير شاك

وقوله اخيرا :

ولولا عطفة الابلال كنا بنار الوجد نحترق احتراقا
وفي الثانية :

وسمت برجائكم الهيم	شملت ببقائكم النعم
هيئات نساجلها الديم	وهمت ديم من راحتكم
تشقى بصوارمها العجم	وعنت لعزائمكم عـرب
بهم تنقاد لها البهم	اسد تنقاد الاسد لها
ولكم ذمت منها الشيم	حمدت شيم الايام بكم
وسماء العلم بها علم	بهرت انوار خلافتكم
ووعى من كان به صمم	فراى من ليس له بصر
واثى بغرائب الكرم	واناف المجد على زحل
ولو أن مقالهم حكم	أعيا البلغاء مقامكم
فله بكم فخر عـمم	العيد أحق بتهنئة
من صرف الدهر ويعتصم (1)	دمتم والكل يلوذ بكم

وقوله في أخرى بمناسبة قضائه على ثورة للاعراب (وهى من
الخبب كذلك لان الخليفة كان يعجبه ويقترحه كما في المعجب (2) :

- (1) من البيان المعرب كسابتها . ويلاحظ انه كرر في هذه معنى تقدم في أخرى بالبيت :
العيد اولى ان أهنيه بكم فعليه منكم بهجة وبهاء
فقال هنا البيت :
العيد أحق بتهنئة
(2) من ملحق « شاعر الخلافة » .

ببسيط العالم تعترض
ما ضر علاك وقد بهرت
شقى الاعداء وان حسبوا
وردوا غدران الغدر ولا
كفروا لما كثروا وزككت
نعم رزقت نعماً فطفت
ما غرهم بهزير وغى
أسد تنقاد له الآسا
تذكرو نيران حفيظته
فله من عزمته عدد
يلقى الابطال فينتض ما
فدم دفع وطللى بدد
يثق الأرضى بصحبته
ذخر الاملاك وانبت ابا
يمدون ولا يوفون بما
جمعت كفاك ندى وردى
أصفيت العيش فلا كدر
لو قلت بأنك أوتر من
لم تات بمشبهك الايا
ما كذب فيك فراسته
ملك انوار بصيرته
اثواب الدين به جدد

وعلى معبودك تعتمد
من يحجبه عنها الرمد
بمروقههم أن قد سمعوا
صدر عنهن لمن يرد
أموالهم ونما العدد
وبغت فأتيح لها الاسد
خلق الماذى له لبد
د كما تنقاد لها النقد
فيكاد يذوب لها الزرد
وله من نجدته عدد
عقدوا ويناتض ما اعتقدوا
وظبى قدد وقنى قصد
ان العلوى له مدد
يعقوب تجود بها تجد
وعدوا وتجود ولا تعد
فتصون يد وتصول يد
واقمت الدين فلا اود
أحد ما نازعنى أحد
م ولا ولدته ولا تلدد
ملك للعالم منتقد
ومناقبه سرج تقد
وسيل الحق به جدد

فهذه القصيدة بلغت ذروتها في حليتها البديعية وخصوصاً في التلاعب
بالالفاظ واللقابة بين الاضداد ، وفيها اقتباس من نحو « ما غرك بريك
الكريم » ونحو « يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » وهى ظاهرة تعم
ما وجدناه من امداحه في يوسف الموحدى .

وفيها صور مكررة مع ما سبق في الاخرى :

« أسد تنقاد له الآساد كما تنقاد لها النقد »

مع قوله سلفا :

أسد تنقاد الأسد لها بهم تنقاد لها البهم
وهذه قصيدة أخرى له في نفس التاريخ ويذكر فيها بناءه لمنار الكتبية
— كما يبدو — (1)

أهدى اليك ثناء العرب والعجم وأبصرت جودك الآمال فابتدرت كفتته أمر أعاديه سعادتته مستقبل العمر قد عاد الزمان به لا غرو أن يتسمى غيره ملكا ليس التقارب في الالفاظ ملتفتا سطا وجاد أبو يعقوب فاعترفت تبقى الفوارس والكتاب حائرة غريبة لم يعاين مثلها زمن أوفى الملوك واكناهم لمعضلة والناس في الخلق أشباه إذا نظروا	جود أبر على الداماء والديم إلى همام علي القدر والههم فنال مارامه فيهم ولم يرم إلى الشباب وقد أوفى على الهرم فليس يلتبس المنكور بالعلم يا بعد ما بين معنى البهم والبهم له الملوك بفضل البأس والكرم ان قط بالسيف أو ان خط بالقلم وندره لا تراها العين في الحلم تعبي الكفاة وأهداهم إلى التهم (2) وانما اختلفوا في الخلق والشيم
---	--

إلى أن يقول فيه :

بنى منارا على التقوى تطالعه
وهد ما كان مبنيا على جرف
زهر الكواكب والافلاك من أمم
هار ولم يبن من تقوى على دعم

قالقصيدة على تصنيعها مقتصدة في التلاعب بالالفاظ ، كما في قط
وخط وأوفى واكنسا وهمام وهمم ورام ويرم والبهم والبهم
وفيه استغلال لاصطلاحات علمية مثل « المنكور والعلم » و « التقارب
في الالفاظ » و « الالتباس » كما انه اقتبس في البيتين الآخرين من الآية
« أمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه
على شفى جرف هار » وهو يشير فيها إلى المسجد الذى بناه المرابطون
مكان الكتبية فهدمه الموحدون ، فجعله كمسجد الضرار عفى الله عنه

(1) من المصدر السالف .

(2) بالاصل « اللقم » ولا أرى له لياقة هنا

ثم انه ينظر في قوله : « ليس التقارب في الالفاظ ملتفتا » الى ما سبق لابن جبوس في قوله :

« ولبس اشتراك اللفظ يوجب مدحة » فالاشتراك اللفظي احق هنا من التقارب اللفظي اذ لا تقارب فيه بين ملك وملك مما هو معنى في قوله : « لا غرو أن يتسمى غيره ملكا » بل التقارب المدعى انما هو في المعانى هنا .

ومن امداحه فيه قصيدة ذكر منها ابن خلكان بيتين في غاية التأنيق قال فيه ابن خلكان « وهو بديع غريب » والبيان هما :

ان الامام هو الطبيب وقد شفى علل البرايا ظاهرا ودخلا
حمل البسيطة وهى تحمل شخصه كالروح توجد حاملا محمولا

فهذا وصف جعل الخليفة فيه « يحمل البسيطة » ومثل له بالروح احترازا منه لما سبق له من ذكره بحمال ائثال الورى فكأنه انتقد عليه اشد الانتقاد فكفر عن ذلك بهذا البديع الغريب .

وبعد عرض تلك النماذج من امداح الجراوى في يوسف بن عبد المومن ، نتصل به وهو على امداحه ليعقوب المنصور .

وامداحه لهذا الملك العظيم ، لا تكاد فيما عدا الفتوح يختلف في صيغتها المتأنفة ، عن امداحه لآبيه ، كما انها في مستواها السوى لا تكاد تختلف عنها ، وقد كان المنصور كأبيه ، قد ركن الى المدرسة الاندلسية ، فحظيت عنده ، وكان على رأس شعرائها أبوبكر بن مجبر ، الذى وجد الشاعر فيه مزاحما خطيرا ، وحاول أن ينال من فنه في عدة مناسبات ، ولكن المنصور وهو وزير أبيه كان يدرا عنه تهجم الجراوى ، ويرفع من شأنه (1) وربما غص ضنينا من جانب الجراوى ، عند المقارنة به ، وبذلكم كان ابن مجبر في مقدمة الشعراء الذين ينشدون أشعارهم في شتى المناسبات التى كانت تتصل بهذا الخليفة ، فكان على الجراوى أيضا ، أن يأتى البيوت من أبوابها ، ويقتنص من شوارد الأساليب ما يطيب لممدوحه أو يقدم له من دواجنها ما يلذ له كذلك ، وهذا ما تصوره تماما ، هذه الامداح ، التى نأتى بها متدرجين في

(1) يذكر ذلك ابن الخطيب في الاحاطة وينعت الجراوى بالاعمى ولا نعرف هذه الصفة له الا من هذا المصدر وفيه أن أباه سر من صبيعه هذا .

عرضها تدرجا تاريخيا .

فمن أوائل هذه الأمداح ، قصيدة قالها بمناسبة ، دخول ابن غانية بجاية ، ثم انتصار جيش المنصور عليه بأسطوله الظاهر :

لواؤك منصور وسعدك غالب
لقد ثكلت أم المناوى وغررت
سما لاستراق السمع من وهداته
تلاقى عليه البر والبحر ترتضى
غريق بغرقى مثله متمسك
هوت بهم الاطماع فى هوة الردى
اطاعوا غويا لم تقيده شرعة
مغيب وجه الراى والوجه حائر
دعاهم الى آجالهم فتهافتوا
تصاهم عن وعظ الزمان بقلبه
تخيل أن الناصريّة داره
وفى الغيب من انجاد طائفة الهدى
هو الامر امر الله ليس يفوته
وما هارب منه ولو بلغ السهى
بناصرها المنصور تاهت خلافة
امام له فضل على الخلق باهر
مناقبه مثل الكواكب كثرة
هى الدوحة السماء فى الارض اطها
له نسبة قيسية قرشية
حقيق بهيرات النبوة والهدى
بقيتم امير المومنين وسعدكم
وحزبك للاعداء عنك محارب
مبادئ من احواله وعواقب
ودون سماء الملك شهيب ثواقب
سفينة الى استيصاله وكنائب
وموج المنايا مثلهم متراكب
وغرتهم جهلا بروق خوالسب
ولم تره وجه الصواب التجارب
يرى حاضرا فى امره وهو غائب
كما جمع الاعواد للنار حاطب
وأعرض عن وجه الهدى وهو لاحب
يطاعن عن ساحاتها ويضارب
ونصر امير المومنين غرائب
مناو ولا ينأى عليه مناصب
بناج وهل ينجو من الله هارب
تناسبه فى حسنه ويناسب
ومرتبة نخط عنها المراتب
ونورا الا لله تلك المناقب
وقد زاحمت منها السماء الذوائب
تقر لها بالمعلوات المناسب
ولا عجب ان المزايا مواهب
تهزقنى منه وتنضى قواضب (1)

ففى هذه القصيدة نجده يستعين بما ورد فى القرآن ، كاستراق السمع واتباع الشهاب الثاقب ، الوارد فى الصفات والجن كما استعان بقوله تعالى ، فى هذه السورة « لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا »

(1) البيان المغرب

واستعان بقوله في سورة ابراهيم « اصلها ثابت وفرعها في السماء » ، ونجد فيه تصنيعا بالتقسيم والمقابلة بين المعانى ، واللف والنشر ، والاحتفال بالالفاظ وزينتها كرد الصدر على العجز وفيها استغلال لنمثيل معروف وهو « تمسك غارق بفارق » كما أن فيها من الصور المكررة مع ما سبق قوله :

« هو الامر امر الله ليس يفوته مناو ولا ينأى عليه مناصب »

مع قوله في قصيدة اشرنا اليها :

الامر امر الله ليس يضيره ما حاولت من كيده الاعداء
ولا بى العباس سيد الملقى المعروف بالجراوى ايضا ، من قصيدة له في عبد المومن افتتحها بقوله :

هو الامر امر الله ليس له رد يؤيده ايد ويسمو به حد

وامداح الجراوى للمنصور في مناسبات الانتصارات والتي تتصل بالفتوح ، يغلب عليها طابع ابي تمام على العموم ، وهو ما سيواجهنا في امداحه هذه ، فيما بعد ، ومنها هذه القصيدة التي قالها في نفس التاريخ بمناسبة تعظيم حجم الدينار الموحدى ، ويقول فيها :

بحد عزمك نال الدين ما طلبا	وأحجم الشرك عن اقتداه رهبا
وايقنت ملة الاسلام أن لها	بك الظهور على الاعداء والغلبا
وان كل بعيد عندها كئيب	ولو تطالب في افلاكها لشهبا
وان امرك مستول على امد	من السعادة فات العجم والعربا
ان الخلافة نالت من محاسنكم	أوفى الحظوظ فنالت منظرا عجا
اعلى المراتب من بعد النبوة قد	حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصرا في ممالكه	حتى تدوخ منها خيله حلبا
الى العراق الى أقصى الحجاز الى	أقصى خراسان يلقى جيشه الرعبا
هو الذى كانت الدنيا تؤمله	وكل عصر له ما زال مرتقبا
هل ابن اسحاق الا كالذين جروا	الى مصارعهم من قبله خيبا
عن شر منقلب بجلى عواقبه	وقلما حمد المفرور منقلببا
راق النصار عيون النظرين وقد	غدا اسمك المعلى أعلاه مكتوبا

(1)

ما ارتاب مبصرها في كف ذاك وذا
نداك عم بنى الدنيا والبسهم
خليفة الله رحاكم لمفترب
ان النجوم استحات للورى ذهبها
في الشرق والغرب اثواب الغنى قشبا
ناء وما ان نأى دارا ولا اغتربا

وابن اسحاق المذكور في القصيدة هو ابن غانية، الذي خلف اياه على جزر
البليار ، ميورقة ومنورقة ويابسة ، ثم استولى على بجاية ، ثم حرك اليهم
المنصور السيد ابا زيد ، فاستقر ببجاية ، وقد تقدمت القصيدة التي قالها
في هذا الصدد .

ثم كان يمدحه بقصيدة يذكر فيها هزيمة ابن غانية والغز الاتراك معه ،
يقول فيها :

عدوكم بخطوب الدهر مقصود
وملككم مستمر ما له امد
القى على كل جبار كلاله
راى الشتاء ابن اسحاق احق به
وكيف يحظى بدنيا أو بأخرة
اما درى لا درى عقبى عداتكم
القى السلاح وولى يبتغى امد
ما مر يوما بيباب ظنه سببا
وهبه عاش اليبس الموت اهون من
انحى الزمان على الاغزاز واجتهدت
ونازعتهم سيوف الهند انفسهم
فهم على الترب صرعى مثله عددا
انت سليمان فى الملك العظيم وفى
قد أبهج الدين والدنيا مقامكم
جارى مناقبكم شعرى فقصر عن
من ليس معتقدا ايجاب طاعتكم

وامركم باتصال النصر موعود
موقت دون يوم الحشر محدود
كأنه وهو فى الاحياء مفتود
من السعادة والمجدود مجدود
وانه عن طريق الحق مطرود
كل بحد حسام الحق محصود
ينجيه وهو مروع القلب مفلود
الى التخلص الا وهو مسدود
عيش يخالطه هم وتتكيد
فى قطع دابرهم احداشه السود
فلم يفدهم عن الهيجاء تعريد
ان كان يقضى بأن الترب معدود
طول النهجد فى المحراب داوود
وكيف لا وهو عند الله محمود
بلوغ أدنى مداها وهو مجهود
فليس يغنيه ايمان وتوحيد

[1] ورد فى البيان المغرب بيت غير واضح ، بل هو مصحف تصحيفا بعضلا خذناه هنا .

رضاكم الدين والدنيا وعدلكم ظل ظليل على الايام ممدود
دمتم حباة مدا الدنيا ودام لكم نصر وفنح وتمكين وتاييد (1)

وهذه قصيدة أخرى قالها في المنصور بمناسبة انتصار جيشه على ابن
غانية في البلاد التونسية التي استرجع فيها قفصة ، يقول فيها :

فتح يطاول نعته (2) الاحقابا خضعت له فرق الضلال رقابا
واستشعر المراق منه مخافة ملكت عليهم جيئة وذهابا
وغدا به ما قد صفا من عيشهم كدرا وما فيه الحلاوة صابا
لله يوم الاربعاء فائمه احيا النفوس وتمم الاربابا
الى قوله :

وسع الموالى والمعادى حكمه في كل ارض رحمة وعذابا
وسم ابن اسحاق على خرطوميه خزيا ينال حديثه الاحقابا
طفح الشقاء باهل قفصة وارلقى بهم شواحق صعبة وعقابا
وانالهم اضرارهم من قبل أن راوا العذاب انابة ومنابا
لم يغن عنهم اذ اتاهم من عل ان يحرسوا الاسوار والابوابا
طلبنهم تحت التراب وفوقه آجالهم فنولجوا الاسرابا
نالتهم رحمة الخليفة بعدما نادى الردى بنفوسهم واهابا
آيات نصر بينات كلها بهرت بما جاعت به الالبابا
وسعادة عجب تهدقوى العدى هذا وتقصم منهم الاصلابا
خصت اماما للبرية مجتبى برا تقوا خائما اوابا
ملك عليه مسحة ملكية لبس الزمان جمالها جلبابا
بهجوا على الابصار بهجة يوسف ويضئ داود بها المحرابا
مدح الامام عبادة نرجو بها عز الحياة وان نفوز مآبا
ما سافرت اذهاننا في مدحه الا وكان لها القصور ايابا

(1) المصدر السابق وان لم يرد فيه ، لبياض بالمفحة ، ذكر نسبة هذه القصيدة اليه ، بل
القارئ لهذا الجزء من البيان ، الذي كنا ضمن المشرئين على تحقيقه وطبعه ، بينهم أن
القصيدة لابن مجبر الذي تقدم شعره قبلها في الكتاب . ولكن ابن سعيد في « الفصون
الليانة » ذكر من القصيدة أبياتا ناسبا اياها الى الجراوى . وفات هذا المصدر الاستاذ
الفاسى في بحثه « شاعر الخلافة الموحدية » .

(2) في البيان العرب « منحه » وكذلك أثبتته الاستاذ الفاسى . ولا نرى معنى له فاصلحناء
استظهارا منا واستثناسا بنحو قوله فيما يأتى « هو الفتح اعياء وصفه النظم والنثرا »
وقوله « تقصر عن وصفه الرواة » .

لم يدرك حق مقامه من لا يرى من دون حق مقامه الاطنابا (1)

وبعد هذه تأتي قصيدة قالها في مدحه بمناسبة ظفركه بالثائر الجزيري الذي ظهر بهراكتش بمخارقه ونشر أراجفه بها ثم بفاس فالاندلس التي فتن به أوباش الناس ، الى أن قبض عليه بمرسية ، فأحضر الى اشبيلية حيث صلب بها ، فقال الجراوى من قصيدة طويلة (2) :

قضى لك الله بالتأييد والظفر مظفر ما لمفسرور يطالبه جد الجزيري في آتلاف مهجته نار من الفتنة العمياء أطفأها ما زال ابليس في الاقطار يوقدها زاد الشقى على الخفاش شبيهه جارى الى سقر أصحابه فهووا ان السذى اتخذ الاهواء آلهة والوعظ في الناس مقبول ومطرح	وبالسمعة في ورد وفي صدر في الارض من ملجا عنه ولا وزر حتى تورط في ورد بلا صدر سعد الامام وحد الصارم الذكر وترنمى من شرار الخلق بالشعر ضعف البصيرة اذ ساواه في البصر فيها سراعا وواهاهم على الاثر على الضلال مصر غير مزدجر كالخط في الماء أو كالنقش في الحجر
--	--

وهذه الابيات اراها صادرة عن عفو خاطر ، لا تعمل فيها ولا تصنع ولا تصنع ، وهى على مستوى من الجزالة محمود ، ومثلها يشهد بصدق على شاعرية الشاعر ، مجردة من كل تمويه ، وبخلاف القول في أخرى قالها في نفس المناسبة ، وهى :

ما في الحياة لمن ناواكم طمع عن كل قوس صروف الدهر ترشقه ما للعدو بما أعدته قبل غزاهم الرعب في جيش بلا لجب دارت عليهم كؤوس الذل مترعة كل الممالك ملك خالص لكم	ان ند خوفا ففى اجبولة يقع فما له في سوى التسليم منتفع ولا بغير انقياد منه ممتنع فأحجبوا من وراء الدرب وانقمعوا تسقيهم جرعا من بعدها جرع وكل ممتنع طوعا لكم تبع
--	---

(1) كذلك وفيها اقتباس من قوله تعالى « سنسبه على الخرطوم » كما أن فيها اشارات قرآنية غير هذا كحراب داود ووسع رحمة .

(2) كما يقول ابن عذارى في البيان المذكور .

والبحر تعتمد الانهار موضعه فتلتقى فى نواحيه وتجتمع
والشعر ان لم يكن فى نفسه حسنا فما تحسنه الاصحاب والشيع
من رام وصفك مستوفى مغفلته يبدى ومن فهمه عند الورى يضع
اضحت علاك مكان النجم عن مدحى ما حيلتى وبلوغ النجم ممتنع (1)

فهذه الابيات عمد فيها او اضطر الى تمويه بنحو « ما للعدو بما
اعدته » والى لوك الكلام بما تكرر منه لوكه ، كما فى البيت الاول والبيت
الرابع ، وان كان الثانى والثالث تابعين للاول فهما من ذاك القبيل ، ثم
البيت السادس منه كذلك ، واخيرا البيت :

من رام وصفك مستوفى مغفلته يبدى ومن فهمه عند الورى يتع
فهو افصح بهذا العجز الذى يشعر به المتكلم فيلجأ الى تعظيم
القول فيه ، وان وصفه فوق طاقة الانسان ، ويتبع هذا البيت الذى يليه ،
وان كان الاعتذار فيه على درجة من القبول ، كما قال المتنبى :

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فان وجدت لسانا قائلا فقل
اما البيتان قبلهما فهما من قبيل ضرب الامثال المجردة لا خصوصية
لمحلها هنا او فى غير هذا المقام .

ونستمر فى اشعار الجراوى التى قالها فى يعقوب المنصور الموحدى ،
مسايرين فيها لاحداثها التاريخية ، ومنسباتها الزمنية فأولها هذان البيتان ،
قالهما الجراوى بمناسبة تأمر أخيه الرشيد وعنه أبى الربيع ضده سنة
584 ثم القضاء عليهما :

الدهر منا فى مديحك أفصح فعلام يتعب نفسه من يمدح
انت المرشح للتى لا فوقها ان العظيم لمثلها يترشح

وكأنه اخذ الاول من قول ابن زيدون :

الدهر ان املى فصيح اعجم يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم
وفى سنة 587 ، كان المنصور قد تأهب لاستخلاص غرب البرتغال ،

(1) المصدر السابق وكذا البيتان بعدها .

وفيه مدينة ثلب، من يد النصارى، فتم له ذلك، ثم عاد الى الحضرة مراكش
تخفق عليه بنود الظفر والنصر ، فتقدم الشعراء لمدحه ، وكان منهم الجراوى
الذى انشده ابياته التالية (1) :

اياب الامام حياة الامم	توالى السرور به وانسجم
وجاد به الارض صوب الحيا	وجللى الظلام به بدر تم
فشكرا لخيلى وفلك دنيت	بستأصل الظلم ماجى الظلم
اذا حل فى بلدة امرعت	فطاب جناها وفاح المشم
وقام بأقطارها عدله	وصوب نداءه مقام الديم
اذا الخطب جيش نحو الورى	تصدى له عزمه فانهزم
سل الدهر عن بطشه بالعدا	تجب من وراء الدروب العجم
فتوح عظام جناها الزمان	لذى هم دونهن الهمم
نصحتكم ياملوك الزمان	نصيحة من ليس بالمتهم
انبيوا اليه ولو ذوا به	تفوزوا وألقوا اليه السلم

والقصيدة تنظر الى قصيدة لابن برد ، فى مدح عمر بن العلاء ، وقد
اعجب بها المدوح ، فأجاز عليها بسبعين ألف درهم ، وهذا كاف فى حمل
الجراوى على النظر اليها ، يقول فيها :

فقل للخائفة ان جئته	نصيحا ولا خير فى المتهم
اذا ايقظتك حروب العدا	فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا يبيت على دمنة	ولا يشرب الماء الا بدم
دعانى الى عمر جوده	وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذى خبروا لم اكن	لامدح ريحانة قبل شم

فهذا النظر واضح فى قوله :

اذا الخطب جيش نحو الورى

الى قوله :

نصحتكم يا ملوك الزمان	نصيحة من ليس بالمتهم
-----------------------	----------------------

(1) كذلك

واثر عودة المنصور اصابته وعكة فلما ابل منها قال الجراوى ، ضمن
المهتئين من الشعراء :

برء الامام حياة الخلق كلهم شكى فلا مقلّة الا اضر بها تجهّم الدهر لما أن شكا وبدا صحت بصحته الآمال وانتعشت افاض عدلا على الدنيا والبسها وبث في كل اقليم هدى وندى لولا سياسته ما كان ملتئما والله يختص اقواما برحمته حاط الاله لنصر الدين مهجته	عم السرور به وانثالت النعم سهّد ولا قلب الا شفه الم ببرئه وهو طلق الوجه يتسم وزاحمت زحلا في افقه الهمم نورا فلم يبق لا ظلم ولا ظلم فليس يوجد لا جهل ولا عدم شعب ولا كانت الاسباب تنتظم تجرى بحكمته الارزاق والقسم وعوفيت تلکم الاخلاق والثيم
---	--

وفي سنة 591 ، كانت الموقعة الكبرى التى انتصر فيها المنصور
بالاندلس انتصارا سار ذكره فى العالم الاسلامى ، بموقعة الارک فقال
الشعراء فى ذلك اشعارا كثيرة عمت الاندلس وكذلك قال الجراوى :

هو الفتح اعيا وصفه النظم والنثرا وانجد فى الدنيا وغار حديثه تميز بالاحجال والغرر التى وصيرت المرقى اليه صوارم	وعمت جميع المسلمين به البشرى فراقت به حسنا وطابت به نشرا اقل سناها يبهر الشمس والبدر كثير بها القنلى قليل بها الاسرى
واثره الصبر الذى لم تزل به لقد اورد الاذفونش شيعته الردى حكى فعل ابليس بأصحابه الالى اطارته شدات تولى امامها واسلم مما ابلته جدوده من النيرات الزهر ضوءا ورفعته تعوذ بالركض الحثث من الردى راى الموت للابطال حولىه ينتقى وقد اوردته الموت طعنة ثائر	حماة الهدى والدين نسنزل النصرا وساقهم جهلا الى البطشة الكبرى تبرا منهم حين اوردتهم بدرا شريدا وانسته النعاضم والكبرا نجوم قلاع تزحم الانجم الزهرا وان لم يسموها سماكا ولا نسرا فلو سابق الارواح غادرها حسرى فطار الى اقصى مصارعه ذعرا وان لم يفارق من شقاوته العمرا

ولم يبق من افنى الزمان حماته
حكمت أخت صخر في الرزايا نساؤهم
تضحضح في وقت من الدهر بحره
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا
يطير بأشلاء لهم كل تشعم
فكيف رأى المفتر عقبى اغتراره
وكان يرى اقطار اندلس له
فسلاه يوم الاربعاء عن المنى
إذا عزلته الروم كانت نجاته
فتعسا له ما دام حيا ولا منى
بيمن الامام الصالح المصلح الرضى
معز الهدى معليه حامى ذماره
معان بامداد الملائك منزل
رأى السبل شتى فاتقاها تورعا
ومن قسام للاسلام مثل مقامه
تحلى بصدق السر والجهر شيعة
له عسكر مجر من الصبر والتقوى
اغاث به الله البلاد واهلها
يقصر فيه كل مثن وان غلا
فلا زال بالنصر الالهى يقتضى

والجراوى أيضا فيها :

فتح مبين جل أن يتخيلا
بهرت عجائبه الخواطر فاستوى
لا يبلغ البلغاء غاية وصفه
دهت النصارى بالجزيرة وطأة
بكرت مصارعها العداة سريعة

وجرعه من فقد انصاره صبيرا
كما قد حكى أبطالهم في الردى صخرا
وقد ضاقت الأفاق من فيضه دهرا
هشيما طحينا في مهب الصبى يذرى
فما شئت من نسر غدا بطنه قبرا
وكيف رأى الغدار فى غيه الغدرا
متى يرم لم يخطىء بأسهمه قطرا
فما يرتجى مما تملكه شبيرا
وقد أحرقت جمر المنايا به غدرا
وكسرا له ما دام حيا ولا جبيرا
نضا سيفه الاسلام فاستأصل الكفرا
يجير على أعدائه البر والبحرا
من المعتل الاسمى منائيه قسرا
وسار على المثلى فيسر لليسرى
يكن شكره فرضا وأمداحه ذكرا
حباه بها من يعلم السر والجهر
يرد على أعقابه العسكر المجسر
وصير غايات الفئوح له ذخرا
وأجرى الى أقصى نهايته الفكر
بشائر يحصى قبل احصائها القطرا (1)

جاء الزمان به اغر محجلا
من كان فيها مجلا ومفصلا
الا اذا بلغوا السماء الاعزلا
راع الجزيرة ذكرها والموصلا
كالطير ظائمة ببادر منها

(1) فيه نظر الى قول المتنبي :

تحصى الحمى قبل أن تحصى مآثره
وهذه القصيدة وردت أبيات منها فى البيان وذكرت كلها فى الملحق المذكور .
خلو خلانقه شوس حقائقه

وشتوا بيوم أوحد في جنسه
 ناهيك منه انارة وان اغتدى
 ما كذبت حملاتهم لكن رسا
 واستحقروا وطاتهم لما دهوا
 عدد المصرع منهم عدد الحصى
 كم اجدل منهم ادل بباسه
 جاعوا اسودا لانتنه فانتثوا
 والصبح لم يطل على جنح الدجى
 نهى الامام اليهم في ساعه
 في جحفل لجب كان جموعه
 في السابقين الاولين كانهم
 سابت اكفهم السيوف غمودها
 من كل دمر يمتطى من طرفه
 فكان صارمه وهامسات العدى
 جمع ابن ريمند فكف جملحه
 خافت بوارده المصادر حيرة
 طاحت به هفواته والماءلا
 ردت معالمه الخطوب مجاهلا
 وتفرقت ايدى سبا اشياعه
 لا ذوا بشم جبالهم من زاخر
 اجلاهم رعب اطار قلوبهم
 خاموا وراء النهر حتى انهم
 القت بين فيها المعادل طاعة

ومنها :

يا مورد الآمال بحر نواله
 ومجرد الأفهام من صدا العمى
 لما رجوت الله بلغك المنى

فاتت مناقبه الزمان الاولا
 في أعين الكفار ليلا ليلا
 قدامها اهل البصائر اجبلا
 بأشد من وطىء الزمان واثقلا
 هيهات أن يحصى وأن يتحصلا
 ما هم أن ينقض حتى جدلا
 يحكون في الحرب النعام المجفلا
 من افقه متجليا حتى انجلي
 عز الحق بها فبز المبطلا
 هضبات رضوى أو شواحق يذبلا
 اسد تربب في الغباب الاثبلا
 وكسا مجالهم السماء القسطلا
 بحرا ويحمل في الحمائل جدولا
 كف تدحرج في الصعيد الخنظلا
 عزم لو اعتمد الرواسى زلزلا
 وعمى وكان القلبى الحولا
 بدله من أن يفيض اذا غلا
 وصفاءه كدرا وجدته بلا
 لا يعرفون من البسيطة مؤثلا
 متلاطم الامواج قد ملأ الملا
 واراهم معنى التخلص مشكلا
 ظنوه مسلولوا عليهم منصلا
 وانابة عجا لها أن تعقلا

عذب الموارد سلسبيلا سلسلا
 ومفتحا بما كان منها متقلا
 واثابك الفتح الهنى الا عجلا (1)

(1) وردت في الملحق المذكور .

وهى تصيدة لا تقتل جزالة عما قبلها — كما رأينا — وفى كلتا القصيدتين ،
لم يفتتح بخطاب الخليفة وتعظيم شأنه والتنويه بأعماله ، بل واجه الحادث
الخطير بادىء ذى بدء ، وصار يشيد به ويكبر من أمره ، ويبدل فى وصفه
طاقته ، ويفصح بكون اللسان عاجزا عن تصويره ، وبعد ما يشيد بأبطال
الاسلام ومواقفهم الخالدة فى ذلك الجهاد ، يتصل بوصف المنهزمين من
اعدائهم ، ويبالغ فى ذكر انهزامهم واجفاله .

ثم يتصل بالخليفة المدوح ، فيذكر ابلاءه فى الموقعة وما حشد
من رجال ابطال شداد ، وانهم بجموعهم كالجبال المتراسة ، يحملون سيوفها
لا يغمدونها ، ويجولون بأفراسهم التى يحجب السماء غبار سنابكها .

ويتعرض للخصم فيصور جيورته وكبريائه فيما قبل ثم ذلته وخضوعه
فيما بعد ، وتفرق رجاله عنه أيدى سبأ ، فهم يجدون فى الفرار ويقطعون فى
ذلك الجبال ويخوضون الانهار .

وأخيرا يعود الى الخليفة ، فيمدحه بالجود المحقق للآمال ، وبالبهدى
الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويبصرهم بعد العمى ، ويفتح
الانهمام بعد قفلها ، وأنه لما توكل على الله حقق له النصر والظفر على
الاعداء .

ونلاحظ ان القصيدة فيها حس من لامية ابن حبوس التى مدح بها عبد المومن ،
وكان الجراوى حاضرا فى ذلك الموقف ، وان لم يذكره عبد الواحد ، وقال
فى الموقعة التى سبقتة ، كما تقدم ، أول شعره

على أن هذا الحس لا يشتد الا فى بعض قوافيها ، والا نهيى من الناحية
الفنية ، أجود من لامية ابن حبوس ، على اختلاف فى الموضوع ، وفيها من
من الصور البيانية كثير من الجمال القولى .

وبعد هذا يقول فى حصار المنصور لمدينة طليطلة التى كانت قد اشرفت
على التسليم ولكن المنصور من على أهلها :

قد اصليت نارها العداة	وانجزت فيهم العداة
وعمهم بالدمار يوم	تقصر عن وصفه الرواة
فى مشهد لا تزال تتلى	آياته وهى بينات

والعزميات المؤيـدات
بيض من الهند مرهفات
وهم أولو نجدة إبـاة
أماجهما الخيل والكهـاة
والموت حفت به الجهات
وليس للخائن انفلات
ان صرصرت حولهم بـاة (1)

فتح مفاتيحه المواضى
ردت حمى الفونش مستباحا
ذلوا لأمر الإله قسرا
وغرقت جمعهم بحار
راوا لحزب الإله صبرا
فحاولوا منهم انفلاتا
فلا تسـل عن بنات ماء

وهذه قصيدة أخرى يبدو أنه مدح بها المنصور أيضا :

وتركت نظم جموعهم متبـددا
من بعد ما راموا المزيد على المدى
أغنت عن الاسياف أن تتقلـدا
لما أتاهم بحر جيشك مزبـدا
تستأصل الأدنى بها والإبـدا
نفقا ولا فوق الثريا مصـدا
للدين منصور اللواء على العـدا
وأعمهم صفـدا وأبعدهم مـدى
هذا لهم ظلا وهذا موردا
لكن رأى منه المواهب فاقتدى
ورأى دليلا من هداه ما اهتدى
حسبت سناه نيرا متوقـدا
الا وعادت نحوه تشكو الصـدى
متجملا منها بأجل مرتـدى

أدركت آمال الشريعة فى العـدا
وكففت من دون المدى جمحاتهم
وثنت عزائمهم عزائمك التى
وتضحضحت فرقا بحار جيوشهم
القوا بأيديهم مخافة صولة
واستسلموا اذ لم يروا تحت الثرى
ما جاءت الدنيا بمثلـك ناصرا
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى
عم الورى عدلا وجودا فاقتدى
ما الجود مما كان فى طبع الحيا
والنجم لو لم يسر فى جنح الدجى
من حيث قابلت العيون جبينه
لم ترتو الأبصار من لائـه
خلعت سريرته عليه فاقتدى

الى أن يقول :

ورعاية وحماية وتفـدا
ترعى المضاع وتجمع المتبـدا
فضل الإلهى وخص محمـدا

لا يعدم الاسلام منك حياطة
واراك ربك فى بنيك كفاية
كمل السرور بهم وتم وعمهم

(1) البيان العرب .

اهنا أمير المومنين بأنجم منهم تقابل في المطالع أسعدا
والله خصك بالكمال وشاء أن يبقى على الايام أمرك سمردا
رؤيا لامركم العلى يعزه تقضى وطول بقائه متجسدا
أوصى الى فتمت غير مضرع لوصاية منه وغنى منشدا (1)

وهى تصيدة كما نرى متواضعة في أسلوبها مكررة لعدد من صور
غيرها السابقة . ومن المبالغات السخيفة فيها ما في الايات العاشر والحادي
والثاني عشر .

وبعد الخليفة المنصور كان الشاعر الجراوى في ركاب الخليفة محمد
الناصر ابن المنصور الموحدى ، الخليفة الذى ظل ينشده اشعاره طيلة
أربع عشرة سنة ، الى أن توفى قبل وفاته بسنة واحدة .

ومن الحق أن يسجل على شعره في هذا الخليفة ، نوع من الفتور
والنزول عن ذلك المستوى الذى كان في أوجه أيام عبد المومن ، وفى لهجته
الصاخبة ، ثم صار أيام يوسف يتأنق تأنق الاندلسيين المحيطين بذلك الخليفة،
وكذلك كان على عهد يعقوب قد جنح الى مسامرة الشعراء الذين كان
المنصور معجبا بهم ، وكان على رأسهم ابن مجبر ، كما تقدم ، أما في عهد
هذا الخليفة ، فكان الفتور غالبا كما نجد في هذه وقد بويح محمد .

لهجت بذكرك السن المداح وسمت بذكرك رتبة الامداح
أزرى نذاك بكل بحر زاخر هبت عليه عواصف الارواح
بمحمد وزر الورى وبماله في كل يوم ندا ويوم كفاح
فرع سيحكى أصله ولقد حكى بمقاصد قد سددت وصلاح
تأبى الخلافة من سوى أكفائها والجد غير مقابل بمزاح
عشيت بنوركم البلاد فمن بها أغنى عن الاصباح والمصباح
سكنت ببيعته القلوب ولم تزل تهفو من الاشفاق دون جناح
عم السرور بها البسيطة كلها كالصبح فاض على ربى وبطاح

(1) من الملحق المذكور . ويؤكد كونها في المنصور البيت السابع الذى يناظره قوله من أخرى فيه :
بناصرها المنصور تاهت خلافة تناسبه في حسنه ويناسب

لا زلت للأعياد تمنح بهجة يعنى سناها أعين اللماح (1)

وهكذا نشعر بفتور الشاعر في هذه الابيات وتكلفه بتلك الصور التي طالما لآكها فيما سبق له وكذلك نجده يقول في أخرى بمناسبة هذه البيعة من تصيدة طويلة كما يقول ابن عذارى :

صنع جميل جل عن ان يوصفا	نال الوجود به كمالا واكتفى (2)
هى بيعة أحياء الاله بها الورى	وحما بها دين النبى المصطفى
سبقت قلوب الخلق أيديهم بها	ورجا الزمان بعقدها أن يسعفا.
كل يمد يد الضراعة راغبا	في نيلها مسترحما مستعظفا
جمعت صلاح الدين والدنيا معا	وغدا بها شمل العلى متأقفا
ما من تقى مومن الا وقد	سرت له نفسا وهزت معظفا
لبى مناديهها بقلب مخلص	متبركسا بحضورها متشرعفا
أنسست مآثره مآثر يعرب	وسمت بقيس في العلاء وخندقفا
فت المدائح فالبلوغ مقصر	ولو انه نظم الكواكب أحرعفا (3)
لأزلت بالملأ العلى مؤيدا	ولصرف دهره كيف شئت مصرفا

فهذه الابيات كليشى تطبع بها هذه المناسبات الرثيئة قلما نجد فيه جديدا ثم يحاول أن يستوى فيقول هادرا في فتح منورقة عام 599 ، كما في البيان لابن عذارى :

أطاعك صرف الدهر في مهج العدا	وأصدر عما شئت فيهم وأوردا
بعثت أمام الجيش جيش مهابة	أقالهم في كل أرض وأتعدا
سعودك نبيل لو قصدت به السهى	لكان على بعد المسافة مقصدا
تركت بقايا السيف خلف حصاره	رمادا تهادته العواصف رمدا

(1) وهى تصيدة تنظر الى سينية ابي تمام في أحمد بن المعتصم ، كما في هذه :
مرع نسا من هاشم في تربية
بالمجتبى والمصطفى والمشتري

(2) تنظر الى تصيدة ابن هانيء في مدح المعز الفاطمى :
قد صار بى هذا الزمان فأوجفا

(3) يشير الى البيت :
ليت الكواكب تدنو لى فانظها
والتصيدة أيضا من البيان المعرب .

جری بهم الامهال شأوا مغربا
هو الفتح اعى من اطل مرجزا
تضى الله أن يحظى به اسعد الورى
واعمتهم عن رشدهم فسحة المدا
وفات مداه من اطل مقصدا
فكان أمير المومنين محمدا

وكذلك نجده يحاول ان يرتفع فى اخرى قالها بمناسبة فتح ميورقة
واخذها من يد ابن غانية بنفس السنة كقوله فى هذه الايات :

لك النصر حزب والمقادير اعوان
وما تعصم الاعداء منك حصونها
انايت الى أمر الاله ميورقة
هنيئا لك الاعلان بالحق بعدما
غرائب سنتها السعادة لم يكن
نبعدا وسحقا لابن اسحق انه
سواء لديه من غباوة طبعه
فمن حيث رام العز جاعته ذلة
يرى الارض ذات الطول والعرض حلقه
ويهوى لقاء الموت لما اضافه
به لا بظلى بالصريمة اصفر
تصامم عن وعظ الزمان بقلبه
وكان له فيما تقدم زاجر
وَهْل هو الا من أناس تهافتوا
عصوا دعوة المهدي وهى سفينة
رغا فوقهم سقف السماء فأصبحوا
وما الجن ممن يرعوى عن تمرد
ولما دهى من سحر فرعون ما دهى
لقد البس الله الخلافة بهجة
بابلج أما شيم نور جبينه
تعم أياديه ولكن نجاره
مدائح في الحال عز ورفعة
تهلل وجهها واستهل اناملا
إذا ما تجلى أو جرى ذكر مجده
فحسب اعدائك انتياد واذعان
ولا الاسد خفان ولا العصم ثهلان
فليس عليها للشقاوة سلطان
تمادى لها بالافك والزور اعلان
ليحسبها تجرى على الفكر انسان
مطيع لاحلام الكرى وهو يقظان
هلاك ومنجاة وريح وخسران
ومن حيث رام الحظ لاقاه حرمان
وكان له فيها مكان وامكان
الى نوب تنتابه وهى الوان
لقد طاح منه مارد الانس شيطان
ومن دونه عند الالباء سحبان
ولكن ذوو الاهواء صم وعميان
فراشا على اسيافكم وهى نيران
فأغرقهم طفيانهم وهو طوفان
كأنهم فى عالم الارض ما كانوا
على حالة لولا النبی سليمان
اتيحت عصا موسى له وهى شعبان
بملك به يزهى الوجود ويزدان
فيمن وأما حبه فهو ايمان
تخص به دون البرية عدنان
وفوز عظيم فى المال ورضوان
فأرضى المعالى منه حسن واحسان
فلله ما تعطى عيون وآذان

كأن جميع الحسن خط بوجهه إذا ما تروى ناظر من روائه
 إذا ما تروى ناظر من روائه أنا السابق المربى على كل سابق
 وأنا مع الاحسان عنكم مقصر وما الشعر الا السحر غير محرم
 وما كل نجم كالدرارى شهرة سعودك من يرتاب فيها وللورى

كتابا له فى صفحة البدر عنوان تمنى اليه عودة وهو ظمآن
 وللشعر ميدان رحيب ومرسان ولو كان فى عونى زياد وحسان
 والا فما تغنى قواف وأوزان ولا كلها فى رفعة القدر كيوان
 عليها دليل كل يوم وبرهان (1)

وهكذا نجد الشاعر فى هذه القصيدة قد تأنق أبلى تأنق ، وبالى اقصى
 مبالغة ، وأبدأ وأعاد فى التمجيد والاشادة والتنويه ، فأفرغ كل ما فى جعبته
 من سهام الابداح التى طالها وجهها الى أغراضه ، طيلة نصف قرن
 تقريبا ، واننا لنحس به قد ركب الغرور بفنه فصار يبصق فى يده كالبحترى
 ويصيح ، مما يتفجر به ، فى الابيات الاربعة التى يتحدى بها ضمنا زملاءه
 فيقول أنا أنا ، وهذا شعرنا فدونكم الميدان فنتبارى ، والشعر هو السحر
 الحلال ولكن شعري عصا موسى « تلقف ما يافكون » واليكم البرهان ،
 فان كانت اشعاركم نجوما فشعري الدرارى منها وما كل قافية ولا وزن ،
 يضاهى التوافى والاوزان التى صفتها . ومع هذا يستعمل ذلك التواضع
 المصطنع فيظهر به أمام سيده :

واني مع الاحسان عنكم مقصر ولو كان فى عونى زياد وحسان
 والحق انها عامرة ، بفضل ما فيها من نظر الى قصيدة ابن دراج التى
 تالها فى سليمان المستعين واستهلها بقوله :

هنيئا لهذا الدهر روح وريحان وللدين والدنيا امان وايمان
 وقصيدة له أخرى فى خيران العامرى ومطلعها :

لك الخير قد أوفى بمهدك خيران وبشراك قد آواك عز وسلطان
 وقد أدرك صفوان بن ادريس نظر الجراوى الى ابن دراج فى قصيدة
 له أخرى ، وكان نظره اليه فى البيت :

(1) القصيدة من الملحق المذكور الا البيت الاخير فهو من البيان المعرب الذى اقتصر على
 ابيات ثمانية من القصيدة .

الا هل الى الدنيا سبيل وهل لنا سوى البحر قبر أو سوى الماء اكفان

قال الجراوى فى تلك القصيدة :

وغدا على مشروعة رهن الردى فالجو قبر والهوى اكفان

وقد انطلى على بعضهم ، فاعتقد أن هذا البيت من بحر القصيدة التى نحن بصددھا ، مع أن هذه من الطويل وتلك من الكامل وبون بينهما (1) والملاحظ أن قصيدة الجراوى بدأت بقوله « لك النصر » وبدأت قصيدة ابن دراج فى خيران بقوله « لك الخير » فالبدائية متشابهة .

وقال أيضا يهنئه بفتح منورقة :

شَاء الاله حمية الاسلام	فأعز نصرته بخير امام
بسى خير الخلق والنور الذى	كفنت بدايته السى الانعام
جمعت ببيعته القلوب على الرضى	واستبشرت بمنال كل مرام
وصل السرور بها وصار مواصلا	للجد فى الاتجاد والانهام
واعتز دين محمد بمؤيد	ماضى العزائم للشرعية حام
لولا انتظام أمورنا بوجوده	لغدت مبددة بغير نظام
اضحت خلافته السعيدة للورى	وزرا من الاعداء والاعدام
نخر الزمان من الفتوح غرائبها	لزمانه المتهلل البسام
لا مثل فتح منورقة (2) فهو الذى	ابقى السرور لمنجد وتهام
مطلت به الايام حتى استنجزت	بسنان خطى وحد حسام
وبعزيمة مشهودة وعصابة	مشهورة التصميم والاقدام
جمح ابن غانية فكف جماحه	يوم ادار عليه كأس حمام
ناهيك من يوم اغر محجل	متميز عن سائر الايام
وعظت بمصرعه الحوادث عنوة	ناهيك من وعظ بغير كلام
فليهنىء الدنيا وجود خليفة	جزل المواهب سابغ الانعام
تغنيه عن قود الجيوش سعادة	تقتاد ما شاءت بغير زمام

(1) انظر مشاهير رجال المغرب حيث تحد « وله أيضا من قصيدة يظهر من صنيع صفوان أنها غير قصيدة الصابونى » فهذا « الاستظهار » ما كان الا لذلك « الانطلاء »

(2) بالاصل وكما فى « البيان المغرب » ميورقة ولكن المصحح من التاريخ أنها كانت « منورقة »

نيطت أمور الخلق منه بحازم
سام الى الرتب التى لا فوقها
ورث الخلافة عن خلائف كلهم
لبست به الدنيا جمالا كنهه
خير الاصول مثنى على آثارهم
ظهرت شمائلهم عليه ولم تزل
فكأنها دار السلام نعيمها
يا عصمة الدنيا نداء مؤمل
فأرقت ما قد كنت فيه كأنه
فعمسى أرى وجه الرضى فلطالما
بالطبع حاجتنا اليك وهل غنى
لازال سعادك مسعدا متصرفا

يتكفل بالنقبض والابرام
نجل الاكابر من سلالة سام
علم الهدى الهادى الى العلم
اعبى على الافكار والاهام
خير الفروع وحاز أى مقام
فى الشبل تظهر سيمة الضرغام (1)
متابعد ودخولها بسلام
صبحا يروحه من الايام
طيف راته العين بالاحلام
أملت رؤيته مع الأعوام
يلقى عن الأرواح للأجسام
فيما تريد تصرف الخدام

ولاشك أننا لاحظنا على الابيات الاخيرة من القصيدة ، أن الشاعر
صار يقصى عن البلاط وعن المجالسة بالسنوات الاخيرة (2) فتستولى عليه
الآلام .

وباستثناء النونية فما قلناه فى هذه الامداح، نقوله فيما تلاها، فهى لا ترتفع
عن ذلك المستوى ، وتلزمه غالبا ، كما نجد فى هذه ، التى قالها سنة 604
بمناسبة ابلال الناصر من وعكته التى أصيب بها فى مكناسة (بعد فاس)
فعاد الى عاصمته ، وقد ارتدت اليه العافية ، فقال الجراوى :

أطلع البدر منك بدرا منيرا
واتانا الزمان منك كمالا
اول انت فى التقدم والسبب
ملا الله كل قلب وعين

ملا السبعة الاتاليم نورا
لم تشاهد له العصور نظيرا
سق وان كنت فى الزمان اخيرا
نصرة من كمالكم وسرورا (3)

(1) هذان البيان غير واردين فى البيان ووردا فى الملحق الذى اقتصر على ابيات تسعة من القصيدة
(2) بل ان بوادر ذلك ظهرت أيام المنصور حيث نجد الاشارة اليه فى قوله من قصيدة مدح
تقدمت :

خليقة الله رحماك لمفترب ناء وما ان نأى دارا ولا اغتربا
(3) من قوله تعالى : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » .

- الى ان قال :

ايـنـ منـك الملوك عزما وحزما ونـدى فائضا وخيرا وخيرا
كنت في الغيب للخلافة اهلا وخليقا بنيلها وجديرا
شاء اسعادنا الاله تعالى يوم تفويضه اليك الامورا
انما انت رحمة الله عميت ساكنى الارض منجدا ومغيرا
اوجد الله منك للدين عزرا ومعينا وناصرا وظهيرا

الى قوله :

يا امام الهدى ملأت جمالا وجلالا عيونا والصـدورا
كل نور للشمس والبدر يبدو انت اصل له ومنك استعيرا
دمت للدين عصمة وملاذا ولاعدائه مبيدا مـيرا

فهذه ان ارتفعت بشيء فانما هو تلك المبالغات التي يطرب لها
المعجبون وقد تكررت مرارا فيما سلف من الامداح وكذلك الشأن فيما
تلاها (1) كما قال في مطلع قصيدة طويلة يصفها بذلك ابن عذارى :

اضاء لنا بغرتك الزمان والبسنا تقلبك الامان
وجاءتنا المنى متواليات على نسق كما انتظم الجمان

وقال ايضا في مطلع أخرى طويلة كذلك :

شد الاله بكم للدين اركاننا وأذعنت لكم الايام اذعاننا
وارتاض كل جهوح في عنانكم من بعد ما أعجز الرواض ازماننا
ومن شعر الجراوى في محمد الناصر ، قوله مرتجلا في وصف بعض
ما اخضع من البلاد :

كانت من الشمس الصعاب فراضها عزم فرض الراسيات وذلا
لبست حدادا من دخان حريقها لها تخرم جمعها واستأصلا

هذه نماذج من أمداح الجراوى للخلفاء الموحدين ، ويمكن أن نلخص
المثل العليا والافصاف التي ردها في ذلك بما يلي :

(1) وهذه الابيات واردة بالبيان .

الجود ، وهو عنده فى المرتبة الاولى
السعد والاسعاد فى جميع قصائده تقريبا
النسبة القيسية القرشية لهؤلاء الخلفاء
الفضائل لا يمكن أن يحصرها نظم ولا نثر
النور الذى تستمد منه الشمس والقمر
القدرة التى لا تعجزها النجوم لو طولبت منهم ،
والانس والجن والملائكة فى خدمتهم
الظفر والنصر يقدمهم والرعب من بعيد يقهر أعداءهم .

هذه هى العمدة التى اعتمد عليها مدحه الذى امتد نفسه طيلة خمسين
سنة أو يزيد ، وغالبها مطروق لشعراء المدح ، وفيهم — كما تقدم — ابن
حبوس ، الذى اعتمد على القدرة الفائقة والجود المفرط ، والفضائل عامة
بما فيها العلم ، لكنه لم يذكر قضية النسب القيسى ، الا عند هجو أبى
جعفر بن عطية ، ولا السعد والاسعاد ، أو النور الذى تستمد منه الشمس
وذكر الصفة الاخيرة فى قصيدته الجيمية ، حيث وجدنا ماجوج يشقى فى سده
ذعرا ورهبا منهم .

والجراوى يحتفل بالصور كثيرا كما نجد فى البيتين السابقين :

ان الامام هو الطبيب وقد شفى علل البرايا ظاهرا ودخيل
حمل البسطة وهى تحمل شخصه كالروح توجد حاملا محمولا
بخلاف ابن حبوس المحتفل بالمعنى عموما ومن محاسن صنعته — كما
يقول ابن سعيد — قوله :

جادوا وصلوا وصادوا واحتبوا فمهم مزن وأسد وأصتار وأجبال
ان سابقوا سبقوا أو حاربوا غلبوا أو يمموا وصلوا أو املوا نالوا
وقوله :

غزوا فمما امتنعوا صالوا فمما انتفعوا كروا فمما دفعوا فمما فاتوا
ومن ناحية الاسناد ، فقد استعان الجراوى كثيرا بالقرآن ثم الحديث

والسنة النبوية ، على عكس ابن حبوس ، وركن الى الالفاظ أكثر من ركونه الى المعاني ، عكس ابن حبوس كذلك ، وكلاهما سخط على وضعيته التي انتهت اليها ، لكن هذا كان نثرا من الجراوى ، وشعرا من ابن حبوس ، وكلاهما هجا ، ولكن هجو هذا كان شخصا ، وهجو ابن حبوس كان من أجل السياسة وحدها وكلاهما يرتكب مبالغات لا يمكن أن تجد لها مبررا في ادعاءات الشعراء وتخريجات النقاد من جهايزة الكلام الادبى .

والعجب من الجراوى ، وهو فى شيخوخته ، ينظم عدة قصائد مطولة ، فى مناسبة واحدة ، وهى التهئة بابلال من مرض ، وكان عليه أن يأتى فى كل منها بشئ كثير أو قليل ليس فى الاخرى ..

وإذا كان الجراوى قد زوحم بأبى بكر بن مجبر فى عهد المنصور ، فاننا نجد هنا قد زوحم بأبى زيد عبد الرحمن الفازازى الاندلسى كذلك ، وهو القائل فى هذه المناسبات أيضا :

شمس الضحى من سنا مراك مقتبس فأى قصد عليك اليوم يلتبس
وبهذا يبدو أن مدح الخليفة بالنور الوهاج ، الذى دونه نور الشمس ، كان مرغوبا فيه ، فأبدا الشعراء فيه وأعادوا ، ولم يملوا بذلك .

هكذا كان الجراوى مداحا للخلفاء الموحدين ، أما فيما عدا ذلك ، من شعر ونثر فنى فنجد له فى الغزل بيتين قالهما وهو بتونس مجاريا غيره من الشعراء وهما : (1)

وعلى الجمال اذا تبدى أراك جبينه بدرا أنارا
أشار بسوسن يحكيه عرفا ويحكى لون عاشقه اصفرارا

هذا ما حفظ للجراوى فى الغزل وهو أول ما نعرف عن شعراء المغرب فى هذا النحو منه بعدما عرف قديما فى الشرق ثم فى الاندلس .

أما الهجاء فقد كان الجراوى حطيئة عصره ، نال الناس بهجوه ، كما نال قبله بذلك الهجو ، فهجا من كبراء عصره القاضى أبا حفص عمر بن عمر الاغماتى وكان هجوه له يصل الى النيل من رجولته والخط من أدبه والشعر منه

(1) نفع الطيب بعد « زاد المسائر » لصفوان الذى جاء فيه أنه استنطقه بذلك شاب بتونس .

على الخصوص ، اذ قال في ذلك (1) :

نبغت عمرة بنت ابن عمر هذه فاعتبروا احدى الكبر
قل لها عنى اذا ما جئتها قوله تترك صدعا في الحجر
هيبك كالخنساء في اشعارها او كليلى هل تجارين الذكر
فأجابه الاغماتى بأبيات مهذبة في ظاهرها ولكنها «مقدعة في باطنها»
مما تضمنه البيت الاخير منها وهجا الشيخ ابن الياسين بقوله :

اسمت الحبارى ورأس النسر بينهما لون الغراب وأنفاس من الجمل
خذها اليك بحكم الوزن أربعة كالنعت والعطف والتوكيد والبذل
فلم يكتف أن يصوره تصويرا « كاريكاتوريا » حتى أضاف إليه الروائح
الكريهة .

وقال في هجو رجل كان اسمه خلوف :

زعموا يا خلوف أنك خلف صدقوا فيك من خلوف الوف
ولهذا دعوك بالجمع فردا جمع خلف بلاخلاف خلوف (2)
وقال في أهل فاس :

مضى اللؤم في الدنيا طريدا مشردا يجوب بلاد الله شرقا ومغربا
فلما أتى فاسا تلقاه أهله وقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا (3)
ولم يكن يكتفى بالهجو ، شعرا ونثرا ، بل كان طبعه يوحى إليه بالدرس

(1) جاعلا اسمه عمرة ، بدل عمر ، مما جعل صاحب المشاهر يدعي أنه يريد بنتا له شاعرة
اسمها عمرة ، مع أنه يقصده نفسه بذلك ، كما يتضح من رد الاغماتى عليه بأبيات جاء
آخرها قوله :

بغائنا الحسود ولسنا كما يقول ولكن كما يعلم
بل هناك بيتان آخران من نفس القطعة صريحان في هذا القصد وهما :
تئينه في فاس يدعى بممر ذات حسن ودلال وخضر
نصف السن ولكن نرتجى رد ما فات بتسويد الشعر
نفلها الفاسى عن الذبل والتكلة .

وفي الارهار أنه قال الابيات اثر انشاد الاغماتى مبيته الآتية في الخليفة يوسف .
(2) من زاد المسائر وقد علق المحقق عليه بأن المهجو هو ابوبكر بن خلوف أحد الفقهاء والمقرئين
الاندلسيين ناقلًا عن التكلة في ذلك .

(3) ذكرهما ابن حلكان وذلك في ترجمة أبى يعقوب يوسف الموحدي كما ذكر فيها البيتين
اللذين نوه بهما .

والتعريض ، وهو في خفية عن الأبصار ، من ذلك أنه وجه الى الكاتب ابن عياش ، بأبيات حملها امرأة اليه ، بعد مقتل ابن الياسمين المذكور ، فلما قرأها ابن عياش وجدها تعرض به هكذا :

هذا ابن حجاج تفاقم أمره وجرى وجبر لحد غايته الرسن
حتى غدا ملقى ذبيحا حاكيا للناس رقدته اذا هجر الوسن
فليحذر الكتاب ما قد غاله وأخص بينهم الفقيه أبا الحسن

وبهذا عرض وكان تعريضه مؤذيا بذلك الكاتب الذي كان يضاهي أبا جعفر ابن عطية في مكانته وسطوته وجاهه عند الدولة ، وبالرغم من من كونه بعث الأبيات مختفيا وراء الاستار ، فان ابن عياش عرف وجهتها ، وقال ، بعد ما سئل عن قائلها ، ياسبحان الله ؟ وهل صاحبها غير الكراوى ، الذى طبعه الله على أن لا يضيع فرصة من فرص الاذاية ؟ وكان ابن عياش مصيبا في هذه النسبة وقوله فيه يدل على شهرة الجراوى بالهجاء والاذاية للناس عامة ، وفيهم قومه ، كما سنرى بعد

وممن تعرض له من الكبراء ، ابن خيار الجياني ، الذى كان قد سعى في محنة ابن عطية الكاتب ، فقال فيه (1) :

ايا ابن خيار بلغت المدى وقد يكسف البدر عند التمام
فأين الوزير أبو جعفر وأين المقرب عبد السلام

ومن هؤلاء العظماء الذين نالهم بهجوه الوزير ابن يوجان ، فكان مما خاطبه به قوله (2) :

لقد كنت تحكى في التجهم مالكا وكانت بك الاحوال تحكى جهنما
فما أعظم البشرى بعودك خاملا وغيرك قد أضى النبيه المقدما

وهذا النوع من هجو رجال الدولة الكبار من كتاب ووزراء ، كان يتسم بالذكير وسوء المنقلب ، كما تقدم في ابن عياش وابن خيار ، حيث ذكر الاول بذبحه ابن الياسمين ، وذكر الثانى بالمقرب ابن عبد السلام

(1) كما في « الغمون الياتمة » ونسبها ابن ادريس في « زاد المسافر » لليكى الاندلسى الهجاء المفحش ولغيرها .

(2) القصون أيضا ونات هذا المصدر الاستاذ الفاسى ، ويريد بهالك الملك المذكور في الآية « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك » .

الكومي الذي لقي مصرعه كذلك ، بعد ما كان حظيا مقربا لدى الخليفة
عبد المومن ، فلقى النكبة التي لقيها ابن عطية قبله مباشرة .

وإمداحه للخلفاء نفسها كان جانب كبير يعتمد على هجو خصومهم
كما رأينا فيما سلف .

أما هجوه لقومه بنى غفجوم ، فقلوه :

يا ابن السبيل اذا مررت بتادلا	لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى	الا مجاوبة الصدى لليوم
قوم طووا ذكر الساحة بينهم	لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ في أموالهم ونوالهم	للسائل العافى ولا المحروم
لا يملكون اذا استبيح حريمهم	الا الصراخ بدعوة المظلوم
ياليتنى من غيرهم ولو اننى	من أهل فاس من بنى الملجوم

وهكذا نال من قومه ، وعرج على بنى الملجوم من فاس ، فأصابهم
في لحظة ، بكل مكروه ومذموم ، والغالب أنه نظر في سياقه هذا الى قول
الحماسى :

لو كنت من مازن لم تستبح أبلى	بنو اللقيطة من ذهل بن شياننا
اذا لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة ان ذو لونة لاننا
لكن قومي وان كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر فى شىء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن اساءة اهل سوء احساننا
فليت لى بهم قوما اذا ركبوا	شنوا الاغارة فرسانا وركبانا (1)

وهذه الابيات كانت أول ما افتتح به أبوتمام مختاراته الشعرية
للجاهليين وغيرهم ، وسماها « ديوان الحماسة » فقلده الجراوى ،
كما سنرى وفيما تقدم من شعره وجدناه قد استعان بأبيات من هذا الديوان .

وحيثما نتناول بعد هذا لونا آخر من شعر الجراوى فهو اللون القاتم
الذى سبغ حياة الشاعر ، سبغتها الاخيرة ، وقد اكل عليها الدهر وشرب ،
وطال عليه الأمد ، وهو فى خدمة سادته الموحدىن ، الذين كان فى ركاب
الاربعة الأول منهم ، عبد المومن ، فابنه أبى يعقوب يوسف فابن هذا ، أبى

(1) أما أبيات الجراوى دعى فى نفع الطيب وازهار الرياض للمقرى وذكرت منها ثلاثة فى الغصون.

يوسف ، فابنه محمد الناصر .

كان الشاعر خلال هذه الحقبة الطويلة ، التي تمتد أكثر من خمسين سنة ، شاعر الخلافة ، كما سماه بذلك أبو بحر صفوان بن ادريس ، فكان لسان الدولة النطق في كل مناسبة ، والمسجل ، وحده لملاحمها ومواقفها العديدة ، وهو ما لم يتقدم له مثيل ، في شعراء المشرق ، وليس له مثيل ، بالمرّة في شعراء الاندلس والمغرب ، خمسون سنة من القول ، تفنيه وتقضى على كل مداد يمهده ، مهما كان الانسان على قدرة خارقة للعادة ، ولكن الجراوى ، كان عليه ، ان يحقق المستحيل ، وان يصمد للحوادث والاحداث ، بالرغم مما طرأ على موقفه من فتور ، يلوح لنا به في تلك القصائد التي قالها على عهد محمد الناصر ، بل وجدنا بعضا من ذلك حتى في عهد ابيه كما قلنا .

وفي هذه المرحلة ، نراه يلحن حظه العائر ، نثرا في كلمة ، قالها ، وهو يقارن بينه ، يوم كان مع عبد المومن ، بجبل طارق وهذا يطريه ، وبينه وقد انتهى الى أرذل العمر ، ولاصق اراذل الناس وسادتهم .

نعم في هذه المرحلة ، نصيح الى الشاعر ، وهو ينشدنا في صوت متهدج كئيب (1) :

يا سيدى جاعتك رتعة شاعر	شهدت له الشعراء بالاحسان
لو أدرك النعمان في أيامه	لراى له فضلا على الذبيانى
او كان يوما في بنى حمدان لم	تبهج بأحدها بنو حمدان
لكنه قد أدركته حرفة	أدبية مزجته بالعبدان
فقدما لمزة كل مصفوع القفا	صفر الديدن ممزق الاردان
فاذ نظرت الى قفاه حسبته	نبئت عليه شقائق النعمان

هذه النهاية التي بالغ في تصويرها ، هي النهاية التي كان ابن حبوس قد انتهى اليها ، الا أن الشاعرين مختلفان في طبيعتهما ؛ الشاعر ابن حبوس

(1) « زاد المسائر » اما كلمته النثرية فهي مذكورة في « الفصون الياضمة » وفاب هذا المصدر الفاسى وهي بنمها « تعسا لطول العمر الذى أخرنى لمعاشرة هؤلاء الاندال ! وعهدى بالخليفة عبد المومن يقول لى في جبل الفتح : يا ابا العباس « انا نباهى بك اهل الاندلس » وهي كلمة قال مثلها المعز عن ابن هانى ، بالنسبة للمشرق .

سوداوى نائر متمرّد على القيم ، اذا كانت مثلها قد صدمته أو وقفت حجرة
 عثرة في سبيله ، فهو اذ كانت كذلك يلقى عن عاتقه صخرة التحمل ،
 ويقذف بها على المجتمع ، بما فيه من خيرين وشريرين على السواء ، أو
 ينسأب في غمرتهم ويداهنهم ويلبس جلدتهم أما الجراوى فيقف متضرعا حائرا ،
 يستجدى طويلا ويستعطف ، وأخيرا يذرف عبرته ، وهو متحمل للهوان ،
 ظاهرا ، ملظ منه باطنا وتحسر على ما مضى ، متندما على ما وقع فيه ،
 ولا شك ان ذاكرته طرقتة ، بما لاقى النابغة من النعمان ، من هوان وبها لاقى
 المتنبي من الحمداى من حرمان وان تستر عنه ، قالوا ان الابيات ، كانت له
 مع أحد المتبذلين ، ولكنها في الواقع لها أبعادها الحقيقية ، وبواعثها الداهية
 المريرة ، وكذلك القول ، في البيتين ، اللذين ، وقع بهما في أسفل قصيدة
 استجدها بها شاعر (1) :

يا من يجدى لمن يجدى أسرفت والله في التعمدى
 أنا أجدى الأنام طرا وأنت تبغى النوال عندى

الشاعر ، قالهما ، وقد أعوزته الحاجة ، وغاض معين النعمة التي
 كانت تفيض عليه ، من ذى قبل ، فأصبح آنذاك يستجدى الأنام طرا ، فهذه
 العبارة في اللوحة الباهتة ، التي ترسمه ، شيخا محطم البنيان مهزق
 الاردان فقيرا صفر اليدين ، كما قال في تلك الابيات ، ويذكرنا بما قال ابن
 حبوس عن الشاعرين ، اللذين عنى بهما نفسه :

بسطا الأيذى حتى منعما الطيسر الوقوعا
 واستماحا الشيخ ذا الكب مرة والطفل الرضيعما

إنها مأساة هؤلاء الشعراء الذين يتقدمون الى الانفاء ، ويتخطون
 الاعتبار ، فيعلونها وهى تنزل بهم الى الدرك الاسفل فلا يجدون لهم نصيرا ،
 لنفقاتهم الذى كان جزاؤهم عليه جزاء وفاقا ، ولكونهم « يهيمنون في كل واد »
 كما قال الله فيهم .

لقد قصر الجراوى مدائحه عليهم ولم يمدح غيرهم (2) ، كما فعل ابن
 حبوس الذى قصد بهديحه حتى من لم يسبق له معرفة به كابن الملح .

(1) زاد المسافر

(2) فيما نعلم وان ادعى انه صار يستجدى الناس طرا ، كما تقدم .

سوى هذه الموضوعات المتقدمة ، فللجراوى منظومة فى رثاء الحسين ،
والرثاء فى حد ذاته ، قليل فى أدبنا ، وأول ما يصادفنا منه هذه المراثية التى
أقامها الجراوى ، على مصاريع معلقة امرىء القيس ، بحيث جعلها خمسة ،
بهذه المصاريع .

ومراثى الحسين بعد مضى الأزمان تقليد شيعى ، ما زال أصحابه
يقومون به ويحتلون المنابر لأنشاد قصائده وخصوصا ليلة عاشوراء ، فى البلاد
المتشعبة ، بل كان هذا حتى فى غيرها ، وقد شاهده بالقاءهرة ، فى
سبعينيات هذا الرابع عشر .

أما تحويل مصاريع المعلقة الى هذا الموضوع ، فهو صنيع صوفى ،
حولوا به خمريات أبى نواس الى الذات القدسية ، كما حولوا غيرها
اليها ، والعلاقة بين التصوف والتشيع وثيقة ، وقد ألف فيها كتب حافلة .
وعلى كل حال فهذه مراثية الجراوى التى يقول فيها ، حسب الحروف
الهجائية التى أقام عليها المصاريع الأربعة التى تسبق مصراع التخييس ،
كما نرى :

خليلى دعوى برحمت بخفاء	الا أنزلا رحل الاسى بفنائى
وهذا من الصبر الجميل بنائى	تفا ساعادانى لات حين عزائى
تفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	
ايترك ربع للرسالة سبب	تجىء به هوج الرياح وتذهب
ولا تنهى فيه العيون وتسكب	وتطلع أعناق الذنوب وتذهب
بسقط اللى بين الدخول فحول	
ديار الهدى بالخيف والحجرات	الى ملتقى جمع الى عرفات
مجارى سيول الغيم والعبرات	معرف هدى أصبحت نكرات
لما نسجتها من جنوب وشمال	
عذيرى من رزء بصبرى يعبث	ومن شائى فى عقدة الصبر ينفث
واى مصاب عهده ليس ينكث	كأنى اذا ما القوم عنه تحدثوا
لدى سمراى الحى ناقت حنظل	
الا يا رسول الله صدرى توهجا	لمصرع سبط فى الدماء تضرجا
فعطلت جيد اليأس من حيلة الرجا	فتعسا لأقوام يريدون لى نجا

يقولون لا تهلك اسى وتجمل

على مثل ما امسى من الحب اصبح زناد فؤادى باللواعج تقدح
ولو ان قلبى للتجلد يجنح لفاضت جفونى بالسواكيب تطفح
على النحر حتى بل دمعى محلى

عهود مصابى امنى يد فاسخ ومحكمه لا يتقى حكم ناسخ
فلو اشتكىه للنجوم البواذخ لعالت بنعى السبط صرخة صارخ
فقات لك الولايات انك مرجلى

اقول لحزن فى الحسين تاكدا تملك فؤادى متها فيه منجدا
ولو غير هذا الرزء راح او اغتدى لناديت قبل الوصول مرددا
عقرت بعبرى يا امرا القيس فانزل

سهام الاسى هذا فؤادى فانفذى ففى المى بعد الحسين تلذذى
ومن عبرتى والشكل اروى واغتذى ويا مقلتى من ان تشحى تعوذى
ولا تبعدنى من جناك المعال

وركب اذا جارا هم البرق يعثر تذكرت فيه كريلاء فحيروا
وغيداء لا تدري الاسى كيف يخطر بثت لها بالطف ما كنت اضر
فألهيتهما عن ذى تائم محول

مجلى الاسى فى ملعب الصدر برزا وماطل ذاك الدمع وفى وانجزا
وحاز الاسى من قلبى الصب مركزا فغاية هذا الحزن ان يتحيزا
بشق وشقى عندنا لم يحول

غرائب فى عشواء ثكلى خابط وسهدى الى ورد المدامع فارط
وللقلب فى مهوى الوجيب مساقط تعدت شجون فى القضايا قواسط
علي وآلت حلفة لم تحال

اما لعهود الهاشميين حافظ فبالطف يوم للرسالة غائظ
على ثكله قلب الكريم محافظ فيامهجتى انى على السبط فائظ
فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

نجيع حفيد المصطفى كيف يسفك ورق بنيه بعده كيف يهلك
فيا كربلا والكرب لى مملك ليكنيك منى ان ذكرك مهلك
وانك مهبها تامرئ القلب يفعل

أيا حسرتى يوم انتأوا وتحولوا الى كربلاء ماوى القلوب تنقلوا
ليسبوا على حكم الضلال ويقتلوا فيارزهم صمم ومثلك يفعل
بسهميك فى أعشار قلب مقتل
أيا فاسقا قاتد الغرور شكائمه فأورد فى صدر الحسين صوارمه
تهيا ليوم الحشر تجرع علاقمه فما لك منجى من خصومة فاطمه
وما ان أرى عنك العماية تنجل
تبرا من قلب بلذته اعتنى وآل رسول الله فى شر مجتنى
إذا ما اقتضوا وردا أحيلوا على القنا وعثرة حرب فى جنى روضة المنى
غذاها نمير الماء غير المحلل
عموا فى احتمال الراس يا ويح من عصي وخلوا حسينا فى الثرى متقمصا
لكى يدركوا عند ابن حرب تخلصا كأن سنا راس الحسين على العصا
منارة ممسى راهب متبتل
فؤادى صرح بالجوى لا تعرض ويا دمع ذهب وجنتى لا تفضض
ويا سهري من طيب نومى تعوض فما عمر احزانى عليه بمنقض
وليس فؤادى عن هواها بمنسل
مصاب حسين رأس مال الفجائع فلا تك فى سلوان قلبى بطامع
وترطس بسهم العتب غير مسامعى ثكلتك من ناه عن الحزن وازرع
نصيح على تعذاله غير مؤتل
الى الله من عبد على سيد بغى فغادره تحت العجاج مرغما
ينادى رسول الله فى أزمة الوغى اجرنى من باغ بعدوانه طففى
على بأنواع الهموم لبيتلى
الا انه يوم على الطف آرف به نكرت لابن الرسول معارف
وساعده قلب هنالك واجف فنادى ظلام الظلم والفر راعف
الا ايها الليل الطويل الا انجل
أيا حادى المختار جلدى يهزق بعدوان قوم غيهم يتفرق
وكيف تحن اليوم أو كيف تشفق قلوب عدى عن موقف الوعظ تزهق
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ايا امة الطغيان ما لكم حسن على م بناء الدار ان هدم الاس
اترجون اصباحا وقد غابت الشمس وزل بكم عن دينكم ذلك الرجس
كما زلت الصقواء بالمتنزل

رويت، وضج السبط فيك تعطشا فسقيتموه ظالمين دم الحشا
الا رب حقد في صدركم فشا فأغريتم للصارم العضب ارتشا
بجيد معم في العشرية مخل

قضى الله أن يقضى على القبر السها فراشة سوء زلزلت عصبة النهى
فشعر الحسين بالنجيع تموها ترى الدم في تلك الذوائب مثبها
عصارة حناء بشيب مرجل

بقايا ضلوعى فوق جمر الغضا تطوى ودعى يستقى حر جمر فلا يروى
لرزه قضى أن يغلب الاضعف الاقوى وينزل أهل الفسق في اربع التقوى
نزول اليماني ذى العياب المحمل

فرمت به قلبا عن الصبر اجفلا تحمل من برج الجوى ما تحملا
ولا ناصر يعدى على جور كربلا على أن لي دما اذا ما تسبلا
يكب على الاذقان دوح الكنهيل

لمثلك من رزء عصيت عزائيا واعطيت اشجاني قياد بكائيا
فلو اننى ناجيت طودا يمانيا لأذرف دما أفضح الغيم هاميا
فأنزل منه العصم من كل منزل

لا تتحلن الدهر حب بنى علي وأللو مراثيهم على كل محفل
عسى جدهم يوم الجزا ان يمد لى بغفر ذنوبى راحة المتفضل
فأظفر بالرحمى من المالك العلي

فيا سامعى هذا الرثاء ترحموا على مسرف قد طال منه التجرم
مؤخر سعى حبه متقدم عسى يتلقاه النبى المكرم
بوجه يرقيه لكل مؤمل (1)

وهكذا تنتهى القصيدة الخمسة ، المقامة شطورها على حروف

(1) من بحث الاستاد الفاسى « شاعر الخلافة الموحدية ابو العباس الحراوى » نقلا عن
مخطوط لشهنا سيدى جواد الصقلى رحمه الله وأحسن مثواه .

المعجم ، المتكرر منها اللام والميم ، وربما كان التكرار الوارد بعد الياء من زيادة أدخلت غريبة على هذه القصيدة ، بـ دليل الشطرة :

فأظفر بالرحمى من الملك العلي
فهذا ليس من المعلقة المذكورة ، كما أن الشطره :
فيا سامعى هذا الرثاء ترحموا

هو من قبيل الاستعمال العابى أو الشبيه به ، مما لا يصدر عن مثل الجراوى ، وهو أجدر بأن يكتب على شواهد القبور وإذا كنا ممن يعجبون بالحاقيات القاضى عياض على رسالة أبى القاسم ابن الجـد ، فإننا نعجب من الحاقيات الجراوى على مصاريع معلقة امرىء القيس ، فقد وفق فى هذا الى حد ، بالرغم من ظهور تكلف فى بعضه القليل جدا .

وسوى الشعر ، فللجراوى نثر — كما كان لابن جيبوس — نلتبس نموذجا منه فى مقدمة تأليفه أو مجموعته الذى عنوانه ، بصفوة الادب وديوان العرب . وكان هذا الديوان عند اهل المغرب — كما يقول ابن خلكان — كالحماسة عند اهل المشرق ، وهو يضم ابوابا من اغراض الشعر ، هى المدح والفخر والمراثى والنسيب والوصاف والامثال والحكم والملح وذم النقائص والزهد والمواعظ ، مرتبة ترتيبا زمنيا ، مما امتاز به عن مقلده أبى تمام ، الذى لم يراع شيئا من ذلك ، بل حتى الابواب تداخلت أحيانا ، لكن هذا ذكر بعض المعاصرين بخلاف شاعرنا الجراوى فإنه لم يذكر منهم احدا ، على أن الجراوى خالف الترتيب الزمنى فى شىء واحد اضطره الى ذلك تبركا بالجناب النبوى ، فافتتح كتابه بالامداح النبوية ، ثم تابعها بامداح أخرى ، جلها مقدمة عليها .

وهذه مقدمة الديوان ، نأتى بها كنموذج من نثر الجراوى الفنى :

الحمد لله على آلائه الوافرة الاعداد ، المتصلة الامداد ، والصلاة على محمد رسوله الداعى الى سبيل الرشاد ، المنتقذ برسالاته من مهاوى الضلال والالحاد ، والرضى عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بالحق بعد ظهور الفساد ، الفائضة أنوار هدايته على الاغوار والانجاد ، وعن الخليفتين الامامين ، المنصورين الناصرين ، المتكفلين لدين الله بالاعانة والانجاد ، المستولين فى كل ماثرة على الغايات والاماد ، والدعاء بتيسير

المهلول وتسهيل المراد ، ونجاح الاصدار والايراد ، لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، ابن سيدنا أمير المؤمنين ، ابن سيدنا أمير المؤمنين ، ابي يوسف عصمة الاسلام ، وكاشف الظلم والظلام ، البعيد مدى الهمم ، الجزيل الباس والكرم ، يبلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره .

جاءت به هذه الدنيا فلو سئلت شبهها لقاتل قياس غير مطرد
باضى العزمات ، وكاشف الأزمات ، وكافل الامة وكافيها ، وناصر الشريعة وحاميها

تقلد سيف الحق يمضى بحده على كل من ماراه حكم المصاحف
بهرت مناقبه الانوار ، وغمرت مواهبه البحار ، وصدقت سحائب جود يمينه ، مخايل برق جبينه .

ما شام برق جبينه مسترفد الا استهلكت كفه أنواء
سنام الشرف وذروته ، ونخبة المجد وصفوته ، ومعنى الجود وسره ، وشمس الزمان وبدره

عزيمة لم يعاينها بنو زمن وقدرة لا تراها العين في الحلم
ثمال المعتفين وموئل الخائفين ، ورحمة الله التي ورد الخلق زلالها ، وتفيئوا ظلالها ، فله خلافته السعيدة لقد بهر جمالها ، وراقت غررها واحجالها .

من كان مولده تقدم قبلها أو بعدها فكأنه لم يولد
خرق العوائد باسا وسماحا ، وحلما راجحا واسجاحا ، وأبر على الملوك مضاء وتصميما ، وانشاء وتتميما

وجرى فقصر عن مداه في العلى اهل الزمان وأهل كل زمان
بهرت آياته الالباب ، وأعجزت غاياته الطلاب ، وتحيرت في كنهه الاوهام ، وقصرت عن وصفه السن الانام والاقلام

جلت عن المدح واستغنت فضائله والشمس تكبر عن حلى وعن حلل

لا زالت خلافته تروق حسنا وجمالا ، وتوسع البرية احسانا واجمالا

ولما فرغ العبد من جمع الكتاب ، المترجم بصفوة الادب ، ونخبة ديوان العرب ، فجاء خالصا خلوص الذهب الابريز ، منفردا دون ما تقدمه في فنه بالسبق والتبريز ، نفذ الامر المطاع باختصاره ، والاختيار من مختاره ، وكتاب النخبة وان كان فيه بعض الطول ، فانه بما اشتمل عليه من غرائب المنظوم ، وعجائبه غير مهلول ، وقد احتوى هذا المختصر منه على جملة كافية ، ولغليل المتعطش الى الادب شافية ، وبغرض التمثيل والمحاضر وافية ، واثبت مدح النبي صلى الله عليه وسلم بكماله ، واقر في الديوانين على حاله ، لم يذهب فيه الى الاختصار ، كما فعل في غيره من الاشعار ، رغبة في كثرتة ، وتبركا بتفصيله وجملته ، وانما تلقى العبد الامر العالى وامثله ، ووقف جهد استطاعته عند ما حد له ، فان اصاب الغرض ، وطبق الفصل ، فسهم سده رامي ، وسيف انضاه منتضيه ، وان تكن الاخرى فقد استوفى جهده ، وأبلغ النفس عذرها ببذل ما عنده

نسأل الله دوام من دامت لنا به سوابغ النعم ، وشفانا بتعليمه النافع ، واحسانه المتتابع ، من الجهل والعدم ، انه سميع الدعاء ، جزيل المواهب والآلاء ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره .

فهذا الديوان اذن ، كان بأمر من الخليفة المنصور الذى نوه به واشاد بأفضاله ، فهو أقدم مؤلف لنا كان صادرا عن امر مولوى للمغاربة ، وقد كان المنصور يضع المنهاج لمن يأمرهم بالتأليف ، كما حصل منه تجاه الذين ندبهم للتأليف في شؤون الدين ، فهو اذن صادر عن الدولة ، التى كانت لذلك العهد ما زالت مضطرة الى القول بعصمة الامام المهدي ، وان كان المنصور في قرارة نفسه غير معتقد لذلك ، بل هم بابطاله ، كما قال عنه ابنه المامون .

لهذا لا غرو ان نجد الجراوى ، يرضى عن هذا المهدي المعصوم ، وهو الذى صب جام شتائمه ، على زميله الأغماتى ، حينما أحرجه بالقيام عند سماع « امديح » الامام أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن .

هذا من ناحية الفكرة والداعى الى التأليف ، أما من ناحية التناول في المقدمة ، فانه تناول شاعر ، لم يستطع ان يتخلص من فنه ، وينطلق في

نثره انطلاق ابن حبوس ، أو حتى القاضي عياض قبله ، والقاضي الاغماتي بعد هذا .

نلاحظ أن نثره لا يفتأ يتنفس بالشعر ، عندما تنحبس أنفاسه بالنثر (1)، وفي فقرات قصيرة قلائل ، بل أنه حتى في هذه الفقرات التي لا تتخلص من فقرات السجع ، نجد الشعر يتدخل فيها ، فقوله ييلى الزمان ولا تبلى مفاخره ، ويحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره « إنما هو بيت المتنبي » :

حلو خلأئقه شوس حقائقه تحصى الحصى قبل أن تحصى مآثره
وتقدم في مدحه له للمنصور ، أنه استغل هذا فقال :

نلا زال بالنصر الالهى يقتضى بشائر يحصى قبل احصائها القطرا
والبيت كما تقدم من رأيته التي قالها في الانتصار العظيم بموقعة الأرك ...

والايبات التي خلل بها نثره غالبها لابی تمام ، لأنه كان متأثرا به كما سبق منا القول بذلك ، ومن غير الغالب ، ما كان له ، أو لغيرهما ومن أبياته التي خلل بها نثره هذا البيت :

ما شام برق جبينه مسترفد الا استهلكت كفه انواء
فهو من قصيدة له في مدح المنصور وكذلك البيت المذكور بعده والآخر فيها من قصيدتين فيه أيضا .

ومن الاوصاف التي وردت في أمداحه قوله « المستولين في كل مأثرة على الغايات والآماد » فقد تقدم له :

وجرت معاليكم الى الامد الذى بعدت مسافته على الاسفار
وجريت في نصر الاله الى مدى يكبو وراءك فيه كل مجار
وقد كرر هذا المعنى كثيرا ، كما سبقت الإشارة اليه ، وكذلك قوله « بهرت مناقبه الانوار ، وغمرت مواهبه البحار » تكرر هذا بشعره وهكذا نجد مغلب الصفات الواردة في المقدمة ، قد ترددت في أمداحه للخلفاء الثلاثة الأول .

(1) وفي « البيان المغرب » الجزء الثالث الذى ساهمنا في تحقيقه بجد بالصفحة 197 ومنه بالكاتب الأريب .

والأسلوب كاد أن يخلص من الألفاظ العتيقة ، إلا ما قتل فيه ، من نحو « سنام الشرف وذروته » ونحو « ثمال المعتفين وموئل الخائفين » و « راقى غررها وأحجالها » وهذه الأخيرة أيضا ، تقدمت في بعض أمداحه ، وقوله « حلما راجحا واسجاحا » .

كان هذا كله عند الإشادة بالخليفة ، أما حينما انطلق الى الحامل على التأليف واختصاره ، فإنه تخلص من تلك الأشعار ، ينصها أو يضمنها ، ولم يرتبط إلا بالاسجاع ، الى نهايتها ، ولا نجد فيها إلا هذه العبارة « وأبلغ النفس عذرها » وهى مقتبسة من بيت الحماسى .

ليبلغ عذرا أو يصيب رغبةً وببلغ نفس عذرها مثل منجح وبعد الجراوى نتصل بأديب آخر، هو أبو حفص عمر الأغماتى، المولود بها عام 530 والمتوفى باشبيلية عام 604 قبيل الجراوى ، المقارب له فى سنه ، بنحو خمسة أعوام .

كان هذا الأديب اندلسى الأصل ، وهذا ما جعل الشقندى يعتبره من الاندلسى ويفخر به ابن المعلم الطنجى ، ولكن مغربيته لاشك فيها ، مولدا ومنشأ ، وقد ذكره كذلك ابن سعيد فى كتابه الفصون البانعة ، وعن ابن سعيد نفسه يروى قصة المفاخرة المقرئ فى نفح الطيب ، ولم يعقب عليها ، ولكنه فى ازهار الرياض نقل عن ابن الأبار أنه ولد بأغمات وأثبت له شعرا فى المديح وغيره سنذكره .

تقلد هذا الأديب مناصب قضائية وغيرها من شورى وأفتاء ، وتقلب فى عدة عواصم ، كتلمسان وفاس وأخيرا اشبيلية ، وبالرغم من هذا المنصب الذى ورثه عن والده قاضى فاس ، وما كان يفرضه من تزميت وحفاظ على سمته معين ، فإنه شهر بالفضل ، الذى انتقد عليه ، فما أروعى ، حتى أدركه الهرم ، فتصوف ، وصار ينظم قصائد سماها المكفرات ، كما فعل ابن عبد ربه ، فسمهاها المحصات ، يكفر بها عن تلك الغزليات ...

أما قصيدة المديح الذى أشارنا اليه ، فنعنى به ميمية قالها فى الخليفة الثانى يوسف بن عبد المومن يقول فيها :

الله حبك والسبع الحواميم تغزو بها سبعة وهى الاتاليم

سبع المثاني التي لله قمت بها عليك من سرها نصر وتقديم
وانت بالسور السبع الطوال على كل الوري حاكم بالله محكوم

وهكذا يستبر في تلك السبع من السنوات والشهب والايام
ويستغل كل ذلك في مدح هذا الملك وهي تردد اصداء مبهمة لا يدركها
صاحبها على حقيقتها ، عند قومها الاول الشيعة في هذه السبعية التي
ركز عليها تركيزا مملًا وتطرف فيها تطرفا لاندرك ولا يدرك هو نفسه
كنهه ، على التحقيق . فهذه السبعية هي في الواقع القاعدة الاساسية
للذهب الاسماعيلي ، لأن العدد السبعة عندهم يقوم عليه تسلسل غريب ،
يكون في نهايته الامام السابع اسماعيل ، فهو العدد الخفي ، الذي يضم
سبع فترات للانبياء والرسل آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ،
محمد بن اسماعيل (1) ، وكل واحد من هؤلاء أعقبه سبعة من الائمة ، واول
كل سبعة من هؤلاء هو الامام الصادق ، وهو صامت ولكنه ناطق ، وهو
رئيس وأساس واصل ، وآخر كل سبعة من هؤلاء الائمة ، يعقبه اثنا عشر
نقيبا ، تنتهي الفترة النبوية بالاخير منهم ، لتبدأ بعدها فترة نبوية اخرى ،
وعلى هذا تكون الفترة السادسة قد بلغت نهايتها على يد الامام السابع
اسماعيل .

ثم يقول للخليفة :

عليك اهل الهدى والحق متفق عليك اهل الهدى والحق متفق
وكل جد مفاد من علائك من نسيه نفس العلياء مشموم

وفي تحدته عنه يقول :

فؤاده بضياء العلم منشرح ووجهه بجمال النور موسوم
وكفه بطنها بالخير منهمر وظهرها لعهود الله ملثوم
العلم قيمته والحلم شيمته طابت أرومته والنفس والخيم

ثم يبالغ في وصفه بالقدرة والسلطان وينتقل الى وصفه بأنه حقيق
بهذه الخلافة والامامة اذ يقول :

ان الخليفة سر الله ظاهرة آياته وهو عند الله معلوم

(1) في زعمهم الضال المضل .

فسلموا واخلعوا الآراء واتبعوا
الشرق والغرب من عرب ومن عجم
والبحر والبر من سهل ومن جبل
لطالبي العلم ما شاءوا بخدمته
سحب العلوم عليهم من سماحته
العين من نظر والاذن من خبر
يفضى أناة وحلما عالما وله
تشدد فيمن عصى أو خان وطأته
أرادة فوق ادراك العقول لها
حتى اذا ما بدا منه النجاح بدت
انظر خوائفها تفهم مبادئها
والحظ سماء علاها عبرة وكفى
ومنها ، كما بالأزهار :

حكم الامام فما في الدين تحكيم
في كفه عودهم بالقبض معجوم
جميعها بزمهم الراى مخطوم
غنى وعز وارشاد وتعليم
تهمى ففى بحرهما هم شرع هيم
لا نشبعان وبأغى العلم منهم
فى موضع الحق اقدام وتصميم
وفى الثقاف لذات الزيغ تقويم
فحسبها منه ايمان وتسليم
كالشمس ما دونها فى الجو تفيهم
بالشرح ما ليس بالمفهوم مفهوم
من يسترق سمعها بالشهب مرجوم

للمسلمين أمير المؤمنين حمى
الدهر فى انفه من حكمه برة
العلم والدين والدنيا وساكنها
جزاء سعيك عند الله مدخر
عطفا على حر امداحى وان عجزت
ما علقوا لوراوا هذا « ثقا » و « الا
اذن لقال لراويه عليمة
وهكذا يقول :

يحلّه من صروف الدهر تحريم
بها الزمان على الابرار مخزوم
فى سلك رأيك ياوسطاه منظم
هذا كتابك فى الابرار مرقوم
ان الجمال على العلات مرحوم
هوى « ولو جاءهم حجر وكلثوم
هل ما علمتوما استودعتمكنوم(1)

ياسامعين أماديح الامام الا
خذ كأس لظى دهاقا من مدائحه
ندعو له بدلا من مدحه لقصو
عز الامام فلا تضرب به مثلا

فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا
فبها الحقائق لا لغو وتأثيم
ر المدح عنه وفيه العذر معلوم
من ذا يقاس به والمثل معدوم

(1) بعد هذا أم حيلها اذ نأتك اليوم محروم

ولا شك انه استعان بها وخصوصا فيما يتصل بقوانينها مثل « بالقتب مخزوم » و « المحروم
محروم » و « الكتان ملثوم » و « قران معجوم » وبه « النفوس معلوم » و « بالحير
موسوم » (انظر الاغانى 113 من الجزء 21)

أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم

فهذه الأبيات تطفئ عليها اللهجة الشيعية وفي نهاية القصيدة نجده
يصلى على هذا الملك مع أن الصلاة عند أهل السنة مخصوصة بالنبي وآله ،
الا أن الشيعة نراهم يصلون على أئمتهم باستقلال (1) .

فالمدح بالعلم ، مطروق في أمداح هؤلاء الخلفاء ، وعلى مقدمتهم
عبد المؤمن ، وعلى مقدمة الشعراء ابن جبوس . والمدح بالكرم ، هو ما برزت
فيه أمداح العربية منذ جاهليتها . وتقبييل الأيادي كان معروفا ، وعلى عهد
العباسيين بصفة خاصة . والوصف بجمال الطلعة وكون العين لا تمل من
النظر إليها ، وإن صاحب هذا الجمال يفضي أناة وحلما ، كل هذا ما مله
المدح في الاسلام وفي عهوده الاولى . والاقدام والشدّة على العصاة وقطع
دابرهم ، مما تغنى به المادحون لذوى الأخطار . ونفوذ الرأى الى غور
الأمور ، وأنها بعد تسليط الإرادة القوية على غوامضها تصبح واضحة
للعيان ، كذلك مما لا يستحق الإشادة به . ورجم من يسرق السمع
بالشهب ، صورة قرآنية ، ردها الجراوى وغيره ، من شعراء الموحدين ،
بعد غيرهم . ثم الدعوة الى الإنابة والبعد عن اختلاف الرأى والتسليم لحكم
الامام ، وأرد ذلك كله في القرآن الكريم . وأخيرا المبالغات في بسط السلطان
على الشرق والغرب والبر والبحر ما يطرب له الخالون ولا يأنه له المطمئنون
الى أنفسهم ، فلم يبق بعد ذلك شئ الا أبيات في الافتخار من الشاعر بقصيدته
والاعتذار الى سيده الخليفة وطلب عطفه ...

وكان الاغماتى لم يكن له نصيب موفور في أمداح الخلفاء الموحدين ،
وهذا لا يضيره بالمرّة ، وكان الجراوى أدرك هذا العجز منه ، وإن كان
الاغماتى لا يعترف به ، بل يفتخر بقصيدته تلك ، ويجعل غيرها دونها ، ويحتر
المادحين بسواها ، ولهذا وجدنا الجراوى يتهم عليه ، أثر انشاده لهذه
القصيدة ، فيقول الأبيات المعروفة :

(1) وفي القصيدة اشارات الى معلقة امرئ القيس ومعلقة عمرو بن كلثوم و « حجر » هو
والد امرئ القيس وهو وحده المسمى بهذا الاسم ، مضموم الحاء مسكن الحيم ،
وقد حسر علقمة الفحل تحقيرا لشأنه في مبيته الشهيرة التى جعلها دون مبيته هذه .

نبغمت عمرة بنبت ابن عمر هذه فلتعجبوا أم العبر
قل لها عنى اذا لاقيتها قوله تتترك في الصخر اثر
هبك كالخنساء في اشعارها او كليلى هل تجارين الذكر
وكذلك نجد للاغماتى قصيدة ، في يوسف يمدحه بها ويهنئه ببيعته
الثانية ، يقول فيها :

الا هكذا تبنى العلا والمآثر وتسبو الى الامر الكبير الاكابر
نؤم لبيعات الرضى مطلع الهدى وحيث الهدايا تعلى والاوامر
فلا يشك انه اخذ هذا المطلع من قول المتنبي في مدح سيف الدولة .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم في غير الصغير صغارها وتصغر في عين الكبير العظائم
وبعد الخليفة يوسف نجده في ركاب ابنه يعقوب واسطة عقد البيت
الموحدى حيث يمدحه بقصيدة على اثر انتصاره في موقعة « الأرك » فيقول
في تلك القصيدة : (كما في الفصوص الياضة)

اطاعتك الذوابل والشفار ولبى أمرك الفلك المدار
ببشرى مثل ما ابتهجت رياض وسعد مثل ما وضح النهار
وفتح مثل ما انفتحت كمام وشقت عن صدور ما صدر
وآمال كما مدت ظلال وافعال كما مدت بحار
وأعلام بنصرك خافقات لهما في كل جو مستطار
ليهنىء أرض أندلس بدور من السراء ليس لها سرار

الى ان يقول في وصف الروم الاسبان :

وكم راموا الفرار من الرزايا ولكن أين من أجل فرار
تدار عليهم حمر المنايا بكأس فيه عقر لا عفار
اذا ما الليث أصبح في محل فما لطيدة فيه قرار

ونلاحظ على هذه القصيدة ان نفس الشعر فيها طويل وان الاسلوب
بالرغم من ارتفاعاته اسلوب شعري على الحقيقة لا يبدو عليه ذلك التكلف
والارتباك الذى تبدت به قصيدته الاولى فنلك القصيدة كانت في أسلوبها

تبعد في بعض الاحيان عن الاساليب الشعرية مثل قوله :
يا سامعين أماديح الامام الا فاجثوا على الركب الاعظم أو قوموا
أما هذه فقد أسعفته شاعريته فيها فكانت مبالغاته مقبولة لا يابأها
الذوق المعتدل .

وهذه أبيات أخرى في مناسبة مماثلة ، كما يبدو ولعلها قيلت من قصيدة
في مدح المنصور وهى ستة أبيات ساقها صفوان بن ادريس :
هكذا :

يزرع الله بسطوة السلطان من لم يزعه واعظ القرآن
أخوان اما حكمة أو مرف هذى يمانية وذاك يمان
شدوا البراعة بالحسام فانه برهان من يعمى عن البرهان
الى ان قال في وصف الممدوح :

يهدى البرية مهسيا أو مصبحا فكأنما في وجهه القمران
ثم قال في وصف الجلال :

يتعائقون اذا لقوا أعداءهم يوم الكفاح تعائق الأخوان
ها انما ذاك التعائق بينهم من شدة البغضاء والشنآن
فهذه الابيات المتأنتة ، على حين لم يكن موضع للأناقة ، ماذا نجد
فيها ؟

نجد البيت الاول يتضمن الماثور «يزرع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»
والبيت الثانى مثبت على الحديث « الايمان والحكمة يمانية » كل ما
هنالك ، انه وضع المهرف موضع الايمان ، ونسج على نفس المنوال
والبيت الثالث ، لأأس به ، وان كنا لا نتصور الحسام يشد البراعة ، الا
في المقصود منه لا في الصورة المتخيلة ، وهو لا يبتعد عن قصد أبى تمام
في قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب

الى آخر البيت من قصيدته المعروفة فانه متولد منهما ولا شك .
بل ان كل واحد من الابيات الثلاثة يغنى عن غيره في الفكرة ، ولا غناء في
الصورة يستحق الذكر والبيت الرابع ، فيه منتهى التصنع ، وهو معتمد
كل الاعتماد على « القمران » اللذين بحثت عنها القافية بادىء ذى بدء
والبيت الخامس يصور الاعتناق بين الاعداء في شدته ، كأنه احتضان
الأحباب ، وهذا كان يكفى في وصف ضاروة الجلال ، ولكن الشاعر لم يكتف
بذلك حتى قتله شرحا ، في البيت بعده :

ها انما ذاك التعانق بينهم من شدة البغضاء والشنآن
والشعر اذا وضع على منضدة التشريح ، فقد حيويته وأصبح جثة
هالمة ، وفي عداد الموتى .

أما النسيب فقد برز أدينا في غرضه هذا ، وانتزع اعجاب المعجبين
به كما نجد ذلك جليا ببعض الابيات التى قالها في هذا وكان الشقندى يشيد
به ويفخر على ابن المعلم ، ويتحداه أن يأتى أحد بمثلها من شعراء المغرب
قاطبة .

والواقع أن هذا الغزل ، بصرف النظر عن فنيته ، غزل تصرخ الجنسية
فيه صرخة صاعقة ، توجه اليها اعجاب المحرومين أو المنهمكين ، لذات
الجنس ، فغزله هذا أو نسيبه ، ليس من ذلك النوع المذهب الذى نجده عند
ابن زنباع أو عياض زميليه في القضاء والادب ، بل هو من ذلك النوع الشره ،
الذى يكاد يصل الى امرئ القيس أو الفرزدق أحيانا ، وهذه نماذج منه :

مشيت كالغصن يثنيه النسيم	ويعوده النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق في لطيف	وذاك الردف لى ولها ظالم
يعذبني اذا أفكرت فيه	ويتعبها اذا رامت تقوم
وما حبى لها الا عذاب	عليه من نضارتها نعيم

قال ابن سعيّد في الغصون ، وقد اشتهر قوله لها في الغرب
والشرق ، ولا غرو أن يشتهر بهذه الفتنة الجنسية عند المفتونين بها .
سوى هذا فان الصنعة محكمة في غزله ، قلما تخلو منها قطعة له .

ومن هذه القصيدة قوله :

أعذك يا سليمى من سليم	قتلت فتاهم وهو الزعيم
قتيل الحب لا يودى وعاني	ه لا يفدى ولا فيه الخصوم
وما لي طالب بترات قتلى	إذا قتل الغرام فلا غريم
الا ياظبية الحرم التى ان	رمت سلمت والرامى كلیم
بلى انت الفزالة فى سناها	فراميهها بعيدا ما يروم
فؤادى سار نحوك عن ضلوع	بها ياريم حبك لا يريم
ودادك صح فى قلب سقيم	كطرفك صح ناظره السقيم
إذا اعرضت تسود الامانى	وأن أقبلت تبيض الهموم (1)

فهى أبيات صحراوية رشيقة بديعة بالرغم من بعض البهرجة فيها والبيت الاخير منها فريد فى بابيه .

وقد تمكنت الصناعة من باقى الابیات ، وخصوصا التشبيه الضمى منها ، وما يعرف بالمذهب الكلامى فيما قبل ومرمى القصيدة فى واقع الأمر هو الفخر الذى يفصح عنه البيت الاول ، وهو :

أعذك يا سليمى من سليم	قتلت فتاهم وهو الزعيم
قتيل الحب لا يودى وعاني	ه لا يفدى ولا فيه الخصوم
وما لي طالب بترات قتلى	إذا قتل الغرام فلا غريم

والبيت الاخير من هذه مأخوذ من بيت اسحق الموصلى

« وكم من دم قد ظل يوم تحملت أوانىس لا يودى لهن قتيل
وهذه قطعة دخلت عندهم فى كنوز المعانى (2) وهى قوله فيها :

هم نظروا لوحظها فهاموا	وتشرب عقل شاربها المدام
يهاب الناس مقلتها سواها	أذعر قلب حامله الحسام
سما طرفى اليها وهو باك	وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأعقب بينها فى الصدر غما	إذا غربت ذكاء أتى الظلام

(1) انظر « الزهرة » للامنهانى حيث ورد فيها :
عليك سلام الله أما تلوينا مرمى وأما ودنا فصحيح فلا شك ان الاعماتى نظر اليه فى البيت قبل الاخير من القطعة الواردة فى « جذوة الاقتباس » .
(2) كما قال فيها ابن سميذ فى « الغصون اليناعة » .

قد يعجب هذا الصنيع أولئك المتحذلقين في تصرفاتهم أو الغافلين عما يجيش في ضمائرهم ، أما غيرهم فلا تبهرهم هذه الأصباغ ولا تحرك فيهم ساكنها هذه الأصداغ ، حتى يكونوا كمن قال :

صدغ الحبيب وحالى كلاهـمـا كالياـسى
على أن هناك أبياناً أخرى تروعننا بجمالها ، وتأخذنا بتهذيبها ، كهذه
التالية :

من ذا يرى تلك الجفون ويسلم	هذا فؤادى احصدته الاسهم
شمس الضحى واصاب فيها يحكم	ياغرة حكم الجمال لها على
هيهات دون العالم المتعلم	يحكى الجأزر جيدها ولحافظها
غصن عليه بلبل يترنم	وكان قامتها ونغمة لفظها

فهذه أبيات بصرف النظر عن الانباعية في الثانى والثالث منها خاصة ،
تبهرننا بجمالها ونعجب لتنسيق صورها وتصنيف معالم فتنتها وكذلك
الشان في هذه الابيات البدوية الاعرابية ، التى يقول فيها :

وفي العرب لا فى بنى الاصفر	مهما القفر لادمية المرمـر
ومسرحها فى النقا الاعفر	بنفسى يعافير تلك الخيام
ويسلب فيها فؤاد الجرى	ملاعب يصبو اليها الحليم
غيارى متى بغمت تزار	وفيهما الظباء بنات الاسود
به الشبل ناثى مع الجؤذر	فخيس الهزبر كناس الغزال
غرام به الحى لم يشعر	تخالسها نظرا تحتسه
بطرف غر وفؤاد برى (1)	وبالحظ يتدح زند الهوى

ولا شك أنه هدف فيها الى الغزل بهذه الجملات التى ذكرها بالمها
واليعافير والظباء ، ولم يكن قصده منها غير الغزل الذى لا يسيطر عليه
التصنع أو التحلية البديعية مما يشغل الناس عما عناه وان كانت لا تخلو
من مقابلات بالاضداد ، وكأنى به ذلك المخالس للنظرات المنبعثة عن غرام
وافتنان .. ومهما يكن ، فهذه الابيات ، على بساطتها وقلة عددها تد وفق
فيها الشاعر حتى ولو كان متلدا بهذا الصنيع فى جميلة ذلك الجمال البدوى

[1] انظر « ازهار الرياض » .

وان كان التشبيه بالبدويين قديما حاوله بشار ، في رائيه له خاصة ، ثم حاوله من بعده من الشعراء ، كالمتنبي في قصيدته البائية ، فكانت قصيدة حسنة ذلك الحسن ، الذي لا يحتاج الى تطرية عهدناها في غيرها ، وصدق المتنبي فيها اذ قال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

والغالب ان الاغماتى نظر اليها ومطلعها :

من الجانر في زى الاعارب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
امدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

اذن فأنظروا الى مها القفر ، والى يعافير الخيام ، سارحة في النقى
الاعفر ، فيه الظباء ، ولكنها بنات الاسود اذا بغمت زارت آباؤها الغيارى ،
وهكذا : فخيى الهزير كناس الظباء ينتشى فيه الشبل مع الجؤذر ،
وهذا أجمل ما في الصورة وبعد هذا تأنى أبيات في وصف الحب وفعله بأهله
وهى :

اغار على الصب من انبه	هو الحب من يطفه الهبه
نأى القلب عنى وشوقى معى	فلله أمرى ما أعجبه
يحن فؤادى الى قاتلى	كذاك الهوى عند من جربه
ترق شمائل من ذاقه	وتلطف شمائل من هذبه
يجود لمسخطه بالرضى	ويطلب راحة من اتعبه
اذا شف قلبى غرام الهوى	دعا بالنعيم لمن عذبه

ونحو هذا القبيل قوله :

لقد لبست لتلبسنى نوار	شبابا ماؤه في القلب نار
شباب ماؤه في مقتلتيه	يجول وفي القلوب له قرار
حوى برد الهمى منها لما	وبيض الهند والأسد الحرار
بأيدى متحمين على المنايا	بهم تحمى الحقائق والذمار
عواليهم استنهما الذرارى	تمور بسعدهم أبدا موار
تلوح مع الكواكب وهى نور	وتهوى للكنايب وهى نار

فوارس عندها للنقع ليل اذا أبدى ظبي (1) منه النهار
تغير على الحضارة من بعيد ومسكنها الفلاة لما تغفار
سبائى من فنائهم غزال عزيز القوم نابيه غرار
وله :

لله أحبابنا الالى سلفوا بانوا وما منهم لنا خلف
كرهت سكنى البلاد بعدهم وقد يكن بعض الجواهر الصدف (2)
وغير القصائد الغزلية ، فقد شهر الشاعر كذلك بنظمه للموشحات
ولكنه لم يحفظ له منها — كغيره — الا النادر ومن هذا قوله :

حسانة رخيصة عانقت منها البائسا
والنقى الرجسراج واشواقسى لحسانه

والملاحظ على غزل شاعرنا سواء فى أوزانه العربية العتيقة وفى
موشحه — أنه كان غزلا شهوانيا صارخا فى بعض الاحيان ، وهذا ما اخذ
به هذا الاديب . فابن سعيد يقول بعدما يقول : وكان فى غاية الظرف اذا
اقبل شمت رائحة الطيب منه على بعد ، ، واذا غسلت ثيابه لا يكاد يفارقتها ،
وكان منزله كانه الجنة حتى وجد فيه اعداؤه مطعنا ورفعوا للمنصور انه
غير حافظ للناموس الشرعى بكثرة تغزله واشتهار مقطعاته وانهماكه فى
العشق . ووافق ذلك ان روى ابن اخ له يده على امرأة وغصبها على
الدخول لمنزله وشهد بذلك عند ابي موسى بن امانة حافظ فاس جماعة فأمر
باحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرب عنقه .

بعد هذا الشعر نتناول من شعر الأغباتى الجانب الخلقى ، الذى
يشمل الايصاء بالتعلم وتقوى الله والزهد فى أوساخ الدنيا وهذه هى المرحلة
التي استراح عندها الشاعر ، وقد تراءى له المصير ملمعا بالنهاية الدنيا ،
فكان فيها الندم على ما مضى ، وكان فيها التكفير عن السيئات ، وكان من
هذا التكفير ، أبيات وعظية ، توصل بتلك الابيات الغزلية الفاتنة ، فكان
شأنه فى هذا شأن ابن عبد ربه حيث وصل غزلياته ، بما سماه بالمحصات .

(1) هذه الكلمة خامسة فى الجدوة التى نقلنا عنها هذه الابيات .
(2) من الجدوة كذلك .

ومن هذه المكفرات أبيات وصلها بتلك الأبيات البدوية الاعرابية في الغزل ، كما مضى ، يقول فيها :

بقلبك يا غافلا فانظري وعينيك غبضهما تبصر
إذا أرسل الطرف هام الفؤاد ويعض المرائى عمى البصر
وألمة قلب الفتى عينه فان ترع قلبك لا تنظر

أما ما قاله في الحض على التعلم والتقوى والزهد في الدنيا فتنحو قوله :

العلم يكسو الحلل الفاخره والعلم يحيى الاعظم الناخره (1)
كم ذنب أصبح رأسا به ومذنب أبخره زاخره
ما شرف النسبة الا التقى أين تهيم الانفس الفاخره
من يلطب العز بغير التقى ترجع عنه نفسه داخره
أعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفي الآخره

وهى أبيات كاد يحرق فيها الشاعر من تلك الصنعة التى وجدناه يتفنن فيها من ذى قبل الا ما كان من الجناس فى ذنب ومذنب والمقابلة بينهما بالراس والذنب .

وفى الزهد هذه الأبيات التى نظمها على بحر المتدارك ، ونظر فيها ولا شك الى نونية لأبى نواس ، وان كان انتعد عن الغرض فكانت فى الزهد وهى :

أيها المفتخر بالزمن فى هواه خالغ الرسن
حبك الدنيا وزينتها فتننة عميتك بالفتن
ظلمت والحالة شاهدة عاكفا منها على وثن
فاهجرنها ان زينتها زينة ثانت ولم تزن
خدعتك انها تبحت باطنا فى ظاهر حسن
ولتقدم ما تسر به قبل طول البث والحزن
فكأن أخراك ما برحت وكان دنياك لم تكن

(1) من الجذوة والازهار .

أما نونية أبى نواس فيقول فيها :

يا كثير النوح في الدمن	لا عليها بل على السكن
سنة العشاق واحدة	فإذا احببت فاستكن
ظن بى من قد كلفت به	فهو يجفونى على الظن
بات لا يعنيه ما لقيت	عين ممنوع من الوسن
رثا لولا ملاحظته	خلت الدنيا من الفتن
كل يوم يسترق له	حسنه عبدا بلا ثمن
فاسقنى كأسا على عذل	كرهت مسموعه أذنى
من كميت اللون صافية	خير ما سلسلت فى بدن
ما استقرت فى مؤادى فتى	فدرى ما لوعة الحزن
مزجت من صوت غادية	حملتها الريح من مزن

وكذلك هذه الأبيات التى هى — كما يبدو — من قصيدة زهدية :

ولا تنسب الى كبر فهذا	ابوك الترب يخفضك انتسابا
ولا تصحب أخا كبر وتقدم	على النفس الأعادى والصحابا
ولا تحبب محابة بمدح	كنى بالمرء حوبا أن يحابا
وحاذر أن ترى فى القوم راسا	ولا تنس الذنوب وكن ذنابا
تراب كن هنا ففساك أن لا	تمنى أن تكون غدا ترابا

وهذه قصيدة أخرى التزم فيها طريقة أبى العتاهية فى روحها وفى أسلوبها ، واختيار بحرهما من مطلع البسيط كما نرى :

يا راكضا فى طلاب دنيا	ليس لمن تصرع انتعاش
تنح يا عرضة لرام (1)	أسهمه بالردى تراش
لم تخش نارا هوى لظاها	لمن له نحوها انحياش
أعذر منك الفراش حالا	علمت ما يجهل الفراش
تطلبها لا تنام عين	عنهما ولا يسقتر جاش
من لك بالرى من شراب	يشد من شربه العطاش
دعها فطلابها رعاع	طاشت باليابهم فطاشوا

(1) ازهار الرياض نقلا عما ورد فى « الاشادة » لبعض الاعلام فى وصف الدين نثرا ثم شعرا هذا .

واظمأ لتروى وكن كقوم ماتوا بها عفة فعاشوا
 لم يردوها فهم رواء وواردوها هم العطاش
 كأن آمالنا ظبياء ونحن من حيرة خراش
 ان آمالنا انبساطا به لأعمارنا انكماش
 كأن آجالنا صقور ونحن من تحتها خشاش (1)

وبناء القافية على روى الشين مما يصعب على الشعراء وتلما
 ومقوا فيه ، وخصوصا اذا كانت الشين مضمومة كما هنا ، وقد حاول
 المتنبي هذا ومن مواقفه العلمية التى سجلها شعره ، ما قاله ردا على بيتى
 الزمخشري اللتين نال بهما اهل السنة ، وهما :

لجماعة سمت هواها سنة لجماعة حبر لعمري موكفة
 قد شبهوا معبودهم ونخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكة
 فرد عليها الاغماتى بأربعة أبيات ، وهى :

اجلستم العلماء حمرا موكفة هذا لانكم اولو تلك الصفة
 اجلستم صفة الاله وفعله ونسبتموه لغيره بالزخرفة
 واردتم تنزيهه فوقعتهم فى الشرك والاحاد والامر السفه
 خالفتم سنن النبى وصحبه وتبعتم فى الزيغ اهل الفلسفة

ومن نثره قوله فى الفلاسفة اياكم والقدماء وما أحدثوا ، فانهم عن
 عقولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة ، وقلوبهم عن الاسرار محجوبة ،
 الانبياء ونورهم ، لا الاغبياء وغرورهم ، عنهم يتلقى وبهم يدرك السؤل ،
 « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » « الدين
 عند الله الاسلام » والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام ، ما ضر من
 وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ، خير نبى فى خير أمة ، يزكيهم ويعلمهم
 الكتاب والحكمة دلهم من قرب عليه ، واخنصر لهم الطريق اليه ، فما ضر
 تلك النفوس الكريمة ، والقلوب السليمة ، والالباب العظيمة ، ما زوى عنها
 من العلوم القديمة ، نقاهم من الاوضار والادناس ، وقال « كنتم خير أمة
 اخرجت للناس » كتابهم اعظم كتاب انزل ونبيهم اكرم نبى ارسل ، السيد
 الامام ، لبنة التمام ، خير البرية على الاطلاق ، بعث ليتم مكارم الاخلاق ،

(1) سبقه بهذا من قال : انا فى اعمارنا قصر وفى آمالنا طول

انزل الكتاب اليه « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه » هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كله والحكمة ، معجز في وصفه ، عزيز في رصفه ، « لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » آياته باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ، ماذا أقول ، وقد بهر العقول ، حسبي ، حسبي ، « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي »

هذه خطبة ما أشبهها في صنيعها بأسجاع الكهان ، فلا فكرة متسلسلة ولا لحة متلاحمة ، وانما هي أسجاع تتخلها آيات تناسبها في جرسها ، ولا يتورع صاحبها من التكرار في بعض معانيها ، وصاحبها ان هدف بذلك الى تسفيه الفلاسفة وهم المعنيون بالقدماء أو أصحاب العلم القديم ، فهو بعيد كل البعد عن الالهام ، ببعض مسائلها ، حتى يستعمل نفس السلاح أو يركز الهجوم على قاعدة من تلك القواعد التي يعتمدون عليها ، ففرق كبير في ردوده بينه وبين ابن حبوس أو أبى تمام مثلا

ومن نصائحه النثرية قوله :

(هذه الدنيا ، حفظك الله كما علمتها ، فاعرض بطلك عن جهلها ، وارغب بنفسك عن اهلها ، واذكر قبائح ابنائها ، واصرم وصل ابنائها (1) لا ترتع في روضهم ، ولا تكرع في حوضهم — وقل الله ثم ذرهم في حوضهم — واذا مررت باللاغين بذكر محاسنها ، اللاهين بحسن ظاهرها ، عن قبح باطنها فإله عن لهوهم ، ومر كريما بلغوهم ، مر المهتدي في سيره ، واعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره » فالسيادة والسعادة في نبذها لا في اخذها ، وفي تركها لا في دركها ، والبك عن وصلها اليك ، وعليك بهجرها عليك ، واذكر قوله تعالى (ولا تمدن عينيك) وقوله تعالى (ولا تعد عينك عنهم) واحرص ان تكون منهم ، فزخرف الدنيا في نظر العين زين وفي نظر العقل شين ، فغمض عينيك تبصر ، ولا تملأهما واقصر ، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه فاولوا الالباب والفكر المخصوصون بالذكر والعلم ارفع المزايا واوسع العطايا ، غاية المنال والمدرک ، من ناله أى شيء فاته ومن فاته أى شيء أدرك ، ولا علم الا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة ، فمن علمهما ، ونظر فيهما ، وعمل بهما ، نال غاية السعادة ، وأدرك

(1) من أزهار الرياض كما اشرنا الى ذلك نقلا عن « الاشارة » .

منتهى السيادة . قال الله تعالى لنبيه الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) . هذه المزايا العالية والعطايا الواسعة الباقية لا ما نهت عنه الآية الثانية ، جعلنا الله ممن ابصر رشده ونكر مراده ووجه اليه تصده ورأى أول امره آخره وابتغى فيها آتاه الدار الآخرة بمنه وفضله آمين .

ففى هذه النصيحة عناصر مما سبق أن ذكرنا من أشعاره فى الاخلاق والحكم والزهد ، مثل البيت :

اعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفى الآخرة
ومثل البيت :

فاهجرنها ان زينتها زينة شانت ولم تزن
ومثل البيت :

بقلبك يا غافلا فانظري وعينيك غمضهما تبصر
ومثل البيت :

العلم يكسو الحلل الفاخرة والعلم يحيى الاعظم الناخره
واخيرا فان الرسالة منضمة لكثير من الآى القراءانية ، ومستشهادة بأخرى ، كما أن فيها اشارة بالآية الثانية « الى قوله تعالى ، بعد الاولى التى ذكرها » لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين »

وبعد فرسالة القاضى ليست على مستوى رفيع من النثر الفنى ، فأغلبها تحليل لأشعاره أو مسنعين بنص القرآن أو مضمونه وعلى كل حال ، فان ما بيدنا من نثر القاضى الاغماتى ، لا ينبى عن رتبة عالية ، وان كان مترجموه قد اجمعوا على وصفه ببراعة النظم والنثر ، كما نقل المقرئ عن العزفى فى كتابه « الاشادة بذكر المشنهرين من المتأخرين بالافادة » وفيه أن محمد بن عبد الرحمن التجيبي يحليه الكاسب الجيد « وللناس فيما يعيشون مذاهب » .

والنتيجة أن الاغماتى شاعر الغزليات خاصة ، وحظه من مدح الخلفاء لا يصل الى ما كان عليه ابن حبوس أو الجراوى ، أما شعره فى الزهديات

فتغلب عليه طريقة أبى العتاهية ، وكأن الزهد لعبه أصبح من الاغراض العامة فى شعرنا ولهذا وجدنا معاصره الامير سليمان الموحدى يفرده بابا خاصا فى ديوانه كما سنرى فيما بعد .

ولا شئ بعد الشعر يمكن أن يذكر به القاضى الاغماني كاديب ، فخطبته التى عرضنا جانبها منها لا يمكن أن تنزله منزلا كريما فى النثر ، وهى بتلك الصفة من الفقر المذقع .

وبعد انتهائنا من الكلام على القاضى الاغماني وأدبه شعرا ونثرا ، نتصل بأديب آخر كان يعاصره وكانت وفاته أوائل القرن السابع ، كما كانت وفاة الاغماني والجرأوى ، هذا الأديب هو (ابن عم المنصور الموحدى) ، أبو الربيع (1) سليمان بن عبد الله بن عبد المومن الذى تردد ذكره فى كتب الأندلسيين والمغاربة كالبيان لابن عذارى وهذا الأديب ، ولد كما يظهر بعد العقد الخامس من القرن السادس ، فلتقى بالمغرب والأندلس ، ثم اشتغل بمهام المناصب فى الدولة من مدنية وحربية (وهذه الأخيرة هى الصفة الغالبة على شاعرنا) وكان شأوه عظيما على عهد المنصور الذى حظى عنده ، بالخصوص ، وكادت أمداحه تقتصر على هذا الملك وان كان تعرض الى ما يتعرض اليه الرجال الكبار من جفاء السلطان وغضب الملك ، اذ وجدناه س 581 بمراكش تحت جفوة المنصور . وقد قال فى تلك الحقبة كثيرا من الأشعار يستعطف ويسترضى بها المنصور ويعتذر اليه ، ويذكر ابن عذارى فى المرجع السابق كثيرا من المواقف الحربية والأدبية التى حفظها التاريخ وسجلت لهذا الامير ، ومهما يكن فقد ظل هذا الشاعر مرموقا من بيت الامارة فى النصف الثانى من القرن 6 وان كانت شهرته فى الربع الاخير من القرن السادس الى ان توفى سنة 604 أو 606 . ومن حسن الحظ جمع بعض رجاله شعره فى ديوان يعد أقدم ديوان للمغاربة جمعه محمد بن عبد الحق بن عبد الله الفسائى . وشعره فى مدح المنصور لا يختلف كذلك فى لهجته عن باقى الأمداح التى عرفت للشعراء فى الموحدين .

(1) أقام عليه دراسة مال بها درجة الماجستير الدكتور عباس الجرارى ، معتمدا على نسخة ديوانه التى يوجد أصلها بالخزانة العامة للرباط ، وقال انه لم يطلع على نسخة الاسكوريال التى تضاعفها ، ولا على نسخة اصطبول التى هى أصغرها ثلاث مرات ، وشرناها . (انظر مقاله المنشور بدعوة الحق ابريل ماى 65) .

أما ما عدا ذلك فشعره له طابعه — عندنا — في الغزل والثناء والزهد
والالغاز ووصف الرياض والشراب والعتاب والتشبيهات وما إليها . يقول
في إحدى القصائد التي مدح بها المنصور بمناسبة فتحه لمدينة قفصة
سنة 583 :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وانت لعونكم الملائك سبقا
واستبشر الفلك الاثير تيقنا
وامدك الرحمن بالفتح الذي
لم لا وانت بذلت في مرضاته
ومضيت في نصر الاله مصمما
وكتائب منصورة يحدو بها
ملئت بها ارجاء كل تنوفة
من كل من تقوى الاله سلاحه
لا يسلمون الى النوائب جارهم
لله جاشك والصورام تنتضى
كم من قصى الدار عاص قاده
لم يلف ارضا يستقر بظهرها
ان ظن ان قراره منج له
اين المفر ولا مفر لهارب
فمتى يفت يوما فاملاء له
اخليفة الله الرضى هنيته
وليهن هذا الفتح انك فتحه
فلقد كسوت الدين عزا شامخا
ان الذى سمالك خير خليفة
لكم الهدى لم يؤتته الاكم
هيهات سر الله اودع فيكم
ان قيل من خير الخلائف كلهم
فلانتم ذخر الخلافة والذى
ان كنت تتلو السابقين فانما

وجرت بسعدكم النجوم الطلع
حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
ان الامور الى مرادك ترجع
ملا البسيطة نوره المتشعشع
نفسا تفديها الخلائق اجمع
بعزيمة كالسيف بل هي اقطع
عزم اذا امضيته لا يرجع
حتى حسبنا ارضها تتصدع
ما ان له الا التوكل مفزع
يوما اذا اضحى الجوار يضيع
والخيل تردى والاسنة تشرع
حتف يخب به اليك ويوضع
انما له ومضاء عزمك أسرع
فلجهله قد ظن ما لا ينفع
والارض ننشر في يديك وتجمع
كيما يحم له الحمام الاثناع
فتحا يمد بمثله ويشفع
وبحسبه منك النصيب المقتنع
ولبست منه انت ما لا يخلع
جعل الخلافة فيكم لا تنزع
ومن ادعاه يقول ما لا يسمع
والله يعطى من يشاء ويمنع
فاليك يا يعقوب توبى الاصبع
عين الزمان لوقته تنطلع
انت الملاذ لها وانت المزع

حسب البرية ان تكون امامها
جلت صفاتك ان يحيط بكنهها
فلتشتهى كل الجوارح انها
خذهامير المومنين مديحة
فالمدح منى في علاك طبيعة
جرر ملاءة عزة موصولة
واسلم امير المومنين لامة
وحماك من يحى بسيفك دينه
وعليك يا علم الهداة تحية
ونصيرها ان ناب امر مفضل
نثر يؤلف او قريض يجمع
اذن تصيخ لمدمك او تسمع
من قلب صدق لم يشبه تصنع
والمدح من غيرى اليك تطبع
تفساء يحسدها السماك الارفع
انت المقدم والخلائق تبع
وكفك ما يخشى وما يتوقع
يفنى الزمان وعرفها يتضرع

أتينا بهذه القصيدة كلها لأنها احسن قصيدة مدح بها الامير ابن عمه
الخليفة المنصور ، وهى كما تبرر اولا قصيدة عامرة ، ولكنها تدخل فى منها
ما عهد للمداح قبله اذ فيها كثير من محفوظات الشاعر القديمة ، سواء
الجاهلى منه والاسلامى بله ما تقدم لشعراء الموحدين خاصة وعلى راسهم
ابن حبوس والجراوى . فالرياح تهب بنصر الخليفة ، والنجوم تطلع بسعده ،
والملائك تتسابق الى عونته ، حتى ضاق بها الفضاء ، كل ذلك ما لاكنه الالسن
ولفظته الاسماع عن شعراء الموحدين ، الاندلسيين والمغاربة منهم على
السواء . وكذلك استبشار الافلاك بتحركانه واهداد الرحمن له بالفتح الذى
ملا الدنيا ، كل ذلك كان مما يطرب له هؤلاء وخصوصا ان وجهه يكونهم على
مرضاة من الله بل ان هناك أبياتا قدت على غيرها ، مثل :

ومضيت فى نصر الاله مصمما

فقد تقدم للجراوى قوله فى عبد المومن :

وجريت فى نصر الاله الى مدى

وعريب منه قوله فى ابنه يوسف :

وجرى الى الامد الذى لم يجره ملك ولم تصعد اليه ظنون
وقوله فيه ايضا :

حللت من العلى اسمى ذراها وجاريت النجوم الى مداها

أما قوله في البيت :

لا يسلمون الى النوائب جارهم يوما اذا أضحى الجوار يضيع
فهو مطروق جدا في شعر الجاهلية ، مثل :

لا يسلمون الى النوائب جارهم حتى يزل الشراك عن قدمه
وهذا البيت قد قيل في الجاهلية الاولى ، وفي حرب كانت بين الحميرة
والقيسية ، وهو يعبر عن الحياة القبلية والعصبية الجاهلية فان كان
لائقا بهؤلاء القوم ، فانه لا يليق مطلقا بهؤلاء الخلفاء ، حتى يمدحوا به ،
وهم في قصورهم الشامخة ، لا جوار لهم ، بل الحاشية حولهم .
وبهذا فان الأمير لم يوفق في مدحه للخليفة العظيم أو الخلفاء الموحدين
عامة ، بكونهم « لا يسلمون الى النوائب جارهم » فلم يبق بعد هذا
الا هذه الصخابة التي ملئناها في أمداح الموحدين ، مثل قوله :

أين المفر ولا مفر لهارب والأرض تنشر في يديك وتجمع
ان ظن أن فراره منج له فلجهله قد ظن ما لا ينفع
لم يلف أرضا يستقر بظهرها أنى له ومضاء عزمك أسرع
كم من قمي الدار عاص قاده حثف يخب به اليك ويوضع
ملئت بها أرجاء كل تنوفة حتى حسبنا أرضها تتصدع

فلعلنا هنا على ذكر من قول الشاعر منشدا عبد المومن بجبل طارق :

أين المفر وخيل الله في الطلب

وكان قد ابتدأ البيت بقوله :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب

فسمع عبد المومن يقول « الى أين الى أين » فتمم الشاعر بيته ،
بقوله : أين المفر وخيل الله في الطلب

ولما أتم انشاده قال عبد المومن معلقا على القصيدة بقوله :
« بمثل بهذا تمدح الخلفاء » فكان على الشعراء بعدها أن يرددوا هذه النغمة
التي اطربت الخليفة حتى سئنهاها منهم ، وفيهم ابن جبوس والجرأوى
والاغماتى أخيرا ، ومعه شاعرنا الأمير سليمان الموحدي .

وهناك نماذج أخرى تنزل عن هذا المستوى كما في الهزمية التي هنا
بها المنصور بفتح افريقية ومطلعها :

ضاعت بنور ايابك الظلماء وتباشرت بقدومك الارجاء

وكنت قد أشرت في مقدمة الديوان الى ان الشاعر استعان في هذه
بقصيدة عبد الحق بن عطية في مدح الامير المرابطى عبد الله بن مزدي :
ضاعت بنور ايابك الايام وكذلك الكافية التي انشدها على اثر موقعة
الارك الهائلة ، فهي كذلك لانتقارن بقصيدة الجراوى في الموضوع نفسه ،
كما نرى في عرضها :

وغروب حدك في العدا ما افتكا
لنابـر الاسلام أن تتملكـا
الا اليك من الخطوب المشتكى
حد الحسام فلم تشر الا بكا
ذى أن تصان وهذه أن تسفكا
وحملت ليلا للردى محلولكا
جعلوا دليل الفتح فيه عزمكا
لاك الشكيم كما تلاك المصطكى
جزعا وانكرت النياق المبركا
الى على خد طريح مبتكى
وشبا العوالى للمعالى مسلكا
ومنعت غايات العلى أن تدركا
بعد الذى قد ساءه فاستضحكا
قالت لك الاتدار فيها هل لكا
الا ترى بك في البسيطة مشركا
ع رآك يوما في الوغى لأحبكا
قد سرها من قتلها ما سركا
الا النيمن والتبرك باسمكا
لم تدخر لخليفة الا لكـا
كالكون بوجد ساكنا متحركا

عزمت جدك للهدى ما ابركا
غضبت وما للدين غيرك ناصر
شكت الثغور الخطب لما لم يكن
وتخاصمت مهج النفوس بها الى
والسيف اعدل حاكم يقضى لهـ
قدت الهدى مثل الصباح تبلجا
بموحدين مصممين عدوهم
وبكل اشوش أن ثيبت عنانه
وبحيث انكرت الجياد مراحها
اوطأتها هام الكما فلم تضع
وجعلت أطراف الاسنة مدرجا
فتركت غاية كل سبق مبدا
وملأت اسماع الزمان مسرة
اهناً أمير المومنين بغزوة
وكأنما آلت عليك اليمـة
لو أن من صيرته جزر السبا
كرمت نفوس والحياة لذيدة
يعقوب يا شرف الخلافة لم أرد
ان الفتوح عظيمها وجسيمها
تطوى البلاد ولم تزل من غربها

هذى الشّام برسلها ويكتبها نفرت اليك تيمنا وتبركا
لم يئنّها بعد الديار عن التّي جعلتك حلا للحجيج ومنسكا

فهذه القصيدة على العموم لا جديد فيها الا هذا التائق التّي ظهرت به في البيتين الثالث مع الرابع وقد أوقعها هذا التائق في الفتور الذّي نجده في هذا التشبيه بآخر البيت الثامن مما لا يتناسب مع عظمة الموقع وهوله . وليس بعد هذا الا صور ماردة في قصائد المادحين ولكن في البيت السادس عشر مع الذّي يليه معنى لم نجده عند السابقين عليه وان كان تناوله في حد ذاته لا بدع فيه ، بل البدع في الصورة التّي جعل فيها الشاعر هؤلاء الصرعى من الاعداء مسرورين والسباع تنهشهم وتمزق أجداثهم لان الذين صرعوهم كرام بانتمائهم الى هذا الخليفة فكأنهم لذلك صرعا ، ولهذا فقد شاركوا الخليفة سروره بهذا الظفر بهم والنصر عليهم فالنفوس الكريمة تسخو بالحياة وان كانت لذیذة . ثم الأبيات الثلاثة الاخيرة تضرب على نغمة أحبها الموحدون وهى الحلم بضم الشرق الى الغرب . وفي تلك الموقعة بالذات كانت رسل صلاح الدين شاهدة بعد ما حملوا اليه كتبه .

وبعد باب المديح في الديوان يأتى باب الرثاء

والرثاء من الموضوعات القليلة الّتى تناولها شعراؤنا ، فكان المغاربة لم يكن في طبعهم هذا النوح والتوجع ييوجون به ويستبدون الدموع فيه ، ويظهرون بمظهر المهيض الجناح ، وان حاول صاحبه أن يحتاط لنفسه في هذا ، كما فعل أبو الربيع ، وهو يرثى أخاه ، حيث قال :

فلو غير محتوم القضاء أطعته لما كان منى للعزاء نصيب
وناب مناب الدمع فيك مهند خضيل برقراق النجيع خضيب

بل ان العربى نفسه حاول هذا ، فقال أبو ذؤب الهذلي :

وتجلدى للشامتين اريهم انى لريب الدهر لا اتضعض

وان أمثل ما قاله الرجال في الرثاء والتأبين ، كلمة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو يوارى فلذة كبده في التراب ، على كبر وشيخوخة منه « ان العين لندمع وان القلب ليخشع ، وانا بك يا ابراهيم لمحزون ، انا لله وانا اليه راجعون » .

ومهما يكن فان قلة قليلة من شعرائنا حفظت لهم مراثي في ذويهم ،
وكانوا على اتصال بالاندلس الذى قلده في ادبهم عامة اولهم أبو الربيع
سليمان .. اذ لا نعرف من سبقه بالمراثي في أدبنا ، وثانيهم ابن رشيد في رثائه
لابنه محمد بتلك المراثية المؤثرة التى يقول فيها :

فان التفت فالشخص للعين مائل وان استمع فالصوت للاذن طارق
وثالثهم أحمد بن شعيب الذى رثى جاريته صبحا بهرات ، يقول في
احداها :

لما ذهبت بكل حسن أصبحت نفسي تعاني شجو كل الأنفس
وغير هؤلاء ، ان صدر عنهم رثاء ، فقد كانوا ماجورين فيه مامورين
او مواسين ، كما فعل ابن خبازة ، في العهد الموحدى الأخير ، وكان على
اتصال بالاندلس كذلك ، فقال قصيدته في رثاء ابن الوزير ابن الجذ ، التى
استهلها بقوله :

أرجة الصعق يوم النفخ في الصور ام دكة الطود يوم الصعق في الطور
وكأن هذا البيت ، يطلعنا على التكلف في هذا الرثاء ، ويكاد يقول
لنا — كما يقول المريب — خذوني ، خذوني ،،،

وكذلك الشأن في القصيدة التى رثى بها أبو عثمان سعيد الجزولي ،
ابن محمد الشيخ السعدى الملقب بالحران ، ومطلعها :

اتروى الامانى والامانى سراب وتغنى المغانى والمغانى خراب
فهذان الرجلان ، كانا كالمثني ازاء الرثاء ، مامورين او مواسين ،
ولم يكونا معبرين عن دخيلتهما ، كما فعل الأمير أبو الربيع ، وبعده ابن
رشيد ثم ابن شعيب .

ولم يرتفع هذا اللون الا قليلا ، وفي العهد العلوى بنسبة خاصة ، الى
ان كان العصر الحالي الذى عمل فيه التقليد جدا فصار شعراؤنا يرثون ،
وتعلموا من غيرهم ذرف الدموع الساخنة وغير الساخنة ، كما تعلموا غيرها
من الغنون التى لم تنبع من منابعهم المغربية الاصيلية ، بل كانت تقليدا
للشرق في جانب والغرب في جانب آخر .

والنتيجة ان الرثاء غريب علينا ، عرفه أدبنا بعد ما عرف باقي
الموضوعات عند شعرائنا خاصة ، فكان أول الرائيين أبو الربيع .

وهذا مطلع القصيدة البائية التي رثى بها اخاه ، وأشرنا اليها :

وان طال عمر فالحياة تريب
ركونك منها للوفاء عجيب
وسهم الرزايا ما أراد مصيب
وصدري كما قد تلعن رحيب
كما مر بالجمر الدفين هبوب
وتقصدي عمدا بها فتصيب
بكاد لاحداها الحديد يذوب
منونا لها في العالمين ديب
لها كان منى للعزاء نصيب
خضيل برقراق النجيع خضيب
فداء كما شقت عليك جيوب
سواه على حمل الخطوب حسيب
رمتني بما لا أستطيع خطوب
سوى عبراتي والعزاء ضروب
فلول بخدي للدموع ندوب
لكنت أبا حفص الى تؤوب
فكيف و « زكار » عليك رقيب
ولكن غريب ما تقول غريب
« أجارتنا ان الخطوب نوب »
تكل شمال دونه وجنوب
لها بين احشاء الضلوع وجيب
وبين الأسى والصبر فيك حروب
على أحد الا عليك أذوب
تسح عليك رحمة وتصوب
بحيث يلذ الملتقى وبطييب
سميع لها أدعو به ومجيب

بعيد مدى العمر الطويل قريب
وليس عجيبا غدرها بك انما
خليلي تلبى للخطوب درئية
أتاني نعي ضاق صدري بحمله
نمر بقلب لم تدمل قروحه
فحتى متى تبرى الرزايا سهامها
وحتى متى القى رزايا ممضة
جريت أبا حفص مليا فلم تفت
فلو غير محتوم القضاء اطعته
وناب مناب الدمع فيك مهند
فشقت قلوبا فيك لم ترض مثلها
ولكن قضاء الله حتم فليس لي
خطوب اذا قاومت أوكدت بعضها
فها أنا صبرا للحوادث لم أجد
مكان بسيفي للقراع وليتسه
فلو آب الف رحمة لهبته
فتبصر ما القى ولست بأييب
غريب ولا كالحى يرجى لقاءه
بحيث شدا الكندي قبلك الفه
فيا عمر الادنى الي وقبره
يقولون لي صبرا ونار تلهفى
وكيف أبا حفص اطيعك تصبرا
فان ذبت صبرا أو أسى ما علمتني
نسقى ثراك صوب غمامة
واعطاك رضوان الذى انت جاره
وملا ذاك القبر نورا وانه

انها القصيدة المؤثرة الجزلة بأسلوبها الفائقة بمعانيها باقى مرثيته ،
أما تناوله لعناصرها فهو فى هذه القصيدة ، ينظر الى الحياة نظر المتأمل فى
حقيقتها المعتبر فى مآلها ، فيقول انها لا أمان لها ولا بقاء لحالها فمداها
وإن طال ، فهو وشيك النهاية قريب ، فهذه الحياة ، وإن طال حبل العمر
فيها ، تبعث فى أصحابها الريب من أمرها . وهذه قضية مسلمة ، ولا
عجب منها ، ولكن العجب انها هو من الإنسان الذى تستهويه الحياة
ويخلد الى وفائها الموهوم منها ثم جرد من نفسه رفيقين له كعادة العرب
قديما ، وصار ييئها ما يلاقى من مصائب فى هذه الدنيا ، مصائب تنرى
واحدة بعد أخرى لا تنقضى ولا تمهل ، كأن صدره دريئة لسهام الرزايا .
تتلقاها لا تحيد عنها ، وأفصح عن ذلك فى البيت بعده ، بأنه قد جاءه
بما ضاق صدره عن تحمل نعيه ، وإن كان معروفا لهم برحابة الصدر وتحمل
الأحوال ، لقد مر هذا المصاب الجلل بقلب لم تضمد جروحه ولم تدمل قروحه ،
من مصاب آخر تقدمه ، فكان هذا بمثابة هبوب الرياح على الجمر
الدفين ، الذى كاد أن ينطفئ ويهدم ، لولا إثارة الرياح وشبهها لتلك النيران
من جديد ، وهنا ينفجر باللائمة على هذا الدهر ، فحتى متى يستمر فى تلقى
الضربات القاصمة منه ، وحتى متى تبقى الرزايا تريش له السهام وتبريها
فتقصده بها ، عامدة فى غير شفقة ولا رحمة ، انها لرزايا ممضة حقا فتاكة
هدامة ، ولو سلطت أحداها على الحديد لذاب من شدتها ولهيبها . ثم تمثل
أخاه الفقيد فصار يخاطبه ، بأنه لو لم يكن حنفا قضاء وقدرًا وعلى
الإنسان أن يسلم أمره لهما لكان قد امتشق الحسام وأخذ له بالثار ، ولما
كان له عزاء ولا سلوان عن هذه المصائب التى حلت به ولكن قد حل محل
الدموع سيوف تتخزل دماء ، فكانت القلوب تشق من أجله ، كما شقت
الجيوب من الحزن عليه ، والحسرة من فقده ..

ولكن قضاء الله حتم على كل أحد ، فليس له اذن ، الا أن يتحمل
المصيبة فى صبر ، ويحتسب أمره لله ، الذى ليس له غيره حسيب ومع
هذا فهو خطوب عظام ، لا يمكن أن تقاوم شدتها ، فلو حاول بعضا منها
لرمته بما لا يستطيع تحمله ، وعلى هذا فهو لا يجد من نفسه الا
العبرات منهمة ، فهو عزاءه الوحيد ، والعزاء ضروب وأنواع ، فهو بخده
ندوب ، كما أن بسيفه ندوبا من قراع الأبطال وإن حبه لآخيه لشديد ، بحيث

لو كان الحب الجم يجعل الآلاف يؤوبون الى محبيهم رحمة بهم وشفقة ،
لكان أبو حفص أخوه يؤوب اليه فيبصر منه ما يعانى من آلام الفراق ، وما
ينجرع من مرارة الفقدان ، ولكن هيهات ، وجبل زكار رقيب عليه ، لا يتركه
ينغادر مكانه مع انه غريب بذلك الجبل، ولكنه ليس كالغريب، يعودن الى أهلهم
بعد الغربة والافتراق ، فيرجى منه اللقاء ، ولكنها الغربة الأبدية وأغرب
منها ، ما يقال فيها ، ومن قبل شدا امرؤ القيس في مثلها
« أجارتنا ان الخطوب تنوب واني مقيم ما أقام عسيب »

فيأعمر الأدنى الى قلبى ، البعيد مكانه عنى ، بحيث تكل عن قبره ، ريح
الشمال والجنوب ، التى تهب علينا من بعيد ، انهم يقولون لي صبرا ، وكيف
لي بالصبر أطيقة ، وبينه وبين الأسى حروب ضروس ، لا يهدأ أوارها ،
ولا تنطفى نار لظاها بين أحناء الضلوع الواجبة الخافقة ، فان ذبت صبرا
أو أسى ، فأنت عليم بأنى ما كنت لأذوب على أحد سواك ، وما كانت نفسى
تذهب عليه حسرات .

فستقى الله ثراك ، بصوب الغمام ، يسح عليك رحمة ويصوب ،
واعطاك رضوان الذى انت جاره ، وهو أبونا ، فيلذ لكما الملتقى
ويطيب لكما الانس ، وملاً ذلك القبر نورا من لدنه ، فانه سميع الدعاء
مجيب .

بهذا تنتهى المراثية ، التى أبدأت وأعادت فى التعبير عن هذا الحدث
الآليم ، على طريقة الاعراب ، تتخللها موعظة واعتبار ، وتتجاوزها تعاليم
الدين ، والرضى بقضاء الله ، ثم الدعاء بالرحمة والغفران ، والرضوخ
الى الصبر ، وان كان لا يطاق .

وله فى هذا الأنخ قصيدة أخرى ، دون هذه فى تصوير الفاجعة ،
استهلها بقوله :

نمى المجد ناع فابكى السما	واسبل دمعاً لها عندما
نمى اطيب الناس جرثومة	وخير ملوك الدنيا منتهى
الى أن يقول :	

احقا أبو حفص المجتبى	الى جدت شخصه اسلمها
----------------------	---------------------

وملحمة أصبحت أيما
أقامت على قبره مأتما
حروب العدى الأعين النوما
عيون المها الصارم المخدما
لطمعن نحور العد اللهدما
ويلبس ثوب الغنى المعدما
فقد أودع المطر المثجما
كفاه بأن ضمن المرزما
على حين كان ندى قد طما
فلم نأت في فعلنا مأتما
بعلم النبی الذی علما (1)
ولا نتعدى لها معلما

فكم معرك قد غدا عاطلا
فلو انها تستطيع البكا
فمن ذا ينبسه ان ايقظت
ومن ذا يجرد ان اوقظت
ومن ذا يسدد في مأزق
ومن ذا يجود على معشر
فلا تدع سقيا لبطن الثرى
وقل للفمام رويدا فقد
فقد اودعوا البحر في رمسه
اما لو شققنا عليك الجيوب
ولكننا نأتسى في الأسى
فنجعل آدابسه شرعة

والآيات الثلاثة الأخيرة فيها ضعف تركيب وفتور معنوى .

وبعد الرثاء يأتي النسب ، وفي أوله هذه القصيدة البديعة لما فيها
من حوار وقص ووصف ، كما نجد عند ابن أبي ربيعة :

قفوا ساعة حتى أزور ركبها
واشكو إليها أن أطالت عتابها
والأفحسبى أن رأيت قبابها
على غير بين ما علمت سكابها
وحطت على البدر المنير نقابها
ويشكو النوى من قد أطار غرابها
ولكنها نار نريد التهابه
هى الخمر أرشفت الغداة حبابها
وعاقت على بعد المزار خطابها
لعلى أرى يوما الى كتابها
فقد زاد ما بى أذ رأيت جوابها

أقول لركب ادلجوا بسحيرة
وأملأ عيني من محاسن وجهها
فإن هى جادت بالوصال وأمعنت
وقفت بها اشكو واسكب عبيرة
فأومت برخص من بنان مخضب
وقالت أيبكى البين من قد اراده
إليك فخذها لاسلام مودع
فلا عجب أن قد سكرت وانما
ولما تناءت دارها ونباعدت
كتبت إليها أثتكى ألم النوى
وكتبت أرى أن الجواب تعلل

وقد جعل ابن سعيد « الفصون الياضة » الآيات من مشهور غزله ،

(1) يشير الى ما قاله النبی وفعله عند وفاة ابراهيم ابنه ، وتقدم ذكر ذلك .

وذكر أربعة منها الثلاثة الاولى ، والرابع هكذا :

مقبلتها فوق اللثام فقال لى هى الخمر أرشفت الغداة حبابها
وعلى كل فهذا نسيب باهر : فيه توديع ولوعة ، وفيه حسرة وعتاب ،
وفيه تمل بالنظرة واختلاس لضمة العناق والقبل ، ثم فيه تراسل وتشك
بما يجد من لوعة النوى ووصف التجاوب منها وما كان له من انعكاسات
مفاجئة له .

ولكن لا شئ بعد ذلك فى وصف الحبيبة الا ما كان من « محاسن
وجهها » ورخص بنائها المخضب ثم العود الى الوجه بالبدر المنير وأخيرا
رضابها المسكر ، وكل ذلك لا يحمل جديدا ولا يبعث فى الصورة فتنة (1) بل
فيه فتور بنحو « واشكو اليها ان اطالت عتابها » .

نعم ان طابع القصة فيها ، ربما راق أولئك الباحثين عن القصة فى
أدبنا ، وهى على اختزالها فى الأبيات ، لها حبكة الاتصوفة وان لم يهدف
الشاعر الى انتقائها ، وهذا فى نظرنا ما يزيدنا اعتبارا ، عند الناقدتين
الطلقتاه فى نقدهم ..

وياب النسيب هو أوسع الابواب فى الديوان ، يشمل اغراضا عديدة ،
كما يضم أساليب متنوعة ، ومن الجديد فيه بالنسبة للأدب المغربى ولما سبق
من مراحل بالخصوص وصف مجالس الخمر وما يتبعها ، كما سنرى ،
وسبق منا أن أذعنا (2) فى سبيلها نماذج ، قارنا بعضها بما هو فى رباعيات
الخيام ، وغالب خمرياته ، كان ممزوجا بغيره ، ومرتبطا بالزمان والمكان ،
وما يعتورها فى تلك اللحظات ، التى يعتبرها خلصة .

يقول أبو الربيع فى هذا الغرض :

تنبه ترى ديمة تمطر	ووجه الصباح لها يسئر
وكالنند لكن كافوره	بدا فيه واكتتم العنبر
على حين فل الدجى مدبر	وللصبح فى اثره عسكر

(1) وحتى المكاتبات بين المحبين نجدها كثيرا فى شعر ابن أبى ربيعة المذكور .
(2) سابقين ، وأخبرنا بعد ذلك بتأليف الدكتور الجرارى فيها ، ولم نطلع على هذا التأليف

ويبين الغمام ومطوره
إذا التاح من برق ذا ابيض
وللقطر في جيد غصن النقا
وفي عاتق الروض من سيفه
كان الرذاذ على زهره
وما عبق الروض طيبا لنا
تنبه الى شرب مشمولة
يدل صفاهها واشراتها
لبابل في جفنه نفثة
إذا شاء أرسلها نظرة
فيا عاشقين على رسلكم
متى تستفيقون سكر من

من الروض كالحرب أو أكثر
تأطر من غصن ذا اسمر
لآل من الماء أو جوهـر
نجاد ولكنه أخضر
يفت من المسك أو ينثر
ولكنه للحيا يشكر
يطوف علينا بها جؤذر
على أن من خده تعصر
وللحسن في خده أسطر
فتسكر أضعاف ما يسكر
من الشرب سائقكم أحور
إذا فنيـت خمـره ينظر

هذه القصيدة تبدو فيها شخصية هذا القائد الحربي ، فإنه بالرغم من كونه واصفا لجمال الرياض وأرج الأزهار ونسيم الصباح وغير ذلك من مباحج الطبيعة ، جعل ذلك الوصف قائما على ما اعتاده في خوض المعارك والحروب ، فالصبح عسكر يتعقب فل ظلام الليل وهو منهزم ، أو الدجى المدبر ، والمطر يسقط على الروض فيحدث أصواتا كأنها الاصوات التي تسمع في الحروب أو أكثر وإن لم يوفق في هذا وشأنه كلمة أكثر . وهذا البرق يبدو وكأنه السيوف البيض تلمع ، وتتقاطر من هذه الاغصان مياه كدرة كأنها الرماح في سمرتها لما كانت تتحمله من غبار وأثرية . ولكنه رق بعد في جعل قطرات المطر على جيد غصن النقا لآلىء من ماء أو جوهرا وإن كان ذكر الماء فتر من بهاء الصورة ، ثم عاد الى حاله ، فجعل على عاتق الروض من سيفه نجادا أخضر وهكذا وجدنا هذه الاوصاف حربية ، وهذا طبعي ، فكل يصف ويشبه ، إذا كان صادقا في وصفه وتشبيهه بما يعتاده في حياته ، وبعد هذا نجده يرق مرة أخرى ، فالرذاذ على الزهر يفت مسكا أو ينثره ، والروض ما عبق طيبا الا ليشكر الحيا ، ثم يتوجه الشاعر الى رفيقه فيحثه على شرب معتقة من بد ساقيه الجميل (1) وهذا

(1) ولعل الابيات المبدوءة بهذا مستقلة عن سابقتها ، كما نرى ان البيت السابع حقه ان يكون سادسا ، كما ان الثامن من حقه ان يأتي بعد المذكور سادسا وحقه ان يكون سابعا .

جديد عندنا لم تذكر صراحة في السالفين من شعرائنا ، كما ذكرها شاعرنا ،
وجعلها في صفائها واشراقها ، كأنها عصرت من خد هذا الساقى الساحر
بجماله البابل ، والمذهل بنظراته ، ثم ينصح شربه بالهل . فهذه الخمر
ان نفدت فان سكرهم سيستمر من نظرات ساقيتها الجميل وبذلك فلن
يصحوا من سكرهم هذا .

ومن خمرياته قوله : داعيا الى المنادمة والشراب ، بعد ما ولى رمضان
واقبل شوال ، يغرى بالمعتق من الخمر ، وطالما اشتاق هو اليها ولهذا
يلح في طلبها ليكرع من كبار كؤوسها مع صحبه :

شوال يدعو بالشراب البالي	فأصنح اليه ولا تكن بالسالي
اني اليه لعاشق متشوق	فابعث الي به بغير مطال
واستعمل الكأس الروية واسقين	جلساءك الندمان بالعلال
حتى يخرؤا راكمين وسجدا	لا يعقلون لسورة الجريال
وصل المبوب الى الصبوح ولا تكن	في شربه بالعاجز العطال
وانعم اخى في غبطة موصولة	لا تنقضي حتى الى الدجال
والدهر ياتي كلما تهوى على	ما تشتهي في سائر الاحوال

وكأنى بشوقى رحمه الله ، اطلع على هذه الايات ، وهو بالديار
الاسبانية ، أو الديار التركية ، حيث ديوان الشاعر ، فقال تصيدته :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقه تسعى الى مشتاق
ومهما يكن فهذه خمريه عارمة ، تدعو الى السكر المطبق ، ولا تتورع
ان تقحم « الركوع والسجود » الى جانب التعبير العامي وهو « بالعلال »
ويقول من أخرى :

أفدى الذى أهدى الكؤوس بكفه	وأراحني من هجره وعتابه
نهدامتى من كأسه ولحاظه	ونثقلى برضاه رشف رضابه
فلئن سكرت لقد شربت مزاجها	من ريقه وجفونه وشرابه

ومن تأنيقاته قوله في هذا الساقى الجميل الذى أسعفه بالوصال ، وأراحه
من الهجر والعتاب ، فكان له سكرات ، من لحاظه ورضابه وكؤوسه ،

دونها نشوتا أبي نواس بقوله :

« لى نشوتان وللندمان واحدة شىء خصصت به من بينهم وحدى »

وكذا قوله : فى هذه الجميلة التى كانت تسقيه فصرف عنايته الى جمالها وقوامها وحليها وحركاتها ، وطباعها ، وما تبعث من فتن ويحذر من فتكات الحاظها ، ثم ينتهى الى تأنته فى تناول شرابه :

من لى بها مثل الغزالة منظرا	ماء الجمال يجول فى وجناتها
خودا ترى أن الوصال اساءة	وتعد طول الهجر من حسنها
سلت لواحظها علي سيوها	فحذار ثم حذار من فتكاتهما
بهرت محاسن وجهها فكأنها	بدر الدجى يلتاح فى صفحاتها
والنجم يخفق فوق أطلعها ولا	كمقلد الجوزاء فى لباتها
وكانها لدن الغصون اذا انثنت	سرقت ليلان العطف من حركاتها
قامت تميس وكفها مخضوبة	بشعاع ما قد ضاء من كاساتها
وتشاركها فحضايبها من راحها	لكنما الاسكار من لحظاتها
نفسى الفداء لها شريكة كاسها	فى لونها وصفائها وصفاتها

وهكذا رأينا أن هذه القطعة من أجمل ما واجهنا من خمريات الأمير أبى الربيع فمزج هذه الخمرية الانيقة حقا بما زانها من التغزل فى هذه الفاتنة بجمالها ، الساحرة بفنونها ..

ومن خمريات قوله مخاطبا نديمه ليسقيه ، فينفيا الهم الجائم على صدره ، فهو عاكف عليها ، لا يصغي الى لائمه ، فهذا لا يفهمه كما تفهمه هذه الخمر المعتقة الشجيعة مثله ، أنه يحث الكاس ، مع هؤلاء الجميلات ، وظنه بالله جميل ، فهو ضامن بهذا النجاة لرفاته ، يدعوهم فلا يضيعوا فرصة فى هذه الرياض اليانعة أغصانها الغناء بها وبعصافيرها :

يا خليلي اشربا واستياني	وانفيا الهم بينت الدنان
أنزلاها درة كالآلى	وارمعاها وردة كالدهان
خمرة تذكرنى عهد كسرى	وابن ساسان وعبد المدان
لست أصفى لعذول عليها	شان من يعذلني غير شان
فأنا وهى شج ما أردنا	فاهمان بالضنا عارفان

ان تشكا في ضناى فسلاها	أو تشكا في ضناها فسلاني
من يحث الخمر في غير كبر	هائما بالغانيات الحسان
ويكون الظن منه جميلا	كل ما يلحقه في ضمان
فاغتنقها يا خليلي ولاء	واغتنم نومة عين الزمان
حيث عود الروض عود فصيح	ومن الأغصان فيه مئان
ومن الطير قيان عليها	ومن الزهر سنور القيان
واذا الشمس اوان الغروب	لونها احمر كالارجوان
عندما تسقط في الماء نارا	يصعد الليل كمثل الدخان

فهذه قطعة خيامية ، مزج بها الفرح بالهموم ، والتمتع باللحظة قبل
اطباق المنون ، واشراك الخمر في تلك الاحاسيس ، التي تبادل صاحبها
وهذه كآبة في قوله حاضا على الشراب ، وقت الصباح ، لان الطير على
الجال تغرد ، بدعائها الى الصبوح ، فاغتنم وانهض فانك ستنام طويلا
فهى نغمة خيامية كذلك :

اتاك بالصبح غريد على علم	يقول قم فاصطبغ يكفيك لا تنم
اما ترى الليل قد مالت كواكبه	وقام للصبح داعيه على قدم
ولى وجيش بياض الصبح يطرده	فعل المظفر في أعقاب منهزم
لا تؤثر النوم في حال تضن بها	لكم تنام طويلا بعدها وكم
وقد نصحتك في شرب الصبوح فلا	تضيع النصح انسى غير متهم

وقف في هذه القطعة ، موقف ابن التمار في قوله :

« أما ترى الليل قد ولت عساكره مهزومة وجيوش الصبح في الطلب »
ونحوه قول الرفاء :

« أما ترى الصبح قد قامت عساكره في الشرق ينشر أعلاما من الذهب »
وكذا يقول التنوخي :

« أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الليل كيف انصاع منطلق »
ومن تأنقه في الخبريات هذه القطعة التي كرر فيها ما سبق في قطعتين

سالفيتين ، وهى فى منتهى التصنع خصوصا بالبيت الاخير منها فقال :

سقاني الراح سلسالا عتيقا وعوض من مزاج الماء ريقا
هلال يزدرى بالشمس حسنا فلا وجد المحاق له طريقا
اذا ما الشرب أعوزهم رحيق فمن أجفائه يسقي رحيقا

ومن اجملها هذه القطعة التى مزج فيها الخمر بالغزل ، وزادها
جمالا هذا الوزن المترنح ترنح ذلك الشادن الغنج الآتى ذكره كما
نرى لطفًا بصورها لولا البيت الخامس منها الذى لآكه الشعراء كان
عندنا آخرهم الأغماتى :

الا يا صاح حث الكأ	س ثغر الصبح مفتتر
ولا تبخل علي بها	فقد طابت لي الخمر
بكفى شادن غنج	يميل وما به سكر
انا السكران من مقل	ثوى فى حشوها السحر
أيا من قد غصن	ومن صفحاته بدر
تحمل خصره دعصا	فيشكو ثقله الخصر
سبى قلبي وعذبه	فهل فيها أتى عذر
سينبىء لحظه عنه	اذا ما أشكل الأمر

فالقطة لا تقل جمالا ، عن خمريته التالية ، لولا البيت الذى
أشرنا اليه .

« تحمل خصره دعصا فيشكو ثقله الخصر »
فهو بدوى صحراوى .

وكذا قوله فى هذه التى تعرض فيها للربيع ، ولأنامه الغر بثمارها ،
المطرة باريجها ، الزاهية بألوانها ، الغردة بطيورها ، ثم انتهى الى مجالس
الأنس التى يديرها جميل :

لله يوم أينعت ثمراته	سفرت لنا عن وجهها لذاته
وتهللت فرحا أسرة وجهه	ونباشرت بلقائنا وجناته
يوم من الأيام الا أنه	رقت حواشيه وغاب وشانه

التي الربيع عليه حلة وشيه مفتضوعت بنسيمها نفحاته
والطير تصفر في الغصون كأنها وتر تشوق قلوبنا نغماته
والانس مبثوث يدير كؤوسه رثماً تغاير في الجمال صفاته
لم يدر شاربها لحسن جفونه أمذانه صرعه أم لحظاته

فالجمل يتجلى في هذه ، ببث الانسية فيها ، كما سبق في الأخرى ،
فالذات كانت محجبة فسفرت عن وجهها ، وحسرت عن خباياها ، واليوم
قد تهلت أسرة وجهه ، فرحا وسرورا بهم ، ونبشرت وجناته بلقائهم ،
والربيع قد التي عليه حلة وشيه ، والطير على أغصانها ، تصفر كأنها وتر ،
تشوق نغماته القلوب (1) .

بعد هذه نجد قطعة أخرى بداها بذكر حبيبته التي أتيج ان يتلاقى
معه بعد الفراق في يوم شكره . ثم شكر الفراق الذي به عرف فضل التلاق
وأخيرا عرض للشراب ، بما عرض به من قبل ، فقال :

لله يوم وجهه منهلل ملأ القلوب محبة وسرورا
بلقاء من سمح الزمان بقربه وشفى بتعجيل الاياب صدورا
فأدال من سمر الحداة حديثه وأدال من شجوى الطويل سرورا
لا ذنب بعد اليوم عندى للنوى أن صيرت وطن الحبيب مزورا
سبب البشارة باللقاء فراقه لولا الفراق لما رأيت بشيرا
فارفع شموسا من رحيق سلسل وإذا شربست فالتقهن بدورا
في ود من الف النار تدللا وسطا علي فما وجدت نصيرا

وهذه أخرى يقول فيها ان الجو قد طاب للمنادمة والشراب ، فيدعو
رفيقه للانغمار فيه ، ومصاحبة عادة جميلة ، تفوق البدر في جمالها والغضن
لذن قوامها :

الجو يبكى بدموع سجام والروض يبدي عند ذاك ابتسام
فأفضض من الدن لنا ختمه فأول اللذة فض الختام

(1) وان كان التعبير هنا خائنه ، حيث جعل الطير « تصفر في الغصون » وترا ، وتقدم لابن
زباج ما يفوق هذا ويفضله وهو :

والطير قد خفقت على أفنانها تلقى نسون الشدو في أسلوبها
تشدو وتهتر الغصون كأنها حركاتها رقص على تطريبها

واسحب ذيول اللهو في لذة
ولا ترى الا الى نشوة
وهم بخود يستبي حسنها
ان قستها بالشمس أين السنا
وعاطها الكأس جهارا فما
واعكف على حث كؤوس المدام
تصحوفا في فعل ذا من حرام
وقدها اللدن قلوب الانام
او قستها بالفن أين القوام
في الحب لذة وفيه اكتتام

ومثلها قوله في أخرى :

قم ادر كأس المدام
واستينها سلسبيل
من يدى احوى رخيم
قد حوى الحسن جميعا
قد بدا جنح الظلام
عصرت من عهد حام
لحظه حد الحسام
فسبى كل الانام

وهي لا تختلف عن الاولى الا في اقتضاب هذه واطناب تلك .

وكذا قوله في ساق :

وساق يطوف علينا ضحى
وقد أشبهت راحه خده
فهذا الساقى في الواقع كتلك ما اتى به الا لهذا التشبيه الجميل ،
لا لجماله هو ليسحر به الشاعر .

ومن النسب قوله في التلاقى بعد الافتراق (1) :

نقضى بينهم فشفى ولوعى
تقضى بعد أن قد كاد يقضى
دنوا فتألفت نار اشتياقى
تلاقينا على كأس فكانت
فلو ابصرتنا يوم التقينا
بكينا في الفراق وفي التلاقى
فيوم فراقهم أسفا عليهم
وسكن لوعة القلب الصديع
على نفسى بانلاف الهجوع
لهم كتألق البرق اللامع
تحيثها مساجلة الدموع
كما التقت الظباء لدى الشروع
فلم تخل المدامع من هموع
ومن فرح بهم يوم الرجوع

(1) وفيه من الحمريات ما نجد في البيت الرابع منها .

ويقول في تأميل التلاق بعد الفراق :

وحسبه منه ما تحويه أضلعه	حسب الهوى من قتيل الحب مصرعه
فكلما رامه أبدته أضلعه	يروم كتمان ما يلقي أسى وضنى
كيف العزاء وأدنى البين أوجعه	قالوا تعز وقد بانوا فقلت لهم
فصار موضع من أهواه موضعه	أصاب سهم النوى قلبى فأثبنه
سقاء من صابه ما بت أجرعه	لا عذب الله قلبا بالفراق ولا
صمت عن العذل أذنئ ليس تسعه	لا تعذلونى فما أصفى لعذلكم
بعدا، وشملئ يعافيكم ويجمعه	وادعوا لنا فعسى من شئت شملهم

والغالب أنه نظر في هذه الأبيات ، الى قصيدة محمد بن زريق البغدادي :

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
فهذا المطلع هو ما تضمنه البيت قبل الأخير ، أما الأخير منها ، فيحاذى
البيت الأخير من القصيدة المذكورة :

عل الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ستجمنى يوما وتجمعه
وعلى هذا فان البيتين الأخيرين من أبيات شاعرنا ، يفصحان بأنه
نظر فيها الى قصيدة ابن زريق والتزم وزنها وقافيتها تماما .

ويقول مبشرا بالعودة الى الحبيب :

قرب من العذب الشهى المورد	يا أم حفصة والمطي بنا على
ومسلم ان شاء ربي في غد	هل بلغتك الريح انى قادم
مذ شط عنك مزارها لم ترقد	وممتع من ناظريك لو احظا
صرفت عن الامر الاهم الاوكد	لله اية عزيمة وسريرة
حر الهجيرة في الفلاة الفد فد	فأنتك تنفخ في، الرى لم يثنها
وأغن كالظبى الغرير الاغيد	بأغر كالفصن الرطيب قوامه
بالمرزمين وقرطها بالفرقد	فبنانة فرعاء تحسب عقدها
يا حسنه من عسجد فى عسجد	صاغت لها شمس الاصيل سوارها
هذى الزيارة لم تكن فى موعد	كيف امتنعت الوفا من وصلنا

ندعوك للتقيا وانت ابيسة من يعشق اللاحظ غير مفند
تلك اللاحظ وان شربت سلافها عجا لساق منهما ومعربد

ونحو هذا يقول مبتهجا بورود كتاب بشر بابلال الحبيب من مرضه :

شفى ابلالكم حر الغليل وابرا سقم مشتاق عليل
وانس وحشة اودت بنفسى وما ابقت سوى جسم نحيل
فضضت كتابكم فوقتت منه على ما سر من خير جزيل
فسرى ما بقلبي من شجون وكفكف ما بجفنى من همول
وكدت اطير من شوق اليكم ومن وجد لبينكم دخیل
واني والنوى تذف وسيرى حثيث فى الحزون وفى السهول
لاذكركم مع الساعات ذكرى تشوق لى الغدو وفى الاصيل
وما لى حيلة ارجو دنوى بها منكم سوى صبر جميل
سأهدى ما بقيت لكم سلاما كريح الورد أو ریا الشمول

فهذه أبيات تتضمن رسالة عائلية كذلك ، لا دخل فيها للنسيب

وهذه شكوى وحنين :

رمتنى صروف الدهر من كل جانب فشكت فؤادى بالسهام الحوائب
فلو أن هذا الدهر ينصف شاكيا لفرق ما بينى وبين المصائب
ولو أنه يجرى على العدل حكمه لجمع ما بينى وبين الحوائب
لقد غص لما أن رأى جمع شملنا تزين لآليه نحور الكواكب
فما زال يسمى فى التفرق بيننا فلما نأى الفى أتى بالعائب
فيا غائبا غص الزمان بقربه فأسهمنى منه ضرب النوائب
لئن غبت عن عينى لشخصك حاضر مقيم بأثناء الحشى غير غائب

ويلاحظ فى هذه القطعة صورة مكررة ، فى المصراعين :

لقد غص لما أن رأى جمع شملنا فيا غائبا غص الزمان بقربه

أما البيت ؛ فما زال الخ فهو ولا شك من قول أبى صخر :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ونحوها قوله :

كيف التصبر والاشواق تزداد
والدهر قد عاق عن لقياكم حسدا
فكلما قربت منى دياركم
فالقلب في حرق والجفن في ارق
والدمع يزرى بقطر المزن وابله
فلو تركت ركبتي الهول نحوكم
اني وان فاتني عيد بربكم
اذ نلتقى حيث ثغر الروض مبتسم
يا قرب الله ذاك الروض ان به

والدار تنأى وما للوصل ميعاد
والبين جيش والافكار اجناد
ينأى المزار كأن القرب ابعاد
وللبلايل اصدار وابراد
وان وشى بي اعداء وحساد
حسبى بلقياك اعراس واعباد
والنهر مضطرب والفصن مباد
تالله ما شاء وارد ووراد

فما اصدق هذه الابيات وما ابدعها ، لولا هذا البيت المتصنع فيها
المفرط بمبالغاته :

والدمع يزرى بقطر المزن وابله وللجوانح ابراق وارعاد
ولولا هذا الفتور في البيت الأخير ، وقد لببت الصناعة بنهايته في رواد
ورواد :

ويقول في الربيع :

حي الربيع بما وثت ازاهره
ودبجت فوق منن الروض من حلل
من نرجس ساحر الالفاظ ذى غنج
هذا يضاحك وقع الطل عن شنب
بما تضوع روض الزهر غب حبا
لا يحسب الناس ان الروض فاح لهم
وفي الثناء جزاء ما نظمت ولو
سرى مع الليل خيرى وربتما

ونظمت من اكاليل على الشجر
ونمقنه بألوان من الزهر
ومن اقحاق نقى الثغر ذى اشعر
وذا يلاحظ عطف النهر عن حور
ناكد الشكر للنعمى على البشر
طوعا ولكنه يثنى على المطر
لم ينظم المدح في الاشعار لم يسر
لاقى النسيم فؤادا اطيب الخبر

نلاحظ ان الابيات بدأت على نسج بديع ونظم لم ينخرم الا بنهاية البيت
الثانى عند قوله :

ونمقتته بالوان من الزهر

اذ الضمير المستتر في نمقت عائد على الازهار فيكون التعبير هكذا « نمقتة الازهار بالوان من الزهر ، فلو وقع الضمير محل الظاهر وهو الزهر ، لسلم التعبير بجلده البلاغى ، اما وهو كما هو فلا محل فيه للخروج عن مقتضى الظاهر ، ولزم « نمقتة بالوان منها » والبيت الخامس ، وهو بما تزوع الخ ، يمهّد للبيت السادس ، لا يحسب الناس الخ ، وهو قضية ردها الشاعر وسبق منها قوله :

وما عبق الروض طيبا لنا ولكنّه للحيا يشكر

وهذه التفاتة جميلة لو اقتصر في هذه الابيات ، ولكنه انطلق منها الى نفسه ، حيث جعل الثناء عليه جزءا ما نظم ، لانه كما قال « ولو لم ينظم المدح في الاشعار لم يسر » فهذا وجوم ما اشد ما كنا عنه في غنى ، ونحن نمرح في هذه الرياض ، ونطير بخيالنا ، فنقع كالطيور على اكاليل من دوحها ، والطبيعة يضاحك بعضها بعضا وعراسها تتبدى في غنج فينبعث ارج العطر فوحا .

وقوله في قطر الندى ، متخلصا في ذلك الى بث شوته واستعادة ذكرياته الجميلة :

وتطر الندى خاف على الحس وقعه	يحوك من الازهار وشيا محبرا
وينظم اجساد الفصون فلا يرى	ويعلق اذن الاس قرطا مجوهر
لقد شاقنى انس تقضى جميعه	ولم يبق للمشتاق الا تذكرا
الا هل لذاك العهد بالروض عودة	فنصهر غصن الوصل ريان اخضرا
وعل صباه ان وجود بنفحة	يطيب شذاها ممسيا ومسحرا
وما لنسيم الريح عطر بطبعه	ولكن اتى من نحوكم فتعطرا

فهذه المناجاة التى باح بها البيت الأخير ، هى وحدها ما يناسب النسيب ، والا فباقى الابيات لا نسب له فيه .

وقوله في حامة مفردة :

وهيج لوعتى ورقاء بانست	على فنن ولم تطعم رقادا
تردد نوحها في جنح ليل	وقد لبست دجنته حدادا

فقلت لها أمثلنى أنت وجدا غرام حشاك يتقصد انتقادا
فان قلت البعاد أثار شوقى فأين دموع من يشكو البعادا
فأبداهم لذى الشكوى جفونا أحرهم بلا شك فؤادا

بعد ما ننبه على قوله « بلا شك » لا يليق بلغة الشعراء واساليبهم
الخاصة ، التى جبلوا عليها وعهدنها فى اشعارهم قديما وحديثا ، فهذه
الآيات تذكرنا بمناجاة القاضى عياض لها بقوله :

أتمرية الأدواح بالله طارحى أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقنتى من هديك رنة تهيج من برحى ومن برحاء
لعلك مثلى يا حمام فائننى غريب بدأى قد بليت بداء

وهذا يذكرنا بقول جهم بن خليفة ، كما فى الحيوان :

وقد شاتننى صوت تمريسة طروب العشى هتوف الضحى
من الورق نواحة باكرت عشب أشاء بذات الغضى
تفتت عليه بلحن لها يهيج للصب ما قد مضى

ويمتاز قول عياض وسليمان بالخطاب الذى توجهها به الى هذه
الحمامة ، وكان المنتظر ان يخلق حوارا يتردد بينهما ، لكننا لم نسمعه
الا من طرف واحد هو الشاعر نفسه ، دون الحمامة التى ظلت غير آبهة
بهذا الخطاب ، ولا مجيبة عن ذلك الاستفهام ، وهنا قصور فى الخيال ،
وجنوح الى الواقع وإخلاد اليه ، فانشطرت الصور الجمالية به ، فلم نبر
الا نصفها ، وغيب عنا نصفها الآخر بخلاف هذا الحوار الذى نجده بينه وبين
وبين صاحبتة ، وقد جلل مفرقه الشيب :

زوت وجهها لما رأت شيب مفرقى وصدت بعطف عن وصالى مزور
فقلت لها ماذا يريبك من فتى ثوى الشيب فى فؤديه كالانجم الزهر
والا كما انشقى الصباح عن الدجى أو ابتسمت لمياء عن وضح الفجر
فقلت على غيرى فللشيب قولة نصح ولكن فى مخيلة الشعر
فان كان عذرا عن شبائك لم تكن تحوجك الحناء قبل الى العذر
وهبنى هجرت الصب بعد مشييه فانت أبعد الشيب تجزع من هجر
جزوعا من الهجران طفلا ويافعا وكهلا فما تنفك دهرك من دعر
فأرسلت دمع العين عند مقالها وأتبعته آها على ذاهب العمر

وقوله في بعض مناجاته :

أيا شجرات الواديين الى النقا
فحتى متى نمتى ويصبح شملنا
سقتك على شحط وان كنت نازحا
معذبتى حتى اذا شئت سلوة
بمعين وسيم هل اليك رجوع
شتيتا وشمل الناس فيك جميع
غواد كأجفاني عليك هموع
اتت بفؤادي من هواك صدوع

وقوله في هيامه وما يقاسى من همومه :

وكم ليلة كالدهر طولا قطعتها
تعللى الارواح في ظلمة الدجى
وأصبر محزونا على مضض الهوى
ونفسي في سم الخياط لها جذب
برؤياه في قرب وان لم يكن قرب
ولا مسعد يحنو علي ولا صاحب

ويتصل بهذا قوله :

الا صف لي معاهد ام عمرو
بحيث الريح تعرفها اشتياقا
وبين الريح والروض انتساب
لامر ما تطابقت السجايا
ويمسى الجو مكتئبا عبوسا
ودع عنك الرصافة والغميما
وحيث الروض تعرفه شميما
اذا هبت عليه ضحى نسيمها
كريم لم يثر الا كريمها
فيضحى الروض مبتهجا وسيمها

ومن هذا قوله :

«وشيين أيام الفراق مفارقي» (1)
فمهما يرانى الناس قالوا صباية
فقلت لهم ما الأمر ما قد طلبتم
ترادف طول البين صيرنى كما
ووكل طرفى بالسهاد فليس لى
اذا هجع النوام ارسلت عبرة
اغالب نفسي كي أفوز بغفوة
سلام على من في فؤادى محله
وان حل أرضا غير أرض ومنزلا
سلام محب اقصدته يد النوى
وانهكن من جسمى وابلين من عظمى
أضرت به ماذا اعتراه من السقم
الا فاسألونى تخبروا بعد عن علم
ترون وإبدى ما أسر من الكتم
منام ولكنى رقيب على النجم
وعفيت آثار الركائب باللثم
لعلى أرى فيها الاحبة فى الحلم
ومن عنده روى وان بان عن جسمى
سوى منزلى ما ذاك الا على رغمى
بسهم فادمى قلبه موقع السهم

(1) شطر البيت من شواهد الجناس فى البلاغة .

نلاحظ أنه افتتح الابيات بشطرة من شواهد البلاغة للجناس ،
ثم استمر في وصف حاله بصور تسودها البساطة في الفكرة والتعبير ، وان
بدأ في البيت الرابع يتأنق ، « كما ترون » وثقلت تأنقا فانرا باهتا بألوانه
المتبذلة وشفع ذلك بالبيت السادس فالسابع وأخيرا استسلم للسلام
وكذلك يقول في الوفاء ورعى المحبة ، وان كانت هذه الابيات
تحتويها مراسلة الأحباب :

لئن غاب عني شخصكم فوحيكم	لقلبي مقيم ما حييت على العهد
وما حال عما كنتم تعلمونه	من الشوق والتذكر والحب والود
وكيف ونفسي لا تحب سواكم	ولا ترعوى حتى تغيب في اللحد
إذا لذ للنوام طرب منامهم	أرقت لما القاه من شدة الوجد
وكيف يلذ النوم من ظل قلبه	يروع في كل الاحايين بالبعد
فلو أئني أعطى الخيار اتيتكم	وأبلغتكم بعض المذى لكم عندي
ولما الح البين بيني وبينكم	بعثت اليكم من سلامي على تصدى
تحية مشتاق تنوب منابه	لديكم فمنوا بالسلام وبالرد

فهذه في الواقع مراسلة غرامية ضمنها هذه الابيات التي انطلق في
نظمها على سجيته ولم يتعمد أية صنعة أو حلية بديعية :

ويلاحظ أن بيتا منها نظر الى قول الشاعر :

فلو أعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان
على أن قوله :

ولما الح البين بيني وبينكم بعثت اليكم من سلامي على قصد

فيه ضعف ، لأن قوله « بيني وبينكم » لا لزوم له ، وقد وصل
بالبين قبله ، ثم ان قوله « على تصدى » كذلك لم يات الا لسد ذريعة
القافية ويقول في أخرى من هذا السبيل :

خيالك في عيني وشخصك في قلبي	فعهدى سواء في البعاد وفي القرب
أعوح على دار عهدتك الفيا	ولو لم أجد دارا لعجت على قلبي
فألفيتها زهراء ناعمة الثرى	مفتحة الانوار عاطرة الترب

عجبت لها أنسى تضوع تربها
ولما أردت الكتب والشوق حافز
وما طويت أرض لنا من كرامة
على طول عهدك منك بالمدل الرطب
علمت بأنى سابق الرسل والكتب
ولكننا طرنا بأجحة الحب

والكرامة في البيت الأخير مراد بها كرامة الاولياء الخارطة للعادات
وهذه أخرى في السلام والتحية على بعد الدار والبشرى بقرب المزار :

سلام كما فاح النسيم مع السحر
على من له في القلب اشرف منزل
تحية مشتاق تكن ضلوعه
يود لو ان الريح تلقى اشتياقه
قطعنا بذكراكم بلادا بعيدة
فلما قضينا ما نرجى ثوابه
ثنينا عنان الشوق نحو دياركم
لينتظم الشمل الشتيت بقربكم
وتبلغ آمال ونقضى ما آرب
فلا زلتم في خفض عيش ونعمة
والا كما انشق الرياض عن الزهر
ومن هو مثل السمع عندي والبصر
من الشوق أضعاف الذي لاح للبشر
اليكم فتقضى عنه من حقكم وطر
وهان الذي نلقاه من تعب السفر
ولم يبق بعد الورد شيء سوى الصدر
وليس لنا حاد وهاد سوى الذكر
وتغنى أجفان أضر بها السهر
وترتاح نفس من جوى الوجد والفكر
مجددة ما ان يغيرها كدر

فهذه الابيات واضح كونها عائلية ، لا تمت الى ما عرف في النسب
بسبب ومن ناحية أخرى تدل على أن الشاعر توجه للحج وقضاء
ما يرجى ثوابه ، كما يقول ، وهي رسالة كذلك منظومة أشبه ما تكون
بالرسائل المرسلة المتحررة من قيود الصنعة ، الا ما كان من تشبيه مقتصد
جميل .

ونحوه قوله :

سلام كعرف المسك أو هو أطيب
على نازح ان كان أحسن منظرا
وفي كل يوم لى اليكم رسائل
وكنت جديرا ان أزور دياركم
فلا تحسبى يا دار من صرت بعدها
واتى لمن يشكو الهوى بمدامع
ولكنه الأمر المطاع تعينت
وكالوصل بعد الهجر أو هو أعذب
من النجم في عيني فالنجم أقرب
من الرجل وفدا أو من الخيل موكب
مع الريح أسرى أو على البرق أركب
أجنبها عن اختيار أجنب
لها بين أثناء الجيوب نصب
اجابته والدهر بالناس قلب

سقى بلدا أمستهم خير مزنه غمام كعيني دائم الدهر تسكب
الم تعلمى ياغابة النخل انه لنا منك فى تلك الخيلة ربرب
وان لنفسى والهوى يبعث الهوى على اثره منهن شخص محبب
فهذه مراسلة جميلة رقيقة ، تفوق سابقتها فى فنها الرفيع ، نكتفى
بها أخيرا (1) .

ومن الحنين قوله :

الا ليت شعرى هل ترى عيني النقا بعين وسيم والنخيل مكمم
وهل ترين عيني الرياض وحسنه وهل اسمعن فيه الطيور ترنم
وهل اجلسن تحت الاراقة ساعة بحيث يفىء الظل والنهر مفعم
وهل ترجعن ايامه اللاء قد خلت وهل أنعمن فيه كما كنت أنعم
احن اليه صبوة وتشوقى مؤالفه والقلب بالالف مفرم
فلم ترعيني منظرا مثل حسنه ولم تر الفا كالذى كنت اعلم
فروى ثراه دمية مستهلة وجاد على مغناه رعد مززم
رعى الله عهد للصبا فى ظلاله اذ الدهر مغض والعواذل نوم
ورعيا لأيام تولت حميدة متى ذكرتها النفس فالعين تسجم
ولا زال معمور المعاهد أهلا بمثل الآلى بانوا كما كنت أعلم
معاهد كانت لي أشت قطينها صروف زمان بالتشتت يعلم
الى الله أشكو شوقه فلعله يمن بمرآه وشيكا وينعم
واذ رمقي فى عنفوان شبابه وعمرى للذات عمر مقسم
فلم يبق من تلك اللذاذة فى الحشى مع الدهر الا الوجد والوجد يستقم

ويلاحظ على القصيدة ، وفى قافيتها بعض الضعف فى نسجها ، كما
فى قوله : « ولم تر الفا كالذى كنت أعلم » مع « بمثل الآلى بانوا كما كنت أعلم »

زيادة على ما فى هذا من عيب الإيطاء ونحو قوله :

« وهل أنعمن فيه كما كنت أعلم » مع « يمن بمرآه وشيكا وينعم »

وقوله :

(1) ولوحظ فى البيت الأخير منها أنه رفع اسم أن ، وقد فصل عنها ، على سبيل الشذوذ
والسماع .

« صروف زمان بالتشتت يعلم » .

فإذا استثنينا هذا فالقصيدة منطلقة على طبيعتها لا تعمل في أسلوبها ولا تائق فكان الشاعر عبر بخالص صدقه وبسيط لهجته .

ومن الحنين أيضا قوله :

أدموع جفونك تنسكب	وغرام ضلوعك يلتهب
فكان شئونك تصرمه	وكان الدمع له حصب
أذيبت حشاي على شحط	هلا ومزارك مقترب
عجبا أن ذبت عليك ومن	عجبي أن ذبت هو العجب
لم لا وقد ارتحلوا بك عن	من كان تشوقه الحجب
فائن حلت بكم ابل	صبر فسترحل بي نجب
تحتز مشافرها ببرة	ويعض غواربها قتب
تخدى فيحسث ركائبها	لتذكركم سبر خب
حتى ليسرى بمقدمها	حمص وبمؤخرها حلب
أحداة الركب حذار حذا	رفان الركب به عرب
أرواح الناس لهم وبهم	ان هم نهبوا أو هم وهبوا
معسول لقاحهم عسل	وشهي رضابهم ضرب
وقوام قدودهم اسل	ولحافظ جفونهم قضب
يمشون كأنهم القضبا	ن وحشو مآزرهم كلب
فعلام انكب عن عرب	عرب منهم لهم هرب
لم أنس غداة منى رشا	يرمي الجمرات ويحتسب
وقد اشتمل الصماء ببر	دته أرئسوه فيحتجب
كالشمس قد اشتملت بسحا	بتهها وكبردته السحب
عجبا يرجو الحسنات ومع	صمه بدماي مختضب

هذا البحر من البحور التي اثارها كما تقدم ، الحصرى بداليتها الشهيرة ، وافتتن به المتصوفة ، فنظموا عليه أناشيدهم ، التي نجد منها عندنا ، منفرجة النحوى الجزائرى ثم التازى المغربى ، وكلتاها افتتحت بالحديث الشريف « اشتدى أزمة تنفرج » .

ويلاحظ على تصيدتنا هذه ، بعض الصور التي كررها الشاعر في
تصائده ، مثل :

عجبا أن ذبت عليه ومن عجبي أن ذبت هو العجب
وقد تقدم :

غريب ولا كالحى يرجى لقاءه ولكن غريب ما تقول غريب
ونحوه قبله :

وليس عجيبا غدرها بك انما ركونك منها للوفاء عجيب
اذن فالعجب من غدرها عجيب كذلك ، وهو تأنيق مقبول لا تكلف فيه ، مثل
تلك المحسنات التي نجدتها في القصيدة ، كالتشبيه بالاضرام والحصب ،
والجناس بين نهبوا ووهبوا ، والرضاب والضرب ، والعرب والعرب ، ثم
هذه المقابلة المعنوية بين الضلوع تلتهب والدموع تنسكب ، مما سبق ابن
زيدون اليه في نونيته بقوله :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحننا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
وقوله في اشجانه ولوعاته :

اهاجت لك الاشواق تلك المصانع	غدا ساكنوها فهي قفر بلا قمع
وقد كنت ابكي البين قبل وقوعه	فكيف بكائي اليوم والبين واقمع
وغير سجال حرب دمع ومقلّة	يصول عليها الدمع والطرف خاشع
يشب اوار الشوق بين جوانحي	فيصبح خدى احرقته المدامع
وكل يبكى طرفه قد در وجده	فدام على اثر المطي ودامع
تفرق شمل ضاق صدرى بحمله	وصدرى كما قد يعلم الناس واسع
فياماني ان اشقى من رضا به	أنلنى من التوديع ما انت مانع
فانك لا تدري اذا شطت النوى	وسارت بنا الركبان ما الله صانع

وهذه في الواقع افتر قطعة له ، في هذا الصدد ، فماذا نتصور في الحرب
السجال بين دمع ومقلّة ، الا أن يكون تمويهها لصول هذا على تلك وكيف
نتصور احراق المدامع خد الشاعر ، الا أن يكون ذاك لتثبيت هذه البالغة
لدموع الحارة المنبعثة عن شبوب الشوق بين جوانح الشاعر ؟

ثم هذا العمد الى الجناس في دام ودامع ، دعى الى قوله « وكل بيكي طرفه
 قدر وجده » ثم لا يخفى ما في تبكية الطرف من تعمل متصنع وبعده هذا
 الاضطراب في العبارة التي افسدت المقمود حيث يقول « تفرق شمل ضاق
 صدرى بحمله » فالضمير عائدا على الشمل مفسد له ثم تأتي هذه
 السخافة ، زيادة على كونها لا محل لها ، بعد ما تضمنته الابيات
 السالفة ، فهذا اضطراب في السرد ، وعود الى التوديع :

فيامانعي أن أشتفى من رضا به أنلني من التوديع ما أنت مانع
 ويقول في الطيف :

بأبى والله طيف طرقا	سلب النوم وأهدى الارقا
دله في ظلمة الليل على	مضجعي دق فؤاد خفتا
ركب الهول فأحيا دنفا	فرعى الله خيالا طرقا
ترك الصب على حال ردى	مقلا غرقى وقلبا محرقا
اشكر الله كفانى وصله	والرضى عني وقرب الملتقى
ومبيتى معه يجمعنا	لحف العز وأبراد التقى
ليس شيء غير رشفى شنبنا	يحسد الدهر عليه المنطقا
والثامى وردة الخد الذى	يخجل البدر اذا ما اشرقا
يا خليلى افي ذا حرج	أم جناح فأجابا صدقا
ثم قالا بحنان ان يكن	شملكم بعد ائتلاف فرقنا
جمع الله قريبا بينكم	وكفى من فرقة ما يتقي

وقوله :

ايها الحادى بنا نحو منى	خذ على نفسك كي لا تفتنا
اترك الجزع يسارا لا تنر	ربريا يفتك فينا الاعينا
وانح عن حى رماة كلهم	طالما ستوا نجيعي الدنيا
بسيوف بين الحاظهم	ظاهروا الهند بها واليمنا
وقدود حشو ابرادهم	نازعوا الخط بها لدن القنا (1)

(1) لابن جبر معاصره تميدة على الوزن الغافية يهئ فيها حاجا اجتمع بهم في مكة
 يا ونود الله نرتم باللى
 ولكم بالحيث من قلب شح
 ما ارتمى حامة الصدر له
 فهنيئا لكم اهل منى
 لم يرل حوم التوى يشكو الفنى
 سكتا مندبه تد سكتا

فإذا قيل جمال فهم
لم يغيبوا الطيف غنى أنما
ما لظبي منهم لم يصمني
كالهلال كالقضيبي كالطلا
لاح بدرا في دجى لمته
غرني في حبه اسماده
آه من وجد عليه لم يدع
لم أزل أخفي هواه فلقد
ولعمري مذ نأى ما أبصرت
فرعى الله ديارا حلها

وإذا قيل غرام فأنما
غيبوا عن مقلتي الوسنا
بسهم اللحظ حتى طعنا
ان نبدي أو تثنى أورنا
وانثنى فوق كئيب غصنا
فحسبت الأمر فيه هينا
موضعا في القلب الا سنا
صار ما أخفيت جهدي علنا
بعده عيناي شيئا حسنا
وسقى تلك الربا والدمنا

سقتنا هذه الابيات ، اسنحسانا لها أولا والا فان الطيف فيها ذكر
عرضا وفي بيت واحد من القصيدة ، وهذه أخرى في الطيف أيضا :

حنانيك اني قد نويت رحىلا
بعثت فؤادي شافعا فلعلني
وما كنت اختار الوداع لو انني
اقول اذا هب النسيم غديّة
سل الريح لم فاح الغداة نسيمها
ام الركب أجرى من حديثك لفظة
وللطيف اذ يسرى بشخصك كلما
ألا كيف زرت الصب في فاحم الدجى
فمصر ليالي ما أردت وصالكم

فهل تأذن لي في الوداع قليلا
أنال به فيما رغبت قبولا
أخير لكن ما وجدت سبيلا
على كبدى الحرى عليك بليلا
أجرت على مغنى الحبيب ذبولا ؟
أدار بها الحادى علي شمولا ؟
بعثت بها عند الرقاد رسولا
وقد كنت في وجه الصباح بخيلا
وان كان ليل العاشقين طويلا

وهكذا نجد الابيات ، قد تناولت الوداع تم الحزين الى الحبيب ،
وتخلصت بعد ذلك الى الطيف الذى هدفنا اليه هنا ، وكذلك نجده في هذه
القصيدة ينحى على الطيف فيقول :

الشوق يزداد اذ تدنو بك الدار
ما باختيارى نات بي الدار يا أملى
ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة
ولا نظرت الى شيء فأعجبنى

فهل على الشوق أعوان وأنصار ؟
وليس غير دنوى منك أختار
الا وفي النفس من تذكركم نار
مذ فارقت وجهك المحبوب أبصار

وان نساءت به عن الفه الدار
 كأن آناءه في الطول أعمار
 سهدا والفي أشجان وانكار
 وليس للسهد عن عيني اقصار
 منكم وطيف حبيب النفس زوار
 بكم وعندي له في ذلك اعدار
 وكيف يطرقني والنوم غرار
 آمال نفس لها في الحب آثار
 من الرقيب فتخفي منه أسرار
 كانت وتقضي أمانى وأوطار
 نمت بعرف نسيم الزهر أسحار
 وما تغنت على الاشجار أطيّار

الله يعلم أن القلب عندكم
 وأن ليلي طويل لا انتضاء له
 الفت فيك « ألوف » رعي أنجمه
 وكيف يقتصر ليلي بعد نأيكم
 ما ضر طيفكم لو زارني بدلا
 لكنه ضن لما أن رأى كلفى
 الذنب للنوم لا اللطيف يا سكتي
 سقيا لأيام وصل قد بلغت بها
 ونلت ما أشتئى فيها ولا حذرا
 وسوف ترجع أيام السرور كما
 عليك مني سلام يا « ألوف » كما
 ما حن صب إلى لقيا أحبته

وله أيضا في ذلك :

ما للحبيب لدينا
 أحب منه إلينا
 منا ومنه علينا
 وانت تعلم أيننا (1)
 يا أمطل الناس دينا

يا أيها الطيف خبر
 وأنه ليس شيء
 واقرا السلام عليه
 وقيل له غاب قلبي
 فاردد على فؤادي

ومن قوله في المنجاة وذمام الاحبة :

يوم العذيب وواصلوا الوخدا
 ومضى بحث ركبهم قصدا
 ومن العجائب مهجة تهدي
 ألف الغرام وحالف السهدا
 يحيون من أودى بهم وجدا

رحل الاحبة واستقلت عيسهم
 لها حدا الحادى بهم في سحرة
 أهديتهم نفسي ليولو نظيرة
 فسرروا وما تضا لبانة عاشق
 ما ضرهم لو أسعفوا بتحيرة

(1) وهكذا أكثر الشاعر من ذكر الطيف لدرجة انه صار يتمثله في البيضة فيخاطبه كما في هذه الابيات الاخيرة ، مع انه يتحدث عنه لا اليه كما قال الشاعر :

فتمت للطيف مرتاعا فارتقى فقلت أهى سرت أم عادى طم
 والحديث عن الطيف اسلامى كما نظن واقدم ما نعرفه منه أبيات لجعفر بن عتبة الحارثى
 من مخزومي الدولتين .

لم يبق منه بعداهم الا صدى
يا ظاعنين وبين اثناء الحشى
لا تحسبوا انى كلفت بغيركم
ما ذاك من شيم الكرام واننى
ان كان هذا الدهر حالف صرغه
وتعصبت لفراقنا أيامه
فالله يخلف ظنه ويدلنا
ويتيح للصب المشوق لقاءكم
وله هذه الابيات التقليدية :

تدحتہ انفس الهوى زندا
قد خيموا وان انتحوا نجدا
وجدا وانى خنتكم عهدا
ارعى الذمام واحفظ الودا
فينا البعاد واظهر الحقدا
وتجمعت لقتالنا جندا
وصلا وينظم شملنا عقدا
عجلا فيضحى عيشه رغدا

الا صف لي معاهد ام عمرو
بحيث الريح تعرفها اشتياقا
وبين الريح والروض انتساب
لامر ما تطابقت السجايا
ويمسى الجو مكتبا عبوسا
أطل في وصفها وخلاك ذم
وسلنى عن مهى نجد تجدني
ومن عجب الأمور اكون ليثا
والقى الجيش فى الفلوات وحدى
ولكن واحد والجيش خلفي

ودع عنك الرصافة والغميا
وحيث الروض تعرفه شميما
اذا هبت عليه ضحى نسима
كريم لم يثر الا كريمما
فيضحى الروض مبتهجا وسима
ونكرنى بها العهد القديمما
خبيرا ما أردت به عليما
لدى الهيجاء ثم اخاف ريما
فأوسعته ويوسعنى كلوما
تسلم مهجتى وغدا سليما

هذه الابيات تبدو عليها الكلفة ، وتعتمد الصنعة فى بعض أبياتها ،
كهذا التقابل فى قوله :

ويمسى الجو مكتبا عبوسا
وهو يذكرنا بقول ابن زنباع :

فيضحى الروض مبتهجا وسима

فمعجت للأزهار كيف تضاحكت بيكائها وتبشرت بقطوبها

وكانى بغرض الشاعر من هذه الابيات ، يكمن فى البيت الاخير منها .

وقد أفصح عن ذلك من قطعة أخرى بهذه الأبيات :

عجبا نراع لهجر آرام النقا وتخاف من سطواتنا أسد الشرى
لا غرو أن صرع الكمي مقرطق أن سل أبترسال جفنا أحورا
أن كئت ترهب صارما من جفنه فارهب بقامته الوشيح الأسمر

وهذا معنى قيل على لسان هرون الرشيد ، في جوار ثلاث له ،
تضمنتها أبيات ثلاثة هكذا (هي للعباس بن الاحنف) :

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيمهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

ثم تردد على هذا شعراء فيما بعد مثل سليمان بن الحكم الأموي
الخليفة وكلهم صاغ المعنى حسب مناه ، إلى أن كان الشاعر ابن حمديس
الصقلی ، حيث قال هذا البيت الذي قلده مباشرة كما نطن (1) :

فلا غرو أن لانت لظبي عريكتى أنا صائد الضرغام والظبي صائدى
ومن ذكرياته قوله :

أرقت لبرق لاح من نحو أرضهم فبت اشتياقا للحبيب أسامره
الح وميضاً فاستطرت تشوقا وأيقظ ما يسرى من البرق سامره
فذكر أيام الكئيب واذ به تلاعبنى غزلانه وجئـاذره
واذ لا نرى من لا يصدق قوله علينا ولا فينا تمثى أوامره

(1) قال سليمان :

عجبا يهاب الليث حد سبابى وأقارع الأهوال لا متهيبا
وتملكيت نفسى ثلاث كالدمى زهر الوجوه بواعث الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى من فوق أغصان على كئيبان
حاکمت فيهن الملو إلى الرمي نقضى بسلطان على سلطان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري حسنا وهذى أخت عص البان
فأبحن من ظبى الحمى وتركنى في عز ملكى كالأسير العاسى
وفى « الأنيس المطرب » أن امرأة حميلة خاطبت العلوى وهو يحاصر إحدى مدن الشام
بأبيات منها :

نقتل الأسد ثم تقتلنا البيض المصونة أوجها وخدودا
وسياتى أن المنصور السعدى قد قال أبياتا في هذا المعنى أولها :
« طرقت حصاه والأسود حوادر »

واذ شملنا في غبطة متألق
فلله ما نبهت يا برق من شج
ولله ما اذكرتني من أحبه
اثرت خلال الدجن ضوءاً كأنه
فلم ادر خفتا من فؤادي منكم
اظنك مثلي قد أطيل عتابه
ملوما على من لو تبدى لأصبحت
الا في ضمان الله من ليس راحمي
كفاني كتما للذي بي أن أرى
فالا اكن أمشي اليه وداده

عدمنا حسودا أو رقيقا نحاذره
لسهد بعينه وشوق يخامر
على أنني في كل حالي ذاكره
أسرته لفت عليها غدائره
ولم تدر جهلا ما الذي انا ساتره
وقل بما لم يبد للناس عاذره
عواذله في الحب وهي عواذره
ولا عاذري في أن تبوح سرائره
أجنبه حتى كأني هاجره
فحسبي ما تلقى اليه ضمائره

لاشك ان هذه القصيدة الجميلة الرصينة قد صيغت على نمط قصيدة
ذى الرمة :

وقفت على ريع لمية ناقتني فما زلت أبكي حوله واخطبه

وهي قصيدة طويلة نجد من أبياتها هذه :

تمشي به الثيران كل عشية
فأبديت من عيني والصدر كاتم
كما اعتاد بيت المرزيان مراربه
بمغروق نمت عليه سواكبه
وازور يمتو في بلاد عريضة
تعاوى به ذؤبانه وثعالبه

فأبياتنا بدوية ، تذكر ومض البرق لاح من أرض الحبيب ، فأرقه ذلك ،
فوصار يتذكر أيام الكتيب الذي لاعتبه غزلانه وجآذره فيه ، وأنه نعم
بغياح الواشي ، وجمع الشمل في غبطة ، وعدم رقيب ، ثم توجه بالخطاب
للبرق ، فاستعظم ما ذكره من ذكريات الحبيب ، وان كان على ذكر منه
دائما ، وأنه اثار خلال الظلام نورا ، فشابه ذلك أسرة الحبيب لفت عليها
غدائرها ، ثم تابع خطابه ، حيث قال له : اظنك مثلي قد أطيل عتابه وان
عاذره قليل منه هذا ، وهو كاتم للواعجه التي لو أفصح عنها لاصبح عاذله
عاذره ، ثم التفت الى الحبيب فقال الا في ضمان الله حبيب لا يرجمني
ولا يعذرني ، فكفى بي كتمانى للواعجى ، ونظاهرى بهجران ذاك الحبيب
الذى ان لم ابد ودادى له ، فحسبى ما تحدثه به ضمائره نحوى .

ومن هذه الاشعار البدوية الصحراوية قوله :

تف العيس نبك الدار بان قطينها	ونسأل عنها أين سار ظعينها
ديار تبكىنا فتبكي مطينا	كأن شئون الدمع متي شئونها
تساجل في سح الدموع اذا التقت	عيوني على آثارها وعيونها
وقد حلفت لا نلتقي ابدا لها	على سنة حتى تراهم جفونها
وكم من مصيف في البلاد ومربع	ولكن لأوطان النفوس حنينها
سأركب نحو الظاعنين وان نأوا	بحار فلاة والمطي سفينها
قلأص يخبطن الظلام فترتمي	بها أرض نجد سهلها وحزونها
الى خير قوم يشرعون اذا التقوا	رماح عيون ما يبيل طعينها
عيون حياة النفس بين لحاظها	وان كان في تلك اللحاظ منونها

فيكاء الديار معروف في أقدم ما روى لشعراء الجاهلية ، ثم قلد في الاسلام ، وهو يصور الحياة البدوية المنتجة ، ولكن الجديد في قطعنا هو تبكية الديار للمطية ، ومساجلة عيونها عيون صاحبها في سحح الدموع وكونها قد تقمصت طبيعة الانسان حتى في نطقه فحلفت بادراك اللقيا والرؤيا ، وكان الشاعر هنا استوحى من قوله تعالى : « قال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » فالمطي مسخرة له كما سخرت الشياطين لسليمان قبلفته مقاصده ، وبعد هذا لا نجد الا هذا البيت :

وكم من مصيف في البلاد ومربع
وتوله في الوداع :

وتائلة أين الترحل سيدي	وتترك قلبي من هواك مصدعا
مقلت لها مهلا فليست ببارك	لقولك ما أرجو به أن أرفعما
إذا ما أردت العزم لم يثن عزمتي	رخيم يسوم العزم أن يتمنما
فلو نزعنا نفسي عليها محبة	لما كنت يوما عن سبيلي لأنزعما
أبى الله الا أن أوفي عهده	وابني مجدا لا يزال مرفعما
فلما رأى الا أنثناء وأنني	عزمت بكى خوف النوى ثم رجعما
وقال رعاك الله مالي حيلة	سوى أنني أدعو لنرجع مسرعما

فلله ما أشجى حبيباً رأيته تميل مآقيه عشية ودعا
ولله ما أندى أزاراً بفضلته مسحت له يوم التفرق مدمعا

فهذه أبيات على بساطة أسلوبها ، محكمة في صنيعها ، مصورة لخلجات
ونوازع عزماته ، وهى بالفخر فى الهمم أشبه منها بوناء التوديع وقوله :

تقول ابنتي الصغرى غداة رحيلنا وادمعها كالقطر بل هي أسرع
حنائك هذا البين حتم وقوعه علينا فما ينفك منه تروع
وشدت على حضني كفى مشوطة وقالت ابي تمضي ؟ فما لى أرجع ؟
فدعني أسر أحو ركبك حيث ما تسير وأرضى كي أراك وأتسع
بنية كفى من بكائك واصبرى ولا تجزعي ان البكا ليس ينفع
فقال على اسم الله فارحل مصاحباً وسر فى أمان الله لا نبا بك مضجع

أما هذه ، فما أحرها وأشد تأثيرها فى النفس ، وتصديعها للقلوب ،
لا تضاهيها الا تلك المقدمات التى نجدها لابن دراج فى مدح العامرى

ويقول أيضاً فى الوداع :

طمت من دموعي للفراق بحور وأجج ما بين الظلوع سفير
وودعت قلبي يوم ودعت صاحبي فلله أحناء خلت وقصور
وناديت يا قلب رفقا فقتال لي حنائيك أنسى نحوهن أسير
فثق بجميل الصنع ممن علمته إذا شاء أمرا فالعسير يسير
عسى الله يقضى للمحبين أوبة فتشفى قلوب منهم وصدور
فكم من قصي الدار أمسى بحزنه فأعقبه عند الصباح سرور

وهذه تطفح فى البيتين الأولين ، بما عرف فى لغة الشعراء من مبالغة
اتباعية ، ثم يأتى الحوار بينه وبين القلب جميل ينتهى بالموعظة وقوله :

يا مزعم البين فى ترحالك الأجل وأنت لاه بحب البين مشتغل
أني لأعظم أن نمضي وتتركنى والدمع يهوى ونار الوجد تشتعل
فلا تروع فؤادا أنت ساكنه بالبين منك فانى واله خبل
لم يدر قومك ماذا فى ترحلهم من الذنوب ولو يدرون مارحلوا
سروا بزعمهم ليلا وما علموا بأنهم فى فؤادى حيثما نزلوا

لم يغن فيك اطراحي من وثقت بهم سيان ان اسعدوا في الحب او عذلوا
اذا رجعت الى دار وليس بها ذاك الحبيب لمن اشكو ومن اسل ؟
ويلتقى الحزن والداجي فيذكرني حسنين من مقلتيه الكحل والكحل

فهذه أبيات جميلة في تعبيرها ، متمكنة في تصويرها ، لولا البيت الاخير
الذي عمد الى الصنعة البديعية بتشبيهه ، ونسى لوعة صاحبه ويتصل بهذا
قوله :

ولما ثنينا للقاء ركابنا وقام على اعجازنا الشوق حاديا
طوت ما رأت من مهمة ومغارة وقطعت اليبداء هضبا وواديا
كأن لها عند اللقاء موارد تروى بلقيها نفوسا صواديا
وما كان الا ان انيخت بمورد اتيح لها بين فراحت كما هيا
لقاء وتوديع معا في اعتاقه كأن لم يكن ذاك التلاقي تلاقيا
اذا نحن اجهدنا اليكم ركابنا فكانت صروف الدهر عنكم عواديا
اخا البين ان شئت الوصال تمنه فلم يبق الا ان تراهم امانيا

وهذه كذلك قصة محبوبة بارعة ، وان سلك في تصويرها مسلك
الاعراب الرحل ، حيث توجه بنصف ابياتها الى الحديث عن الركاب
والحادى باليبداء .

وكذلك قوله في هذه الأبيات التي تأنق في بعضها :

تف بالحجيج فان ذاك الموقف واسألهم بمأهم ان يعطفوا
وانشد مؤذك ان عرفت مكانه بين القباب وما اخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غديسة وبنائها بدم القلوب مطرب
نفسى الفداء لها وان لم تبق لي قلبا يذكرني بها ويعرف
يا صاحبي كن عاذلي او عاذري بي من نوى الاحباب ما لا يوصف
لم أدر طعم الموت حتى جاءني نبأ بنرحال الاحبة يوجف
نفروا غداة منى وقد نادى بهم حاد على شرف الثنية يهتف
يانازحا حنت ركائب بينه لم يئنها منى أسى وتلهف
ليت الذين نأوا بشخصك قد ونوا وعلى جفائك ليتهم لم يوجفوا

ومن قوله في الحب :

الحب دق فلا تدري حقيقته فمن يرد فيه لا يقدر على الصدر
وجل عن أن يرى يخفى مُمكنه في القلب مثل كمن النار في الحجر
أن تقدحوا زنده تظهر شرارته أو تتركوه خفى عن أعين البشر
وهذه الابيات أجمل وأدق من تلك التي قالها الأغماتى في الموضوع ،

واقصر فيها على مفعول الحب (1) :

أغار على الصب من أنبه هو الحب من يطفه الهبه
الى آخر الابيات الستة ، وإن كان المصراع الثانى هنا أبلغ ما في
الموضوع ويقول لمن يسائل الدمن ، ناصحا اياه بالاعتلاع عن ذلك :

رفقا عليك فكم ذا تسأل الدمن وكم تجدد في مغناهم الحزنا
من ذا أجابته عن أحبابه دمن فيما دعا أو أصاغت نحوه أذنا
لو كان شخص أجابته الديار لما تبدى من الوحش والشكوى لكان انا
فلا تسائل ظلولا ما بها سكن فما تفيدك الا الهم والشجنا
فما مسائل دار غاب ساكنها الا كمستفهم عن روحه البدنا

وهذا معنى بسيط على بداعة صياغته وتسلسل حججه وافكاره
وله مجيزا هذا البيت لأحد كتابه :

ألفت بتلييت السهاد وعلمت براغيثها جنبى حسن التقلب
فقال شاعرنا :

ولا كخلاف العيس نطوى بها الفلا لتبلغنا الاوطان بعد التغرب
فنبعد من أوطاننا ما نحبه وتدني من الاوطان غير المحب
عجبت لدار ليس بيني وبينها من البعد ما يعيب مطيى وأركبي
جربنا لها حتى اذا ما تقاربست وقفنا فلم تبعد ولم تتقرب

(1) وقد ورد في « الزهرة » وصفه من قول امرأة « حل والله عن أن يحمى ، وخنى عن أن يرى ، فهو كامن كمن النار في حجرها ، أن قدحته وري ، وإن تركته تواري » وفي طوق الحباية « الحب أوله هزل وآخره حد ، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها الا بالمأناة » .

نطوف فلا ندنو كأننا حوائم جواذر همت بالوقوع بمشرب
وفي عرفات اليوم للناس مطلب وليس كحجي في الديار ومشربي
فؤادي هديى وادلجى مناسكى ودمعى جمارى والمطي محصبى

وهكذا لا نجد في هذه الاجازة ما يجمع بينها وبين البيت السابق الا
بحسن التقلب ، ثم ان فيها نفحة صوفية تشبه ما عرف به شعر ابن الفارض ،
وخصوصا في الابيات الاربعة الاخيرة ، لما فيها من غممة لا تستبين مقاصدها
ويقول في بعض صروف الدهر :

الا رب يوم قد ختمنا أخيره بأطيب مما قد فضضناه أولا
أتى مدبرا من بشره وسروره باضعاف ما قد جاء من قبل مقبلا
وتم بنحجيل على بدء غرة فكان كما شئنا أغر محجلا
ويقول في معركة زوارق :

وزوارق تحت الظلال حسبتها حلبات خيل تهتدى بمقدم
مرحت ومن رش المجاذف نفعها من كل أشهب في السباق وادهم
حملت بها الفتيان ملء عنانها حمل الكمي على الكمي المعلم
فظننت ان الحرب حرب مسالم لا حرب مضطفن ولما أعلم
حتى انثت عند الاصيل كماتها مخضوبة حلق الدروع من الدم

ومن الحق أن يقال ان هذا الوصف دون ما عرف فيه لابن هانئ
الاندلسي أو ابن حمديس الصقلي ، وخصوصا البيتين الأخيرين :

فظننت ان الحرب حرب مسالم لا حرب مضطفن ولما أعلم
حتى انثت عند الاصيل كماتها مخضوبة حلق الدروع من الدم

فهذا الاسلوب فيهما لا يختلف عن المعهود في كلام الناس عامة ، لا فضل
فيه على كلام العوام ، الا بكلماته الفصيحة المعربة

والابيات لا علاقة لها بالنسيب المعروف ، فهي تصف الزوارق ، كأنها
حلبات خيل في تدافعها وكان رش المجاذف غبارها ، قد انبعث من سناكبها ،
وقد حملت بها الكماة فتيانها فظننت أن تلك المعارك سلمية ، ولم أعلم
أنها حرب على الحقيقة ، الا بعد أن عادت أبطالها عند الاصيل ، وقد خضت
بالدماء حلقات دروعها .

وبعد فاننا نلاحظ عليه انه غالبا يرتكز على الحقيقة في تناوله لباب
النسيب في مدلولات الفاظها ، وان كان التشبيه سيخصص له باب فيما
سنرى بعد . وغزله او نسيبه لا يصل الى المستوى الذى عليه غزل القاضى
ابى حفص الاغماتى ، بل الفاظه فى عمومها ، مستعملة فى حقائها ، وغالبا
ما يكون المجاز فيها مستعارا من السابقين ، لدرجة ان اصبحت دلالاتها
عرفية ، وبذلك كان حظ نسيبه من الخيال حضا ضئيلا وقليل ما نجده يعنى
بالحسنات البديعية وهى له

نعم انه قد تستهويه بعض الصور البديعية ، ولكن ذلك يتضح نسي
الحلية اللفظية اكثر من غيرها ، مثلا نجد يقف عند كلمتى العاذل والعاذر
فيكرر ذلك فى شعره ، كأن يقول :

ياصاحبي كن عاذلي او عاذرى من نوى الاحباب ما لا يوصف
ويقول ايضا : كما سبق :

ملوما على من لو تبدى لأصبحت عواذله فى الحب وهى عواذره
كما انه يقلد بنحو قوله :

ايها الحادى بنا نحو منى خذ على نفسك كى لا تفتنا
فقد قلد — ربا — نونية لابن جبير ، وكذلك نجد فى الديوان ، قصائد قلد
بها مهيارا ، مثل

يا خليلي بذى الاثل قفا وسلا ربهم كيف عفا
ومثل هذه :

بابي والله طيف طرقا سلب النوم واهدى الارقا
ومثل :

نام من أهوى وأرقني ونفى عن مقلتي وسني
فقصيدة مهيار ، المشار اليها أولا ، كان النظر فيها الى تسعة أبيات ،
اولها :

سل طريق العيس من وادى الفضا كيف اغسقت لنا راد الضحى
الشئ غير ما جبرننا نفضوا نجدا وحلوا الابطحا (1)

والثانية مطلعها :

من عذيرى يوم شرقي الحمى من هوى جد بقلب مزحا
والاولى ، نظر اليها ايضا في القصيدة المذكورة اخيرا ، خصوصا
الابيات منها :

نظرة عادت فعادت حسرة قتل الرامي بها من جرحا
رجع العاذل عنى آيسا من فؤادى منكم أن يفلحا
لو درى — لاحملت ناجية رحله — فيمن لحاني ما لحا
وكما في الجاهلية والاسلام فقد عرفت لدى الشعراء قصائد أو مقطوعات
ينذرون فيها لنوقهم نذرا ما اذا بلغتهم مرادهم ومن هؤلاء الاخيرين ابو دهب
الجمحي ، يقول ابو الربيع :

اذا يمت نحو الاحبة ناقتي واعملت السير الحثيث وخبث
وعرست يوم النحر في ذلك الحمى ورويت من لقبا الاحبة غلتي
دعوت لها الرحمن بالخصب دائما وان تبلغ الآمال فيما احبت
واعفيتا من كل سير ورحلة واطلقتها ترعى الكلا حيث حلت
كفاء لما اولت ولست ببالغ جزاء الذى اهدت الى واسدت
مقلت لها يئاق بلغت فارتعي على رعد أو فاذهبى فتولت
وقالت كفاني قد قضيت فريضتي فنفسى الى مرأى المعاطن حنت

فهذه على العموم ابيات تقليدية ، لا حيثة للبيت الثالث في شطره
الاخير لانه يناسب الانسان أكثر من مناسبتة هذه الناقة :

دعوت لها الرحمن بالخصب دائما وان تبلغ الآمال فيما احبت

(1) انظر بقية الايات التسعة ، في تعليقنا عليها بالديوان الذى بشرناه .

وعلى العكس نجد مما هو من النسب ولم يذكر في بابه (1) ، قوله :

مقلّة من دمعها في غرق	وفؤاد من جوى في حرق
عجبا للماء والنار معاً	كيف لم يختلفا في الطرق
أى صبر لعييد قلبه	أقصده طائشات الحدق
في سبيل الله نفس صبة	بقيت منها بقايا رملق
شد ما لاقت من الوجد بمن	دونه شمس الضحى في الرونق
بدر تم اطلعت صفحته	من سناه قمرها في غسق
كيف اذ لاح لأجفانى لم	يعشها ضوء سناه المشرق
كلما أبصرته عوذته	خيفة العين برب الفلق

نتصل بعد النسب بباب من ابواب الديوان ، ظهر في ادبنا الفصيح لأول مرة (كما في علمنا) واستمر موضوعه في عاميتنا ، وهو الالغاز ، التي عرفت قديما في الأدب العربى ، واشتهر بها في العهد الاسلامى الاول الشاعر ذو الرمة .

والالغاز في عاميتنا كانت تضاهي في نشاطها ما عرفت به مصر من « الفوزرة » ، فهي تعتمد على الذكاء في اكتناه الغامض من العبارات والافصاف شأنها شأن الرياضات الفكرية التى تستدعى طويل التفكير وأناة فسى الاستنتاج يتحلى بذلك من يزاو لعة « الشطرنج » ، او اية لعبة من باقى الرياضات الفكرية . والالغاز مرتبطة بالتشبيه ، ولهذا وجدنا أحدهما بازاء الآخر في الديوان ؛ اذ كل تشبيه لم يذكر فيه المشبه بما عرف به . فهو من الالغاز كما نجد له امثلة في كتاب التشبيهات لابن الكتاني الاندلسى .

وقبل ان ندخل في بابنا مباشرة ، نود أن نطرق له بنموذج من الغاز الشاعر غيلان ذى الرمة ، يقول في بعضها من قصيدة :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبي	اباها وهيأنا لموقدها وكرا
مشهرة لا يمكن الفصل أمها	إذا نحن لم نمسك بأطرافها تسرا
أخوها أبوها والضوى لا يضرها	وساق أبيها أمها اعترقت عقرا
قد انتجت من جانب من جنوبها	عوانا ومن جنب الى جنبها بكرا

(1) بل ذكر في باب التشبيه لما فيها من صوره .

فلما بددت كفتتها وهي طفلة بطلساء لم تكمل ذراعا ولا شبرا
فقلت له ارفعها اليك واحيها بروحك واقتته لها قتتا قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن عليها الصبا واجعل يدك لها سترا
ولما تنمت تاكل الرم لم تدع ذوابل مما يجمعون ولا خضرا
فلما جرت في الجزل جريا كأنه سنى الفجر احدثنا لخالقنا شكرا

فالسقط النار التى تسقط من الزند ، الاعلى الذكر وهو المراد بأبوها
والأسفل الانثى وهو المراد بأمها فالزند هذا نمسك بأطرافه ، واخوها المقارن
أبوها والضوى النخافة ، وساق أبيها أمها ، لانها من شجرة ، وانتجت
تدحت ، والعوان القرصة المقدوحة بخلاف البكر ثم يقول :

وقرية لاجن ولا أنسية مداخله أبوابها بنيت شزرا
نزلنا بها لا نبتغى عندها القرى ولكنها كانت لمنزلنا قدرا
يريد قرية النمل وأبوابها مداخله أى مخالفة ، وبنيت شزرا على غير
استقامة فهي معوجة .

ومضروبة فى غير ذنب بريئة كسرت لأصحابى على عجل كسرا
يريد بالمضروبة الخبز ، اذا اخرجت من الملة وهو الرماد الحار ،
تضرب ليسقط عنها ذلك الرماد .

وسوداء مثل الترس نازعت صحبتى طفاطفها لم نستطع دونها صبيرا
يعنى بالسوداء الكير ، والطفاطف لحم الخاصرة

وأبيض هفاف القميص أخذته فجئت به للقوم معتبطا ضميرا
يريد بالابيض مؤاد الشاة وهفاف القميص ما فوق مؤاد الشاة من
جلد ، والاعتباط ان تذبح الدابة من غير علة ، وهو المقصود فى البيت
التالى :

وأبيض قد شققت عنه قميصه فقدمته للقوم مهتظما ضميرا
ومقرونة منها يديها برجلها حملت لأصحابى ووليتها قترا
مكنية لم يعلم الناس ما اسمها وطئنا عليها ما تقول لنا هجرا
وان ظلمت لم تنتصر من ظلامه ولم تبد نابا للقتال ولا ظفرا

والمقرونة أى القرنة ، وهى دويبة صغيرة فى ظهرها نقط ، تكنى أم حبين أو أم جنين ، وهذه الكنية ، هى المعنية بقوله مكنية لم يعلم اسمها وهكذا تستمر هذه القصيدة الواقعة فى تسعة وستين بيتا ، تاتى بالالغاز التى لا تخرج عما صادفه الشاعر فى رحلته هذه التى قصها وهى بطريقة تحوم حول عرض واحد وتدور على محور يعتمد عليه من يحاول فك السلسلة من الالغاز وقد عرف الاندلس ، من الشرق ، الالغاز فى الشعر ، كما نجد فى اقدم مصدر فى هذا ، وهو كتاب العقد ، لابن عبد ربه ، فقد تعرض له ، فى اللؤلؤة الثانية ، او اواخرها ، وهى فى الفكاهة والملح ، فنقل فى باب اللغز ، ما حكى عن لغثة أبى عطاء السندى من أن الحمادين الثلاثة ، اجتمعوا مع بكر بن مصعب ، فى مجلس بالكوفة ، وانهم استدعوا ابن عطاء ، ليجعلوه يلثغ فى الكلمات التى تحتوى تلك الحروف ، فسأله حماد الراوية :

يا ابا عطاء ، كيف علمك باللغز ؟

قال : هسن ، يريد ، حسن

فقال له :

فما صفراء تكنى أم عوف كأن سويقتيهما منجلان

فقال أبو عطا ، زراة ، يريد جرادة ...

ثم قال له حماد :

اتعرف مسجدا لبني تميم فويق الميل دون بني ابلان

قال ، هو فى بني سبتان ، يريد شيطان ..

ثم قال له حماد :

فما اسم حديدة فى الرمح تسمى دوين الصدر ليست بالسنان

قال ، زز ، يريد ، الزج

بعد هذا صار ابن عبد ربه يذكر الازا ، منها للمامون العباسى ، فى خاتم ، ثلاثة ابيات ، اولها :

وابيض أما جسمه فمدور نقى وأما رأسه فمعمار
وأخرى له في أرنب ، أولها :

لهوت بذات رأس ذى التياث كرفع الاصبعين على الثلاث
ثم ذكر له أبياتا ، تناول فيها النمل ، باسم الثور ، وموضع الردف
من الفرس ، باسم القطاة ، وبطن الحوافر ، باسم النسور ، والسيف ،
باسم العجوز ، والجلد الذى يعمل منه غمد السيف ، ببطن الكلب ، وعبرة
« صار كلبا » يريد بها ضم كلبا ، من صار يصور ، أخذا من الآية « فصرهن
النك » أى ضمهن اليك ، والصخرة ذكرها باسم الأتان ، والبكرة ، باسم
العقاب التى تطير من غير ريث ، وأخيرا ، ذكر كلكلة العقاب .

انى رأيت عجوزا بين حاجبها ونابها حبشى قائم رجل
له ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه فى رجله قزل
فى ظهره حية حمراء قانية فى ظهرها رجل فى ظهره رجل
قال : العجوز الناقة ، والحبشى الذى بين حاجبها ونابها الاسود
الحابس بالخطام .

وله ثلاثون عينا بين مرفقه وبين عاتقه مثاقيل كانت مصورة فى عضده .
وفى ظهره حية برنس فيه تصاوير بعضها داخل بعض .
وهو ما عناه بالبيت الاخير من أبياته .
وأبياتا فى القلم ، لعديدين من المحدثين ، ختم بها كتابه المذكور .

وقد لاحظنا أن المامون ارتكن فى الغازه الى مترادفات الالفاظ ، فعمى
بغير المشهور منها ، كما استغل الاشتراك فيها .
أما غيره ، فقد اعتمد على الاوصاف ، وهذا ادق وأغمض ما فى
الالفاظ

وكما هى عادة الاندلسيين فى تقليد المشاركة ، فقد شاعت الالفاظ
بينهم ، وكان منها ما يقوم على التشبيه ، الذى يحذف منه المشبه وأداة

التشبيه ، من ذلك قول ابن هذيل في المروحة :

ومصروفة في خلقتها ان صرفتها
على انها شبه المجن ودونه
لها لطف أنفاس الصباح ورقة
وقوله في المذبة :

وقائمة في يدي قائم
يميلها نفس المستقل
وتحسبها كجنح غراب
وقوله في الشمعة :

وقائمة تسبي العقول بحسنها
بكت بدموع كالجمان فأصبحت
لها جسد من خالص التبر جامد
تألف منها الضد بال ضد فاغتدت
حكي قدها في شكله كل كاعب
تدير الندامى عن صباح الكواكب
يناط الى رأس من التبر ذائب
لناظرها من مشكلات العجائب

وهذه الأخيرة ، لعلها نظر اليها شاعرنا ، عند الغازه في الصلاة
ومن الغاز الاندلسيين ، ما كان يروج بين ابن زيدون والمعتمد ابن
عباد ، كقوله :

انا ظرف للهو كل ظريف
انا كالصدر في الاحاطة بالرا
سل عن الطيبات فهى فنون
أى حسن بفى بحسنى محمو
انا مستودع لعلق شريف
ح اذ الراح كالضمير اللطيف
ألفت فى أحسن التأليف
لا بكفى وصيفة أو صيف

وكتوله :

ان لارض والسماء وللماء
هى بعض اسم من أحب ولاء
علينا أذمة لا نـنـذم
ويتكرير بعضها يستتم

ولابن زيدون طرق أخرى غريبة فيها . وقد باراه المعتمد ابن عباد في
هذه فكانت بينهما تلك الابيات المطيره .

مثل :

اظفر كما انت ظافر بكل غاو منافر

ومثل :

شعر من محض وده لك في علم طيره
فهى مهما زجرتها لسم تخبر بغيره
وسنرى لهذين البيتين صدى فيما يأتى لشاعرنا في سجماسة .
ومن مطيراتها ، قوله :

صدق لنا فال السمه تظفر علي الكلمه
وتقوله :

انت ان تغز ظافر فليطع من ينافر
وغير هذه من الابيات العديدة التى ترددت بين الشعارين العظميين
ولابستها قصائد كثيرة نظمت حولها .

وبعد فهذه نماذج من الغاز أبى الربيع ، يقول في الصلاة ، (التى
يقال فيها قد قامت الصلاة ، أى أصحابها : اقم الصلاة لدلوك الشمس)

وقائمة أبدا دهرها	وما هي والله بالقائمة
يصيح بها الناس مهما أنت	وما ان يخافون من لائم
وما هي انيس ولا هي جن	ولا هي غرثى ولا طاعم
ولا هي شخص ولا هي روح	ولا هي يقظى ولا نائم
وليس تكل لطول القيام	فخبر فديتك ما القائمة

ومن ذلك قوله في جبل درن :

يا عجباً من برك دهره	وهو عظيم الجسم ممتد
له عيون جمّة تنهمي	من غير حزن وهو مريد
وهو لعمري منصت مطرق	وأبيض الرأس ومسود
وخلقه في ذا الورى معجب	ليس له من صفه ند

ويقول فيه أيضا :

وشامخ الانف الا انه جبل لم تدر ذروته ما حافر الفرس
منع تلوح لنا بيضا نواجهه كالليث يكشر عن أنياب مفترس
نمشي ضحى وكأنا في مناكبهِ نمشي من الفزع الملتف في غلس

(وزاد أحد كتبه في هذه الأبيات فقال :

فكنت موسى وكان الطور تصعده وكانت الشمس فيه آية القبس)
والواقع أن هذه الأبيات خرجت عن معهود الالغاز ، اذ هي واضحة
في كونها تصف جبلا الا يكن جبل درن ، فغيره كجبل الشيخ مثل . (أما
آية القبس الواردة في بيت الكاتب ، فهي « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم
بشهاب قبس لعلكم يصطلون » أو « لعل آتيكم منها بقبس أو اجد على
النار هدى » .)

ويقول في سمك الشابل :

ما اسم اذا ما شئت الغازه في أحرف البيت اذا فتشا
بل يكتم الاول عنه فان اتيت بالثاني اليه وشا
ويقول في مدينة سجلماسة :

بيت حلم اتيته	اشتكي طول هجره
ارق العين من به	نائما خلف ستره
ما لقطر كتمته	اعتناء بقدره
كيف لم يدن من شج	يتغنى بذكره
اسأل الشعر علمه	هو أدرى بسره
أى أبياتك الذى	حل الفي بشطره
قال ان شئت علمه	صحف النصف تدره

وعلى هذا نصحف كلمة « بيت » سينا والحاء من « حلم » جيما
و « تيت » من اتيته سينا والهمزة منه ألفا وهاء الضمير منه كذلك هاء
التانيث فينتج من هذا الشطر : بيت حلم اتيته كلمة « سجلماسة » .
فهذه الالغاز في الامكنة المذكورة ، ندل على أنه قالها وهو بالمغرب ،

ولم تجد له الغازا في بلاد غيرها ، كالاندلس التي تقلب فيها ، مدة طويلة ولا في غيرها كبلاد الجزائر التي ولي منها بجاية ، كما تقدم .

بعد الالغاز اتى باب التشبيه وله علاقة بالاول حينما تسقط أداة التشبيه ويلوها حذف المشبه ، فكلا البابين يتصلان في غاياتهما بمجرد الشكل ، اذ التشبيه حلية من الحلى التي تكون عليها صور التعبير الفني ، ولعل اهتمام الناس آنذاك بالاندلس والمغرب ، كان منصبا على التشبيه ، الذي تفنن فيه الشعراء بالاندلس وكان فارسهم بالقرن الخامس ابن خفاجة ، وهذا الانصباب لا يستغرب منه ، فلقد كنا بالمغرب ن نصب على دراسة الاستعارة ، ونترك ما عداها من بحوث البلاغة .

وانطلاقا من هذا الشكل ، لابد ان نجد في هذا الباب ما يتداخل وباقى الابواب من الديوان ، وفعلا نجد مثلا للخمریات فيه نماذج كثيرة ، وقد سبق ان باب النسيب كان قد تضمنها مع غيرها ، بل اننا وجدنا بعض (1) النماذج قد ذكرت بهذا الباب ، وسبق انها ذكرت نفسها بباب النسيب ، مثل الابيات :

لله يوم قد تكامل أنسه	أبدت لنا وجه المسرة كاسه
خلعت كمائها الازاهر بهجة	وتلفعت بالدجن فيه شمسه
نلنا به كل المنى فلذاك ما	قد ظل يحسده عليه أمسه
فعاكف على تراب المدام فيومنا	جسم ولكن المدامة نفسه

أما باقى الخمریات الواردة في التشبيه ولم تكن واردة في النسيب ، فهي :

انظر الى دورحة التفاح مال بها	ريح الصبا فأنار الزهر والورقا
والنبت من حولها تبدو أزاهره	كأنها انجم قد فرقت فرقا
كأنها ملك طاف العفاة به	ليسألوه فألقي بينهم ورقا
فاشرب على حسننها صهباء صافية	تهدى السرور وتنفى الهم والأرقا

(1) الابيات الآتية تمتاز كذلك بالنسيب في كون الكأس تدعى وجه المسرة وان الاراهر مبتهجة تخلع كمائها ، وان الشمس قد تلفعت بالدجن وان هذا اليوم قد حسده أمسه ، وانه جسم والمدامة نفسه .

جعلنا القطعة من الخمریات ، لنداء البيت الاخير منها ودعائه السى
الشراب ، وان كانت قيلت فى دوحة تفاح ، التى اعتمد عليها هذا التشبيه
بأدى ذى بدء ، فكأن هذه الدوحة ، ما أتى بها الا لتكون مادة خامة ،
ينحت منها هذا التمثال المعجيب .

ومما لا علاقة له بالتشبيه وذكر فى بابہ ما كتب به الى ابن عم له ،
يقول :

اليوم يوم الجمعة يوم سرور ودعه
وشملنا مفترق فهل ترى أن نجمعه

يريد على مجلس الشراب ، فأجابه هذا :

اليوم يوم الجمعة وربنا قد رفعه
والشرب فيه بدعه فهل لنا أن ندعه

وما ورد فيه من خمریات قوله فى يوم أنس :

ومحل أنس لا نظير لحسنه فى روضة معدومة النظراء
جمعت به شنى الازاهر فاقتطف ورد الربيع ووردة الصهباء
من قهوة حمراء نحسب ضوءها قبسا تبدى فى دجى الظلماء
صبغت بياض الكاس اذ حلت به فكأنها خذاك عند بكاء

وقوله فيها :

قالوا الذباب وقعن فى مشروبنا حاشاه من وقع الذباب وحاشا
لم يستبح حرم العقار وانما لها أضواء لها سقطن فراشا

وقوله فى ساق :

وساق يطوف علينا ضحى وكأس الدامة فى راحته
وقد أشبهت راحه خده فحات الدامة من وجنته

أما ما هو من النسيب ولم يذكر فى بابہ فقوله :

مثلة من دمعها فى غرق وفؤاد من جوى فى حرق
عجبا للماء والنار معا كيف لم يخلنا فى الطرق

أقصدته طائشات الحسدى	أى صبر لمييد قلبه
بقيت منها بقايا رمل	فى سبيل الله نفس صبة
دونه شمس الضحى فى الرونق	شد ما لاقت من الوجد بمن
من سناه قمرا فى غسق	بدر تم اطلعت صفحته
يعشها ضوء سناه المشرق	كيف اذ لاح لأجفاني لم
خيفة المئين برب الفلق	كلما أبصرته عوذته

وقد تقدم فى النسب طرق الشاعر للوفاء الذى يتجلى به نحو أحبائه ،
فمن هذا قوله هنا :

بينى وبينك ود لا يغيره	سرف الزمان ولا يلى مدى الحقب
وان تكن غبت عن عيني مذ زمن	فان شخصك فى الاحشاء لم يغيب

كما تناول فى الباب السالف الرياض والامطار ونحوها ، ويقول هنا
فى ذلك وهو جميل بديع :

بين الرياض وبين الجو معترك	بيض من البرق او سمر من السمر
ان اوترت قوسها كف السماء رمت	نبلا من المزن فى درع من القدر
فتح الشقائق حرجاها ومغنمها	وشي الربيع وقتلاها جنى الثمر
فاعجب لحرب سجال لم تثر ضرا	نفع المحارب فيها غاية الظفر
من اجل هذا اذا هبت طلائعها	تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

هذه أبيات جميلة وأجمل ما فيها البيتان الثانى والثالث ، وان كان
القاضى عياض قد سبق الى مضمون الثالث فى البيتين المعروفين :

انظر الى الزرع وخاماته	تحكى وقد ماست امام الرياح
كثائبها تجفل مهزومة	شقائق النعمان فيها جراح

ويتصل بهذا قوله فى وردة :

خذها اليك كوجنة العذراء	من غير ما خجل وغير حياء
عطرية الانفاس يملأ عرفها	متشقق الندماء والجلساء
نثر السحاب لآلئها منه على	اوراقها لكنها من ماء
وكانما رقم الندى اوراقها	رقم الحباب غلالة الصهباء
ثم السامن فرائدا فى صحنها	فكانها خذاك غيب بكاء

فاذا استثنينا بيت التقديم ، فان هذه الصور كلها قد مضت في الرياض
والزهر الا ما كان من التشبيه اخيرا بالخد الباكي المورد . وقد تقدم في النسب
خطاب الديار والدعاء لها بالغيث والسقيا ، وهنا أيضا يقول :

امنزلنا الاسنى سقيت وعمرت معاهدك العليا بكل سرور
لكم ليلة نلنا الامانى سوافرا لديك ومنعنا بكل حبور
ولا زلت محفوظا من الخطب أهلا تفدى بأحداق لنا وصدور

كما عرج على الشيب في بعض ابياته المذكورة في النسب ، وهذه
اخرى فيه :

اقول وقد لاح المشيب بمفرقي الا اكرم به ضيفا وخلا وصاحبنا
لبشرى انت نحوى وان كنت قد مضى شبابي وما قضيت منه مآربنا

ويقول فيه أيضا :

حل وفد المشيب بالرائس مني فتبدلت من سواد بياضا
اي بشرى انت الي ولكن لم اتمم من الصبا أغراضا

وكان الاندلسيون اكثر الناس استعمالا للكتابة كخرقة تتزين بها
مبانيهم وقصورهم بصفة خاصة ، كما كانوا يتمقون بها حللهم وملابسهم ،
وقصة ولادة بنت المستكفي بالله معروفة بأشعارها التي كانت مكتوبة
على جانب من حلتها ، وهذا كله ما فعله شاعرنا ووجدناه فيما بعد مائلا
في مباني المرينيين الذين قلدوا فيها الاندلسيين ، وضمنها مدارسهم العديدة
ومساجدهم الجامعة وفي العصر السعدي بلغ أوجه فيما كتب على قبة
وابوابه وابهائه ، مما تردد صداه قويا فيما بعد وفي أيام المولى اسماعيل
وعلى قصوره بعاصمته وعلى ابواب هذه (واقتصر هؤلاء جميعا
على المباني عامة) .

أما شاعرنا سليمان ، فنجد مما كتبه (لا محالة) على دار
لهم قوله فيها وكانت بمراكش :

رعاك الله يا دار الكرام وجادك بالحيا صوب الغمام
ومتع فيه أعواما طوالا على نعم وخير مستدام
ارى مراكش الحسناء تزهى وحق لها على دار السلام

كأن الأرض شخص وهى وجهه وأنت بوجهها وضع ابنسالم
تقول لأهلها لما أتوها قدتم فادخلوها بالسالم
أقيموا آمنين بخير حال فعندى للعلا أسنى مقام

فهذه الستة الآيات ، لا تشبيه فيها الا فى الرابع منها ، وهو :

كأن الأرض شخص وهى وجهه وأنت بوجهها وضع ابنسالم
(ولا بأس به) وان لم يكن من البداعة فى سنامها ، أما كون مراكش
الحسناء تزهى ، فهذا مما تنوسيت فيه التشبيهات واقترب بابتذاله الى
حقائق المدلولات ، فصار البحث عن الاستعارة المنبثقة من التشبيه فى ذلك ،
كالبحث عن الاموات لا يشعون أيا يبعثون ويبقى بعد هذا البيتان الاخيران،
وهما مقتبسان من القرآن « ادخلوها بسالم آمنين » اى الجنة ، وما اقرب
أن يشبه بهذه .

ونحو هذا قليل فيها كثيرا ، من ذلك :

لمراكش فضل على كل بلدة فلم تر عيني مثلاً من مشابه
وما هى الا جنة قد تزخرفت ولكنها محفوفة بالمكاره
فهذا أيضا من الحديث « الجنة حفت بالمكاره » ويقول فى شخص غره
طو كلامه :

كم من شريف القول قد غرنى بقوله والفعل منه وضع
لا تصنع المعروف الا لمن رأته أهلاً لشكر الصنيع
ولم أكن اغلط فى مثله لكن دهننى ثقتى بالشفيـع

فهذا كلام مغسول مجرد من كل زينة ، تتزين بها عرائس الاشعار ،
ولا أدري أين موطن التشبيه منه ، اللهم الا أن نعود الى الخلقة الاولى
لبدلول الكلمات (وما فى مكتنا أن نشهد خلقها حتى ندعى ما يدعيه بعض
المتحكمين) عن الشقندى فى الفصوص اليانعة انه قال : اذكر انه شفع له فى
شخص مليح الكلام ، فوله واحسن اليه ، فاتى بالقبائح ، فذكر أمره وانا
حاضر ، ثم قال فيه ، فهذه اذن من وحى الساعة ويقول فى اهدائه خوخة :

ارسلت نحوك يا خليلي خوخة قد جمعت فيها الصبا والشمال
لونى ولونك اذ تطل فجاءة فأراع عن حذر عليك وتخجل

فالبيت الثانى بديع والتذكير فيه ، والبيت الاول لا يفهم على حقيقته
اذ التأنيث لائح فى قوله « اذ تطل فجاءة » فالاطلال من النوافذ ونحوها
مألوف من رباعيات الحجاب ، وقد عرفت العربية فى اشعارها بالخصوص هذا
الصنيع من اطلاق التذكير على التأنيث ، منذ ان اتصلت بالفارسية التى
لا تفرق بينهما فى الضمائر والاشارات والصفات (فكأن شعراءنا تابعوها فى
عدم التفرقة ، بل تابعوها حتى فى الغزل المذكر الذى عرف به الفرس قديما)
ويبدو ان الشاعر نظر الى ابن زيدون وقوله فى تفاح :

انتك بلون الحبيب الخجل تخالط لون المحب الوجل
ثمار تضمن ادراكها هواء احاط بها معتدل
ومما جاء فى باب التشبيه قوله فى خصة الماء (او ما يعرف فى الشرق
باسم فسقية) :

انظر اليها وقد سالت جوانبها بالماء سيلا خفيفا دبعه يكف
كانها مقلتي يوم الوداع وقد لاح الرقيب فلا تجرى ولا تقف
وكتب على لسان حلة زرقاء :

انظر فاني سماء بدر مطلع منى الجيوب
وفى مهمما نظرت معنى مبتدع زاهر عجيب
بدرى لا يعتريه نقص وانجمى ما لها غروب

والبيت الاول فيه صورة معروفة للشعراء ، كقول ابن زريق :
استودع الله فى بغداد لي تمرا بالكرخ من فلك الازرار مطلع
ومن شواهد التلخيص :

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر ازواره على القمر
فكون الوجوه الصبيحة تبرز كالاممار والبدور من فتحات الحال المزرة
مثلا ، هذا شئ مطروق جدا ، انما البداعة آتية من الانسجام بين زرقتها ،
كالسماء ، وبين مطلع البدر من جيوبها ، وهذا البدر لا يعتريه نقص
(وهذا مطروق كذلك) ، ويبدو ان نجوما كانت مصورة على هذه الحلة
ولذلك قال « وانجمى ما لها غروب » فالابيات ، على العموم ، أنيقة ، وان

لم يكن في تشبيهها بدع عظيم .

ويقول في الضرابين للنقود :

وفتية مما أداموا الضراب لا يفهم السائل فيهم جواب
كانمما وقع مناقشهم في اكلب الضرب نباح الكلاب

وهذا التشبيه في الواقع أتى به الجناس في اللفظ ، فلم نجد به ما
بين المعنيين من نسب ولهذا كان التكلف باديا عليه .

وقوله أيضا في خطاب قبة :

قبة المجد والعلا والفخار ساكنوها على المنى باختيار
تنشد الغازلين أهلا وسهلا ادخلوا آمنين أسعد دار
متعوا اللحظ من أجل رواء واهنئوا الامن في أعز جوار
كيفت أسعدى ليمناى وقتا حظ فيه قواعدى وازارى
وبنتنى المنى بيمين يمين منظرنا رائعا ويسر يسار
فاننا ان نظرت قرة عين واننا ان حلت دار قرار

فهذه أبيات لا تشبيه فيها بالمرّة ، ولا طرافة في وصفها أو في انشادها
وما نطقته به من جمالها وهناء فيها واختيار الطالع لبنائها فكان نظرها
رائعا ونعيمها مريعا ، فهي قرة العين ودار القرار ، مما تتصف به الجنة
ووارد في القرآن الكريم عنها .

ويقول في قبة بناها أخوه :

ايا قبة العلياء حل بك المجد وحل بك التوفيق واليمن والسعد
وقرت بما تهواه فيك عيوننا وانجز في لقيا أبي حفص الوعد
وحالفه فيك السرور مخيما اذا ما أتى وفد قفا اثره وفد
ولا زالت الاقدار تخدم امره على وفقه والدهر في ملكه عبد

فهذه الابيات لا شيء فيها يستحق الالتفات ، فالقبة العالية ، حل بحلول
صاحبها فيها التوفيق واليمن والسعد ، كما ظهر اليمن والاقبال في ذلك اليوم
وعيوننا تتريرة بما تهوى بانجاز اللقيا لابی حفص ، حالفه السرور وتواردت
عليه الوفود ولا زال القدر يخدم امره والدهر عبدا في ملكه ، فأين شغوف
التشبيه في هذا كله ؟

وبعد فان التشبيه عمود الشعر ، وأساسه الاول ، وكان شعاعنا وما زالوا ، يدلون بقدرتهم عليه ، وتمكنهم من ناصيته وتقدما قال غيلان ذو الرمة : اذا قلت ككأن ولم أجد لي مخرجا فقطع الله لساني .

ثم كان عبد الله بن المعتز أمير الشعراء في التشبيه ، الذي كان يعد على رأس فنون البديع ، و ألف فيها عبد الله المذكور ، تأليفه الذي يعد اول تأليف في هذا الباب .

وفي الاندلس جاء ابن خفاجة ، ليتلقى راية التشبيه باليمن ، فكان بطل الابطال في هذا الميدان ، بصفة خاصة .

ولا غرو أن يكون التشبيه بهذه الدرجة العالية في سلم الشعر العظيم ، كما قال الشاعر ، لانه يدل على خصب في الخيال المبدع ، وعلى قوة التداعى في المعانى ، واستجابتها لصاحبها عند الحاجة اليها ، وبقدر ما يسجـم الشاعر بينها ، بقدر ما يكون ماهرا في ربط بعضها ببعض ، على طريقة التخييل .

ومن المؤلفات التى ألفها الاندلسيون في التشبيه الشعرى كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس لآبى عبد الله محمد بن الكتانى الطبيب ، من رجال القرن الرابع وأوائل الخامس ، وهو كتاب طريف (1) .

(1) مقد قسم كتابه ثلاثة أجزاء جعل الاول أبوابا ، أولها في السماء والجوم والقبرين ، ثم ابلاج الصباح ، فالرياح ، فالبرق والرمد ، فالسحاب والمطر ثم الربيع والزهر ، ثم الورد خاصة ، فتغريد الطيور بالرياض ووصف الحمام ، ثم الانهار والجداول والمياه المندفعة والأجنة ، ثم القصور والبساتين والمصاريح والاشجار ، فالنواعير والارحية ، ثم المأكولات من الفواكه وغيرها ، ثم الشراب واوصاف الخمور ، تتوفا صفات الكؤوس والاتداح ، ثم السعاة والندامى فالقيان والمغنين ، فادوات الطرب من عود وطنبور وغيرها ثم وصف الشعر نفسه .

وبعد هذا يأتى الجزء الثانى من الكتاب اول بابيه في الحسن ، فوصف الشعر ، بالسواد والشقرة ، ثم ما يخص أصداف القيان وعذار الغلمان ، فاشراق الوجه والخدود والخيال ، ثم فتور العيون وغنجها ، ثم النفور وطيب رضاها ، فالنهود فالقدود ومشى العذارى والفوا من النساء ، ثم الحديث ، فالخصور والاردام ، فالعناق والوداع ، يتلو ذلك البكاء ، فخلق الأمثلة والطلوب ثم طول الليل والنهار ورعى النجوم ، ثم الطيف والخيال ، فالنحول والهزل ، ثم النيران ، فالشتاء والصقيع ، فقطع المغاوز وصفات الأبل التسى يمتطيها المسامر كذلك ، ثم الشراب ، ثم البحر والسفن ، ثم القنص والطرود ، ثم الحيات والهوام ، ثم الحيلول ، فالسيوف فالرماح ، فالقسى والنبال ، فالدرود والبيض ، فالجفاف والراياب والطبول ، ثم وصف الحروب والطعان والمعارك والفتوح والجيوش ثم الرؤوس والملبوسين ، ثم الخوف والهلع والمهابة .

وبالجزء الثالث وصف الدواة والظم والمحيطة ، فالسكين والجلم ، ثم المذبة والروحة ، فالجود والكرم ، فالبخل ، ثم الخوان والاكلة والطينيين ، وهجو النساء والمنفيات ، ثم التقلد والكاذبين والمنافقين .

بعد باب التشبيه بديوان أبي الربيع ، باب العتاب والاعتذار
والشكوى ، وهو عبارة عن مقطوعات ، تنراوح بين بيتين وثمانية الى
جانب قصيدتين أطولهما تسعة وعشرون بيتا ، وأقصرهما أحد عشر بيتا ،
يقول في الاولى :

عيل صبرى لهموم لا تطاق	شردت نومهما عني المآق
وجدت صبرى خلوا واسعا	فأصارتها لها مأوى فضا
فقدنا انسى عنى نافرنا	مستحشا برحيل وانطلاق
زندها أورى بقلبي شررا	صدعته بالتهاب واحتراق
أضرمته زفريات صعدت	بذما نفسى الى حد التراق
فهو لا ينفك منها في عنا	مثل عان حل في أسر الوثاق
أتمنى أن أرى لي حاجة	معها وهى تبارى في السباق
أو ترى عيناى شيئا ترتضى	بوفائى أو على غير وفاق
لينها اذ نخذتنى غرضا	حات قلبي منها ما أطاق
عجبا كيف بقائى معها	وانا بين نزاع وسباق
كلما رمت أسلى النفس عن	ما دهاها انطبقت أى انطباق
وأبت الانفارا دائما	أو هلاكا بانفطار وانشقاق
ليس من عشق ولا من سقم	أشكر الله ولا فرط اشتياق
مقسما ان لا يني في طلبى	كل مطلوب ففى حكم اللحاق
أنا ان قاومته جرعننى	غصص الموت كربها المذاق
وشدا مستهزئا ينشدنى	« من لنا بعد انفراق بتلاق »
وانبرى مستأنفا عادته	من مجيرى منه قد ضاق الخناق
لا لجرم والذى أسأله	فرجا مما اقماسى والاق
فاليه المشتكى من جوره	وبه منه اعتصامى واعنلاق
وبمولانا الامام المرتضى	فاتح كل انسداد وانفلاق
ومجلي كل خطب فادح	بالعتاق الصفر والبيض العتاق
فهو يعدينى عليه وكفى	بأمير المومنين منه واق
فأتضى الدهر ما أقرضنى	واذيق الدهر ما كان اذاق
واجازيه جزاء حسنا	واريه ما ارانى من مشاق
ويكون الشكر منى ديدنا	ما دعت ورق على غصن وساق

كيف لا أفعل هذا وأنا صادق حبي ما فيه اختلاق
ومدحى فيه قد يعرفه من ببغداد ومصر والعراق
نال مما يشتهى آماله ووقته خيفة العين الأواق (1)

وقد حاول الشاعر أن يتجلى فيها ببعض المحسنات البديعة ، لكنها
بدت فاترة باهتة غير رائقة للذوق الفني ، مثل قوله :

فهو لا ينفك منها في عنا مثل عان حل في أسر الوثاق
وقوله :

أو أنا أرضيته أو رضته عله يرضى تمادى في الشقاق
وقوله :

ومجلى كل خطب فادح بالعناق الصفر والبيض العتاق

واخيرا يأتى البيان ، اللذان يحمل أولهما غرابة في عطف العراق على
بغداد ، ولا تجيز هذا الصنيع إلا القواعد الجافة ، التى تقول بعطف العام
على الخاص ، ويحمل آخرهما معنى عاميا مبتذلا ، وكأنه انصت الى بيت
عرفه من شواهد النحو فى النداء ، وفيه « يا عديا لقد وقتك الاواقى »

أما القصيدة الأخرى ففيها نفحة من الشعر ، وحرارة من العاطفة
المشوبة ، وإن لم تكن متقدمة ملتبهة ، وهى :

كلوم فى الحشى بهدى الزمان	وقد ترم الأوانى والمغانى
وقد كان المجن تجاه وجهى	ولكن حاد عن طرق الطعان
إذا كان المحارب لى زمانى	فما يغنى مجنى أو سنانى
ومن أى الجهات أظن سلما	إذا حوربت من جهة الأمان
فيا مستفهما عن كنه حالى	كفائى ما أشرت به كفائى
إذا ما شئت تسلىنى فزرنى	فقد فهم الشكاية من رآنى
وإن كنت الخبير بها ولكن	لسان الحال أفصح من لسانى
فيا زمن التغافل والتفاضى	ويا عهد التواصل والتدانى
بعدت فصار واصلك لى حديثا	يحدثه فلان عن فلان
تغالطنى الحوادث فىك حتى	أشك وإن رأيتك فى العيان

(1) هذه القصيدة وجهت الى يعقوب المنصور ضمن ما وجهه اليه من اشعار .

وهكذا نرى ان أجمل ما في القصيدة هو البيت الأخير منها ، وأن اكهم ما فيها هو البيت الأول منها ، وما عدا هذين فهتفاوت في الحسن ، وإن كان البيتان :

فيازمن التغافل والتغاضي ويأعهد التواصل والتداني
بعدت فصار وصلك لي حديثا يحدثه فلان عن فلان

يثقل أولهما بالترادف في التغافل والتغاضي والتواصل والداني ، ويتزمت الثانية برواية الحديث عن فلان وفلان .

على أن التكرار عند الشعراء والكتاب ، لا يعد من مساوى فنهم ، فالتزيين بهذا مطلوب لهم ، خصوصا ان كان في احدى الكلمتين فضل ما ، يتحقق في المعنى أو في مجرد اللفظ ، اذ الموسيقى الصوتية في فن الادب لا تغفل أهميتها عند الادباء ولهذا نغبط حقهم ، اذا ما اخذناهم اخذ عزيز مقتدر بهذا التكرار ، وهم يقصدون به التجميل والاحسان .

فالشاعر يئن من آلام هذه الجروح التى اصيب بها من شفار الزمان ، وحطم له كل ما لديه ، فتعرض لكل رام ، وقد تجرد من كل واق ، وما يغنى المجن والدهر هو الذى يقصده بسهامه ، وأين يجد له الامان ، اذا كان محاربه من يحيره ، فيامستفهما عن الحال ، كفاك ما اشرت به ، فان شئت ان تدرك ما انا عليه ، فزرنى تفهم شكاتى ، فانك لو كنت خبيرا بالامور ، لكن حالتى تجعلك تدرك الحقائق أكثر وأعمق ، لقد تمنيت السلامة غير دار بأن الضر قد يكمن في بعض ما يتمنى الانسان ، فيازمن التغافل عنا ، لقد ابتعدت عنا كثيرا ، فصرت مجرد حديث يتنقل من هذا الى آخر ، وتنمرت لنا فلم تغض عنا لحظة ، وأصبحت الحوادث تترى ، نغالطنى في حقيقتك الاولى ، فكأنها كانت حلما من الاحلام .

والى جانب التصيدتين فهناك قطع تتفاوت في عدد ابيانها وفي قيمها الفنية ، منها :

عذيرى من دهر الح كأنما علي له دين وحن اقتضاؤه
فياليت شمري ساقط لا لمة أينفع أو يجدى لدبه ارنضاؤه
وما الناس الا السيف صين بغمده ليحمد في يوم النزال مضائه

يريد في هذه ان يتنفس الصعداء ، ولكنه ينفث نفثته المصدورة ، من هذا الدهر الذى لا يفتأ يصيبه بشتي المصائب ، كأنه يطالبه بدين له عليه طال المطال فيه ، فهو يستحثه ويقتضيه ، فما يدرى كيف يتخلص منه ، وهو الذى خانته حظه ووقع من حالى ، لا لعة تسبب بها ، ولا لجريرة أوجبت عليه تحمل احنها ، فلهذا هو يائس من النجاة ، ومن أن يرضى عنه الزمان ، بعد ما حاول ارتضاه فلم يجده ذلك شيئا ولم يعنه ، على تحصيلها باد في بيتها الأخير أنه توجه بها الى المنصور معتذرا بمكانة القربى التى تستجيب لأصحابها عند المكاره وكذلك نجده يسنعطف - أيضا - يعقوب المنصور ، بعد الحنة التى تعرضت فيها بجاية للسقوط في يد ابن غانية ، وكان الشاعر عاملها فيقول :

يا كعبة الفضل التى حجت لها	غز الشام وتركها والديلم
طوبى لمن أضحى يطوف بها غدا	ويحل بالبيت العتيق ويحرم
ومن المعائب أن يفوز بحجة	من بالشام ومن بمكة يحرم
حاشا أمير المومنين فائته	أحنى على رحم دعته وأرحم
اليوم تغفر للجناة ذنوبها	فمعى أكون بفضل عفوك منهم
هبنى جنيت اليس تعلم أنه	نحن الآلى نجنى وانت المنعم
والفضل يظهر بالنقيض لحاكم	بينى وبينك اذ نسيء فتعلم
من ابن يعرف قدر اغضاء الفتى	لولا المسىء له ولولا المجرم

فهو يناديه ، ويشيد بمكانته ، التى جعلت الشام يتجه اليه ، بغزه وتركه وديلمه ، وكان ذلك واقعا في تلك الجماعات التى حجت اليه وفيها ابن حموية السرخسى ، الذى لازم المنصور ، وحضر معه موقعة الأرك الشهيرة ، وكتب عنه وعن رجاله ، مذكرة ، يعتبر ما حفظ منها سجلا هاما عن المنصور ، وأيام من عهد ابنه الناصر ، والشاعر ، وهو يئن تحت وطأة تلك الجفوة ، يذكر المنصور ، بما يسخو به نحو هؤلاء الغرباء الذين حجوا اليه ، فهو يمكنهم من التمتع بحضرته ، فهم يطوفون به بالبيت العتيق ويحرمون ، شأن الحجاج يطوفون حول الكعبة فيكونون محرمين ثم محلين . أما هو فقد أتقى عنه ، على قربيه منه . فياللعجب ، أن يفوز من أتى من الشام بحجه ، ويحرم من بمكة مقيما من ذلك الحج ، فيطوف البعيد منها بكعبتها ، ويحل ويحرم ببيت عتيقها ،

ان امير المؤمنين لن يحرقني من عطفه ، وانا ابن عمه ، فهو اخي ،
على رحمه وأرحم لهم ، واليوم ، تغفر فيه ذنوب المذنبين ، فعسى
ان اكون ممن تشملهم هذه المغفرة ، فهبني جنيت ، فأنت الذي تعودنا منه
الانعام ، على جنايتنا ، فلولا الاساءة ما كانت المغفرة ففضل الانسان بمواقفه
من الحلم ، تجاه المسيئين اليه ، وبهذا النقيض يكون الحكم بيني وبينك ، أسىء
فتحلم ..

ويقول أيضا في استعطافه :

رضاك امير المؤمنين فانني	أعالج بين العذر والذنب مشكلا
أبرئ نفسي ان علمت خلوصها	واعتبها أن لم تفز بك أولا
الا في ضمان الله نفسي من الردى	اذا كنت لي في زلنى متأولا
وفي حفظه من كل سوء أخافه	اذا كنت لي حرزا حريزا ومؤثلا
ومن جاء في اخلاصه مترضيا	فقد جاء من تقصيره متصلا

ففي هذه أيضا يبته شجواه ، وأنه في دوامة العذر والذنب وأنه يرى
نفسه حيث يعلم خلوصها ، ويعاتبها لأنه مجفو مقصى عنه ، ولا ضمان له
ولا امان ، الا اذا التمس له المنصور عذرا ، وتأول ما وقع فيه ، فحمله
محملا حسنا ، فانه ان كان حافظا لزمته راعيا جانبه ، فقد آمن من كل ما
يخشى ، ومن قصده يطلب رضاه ، فقد بان تنصله من كل ما يرمى به من
سوء ، وكل ما اتهم به من تقصير .

وكذلك يقول في هذا الغرض :

أمير المؤمنين نداء عبيد	رجا عتباك في الزمن القريب
فسخطك قد أذاب النفس سقما	وما لي غير عفوك من طبيب
فلا تقطع رجائي وأعف عني	فدتك النفس من كل الخطوب
وهب عظمت ذنوبي ما أرادت	اليس رضاك أعظم من ذنوبي
اذا كان الظهور حسيب غبري	فان رضاك عني هو حسيبي (1)
فما نقص الكرامة منك عيب	اذا وفرت بالعتبي نصيبي

(1) انظر ما وقع في هذه الحادثة للسامر ، الجزء الثالث من البيان المعرب ، ص 146 — 149
محقق « هويدى مبردا » ومساهمة ابراهيم الكتانى ، ومحمد بن ناوي ، العبد الفقير

وهذه لا تختلف عن سابقتها ، في الشكوى من الجفاء والسخط الذى أضناه ، فهو يرجو العفو ، وان عظمت زلته فعفوه أعظم ، وحسبه رضا وحده وله غير هذه أبيات ، يصح أن نعدّها حكما مجردة مثل قوله :

عشرات اللسان بالمرء تودى ان يرى رأسه سقيط الحسام
ويرى بارئنا وان هو يوما عثرت رجله بصم الرجام

وأخيرا يأتى الباب السابع فى الديوان ، وهو باب الزهد ، الذى يمثل نهاية المطاف فى حياة الامير أبى الربيع ، الذى كان ، كما صورته تمام التصوير باب النسيب ، ولهذا نجد فى البيان المغرب ، فقرة لأشك أن كاتبها كان معاصرا له ، فيها دعاء من هذا الكاتب لشاعرنا بأصلحه الله وعفا عنه ، فمن قصائده الزهدية ، هذه الدالية :

لن القراش وعين الله ترصده	ياراقدا ملء عينيه يهدئه
ياراقدا ليله ما كنت ترتده	لو كنت تعلم فوز الغانمين غدا
وانت تجهل ما يأتى به غده	وكيف ترتد لبلا أو تلذ به
فليس شئ سوى التقوى تمهده	مهد لجنبك فى التقوى بخشينه
فاجن لنفسك منيا ما تزوده	اليس ترحل عن حال وسركها
وزارع الخير فى الدنيا سيحصده	فسوف تجزى بما قدمت من عمل
شوك القتاد ولكن لا يسهده	يارب راقد نوم حشو مضجعه
مع الصباح ويوم الحشر موعده	أغفى على غبر وعد من منبهه
مبيض الوجه فيه أو مسوده	يوم الندامة لو بغنى ندامته
يقيمه هول ما يلتقى ويقعده	والمرء من كثرة التسأل مشنغل
ياليته كان ذاك اليوم مولده	حتى يقول طويل العمر وافرّه
فالיום أقصر عمر المرء أحصده	قد كان احمد عمر المرء أطولّه

وهكذا فانه فيها يوقظ ذلك النائم ملء جفنيه فى فراشه الوثير ، لا يبالى بما يرتكب من المعاصى ، وعين الله تراه وترصده ، وهو لا يرعوى فلو كان يعلم فوز الفائزين بالطاعات ، يوم المغنم الاكبر ، لما كان يستنيم الى ملذانه ، ويخلد الى مرقدّه ، يقضى به طول ليله وكيف يرقد ليله ، ويلذ له نومه اليوم ، وهو يجهل ما يأتى به الغد ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

اني ناصح لهذا الغافل ، فليمهد لنفسه المسكنة ، بما ينجيها ، من عذاب القيامة ، فلا يحد عن تقوى الله وخشيته ، والعمل على مرضاته ، فليس ما يمهّد به الانسان لنفسه، الا التقوى، والا فانه سيرحل عن هذه الدار وهو ينوء بالاوزار ، فليجنن لنفسه ما يزودها به من اعمال الابرار ، فكل سيجزى بما قدمت يداه ، وزارع الحسنات لابد ان يحدها مع الاخيار .

رب راقد على سريره والشوك ملء حشيته ، يشك جنبه ولكنه لا يحس بذلك ، ولا يسهده ألمه ، فقد أغفى على غير موعد من منبهه مع الصباح ، ولكن الموعد يوم يحشر الناس عراة حفاة ، يوم الندامة لو تغنى الندامة ، ويوم ينال كل انسان جزاء ما قدم في هذه الدنيا ، من خير أو شر ، ويوم يكون الانسان منهمكا في تسأله ، مشتغلا بالاجابة عن نفسه ، فياهول ما يلقي في موقفه ، حتى يتمنى طويل العمر في الدنيا واقر النعيم فيها ، ان لو كان مولده ذلك اليوم الذى كان فيه ترابا .

لقد كان أحمد الاعمار في الدنيا ، أطولها ، أما اليوم ، فأحدها أقصرها

وهكذا يأتي هذا البيت الأخير ليؤكد معنى البيت سابقه ، وهو صنيع للشاعر ، سقنا أمثلة منه ، فيما سلف ذكره .

ونحو هذه القصيدة قطعة أخرى يقول فيها :

يا غافلا عن ذكر مولاه	وذا هلا عن شكر نعماه
ورائعما في غيبه لا هبنا	قد كحلت بالنوم عيناه
يا عجباً تكثر مصيائه	وتدعى أنك تخشاه
فعد عن ذكر الصبا جائبها	وارج الذى تأمل رحماه
فى يوم لا قوة الا به	ويوم لا راحم الا هو
رب اذا ما شئت أن تهتدى	لقدره فاقرا « هو الله »

فهذه قطعة عليها مسحة المنصوفة ، فى وزنها ومغزاها ، يبتدئها بخطاب الغافلين وتنبههم من ذهولهم ، عن شكر نعم الله الوافرة فهم رائعون فى غيهم ، لا هون عن ذكر ربهم ، قد كحلت جفونهم بالنوم العميق ، واصطحبوا الغفلة عن الله ، الذى يرعاهم برعايته .

ومن هذا يخاطب نفسه :

يا نفس حسبك ما فرطت فازدجري	عن الذنوب فان القبر مثواك
خافى الاله لما قدمت من زلل	واعصى هواك فان الله برعاك
ان الهوى قلما تجدى هواته	وهو الذى عن سبيل الرشداقصاك
لشدهما تعلمين الفرق بينهما	ما كان احراك بالأجدى واولاك
الى م تلهين عن تولى مغالطة	وتوقنين بأنى غير اناك ؟
أصفى الى فما فى الارض من أحد	القي اليه صريح النصح الاك
توبى الى الله ان الله يقبلها	واسعى بجهدك فى تحسين عتباك

يخاطب نفسه ، وينصحتها بأن تكف عما فرط منها ، فتزدجر عن ارتكاب الذنوب ، ولتذكر القبر الذى ينتظرها ، فيكون مثواها الأخير ولتخش الله ، فيما قدمت من ذنوب ، ولتعص الهوى الذى يعمى الابصار ، فان الله ، لا تخفى عليه خافية ، فهو يرعاها ويرقب أعمالها ان هوى الانسان لا يجديه فى شئ ، بل هو الذى يقضى صاحبه عن سبيل الهدى والرشاد ، ولشدهما يدرك الانسان الفرق بين هواه ورشده ، فما أحراه وأولاه باتباع ما يجديه .

فالى متى تبقين لاهية غافلة عن نصحي ، لا تدركين انى أصدتك النصيحة ، لا اكذبك فيها فأصفى الى ، فانه ما فى الارض أحد اخلص فى ارشاده واصلته تولى وأمحضه نصحي غيرك .

فتوبى الى الله توبة نصوحا ، فان الله يقبل توبتك ، واسعى بجهدك فى تحسين عتباك وكذلك يخاطبها بقوله :

ستعلم نفس قد قضى الله نجبها	بأية ما كانت تجاهر ربها
وما المرء الا نائم طول دهره	اذا ما انقضى عمر الحياة تنبها
أعاتب نفسى طامعا فى ارتجاعها	ولو كنت ذا بأس لخلت عتبا
ولكننى أرجو لها من فضله	الى العمل الأرضى يقلب قلبها

وهى آيات عليها طابع أبى العتاهية ، الا ما كان من البيت الأخير منها ، فانه فيه يجمل ظنه فى ربه ، ويجعل قلبه فى يده ناظرا الى الحديث « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »

وهذه قطعة أخرى يقول فيها :

عائبت نفسى ولو كانت موفقة	لكان لى ولها من نفسها حكم
الست عالمة يا نفس موقنة	أن الحياة وان طالت بنا حلم
نأتى من الذنب قدرا ليس نجهله	عض الانامل فى عقباه والندم
لم يكف انا من الدنيا على خطر	والعمر ينفد والأيام تنصرم
حتى غررت بآمال مزخرفة	وجودها ان نرم تحصيله عدم
هلا أقمتم على حال تكون بها	كالفائزين ومن لى أن اكونهم
وان قوما أعانتهم ذنوبهم	على السلامة فى الدنيا لقد سلموا
فقالن النفس لما عوتبت عجباً	تالله ما سلموا منى ولا عصموا
فاسترحم الله ان القوم كلهم	كانوا بحالتنا لكنهم رحموا

فهو هنا يعقد حواراً بينه وبين نفسه ، ويتحدث عنها بأنه عائبها ، فلم تأبه له ، ولو رشدت لكان لها وله حكم عليها لقد قال لها فى عتبها ، الست يانفس عالمة موقنة ، بأن الحياة ستنتهى ، وأنها وان طالت حلم من الاحلام ، لا حقيقة لها اننا نرتكب من الذنوب ، ما لا جهل لنا فى ارتكابه من معصية ، واننا ستنالنا به ندامة وأية ندامة ، نعص الانامل من اجلها الم يكفك اننا على خطر من الدنيا الفانية ، وأن العمر فيها ينفد وشيكا ، والأيام تنصرم انصراما هائلا كلا ، انه ما كفك ذاك ، حتى صرت تغترين بالآمال الخادعة المزخرفة ، وهى لا وجود لها من الواقع ، فوجودها ان حقت فى تحصيله عدمها ، فالفناء هو الحقيقة الماثلة ، ولا وجود للبقاء ، فهو ظل زائل ، وسراب ناكل فهلا اكون قد سلكت طريق النجاح ، وأقمت على حال الرضى والفلاح ، فأصبح بذلك من الفائزين ، ومن لى أن اكونهم ؟

لقد أذنبت كثيرا ، وليتنى كنت من أولئك القوم الذين انتهوا الى رشدهم وأقلعوا عن ذنوبهم ، التى أعانتهم على السلامة فى الدنيا ، فسلموا من خطر ما كان سيصيبهم فى الآخرة .

هنا قالت له النفس ، وقد طال عنابه لها : عجباً منك ، تقول ، انهم قد سلموا ، فوالله ما سلموا من تلك الأخطار ، ولا عصموا من أمر الله ، فاطلب الرحمة منه ، فالقوم كلهم كانوا مثلنا بحالتنا ، لكنهم استرحموا فرحموا .

ويلاحظ عليه ، انه تكلم عن النفس فجعل لها نفسا في البيت الاول :

عائبت نفسي ولو كانت موفقة لكان لي ولها من نفسها حكم

ذلكم ان كلمة النفس في الشطرة الثانية ، ما هي الا ضمير ، يدعى ضمير النفس ، يقوم مقام الضمير تماما وهو مضاف اليه ، حينها يتحد في الفاعلية والمفعولية او نحوها ، مما له نعلق بالفعل ، كما نجد ذلك في قوله تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » فنفسها هذه ليست بمعنى النفس ، بل هي تقوم مقام الضمير الذى اضيفت اليه .

فهذا الاسلوب في الزهديات هو الذى عرفناه في الشرق منذ اربعة قرون خلت في شعر أبى العتاهية الزاهد الذى — كما هو معلوم — كان لا يتكلف في صياغته ويختار له هذه الاوزان الخفيفة ، وقد ذكرنا فيما سبق نموذجا آخر من هذا القبيل — فيما عرضنا — للقاضى أبى حفص السلمى ، وهناك اديب آخر من هؤلاء الذين عاشوا في اواخر القرن السادس واولائل السابع — وكان في ركاب الدولة — هذا الاديب هو ابن خبازة الفاسى المعروف بميمون الخطابى وسننكلم عنه فيما بعد حين التعرض له .

اما نثر سليمان الموحد فنلتهمسه فيما حفظ له من توقيعات واجابات قليلة نجدها بالغصون اليائنة وغيرها . وهى لاتنم عن نثر فائق له . ولو اطلعنا على اختصاره للآغانى لكانت مقدمته ضمن نماذجه النثرية .

وبعد ما تعرضنا لآدباء كانوا ضمن شعراء الدولة الموحدية ، في عهدها الاولى ، نتعرض لأدبيين عظميين ، كانا على رأس كتابها في عهدها الاول كذلك نعني به عهد الخليفة الاول ، عبد المومن بن علي .

لقد عمل هذان الأديبان ، للدولة المرابطية ، كاتبين ، كما كان ابن حبوس شاعرها ، وكما كان أبوهما من كتابها أو على رأسهم بعد علي بن يوسف ، وهما يختلفان عن ابن حبوس من حيث نسبهما الذى يرجع الى أصل اندلسى ، وكان ابن حبوس ينتمى الى أصل بربرى .

هذان الأديبان ، هما أبو جعفر ابن عطية وأخوه أبو عقيل ابن عطية ، مؤسسا الترسل السلطانى ، لهذه الدولة ، بل حتى لما بعدها من الدول المتعاقبة على هذه البلاد ، وهى في أوج عظمتها وشامخ سيادتها .

لقد اتصل ابوجعفر بهذه الدولة ، وهى لما تزل توطد لصرحها ،
وتعمل على تمكين قواعدها ، وترسيخ دعائمها فى الداخل فنال الحظوة
العظيمة لدى الخليفة الاول ، وعد اول وزيرها بالمعنى الصحيح ، فألقيت
اليه مقاليد الدولة ، فكان وزير قلمها بلا منازع كما كان مستشارها فى تسيير
أمرها المدنية ، وتحريك دواليبها الادارية ، وهو فى العقد الرابع من عمره ،
وانضم اليه أخوه ، وهو حديث السن لما يسلم عقدده الثانى من عمره القصير
ولسوء الحظ لم تطل خدمة هذين الكاتبين الخطيرين فى هذه الدولة ،
التي أطاحت رؤسهما ، فى غير ما شفقة أو رحمة أو رافة ، ومع هذا فقد
خلفا عدة رسائل سلطانية ، كانت كما قلنا النموذج المثالى الذى احتذاه
من بعدهما ، مما جعل عبد المومن يأسف بمرارة وحسرة ، لما فرط منه ، نحوهما ،
وخصوصا أبا جعفر الذى ذهبت الكتابة بذهابه ، كما يقول هذا الخليفة
القاسى وقومه الغلاظ الاكباد .

حقيقة ان السياسة لا ترحم ، ومن واجبيا ان لا ترحم ، اذا كانت
مصلحة البلاد تتعرض للاختلال بهذه الرحمة ، ولكن درء المفسد وجلب
المصالح ، فى بعض الأحيان ، كان تحقيقهما ، بأقل مما وقع لابی جعفر
وأخيه أبى عقيل ، الذى أخذ بذنب الاخ الاكبر ، ولم يكن له دخل فيه ، أو
يذكر له دخل فى ذلك .

ونحن هنا لانقف موقف المحامين عند الدفاع ، فلنترك التحقيق لرجال
من المؤرخين ، ولنلتمس فقط ما كان له صداه الأدبى فى هذه المحنة أولا ،
وفى تسيير شؤون الدولة ثانيا ،،،

لقد استعطف أبو جعفر ، هذا الخليفة الصارم ، برسائل تضمنت
الشعر الى جانب النثر ، فكان منها قوله :

تالله لو أحاطت بى كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخبرات بطيئة ،
حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت ان الله تعالى
لم يوح ، فى الفلك لنوح ، وبربت لقدار ثمود نبلا ، وأبرمت لحطب نار
الخليل جبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على
الطين ، وثبضت ثبضة من أثر الرسول فنبذها ، وأغفريت على العذراء
البتول فقذفتها ، وكتب صحيفة القطيعة بدار الندوة ، وظهرت الاحزاب

بالتصوى من العدو ، وذهمت كل قرشى ، وأكرمت لأجل وحشى كل حبشى ،
وثلث أن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام
المغيرة بن شعبه ، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبه ، وقتلت
تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر ،
وغادرت الوجه من الهامة خضيبا ، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا ، ثم
اثبت حضرة الإمام المعلوم لائذا ، لقد آن لمقاتلى أن تسمع ، وتغفر لى
هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى متترف ، وبالذنب معترف .

فعفوا أسير المؤمنين فمن لنا يرد قلوب هدها الخفتان
والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

هذه الرسالة من حيث الصياغة والشكل ، تنظر الى رسالة للجاحظ
وجهها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات ، يقول فيها :

والله لو كنت ابتلعت مزار بابك ، وأبطلت نهر الباطل ، ووردت
الفظائع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كل
شطرنجى لك ، ورفعمت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت المروج كلها حمى (1)
وكننت صدق المرادين ، وبرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى
صورة أبى رملة ، ورددت شطاط خلقك الى جعودة أبى حثة ، وكننت أول من
سن بيع الرجال فى النخاسين ، وفتح باب الظلم لأصحاب المظالم ، وحولت
اليك عقل أبى دينار ، وطبعت على بيان مانويه ، وأعنت على موت المعتصم ،
وغضبت لمصرع الأفشين ، واستجبت للديك الأبيض الأفرق ، وأجبت
صالح بن حنين ، وأحوجتك الى حاتم الريش ، وكان أبو الشماخ صديقى ،
والفارسي فى شيعنى ، لكان ما تركبنى به سرفا ، ولكننى فى هذا العتاب
متعديا .

فالجاحظ فى هذا يورى بشخصيات معاصرة ، بعضها معروف ،
كالأفشين وبابك وصالح بن حنين وحاتم الريش ، وبعضها غير معروف لنا
كما يورى بأعراف معاصرة كذلك ، مثل تبرك العامة لعهد الديك الأبيض

(1) من « رسالة فى الجد والهرل » ومنها اقتبس ابن زيدون كذلك . وقد وردت فيها بعض
كلمات غامضة مثل « نهر الباطل » هكذا وبلا نقط و « صدق المرادين » وفى نسخة
« جدام المردان » كما ذكر عبد السلام هرون .

الا فرق ، ولعل هذا انتقل اليها فيما ينتهي من الديوك لذبحها قربانا على الزوايا المنتمية الى مولاي عبد القادر الجيلاني دفن في بغداد ، فالغالب أن ذلك أتى اليها من العراق ،،

وليس فيها من الشخصيات التاريخية بالنسبة الى الجاحظ الا شخصية « مانويه » المتنبى الفارسي في القرن الثالث للميلاد . اما رسالة أبي جعفر فهي مليئة بالتوريات التاريخية ، والتقصية القرآنية وغيرها من آدم الى قدار ثمود ، عاقر الناقة ، الى نار ابراهيم ، التي جعلت بردا وسلاما عليه ، ثم شجرة اليقطين ، التي نبتت على يونس ، بعد أن نجاه الله من غم الحوت الذي التقمه ، ثم ايقاد هاملان على الطين ، وما لابس ذلك من أثر الرسول موسى فنبذها ، ثم افتراء بني اسرائيل على مريم ، الى ان انتهى الى المرحلة التاريخية المعروفة ، منذ البعثة المحمدية ، فصحيفة القطيعة التي سطرها كفار قريش ضد النبي عليه الصلاة والسلام معروفة بالسيرة ومظاهرة الاحزاب بالعدوة القصوى ، حيث كان أعداء الاسلام يستعدون لمحاربة النبي في غزوة بدر ، ثم ذكر وحشى الذي قتل حمزة ، في غزوة احد بعدها ، ثم تعرض لبيعة السقوفة ، التي بويع فيها أبوبكر ، وما قال المعارضون فيها ، الى غلام المغيرة ، الذي طعن عمر بخنجره ، ثم حصار عثمان بداره ، الى ما قيل في تلك الفتنة التي كانت بحروب علي ومعاوية من قولة جائرة ، وهى تقاتلوا رغبة في الابيض والاصفر ، وسفكوا الدماء على الترد الاعفر » الى ان انتهى الى قتل علي باعتلاء سيف ابن ملجم هامته ، فخضب الوجه بدمائها ، ثم ما كان من اليزيد وهو يقرع سن الحسين بقضيب ، لما وضع رأسه بين يديه .

فهذه أحداث أولها قرآني قصصي وبعدها أخرى تاريخي ، ذكر ما يتصل بالنبي في القرآن أيضا ، وغيره استقل به التاريخ وحده وقد أورد أبو جعفر ذلك كله متسلسلا حسب الزمان ، وابتداء — كما قلنا — من آدم — حين أبى إبليس من السجود له .

والرسالة من الناحية الساربخية ، فيما يخص عقيدة الموحدين ، ننفي أن يكونوا شيعة الرأي ، فهي تنبراً من الطعن في بيعة أبي بكر ، والشيعية على هذا الطعن ، فهم يرون أنه غصبها عليا ، الذي كان أحق

بها ، وتخلف عن البيعة أولا ، كما تتبرأ من قتل عمر ، وعمر أعدى عدو للشيعة ، أما ذكر المهدي بالامام المعصوم ، فمع أن المهديوة وعصمة صاحبها وليدة الشيعة ، ولكنها فكرة استغلت وحدها لندعيم الدعوة التي قام بها ابن تومرت ، وما كان لها من نتيجة الاطاحة ، بالمرابطين ، واقامة دولة الموحدين ، فهو استغلال سياسى طالما تردد ذكره عند الموحديين وادبائهم ، وفي مقدمتهم أبو جعفر وأخوه ، كما سنرى بعد في النماذج التي سنأتي بها من رسائلهم .

ومما استعطف به ابو جعفر أبيات شعرية وجه بها طفلا له الى الخليفة افتتحها بقوله :

<p>عظما علينا أمير المومنين فقد قد اغرقتنا ذنوب كلها لجج وصادفتنا سهام كلها غرض هيهات للخطب أن سطو حوادثه من جاء عندكم يسعى على ثقة فالثوب يظهر عند الغسل من درن انتم بذلتهم حياة الخلق كلهم ونحن من بعض من أحيت مكارمكم وصبية كفرارح الورق من صغر قد أوجدتهم أياد منك سابغة</p>	<p>بان العزاء لفرط البث والحزن وعطفة منكم أنجى من السفن ورحمة منكم أوقى من الجنن بمن أجارته رحاكم من المحن بنصره لم يخف بطشا من الزمن والطرف ينهض بعد الركض في سنن من دون من عليهم لا ولا ثمن كلتا الحياتين من نفس ومن بدن لم بالفوا النوح في فرع ولا فنن والكل لولاك لم يوجد ولم يكن</p>
--	---

وهي أبيات معروفة في كتب التواريخ والتراجم ، كالبيان المعرب وروض القرطاس والاحاطة ، ويلاحظ عليها انها تنظر الى ابراهيم بن المهدي مخاطب بها ابن أخيه ، المامون بن الرشيد ، معذرا اليه في قبوله البيعة في خلافته ، منها هذا البيت :

برئت منك وما كافيتني بيد هما الحياتان من موت ومن عدم
فلا شك ان بيت أبي جعفر :

ونحن من بعض من أحبت مكارمكم كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
منبثق من بيت ابراهيم بن المهدي المذكور ، وهي مذكورة في أشعار اولاد الخلفاء ، وفي كتاب تاريخ بغداد

وقد علق عبد المومن على أبيات أبي جعفر بالآية « الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » ، وهو ما فعله ابن أبي عامر تجاه المصحفي فأجابه :

الان يا جاهلا زلت بك القدم تبغي النكرم لما فانك الكرم

والى جانب ما قلنا من نظر أبي جعفر الى رسالة الجاحظ وقصيدة ابراهيم بن المهدي ، فقد نظر فيهما الى الرسالة الجدية لابن زيدون يستعطف بها ابن جهور وقصيدة ابن عمار يستعطف بها المعتمد بن عباد ، ونظره من حيث المضمون الى ابن زيدون اقوى واعظم ، فقد بدا تورياته بآدم ، ثم نوح ، ثم هامان وموسى واعتداء بنى اسرائيل في السبت فعقر نائمة صالح والشرب من النهر الذي ابتلى به طالوت وقود ابرهة الفيل الى الكعبة الى الصحيفة التي علقت بالندوة الى بيعة العقبة واستنفار قريش لغيرهم في غزوة بدر ثم الانخزال بثلاث الناس يوم أحد ، والنخلف عن صلاة العصر في بني قريظة ، ثم الافك على عائشة ، ثم الانفة من اماره زيد بن اسامة أول خلافة ابي بكر ، بعد الزعم من كون بيعة الخليفة الاول كانت فلتة ، فمحاربة ابي شجرة لخالد بن الوليد ، والفتك بعمر ثم عثمان الى التضييق على الحسين بن علي في وقعة الحرة ، مما نسب الى يزيد بن معاوية ، ثم رجم الكعبة ، فتصليب عبد الله بن الزبير اثر ذلك ، ايام عبد الملك بن مروان .

فهو اذن قد بدا بالتقصص القرآني وأشار بالنص الى بعضه في القرآن ، ثم انتهى الى السيرة وما حدث فيها من أحداث كان آخرها حديث الافك ، ثم اتصل بها وقع ايام الخليفة الاول وما قيل في بيعته الى اغتيال عمر فعثمان الى ما كان نحو الحسين وموقعة الحرة بعده ، ثم عبد الله بن الزبير . والغالب ان ابن زيدون نظر الى رسالة الجاحظ في الجدل ، فنسج على منوالها في رسالته الجدية ، ونظر الى هذه أبو جعفر .

وبعد ما تناولنا من اثر ابن عطية نماذج من نظمه ونثره ، في غير رسائله السلطانية ، نتصل بنماذج من هذه الرسائل التي سنذكر فيها ما حبره ، وهو كاتب لعبد المومن وما سطره وهو ما زال يعمل في الجندية ، وعلى تقليده السابق الذي كان عليه ، وهو يتولى الكتابة عن الملك المرباطى

اسحاق بن على ، بعد أخيه تاشفين .

وهذا النموذج ، هو الوحيد الذى بأيدينا ، يمثل ما انتهت اليه الرسائل الانشائية بالعهد المرابطى ، ومسطرا من قبل كاتب مغربى النشأة والدار ، لأنه كنب الرسالة هذه ، على اثر نهاية هذه الدولة ، فكان يعمل بالجندية من ضمن المرتزقة الرماة ، كما يقول عبد الواحد المراكشى وابن البار فى كتاب « اعيان الكتاب » ولا يوجد من هذه الرسالة الا فصل اولها مثبت بالكتاب المذكور وبالحاطة لابن الخطيب ، ونفع الطيب للمقرى ، هكذا :

كتابنا من وادى ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المجهود القديم « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » فتح بهر الانوار اشراقا ، وأحرق بنفوس المومنين احداقا ، ونبه للأمانى النائمة جفونا واحداقا ، واستغرق غاية الشكر استغراقا ، فلا تطيق الالسن لكنه وصفه ادراكا ولا لاحقا ، جمع اشتات الطلب والأرب ، وتقلب فى النعم اكبر منقلب ، وملا دلاء الأمل الى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الارض فى اثوابها القشب وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كان أولئك الضالون قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتنعوا الكفر معنى واسما ، وأملى الله لهم تعالى « ليزدادوا اثما » وكان مقدمهم الشقى وقد استمال النفوس بخزعبلاته ، واستهوى القلوب بمهولاته ، ونصب لهم الشيطان من حبالاته ، فأنته المخاطبات من بعد وكثب ، ونسلت اليه الرسل « من كل حذب » واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى قادهم الى ذلك وأوردهم تلك المهالك ، وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام « آناء الليل واطراف » الايام ، لبسوا الناموس اثوبا ، وتدرعوا الرياء جلبابا ، فلم يفتح الله لهم للتوفيق بابا .

(ومنها فى ذكر التائر) فصرع بحمد لله لحينه ، وبادرت اليه بوادر منونه ، وأنته وانغادات الخطيات عن يساره ويمينه ، وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية فى هذه الايام لا تصيبه ، والنوائب لا تنوبه ، ويقول فى سواه قولا

كثيرا ، ويخلق على الله افكا وزورا ، فلما عاينوا هيئة اضطجاعه ، ورأوا الاسنة على أضلاعه ، ونفذ فيه من امر الله تعالى ما لم يقدرُوا على استرجاعه ، انهزم ما كان لهم من الاحزاب ، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب ، وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب ، ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب ، فامتألت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمادهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم الا من خر صريعا ، وسقى الارض نجيعا ، ولقى من الهنديات أمرا فظيحا ، ودعت الضرورة بالتيهم الى الترامي في الوادى ، فمن كان يؤمل منهم الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعا في الخروج الى ما ينجيه ، اختطفته الاسنة اختطافا ، وأذاقته موتا ذمعا ، ومن لح في الترامي على لججه ، ورام البقاء في ثبجه ، قضى نحبه شرقة ، والوى بذقنه غرقه ، ودخل الموحدون الى البقية الكائنة فيه يتناولون قتلهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله هونا وكربا ، حتى انبسطت مراقات الدماء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقة حمرة الشفق على زرقة السماء ، وظهرت العبرة للمعتبر ، في جرى الدماء مجارى الابحر

وهكذا نجد في هذه الفصول الاعتناء بترصيع الالفاظ والاحتفال بالصنعة البديعية والبيانية ، والاطالة بما يجعلها أحيانا لا طائل تحتها ، فالتكرار فيها لا يأتي الا بالنشوة الايقاعية ، في نحو « بهر الانوار اشراقا ، وأحرق بنفوس المومنين احداقا ، ونبه للأمانى النائمة جفونا واحداقا » . فالاسلوب الشعري المتأنق فيها متحكم بجناسه وتشبيهاته وطباقه واستعاراته وكنائياته . فهذه « مراقات الدماء على صفحات الماء تحكى حمرتها على زرقة حمرة الشفق على زرقة السماء »

ثم التضمينات والانتباسات تعددت من القرآن والاشعار والامثال ، فمن القرآن :

« وأملى الله لهم تعالى ليزدادوا اثما » فهذا من قوله « انما نملى لهم ليزدادوا اثما » وكذلك نجد « ونسلى اليه الرسل من كل حذب » من قوله تعالى : « وهم من كل حذب ينسلون » كما ان « آتاء الليل واطراف الأيام » لم يغير فيه الا النهار ، فجعل بدله الأيام ، طلبا للسجع والجملة « وأخذهم الله بكفرهم » من قوله « فأخذهم الله بذنوبهم » وكذلك التعبير

بقضى نحبه ، تعبير قرآني « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » وهذا الانتظار أدى معناه بادئا ، فيمن كان يؤمل الفرار منهم ويرتجيه ، الى آخر ذلك القصد وقوله « ويلقونهم بأجر الله » بعد « يتناولون قتلتهم » انها هو من قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأمره » .

ومن الاشعار جاء ببيت ابي تمام ، ثم قال : « لبسوا الناموس اثوابا ، وتدرعوا الرياء جلبابا » فهو من قول الشاعر في فقهاء المرباطين .

أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب ادلسج في الظلام العاتم
ثم قوله « ولم تقطر كلومهم الا على الاعقاب » اخذه من قول الحماسي :

فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على اقدامنا تقطر الدما

ومن التعابير العتيقة ، التي سارت مسرى الامثال ، قولهم « شد عقد الكرب » وهو الحبل الموصول بالرشاء ، الملوى على خشبات الدلو المعروضة ، وقولهم « يتساقطون تساقط الذباب على الشراب » ، فمن هذا وجدنا في الرسالة قوله « وملا دلاء الامل الى عقد الكرب » وقوله « وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب »

ومهما يكن فالرسالة لم تكن قد اتخذت طقسا بعينه في هذه الدولة الناشئة ، بل كانت على النهج الذي سلكته الرسائل السلطانية للدولة المرباطية في عهودها الأخيرة ، التي تولى فيها أبوجعفر وأخوه مهمة الكتابة السلطانية ، ومع هذا فقد ظلت هذه الطريقة معمولا بها في الدولة الموحدية ، ولم يصف اليها الا الديباجة الخاصة بالقباب المهدي المعلوم المعصوم .

وهذا طبعي ، بالنسبة الى عبد المومن خصوصا ، فانه لم يقبل على هذا الكاتب ويصطفيه من بين العسكر ، ليحله محل الوزارة والمصادرة في الكتابة ، الا بفضل تلك الطريقة المرباطية ، التي سحرتة ، فجعلته ينحى عن كاتب كان من بين الرجال المصطفين للمهدي ويتوجه بكليته الى هذا الكاتب المرباطي ، فيحله محله ، ثم يزيد في حظوته ، وهو بعد ذلك ابن الكاتب جعفر ، الذي قتل بسيفه أنفا .

والرسالة المذكورة ، لم يحتفظ الا بفصول منها ، ومع ذلك فهي من الطول

البالغ ، الذى لم يكن المقام يقنضيه ، ولا كان صاحبه ابوجعفر يدركه ، فقال فيها « وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة » فهو كما يدعى اختصر ولم يطل ، وان كان عبد الواحد المراكشى — مثلا — يعتبرها من الطول بمكان ، فاختصر على الفصول واعتذر بأنه لم يسات بنصها كاملا ، لها فيها من الطول .

فهذا النص يسجل كون الرسائل السلطانية ، كانت قد جندت الى الطول ، فى العهد الأخير للدولة المرابطية ، بعد كانت فى أوائلها تقتصر على ما يؤدى المعنى فى أسلوب يتسم بالبساطة غالبا ، فقد كان ابن القصيرة كاتب يوسف بن تاشفين ، على طريقة قدماء الكتاب ، من ايثار جزل الالفاظ وصحيح المعانى ، من غير التفات الى الاسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب ، الا ما جاء فى رسائله عفوا من غير استدعاء ، كما يقول عبد الواحد فى كتابه المعجب .

فلما كان عهد ابنه علي ، وجدنا على رأس كتابه محمد بن أبى الخصال ، الذى كان آخر الكتاب — كما يقول عبد الواحد — واحد من انتهى اليه علم الآداب ، فحصر طريقه بسياج من الاسجاع ، التى أقامها على جميع الحروف ، ولم يستثن حتى أثقلها جرجسا ، فوجدناه يكتب لصديقه ابن بسام « وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحق ، كتابه البليغ ، واستدراجه المريح »

فما أثقل حرف الغين فى هذا ، وما أشد الكلفة فى كلمة المريح ، التى لم نألفها من غيره ، واستمر هذا التصنيع ، موغلا فى سبل متشعبة ، لا تزيدها النجعة الا طولا على طول ، والحضارة تأخذ بيده وقد أسلم اليها القياد ، يستهديها فتهديه الى طريقها اللاحب .

لهذا فلا عجب أن نجد هذا الطول قد انتهى الى مداه ، وأن الدولة التى ورثت هذه الحضارة ، قد سلكت طريقها إما دائما فالتطور الحضارى هو الذى أملى بهذا الطول ، وتنكب سبيل الايجاز ، وقد سبق له نظير فى الدولة الأموية التى كانت لأول أمرها تسلك نهج الايجاز ، ثم صارت تتجه نحو الاطناب تدريجيا ، الى أن كان آخر كتابها ، عبد الحميد ، يطيل طولا يبالغ فى وصفه ، حتى قيل ان الرسالة التى وجهها عن مروان الجعدى الى أبى

مسلم الخراساني ، كانت لطولها تحمل على جمل ،،،

وبعد فهذه هي الفصول التي عنيها ، ناتي بها كلها ، على طولها ، مقتصرين عليها ، كنموذج من رسائل أبي جعفر للسلطان ، يقول بعد الديباجة التي لم نعر عليها ، والغالب انها لم تكن مختلفة ، عما وجدناه فيها سطره من رسائل سلطانية فيها تلاها .

وهذا كتابنا اليكم — عرفكم الله من عوارف نعمه أفضل ما تتعرفون . وسقاكم من معين حكمته ما لا تصدعون عنه ولا تنزفون . وأولاكم من رحمته ما تحافظون على شكره وتعكفون . وجعل لكم بالايامن والعمل الصالح ودا لا يصدفون عن رعايته ، وحفظ غايته ، ولا تصرفون . من حضرة مراكش — حرسها الله — ونحن نشكره سبحانه أن جعل الامر المبارك تطب المصالح . وملتقى الفواتح . ومرتقى المطامح . فالخيرات بمحيطة محصورة . والمسرات على عمده بسيطة مقصورة . والقوى في خدمة مقاصده معضودة منصوره . وما تجريه الأقدار . ويأتي به الليل والنهار . فالى تمكينه يستبق ومن عجائب مكنونه ينطلق .

وقد كان في الامر الذي عرفناكم بثلجه ، وأطلعناكم على سساره ومبجه ، ما اجتليوه من مستوضح الفتح ومجتلاه ، ووعيتم من معجزاته ما أورده الحق وتلاه ، ورأى به الكافة أن عدو هذا الامر السعيد تولى ما تولاه ، وتلقى سعى شره وتصلاه ، واستمر البحث بعد ذلك على أوليته ، وأشرف الفحص على يقين المطلب وجليته ، ويكون ذلك المستطير من مخباه ، المستدير على مسقطه ومكباه ، الى جانب الموحدين انتسابه ، وعليه لا عليهم سعيه واكنسابه ، نشأت لهم بين الخجل والوجل حالة التناصح والتعاضد ، ووحشة التباحث والتطالب ، وان كانت موداتهم الوثيقة موصولة الحبال ، مبنولة الفلال ، مجبولة على الالتحام والاتصال ، لها الوفاء والصفاء ، والقديم الذي لا يلم به الدروس والعناء .

ثم يقول أبو جعفر في احدى رسائله النى كتبها عن عبد المومن الى طلبة سبنة . وهى من أولى رسائله في هذا العهد من أمير المومنين — أيده الله بنصره . وأمدّه بمعونه . الى الطلبة الذين بسبنة . وجميع من فينا من

الموحدين خاصة وعامة . — وفقهم الله وسددهم — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله مولى الرغائب . ومسني الآمال والمطالب . وقابل توبة التائب . فحمده بما يتعين من حمده الواجب . ونصلى على محمد نبيه العاقب . وعلى آله وصحبه أولي المفاخر السنية والمناقب . ونطل الرضى على الامام المعصوم . المهدي المعلوم . المحرز شرف المبادئ والعواقب . المجلي بنوره الثاقب . حجب الظلام الواقب .

وكتبناه اليكم — كتب الله لكم شكرا موالى معادا . وتوبة تجعلونها قاعدة لأعمالكم وعمادا . وصلاحا لا يفارق بحمد الله نماء وازديادا . من حضرة مراكش — حرسها الله — وقد وصلنا بحمد الله على أتم أحوال الظفر واليمن . وعدنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن . بعد كمال الغزوة المباركة وتماهما . واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها . والصاق أنوف الكفرة المرتدين برغامها . وقطع دابر القوم المجرمين في هذه الجهة وما انتظم في نظامها . ونال الغزاة في هذه الحركة الميمونة من الأجور . والمغنم الموفور . والفضل الذي ينشر عليهم أجنحته يوم النشور . ما لا يتمكن لأحد من البشر وصفه على حال . ولا يتأتى لمخلوق نعته على استيفاء وإكمال . فطوبى ثم طوبى لمن حضر في سبيل الله فأحضر وأخلص نيته في غزوه الميمون بمبلغ ما استطاع وقدر . وتساعدت جوارحه في تخليص ما اكتسب من هذه الفضائل وادخر وان النعمة — وفقكم الله — بهذه الفتوح العظيمة العامة شاملة على من اخذ بهذا الأمر العزيز ودان . ونزيا بطلنه البهية فازدان . فهي الفتوح التي ظهر بها من آيات المهدي — رضى الله عنه — العجيب العجائب . وفماض فيها من بركاته الفيض المنساب . ودرت بها الأزواق وانتشر الأمن وكرم المآب . الى آخر الرسالة وهي في بشارتها لاهل سبته تحمل اليهم تهديدا ضمنا اذا ما عاودوا ثورتهم ضد الموحدين تلك الثورة التي كانوا قد ثاروها سنة ثلاث وأربعين فأخضعهم عبد المومن ولكنه لم يكن يطمئن اليهم . فكان يتخذ الخطات اللازمة من ان يعودوا مرة أخرى الى ثورتهم تلك ..

فهذا أسلوب بلنزم الفقرات القصار المسجعة ، وفيه من الاقتباس

القرآني « قابل توبة التائب » واطفاء نار الفتنة ببرد الهدنة وسلامها «
و « قطع دابر القوم » وفيه بعد ذلك و « توبوا الى الله جميعا » و « توبة
نصوحا » و « التمسك بعصم الايمان » و « كفى به شيذا » « فان خير الزاد
الفتوى » « واتمروا بينكم بالمعروف »

ففى هذا نجد اقتباسا من أسلوب القرآن وكلماته ، ثم نجد الآتيان
بنص الآى كما هو فى القرآن ، وهو النمط الذى سارت عليه رسائله
وهى تختلف طولا وقصرا ، فمنها ما يقع فى صفحتين ، ومنها ما يقع فى نحو
العشر صفحات من القطع الصغير ، ولا تختلف أسلوبا عن هذه
وبعد تعرضنا لآبى جعفر ابن عقبة ، ونماذج من رسائله ، نناول نماذج
لاخيه أبى عقيل فيما حبره من رسائله السلطانية .

وأبو عقيل الذى أخذ بجريرة أخيه ، لا يذكر الا ازاء هذا الاخ ،
ولا يعرف عنه الا ازهاق روحه ، وهو حديث العهد بسلخ العقد الثانى من
عمره ، وان كانت قد سجلت له رسائل سلطانية ، لا تقل كثيرا فى قيمتها
الأدبية . عما هى عليه من رسائل أخيه أبى جعفر .

فمن هذه الرسائل رسالة أمر بكتبتها ، اثر فتح قسنطينة ،
وانابة يحيى بن عبد العزيز ، صاحب بجاية الى التوحيد وهى موجهة
الى طلبة تلمسان ، ومن فيها من الموحدين ، بدأها — كالعادة من كونها
من أمر المؤمنين ، ثم الحمد لله والصلاة على نبيه وآله ، ثم الرضى عن
الامام المعصوم المهدي المعلوم ، ثم ذكر كون الكتاب صادرا من حاضرة
بجاية ، والفتوح نظرد ، هكذا :

أما بعد فالحمد لله الذى وسعت رحمته كل شيء على العموم
والإطلاق . وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعنه والاتفاق . وبمت نعمته
تماما على أبلغ وجوه الانظام والاتساق . والصلاة على محمد نبيه المبعث
لتتقيم مكارم الأخلاق وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازين أولي البواء
الى مرضاته والاستباق . والرضا عن الامام المعصوم . المهدي المعلوم
علم الأعلام ، ونخبرة الايمان والاسلام . وبدر الكمال والتمام . الطالع
بأشرف مطالع الاشراف . الفارع عند نطاول الرؤوس والاعناق . الجامع
اشتات الفضل واجناسه على الاستيفاء والاستغراق .

وهذا كتابنا اليكم — كتب الله لكم فيما خولكم النماء والزيادة .
ويمكن في تمكينكم واصلاح شؤونكم الانالة والافادة . ويسط في ارجائكم
اليمن والسعادة . من حضرة بجاية — حرسها الله — عن احوال ترتب
صلاحها على افضل وجوده . وفتوح نتابع افتتاحها في قريب المعمر وبعيده .
وبشائر ينزه بشرها ويسماحها عن الجرى على معتمد الداب المالسوف
ومعهوده . وآيات بينات أغنى تجليها واتضحها عن كل برهان ووجوده .
« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » في المستولية محصى العادة ومعهوده ،
نسأل الله سبحانه وقد بهرت البواطن والظواهر ، وعمى الابصار والبصائر ،
تعظيم ما نشاهد ونعاين عونا يعين وينهض ، وعملا يتخلص بشكر آلائه
الباهرة ويمحض ، وقوة لا تنتكث بالعجز عن اداء حقوقه ولا تنقض .

وقد تقدم اعلامكم — وصل الله سروركم ، وضاعف شكوركم ، —
بما كان من صنع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسر مرامها بحولته
واقتراره ، ونور ظلامها بأضواء هذا الامر السعيد وانواره ، وصير اباطحها
وآكامها من مواطىء أوليائه وانصاره ، وكيف كانت صورة الحال في درجها ،
وتصرف الانتقال من محصها الى عرجها ، ان أبا زكرياء يحيى بن العزيز
بالله بن المنصور بن الناصر وجميع اخوه ، وقرابته وخؤوله حين اتاهم
الرائد الذي لا يكذب اهله ، وانتاحهم القائد المبيع وعمر المنتحي وسهله ،
لم يكن لهم بد عن التولى عن قرارهم ، والنخلى عن أقطارهم واوطانهم ،
لامر قضى الله فيه لهذا الامر المبارك بخبر قضائه ، وشأن طوى الخيرة درج
تضمنه واقتضائه ، فكان مأمهم الذي اعتقدوا منعه وحصانته ، واعتمدوا
ثقتهم عليهم وأمانته ، بلد قسنطينة — عمره الله — لكونه بحيث لا ينال بقدره
مخلوق ، وأين يستعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مرموق ،
وكانت جمل من عساكر الموحدين حين احتلال الجملة المذكورة منه ، واعندادهم
في عداد من يحويه ويؤويه ، بجهة القلعة — حرسها الله — على اثر فتحها
الميسر ، ونيل أجرها على الوجه المتخير ، فأنهض منهم بعون الله الى تلك
الجهة من رجب الخير في انهاضه ، وحض على خدمة هذا الامر واغراضه ،
فحين ألم الناهضون المذكورون — وفقهم الله — بجهات قسنطينة — حرسها
الله — فتح لهم الفتحة الذي تقدم اليكم ببيان القول فيه واغرابه ، وأورد
عليكم ابداع القدر في تقريبه واغرابه ، وعلمتم كيف انهزمت له جموع الضلال

واحزابه ، وحل الموحدون هناك — وفقهم الله — بساحة ذلك القطر وذراه ،
وغشية منهم ما غشيه وعراه ، وما ترك القطا به أن يقطم كراه . وكان التخميم
الملاصق ، والتدويم المراهق ، والحق يتجلى ، والنصر يتولى ، من اظهر الطائفة
العزيزية ما يتولى ، الى أن صرف الله الباب القوم المذكورين الى قبلية
الاصابة ، واراهم أن النجاة في جانب هذه العصابة ، والحياة في تزارها
الذى هو مقر قرار اليمين والمثابة ، لاتفق رأيهم ، على انفاذ جماعة منهم ،
فيهم أخو أبى زكرياء وشيوخ صنهاجة وقسنطينة معتمدين بهذه العروة
الوثقى ، مستسلمين للأمر الذى لا يقابل بعناد ولا يلتقى ، سائلين من
التامين والابقا ، ما يدوم خيره للمحق السائل ويبقى ، ووصلت الجماعة
المذكورة ، الى هذه الحضرة المحروسة ، يسعى أهلها بين يديها ، ويعرف
القصد عما لديها ، وأنهت ما تحملته من المخاطبة ، وأملت لها ولمن وراءها
من حسن العاقبة ، فمن الله على جميعهم ، بتيسير مطلبهم ، وأجبال مقبلهم ،
وصدروا الى مرسلهم تتهلل أسرته ، وتتجمل بحلل العافية والنعمة الصافية
كرتهم ، فأتوا قومهم على تطلع الى بشرامهم ، وتمتع بطيب ذكراهم ، وأعلموهم
بالصنع الذى عرفهم تعظيم صنع الله وأدراهم ، فراوا أجمعين أن الله
سبحانه سنى لهم بفضل غاية ما طلبوا ، ورزقهم من حيث لم يحتسبوا ،
ووهبهم من ايواء الفضل وقبوله فوق ما استوهبوا ، حين لم يكن لهم
منجى الا الذى نرحوا عنه وغربوا ، وفتحوا أبواب المدينة المذكورة عند تيقن
الأمر وتحققته ، وتعرف سنة هذا الأمر المبارك وعظيم خلقه ، وخرجوا عن
آخرهم فرحين بفضل الله ورحمته الواسعة ، مستظلين بظلال هذه الدعوة
المحيطة الجامعة ، ودخل القطر من أمناء الموحدين وغزاتهم — وفقهم الله —
على أحسن حال ، وأكرم اقبال .

واتم الله نعمته بهذا الفتح المحيط ، والصنع المبسوط ، اتاما بلغ
الآمل غاية مأموله ، والسائل كافة مسئوله ، فذلك القطر هو الطرف
الاعلى ، والرابط الاحق الاولى ، ورأس الجسد الذى استتبع بعضه
بعضا واستتلى . وبه انعقدت روابط هذا الاتليم العظيم وقواعده ، وفقدت
ضرر من كان ينوى الضرر فواتده ومعه متأتى جمع شمله وضمه ، وامسك
شأنه كله وعزمه ، وبه ختم كتابه وكرم الكتاب ختمه .

والله نساله بشكر هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا ، وحولا بمعائد

المعونة الربانية معتودا ، وقوة تلقى من حمدها الى كل جديد منها جديدا ،
بمنه والسلام عليكم ورحمة الله .

وكتب في العاشر من شعبان سنة سبع وأربعين وخمسمائة

لقد تمهدنا الانيان بهذه الرسالة كلها ، لأنها تمثل لنا ما كان عليه
أسلوب أبى عقيل ، وهو حديث عهد بانشاء الرسائل الديوانية كما أنه كان
حديث العهد بالشباب الذى اطل عليه ، وهو فى هذه السن المبكرة ،
التي لا تعدو سبع عشرة سنة .

والرسالة ، كما رأيناها ، يسيطر عليها تصنع الكتاب ، بصفة خائفة ،
جعلها لا تتنفس الا بهذه الالفاظ المتكلفة أحيانا فى زيتها المعتمدة على قواعد
الصرف والاشتقاق ، دون الالتفات الى مجريات الاستعمال للغة ، فهذا
البتعث ، بدل المبعوث الذى كان ينطلق من الحديث « بعثت لاتمم مكارم
الاخلاق » وهذا « المتوازيين » بدل المتأزرين ، كما تقضى به الآية « آزره
فاستغلظ فاستوى » ثم استعمال « أين » مرادفة « لحيث » مع أنها قد
تخلصت الى الاستفهام فى الاستعمال ، وبذلك اعتيرت قراءة ابن مسعود
« ولا يفلح الساحر أين أتى » شاذة فيه (1)

نفى هذا من الإمتناس القرآنى « وسعت رحمته كل شيء » « وان
تعدونعمة الله لا تحصوها » و « غشيه منهم ما غشيه » فهو اقتباس
من آيات ، وأتيان باحداها على ما هى عليه ، كما أن قوله : « كتب الله لكم
فيما خولكم النماء والزيادة » انما هو من قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى
وزيادة » وغير هذا كثير (2) .

(1) ومنه « المراهق » اذا المألوف « المرهق » كما فى القرآن « ولا ترهقنى من أمرى »
ويسوغ « المراهق » من رفق الثلاثى الوارد فى القرآن كذلك أما ما جعله يستعمله ، فهو
مناسبتة للملاحق ، مع أن المراهقة صارت فقهية وزيادة على هذا فهو يفرط فى استعمال
الترادف ، مثل الاجتماع والاتفاق والانتظام والاتساق وغير هذه . وكذلك نحد تصنيعه
يستكره كلمات على الاستعمال مثل « المحوط » و « المتأتى » ، بفتح الميم ، وغير ذلك
مما يواجهه الناشئون أولا . سوى هذا فألوان البديع متفشية بأوسع مفاهيم الكلمة .

(2) التصمين سائد فى نحو : « تمت نعمته تهما » و « آيات بينات » ، و « عمى الإبصار
والنصائر » و « معتصمين بالعروة الوثقى » و « عرفهم تعظيما صنع الله » و « رزقهم
من حيث لم يحتسبوا » و « يسعى أملاها بين يديها » و « كرم الكتاب ختامه » فهو مبنق
من « ختامه منك » وكذلك ما تقدمه جله « قرآنى » .

بالإضافة الى الاقتباس القرآنى ، فهناك آخر من الحديث فى قوله :
« المبتعث لتتيمم مكارم الاخلاق » فلا شك أن الوصف من الحديث « بعثت
لأتمم مكارم الاخلاق » ومنه « الرائد لا يكذب أهله » .

كما أن فيه من الامثال العربية « وما ترك القطا به ان يقطع كراه »
فهو من المثل « لو ترك لقطا لنام »

فأبو عقيل على يفاعه شبابه ، له استعمال متميز بعض الشيء عن
استعمال أخيه ، كما رأينا ، فى هذين المثالين وبالجمله ، فاننا اذا استثنينا
مسألة العصمة فى المهدى المعلوم ، نجد طريقة الاخوان فى الانشاء
السلطانى ، قد شقت طريقها عبر التاريخ الذى قطعتة الدول المتعاقبة على
المغرب فيما بعد ، وخصوصا ما صدر عن اكابر كتابها وجهابذة منشيئها ومن
الالفاظ التى عاشت فى مدلولها حتى يومنا ، لفظة « الحركة » فى عاميتها ، فقد
تقدم فى قول أبى جعفر « ونال الغزاة فى هذه الحركة الميمونة من الاجور ،
والمغنم الموفور ، والفضل الذى ينشر عليهم أجنته يوم النشور ، ما لا يتمكن
لاحد من البشر وصفه على حال » ومن تلك الالفاظ كلمة التخييم ، فقد ورد
فى رسالة أبى عقيل الأنفة ، قوله « وكان التخييم الملائق ، والتدويم
المراهق ، والحق يتجلى والنصر يتولى من اظهر الطائفة العزيزة ما يتولى »

وهذا نموذج آخر له : ولم نزل أعزكم الله منذ وادعنا تلك الجهات
المذكورة بمقربة من أنسا — عمرها الله — نصل السير حتى انتهينا الى تينمل
— كرمها الله — فعرفت النفوس المومنة مناه . وأبصرت سناء العصمة
وسناها . فى محلها المقدس ومغناها . ورات فى متبواها المعظم ومثواها .
شخص الكرامة ومغزاها . وشاهدت بين قبره المنعم ، ومسجده المكرم ،
روضة الجنة يسحب ظلها ، ويكطف جناها . وتمت هذه الزيارة والحمد لله ،
تماما على النبى هى أحسن ، وانتهاء الى ما يعز من مرضاة الله ويتعين .
واغناما لما ينضح قصده الجميل ويتبين . وسار الموحدون أعزهم الله بعد
الموادعة الكريمة . ونيل البركات العظيمة . وقد تخلصت النفوس من
الشوب . واستنبلت بالنوبة النصوح قبل التوب . وتنقت من الذنوب والخطايا
كما ينتقى بالماء دنس النوب . واستمر السير — أعزكم الله — وقد أرسلت
الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، ومسخرات بحكمه وحكمته . وجاءت

المزن الغوادي . كما تمشى البزل مثقلة الهوادي . فمسحت في الحواضر والبوادي . وجادت على الربوة والوعدة والقنة والوادي ، ووصل الموحدون — أعزهم الله — الى هذه الحضرة — حرسها الله — وقد نشرت بساطها الأخضر ، ونمتت بسيطها الانضر ، ودخلوا — والحمد لله — على ما املوه من السلامة ، والكرامة ، واحلتهم تلك الأجور المنظمة ، والمقاصد المغتمة ، محل الإقامة ، ودار المقامة ، وكان الوصول — أعزكم الله — في الثامن والعشرين من شهر رمضان المعظم واختتمت السفارة باختتامه ، واشرفت الآمال والاعمال بلياليه المشرقة وإيامه ، وظهرت في تلك المساعي الجميلة ، والمناحي الجزيلة ، بركة صيامه ، وقيامه .

وخاطبناكم أعزكم الله — بهذا الكتاب ، على جهة الاقتضاب والالامع بهذا العجب العجائب ، والفتوح التي هي محارة العقول والالباب ، والا فالأوصاف مقصرة عن نعتها ، والالسنة معبرة عن عظمتها بصمتها ، فاستبشروا بما بشرتم به من هذه المنح التي انطلقت الجحاد ، وخرقت المعتاد والله يجعلكم ممن تنعم بنعمها ، وتعرض لنفحات رحماها ، وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الثامن من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة (1) .

ورسالة أبى عقيل فيها نفحات من فن النثر ، وان لم تخل من الاتكاء على المترادف في تزيين صورها ، ولكن السجع فيها لم يستكره على طغيانه ، كما ان الاقتباس اصاب مكانه غالبا ، وان كان الضعف يطل من نحو قوله « وآتى نفسه تقواها وزكاها ، وهو خير من زكاها » وفيه من تلك المبالغات الموحدية في تقديس صاحبها مثل قوله : « وشاهدت بين قبره المنعم ، ومسجده المكرم ، روضة من رياض الجنة » . فهذا مما اختص به الجناح النبوى ، كما في الآثار ، وضمنه بلفظه هنا ، ويلاحظ في الرسالتين ، تكرار في العبارة مثل وتمت تماما على ابلغ وجوه الانتظام ، مع قوله : « وتمت تماما على التي هي احسن ، وفي هذا اقتباس قرآنى . ونادرا ما يقتبس من غير القرآن والحديث . وعلى الجملة ، فقد كان منتظرا أن يصبح أبو عقيل من المع

(1) وهذا الفصل من رسائله الطوال يقع في اثنتى عشرة صفحة من « مجموع رسائل موحدية » ذكرت فيها كثير من البقاع الجنوبية .

الكتاب ، لو لم تتخطفه يد الجلابد وهو في سن الثالثة والعشرين رحمه الله .
وبعد فلم يعرف عن أبى عقيل الا نثره ، وفي الرسائل السلطانية
خاصة ، اما اخوه أبو جعفر ، فقد عرف بقرض الشعر ، الذى تقدمت
ابيات فى محتته ، وكذلك عرف له فيها هذان البيتان ، المذكوران فى نفع
الطيب وفى غيره :

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا فى ليل من السخط حائر ولا أهدى حتى أرى للرضى صبحا
ويلاحظ أن للنايفة ريحا فيهما
ولابن شهيد نحو هذا فى قوله :

أنوح على نفسي وأندب نبلها

ولأبى الوليد ابن زيدون :

الم يان أن ييكى الغمام على مثلى

ويقول صاحب روض القرطاس فى حقه « وله شعر رائع حسن »
ثم وصل هذا بقصة مساجلة شعرية وقعت بينه وبين عبد المومن ، وهى أن
فتاة أطلت من شباك ، باحدى دور مراکش ، وكان عبد المومن ومعه ابن
عطية مارين بالطريق ، فقال عبد المومن :

(قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت)

فأجاز ابن عطية :

(حوراء ترنو الى العشاق بالقل)

فقال عبد المومن :

(كأنما لحظها فى قلب عاشتها)

فأجاز ابن عطية :

(سيف المؤيد عبد المومن بن علي)

ومن أوصافه الشعرية ، ما وردت فى هذه القصة — وان كانت نثرا —

مما يدل على قريحة قابلة مستجيبة

قال : كما نقل عبد الواحد عن حفيده عبد الرحمن بن محمد بن أبي جعفر دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعت ثماره ، ونفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان ، فسلمت وجلست ، وجعلت انظر يمينه وشأمة ، متعجبا مما أرى من حسن ذلك البستان ، فقال لي يا أبا جعفر ، أراك كثير النظر الى هذا البستان ، قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله ان هذا لمنظر حسن ، فقال ، يا أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت ، نعم ، فسكت عني ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر أخذى أسلحتهم وجلس في مكان مطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة ، وكتيبة اثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها ، جودة سلاح وفراة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت الى وقال : يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك .

وبعد ابني عقيل نتناول التأليف الادبي ، وفي مقدمته ثلاثة كتب في الجغرافية والتاريخ ، مع تفاوت في التناول ، وأولها كتاب الادريسي محمد الحمودي المولود 493 . وقد تلقى تعليمه من علماء سبته التي كانت تفتح بهم على ذلك العهد كما تقدم ثم رحل الى الاندلس ولاشك ان كانت رحلته الى الاندلس في طلب المزيد من العلم ويظهر انه أتمام زمنا طويلا بقرطبة لانه احتفل بوصفها أكثر من احتفاله بغيرها احتفالا خاصا في كتابه الجغرافى ومن ثم استمر في رحلته اتجاه الشمال حيث زار أقطارا من أوروبا ، مثل فرنسا وانكلترا ثم عاد الى الشمال الافريقى ومنه انتهى الى مصر فالشام والجزيرة العربية ، وعامة آسيا الصغرى . وأخيرا نراه ينتهى به المطاف الى جزيرة صقلية عند صاحبها الذي كان بهتم بالعلم روجيه النرماندى والذى الف له كتاب الجغرافى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . وبدهى من (اختراق الآفاق) انه يعنى الوصف الجغرافى ، بقدر ما يعنى الرحلات ، الا انه لم يعتن خاصة الا بوصف الارض ومسالكها .

وللشريف الادريسي ابضا مؤلفات أخرى فى العقاتير والنباتات لكنها غير معروفة العين كما ان له ديوان شعر ولكنه أيضا ضاع ولا نعرف عنه

شيئا معرفة يقينية ، وان كان محمد رضى الشيبى يذكر فى محاضراته التى القاها فى مصر سنة 1960 بالمعهد التابع للجامعة الغربية ما يفهم منه انه اطلع على هذا الديوان ، فهو يقول : ان من اطلع على ديوانه يعنى الشريف الاديسى يدرك مدى تأثر الشعر ببيئته الصقيلة ،، شأن شعراء الاديسى فى ذلك شأن شعر (عبد الجبار) ابن حمديس وغيره من شعراء صقلية البارزين ، ومهما يكن فاننا نعرف عن الاديسى بعض أبيات قليلة من شعره فى ذلك قوله :

دعنى أجل ما بدت لى سفينة او مطيعة (1)
لابد يقطع سمرى امنية او منيعة
وقوله :

ليت شعري اين قبرى ضاع فى الغربية عمرى
لم ادع للنفس ما تش ستاق فى بحر وبحر
وخبرت الناس والار ض لى خير وشعر
لم اجد جارا ولا دا را كما فى طى صدرى
فكأنى لم اسر الا بهيت او بقتل
وقوله :

ان عبا على المشارق ان ار جمع عنها الى ذبول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالفرائب
ويقاسى الظما خلال اناس قسموا بينهم هدايا السحاب
ويقول فى قصيدة يمدح بها :

وليل كصدر اخى غمة قطعناه حتى بلغنا النجاح
وبدر السماء بدا فى النجوم كما لاح فى الناس بدر السماح
ويقول فى قصيدة اخرى فى المدح كذلك :

ومن قبل ان امشى على قدم المنى سعى قلمى فى المدح سعيا على الرأس
هذه النماذج الشعرية ان وقفنا عندها فانها لا تدل دلالة واضحة

(1) الابيات مثبتة فى « الوانى بالوفيات » .

على موهبة شعرية ، ثبت أن الشاعر كان ذا عارضة قوية في الشعر
أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فإنها تدل على حبك للقول مطلقا وعلى الذكاء
أكثر مما تدل على الشعرية نفسها .

وبعد ما اتينا بنماذج من شعر الشريف الإدريسي ، نتوجه الآن الى
نثره . ونثره الفنى نلتهمسه في مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ثم خلال أوصافه
في الكتاب . أما المقدمة فيقول في ديباجتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى

الحمد لله ذى العظمة والسلطان ، والطول والامتنان ، والفضل
والانعام ، والآلاء الجسام ، الذى قدر فحكم ، وراف فأنعم وقضى فأبرم ،
ودبر فأتقن ، وذرا وبرأ ، فأحسن ما صوراً (1) ، فاتصلت بالعقول معرفته ،
وقامت فى النفوس حجته ، ووضح للعيون برهانه ، وقهر الاباب قدرته
وسلطانه ، الهادى الى سبيل حمده تفضلا وارشادا ، والدال على ارتباط
النعم به تولا واعتقادا ، جاعلا عجائب مخلوقاته ، وبدائع مصنوعاته ،
سبيلا الى معرفته ، وسلمنا الى علم قدمه وأزليته ، وان فى بعض ما خلق
لعبرة لاولى الابصار ، وذكرى لذوى الخواطر والافكار . فمن آياته خلق
السماوات والارض ؛ فأما السماء فرفع سمكها ، ونظم سلكها ، وزينها
بالنجوم ، وجعل فيها الشمس والقمر آيين يستضاء بهما فى الليل والنهار ،
ليعلم بمجاريهما تعاقب الدهور والاعصار ، وأما الارض فبسط مهداها ،
وأرسى أطواها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، واسكنها خلقهم فبواهم
املاكها ، وأجرى لهم افلاكها ، وعرفهم مسالكها ، وعلمهم
منافعها ومضارها ، وهداهم الى السير فيها برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ،
كل ذلك منه جلّت قدرته بحكمة وتدبير ، ومشئئة وتقدير ، فتعالى من هذا
ملكه وسلطانه ، وصنعه وبرهانه .

فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ،
ما سبق اليه الملك المعظم ، روجار المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ، ملك
صقلية ، وإيطالية ، وانكردة وقلورية ، امام رومية ، الناصر للملة

(1) زبدت الالف للاطلاق فى السجع ، كما فى القافية . ومنه « ويطيرون بالله الظنونا » .

النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وثبضا ، وصرف الامور على ارادته ابراما ونقضا ، ودان في ملته بدين العدل ، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام بأسباب مملكته أحسن قيام ، وأجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل قوام ، وافتتح البلاد شرقا وغربا ، واذل رقاب الجبابرة من اهل ملته بعدا وقربا ، بما يحويه من جيوش متوفرة العدد والعدد ، وأساطيل متكاثفة متناصرة المدد ، صدق فيها الخبر الخبر ، وتساوى في معرفتها السمع والبصر ، فأى غرض بعيد لم يصل اليه ولم يخطر عليه ، وإى مرام عسير يحظى به لم يتيسر لديه : اذ الاقدار جارية بوفق مبتغياته وارادته ، والسعادات خادمة له ومتصرفة على اختياره في حركاته وسكنانه ، فأولياؤه أبدا في عز تعمسرى شائع ، واعدائه في ذل وبوار متتابع ، فكم مراتب فخر شيد أركانها ، وكم مزايا همم اطلع أقمارها ، ونور أقطارها ، وصير حدائقها روضا زهيا ، وغرسا زكيا ، ثم جمع الى كرم الاخلاق ، طيب الاعراق ، والى جميل الافعال ، حسن الخلال ، مع شجاعة النفس وصفاء الذهن ، وغور العقل ، وفور الحام ، وسداد الراى والتدبير ، والمعرفة بتصاريف الامور ، من نهاية الفهم الناقب ، ومراميه كالسهم الصائب ، ومقنلات الخطوب مستفتحة لديه ، وجميع السياسات وقف عليه ونوماته يقطلات الانام ، واحكامه اعدل الاحكام ، وعطاياه البحار الزواخر ، والغيبوث المواطـر .

أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات ، فلا تدرك بعد ، ولا تحصر بحد ، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الاوفر ، وضرب فيه بالقدرح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة ، وابتدع من الابتداعات الغريبة ، ما لم يسبقه احد من الملوك اليه ، ولا تفرد به ، وها هى ظاهرة للعيان ، واضحة الدليل والبرهان . ومسيرها فى الامصار ، وانتشار ذكرها فى جميع النواحى والاقطار ، أغنانا عن ذكرها مفصلة ومتنوعة ، والاتيان بها متفرقة لا مجتمعة . مع اننا لو ذهبنا الى وصفها ، وأعملنا الفكرة فى تسطيرها ورصفها لبهرتنا آياته المعجزة معانيها ، المتعززة مراميها ، ومن الذى يحصى عدد الحصى ، ويبلغ فيه الى الفرض الاقصى ؟

فمن بعض معارفه السنية ، ونزعانه الشريفة العلوية ، أنه لما انسعت اعمال مملكته ، وتزايدت همم اهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية

ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيات بلاده حثيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفي أى إقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار فى الاقاليم السبعة التى اتفق عليها المتكلمون ، واثبتتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ، ويرجع اليه ، ويعد منه فطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله ، مثل كتاب العجائب للمسعودى ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى ، وكتاب أبى القاسم عبيد الله ابن خرداذبه ، وكتاب احمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب خاناخ بن خاقان الكيماوى ، وكتاب موسى بن قاسم القردى ، وكتاب احمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحاق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطيموس الاقلودى ، وكتاب أرسىوس الانطاكى . .

فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا ، بل وجده مغفلا ، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن ، فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه ، فلم يجد عندهم علما ، أكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رأهم على مثل هذه الحال ، بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة ، جمعا وأفرادا ، فما اتفق فيه قولهم ، وصح فى جمعه نقلهم ، أثبتته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه الفاه وأجازاه . واتمام فى ذلك نحو من خمس عشرة سنة ، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته ، الى أن نم له فيه ما يريده .

ثم أراد أن يستعلم ، يقينا ، صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم فى ذكر أطوال مسافات البلاد وعروضها ، فأحضر اليه لوح الترسيم ، وأقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا ، مع نظره فى الكتب المتقدم ذكرها ، وترجيحه بين أقوال مؤلفيها وأمعن النظر فى جميعها ، حتى وقف على الحقيقة فيها . فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة ، دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، فى وزن أربع مائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم ، وأثنا عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ، ببلادها واقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ،

ومجارى مياهها ، ومواقع انهارها وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والاميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة . على ما يخرج اليهم ، ممثلا في لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ، ويأتون به على هيئته وشكله ، كما يرسم لهم فيه . وان يؤلفوا كتابا مطابقا لما في اشكالها وصورها ، غير انه يزيد عليها بوصف احوال البلاد والارضين في خلقها وبقاعها ، واماكنها وصورها وبحارها وجبالها ، وانهارها ومسافاتها ، ومزدرعاتها وغلانها ، واجناس بنائها وحواصلها ، والاستعمالات التى تستعمل بها ، والصناعات التى تنفق بها ، والتجارات التى تجلب اليها ، وتحمل منها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب اليها ، وحيث هى من الاقاليم السبعة ، مع ذكر احوال اهلها وحياتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينتهم وملابسهم ولغاتهم ، وان يسمى هذا الكتاب .

« بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »

وكان ذلك فى العشر الاول من يناير ، موافق لشهر شوال ، الكائن فى سنة ثمان واربعين وخمس مائة ، فامتثل فيه الامر ، وارتسم الرسم ... واذن فهذا الكتاب يضم جميع انواع الجغرافية ، من طبيعية وتجارية ، وزراعية وصناعية وبشرية ، زيادات على معلومات اخرى اجتماعية وثقافية .

وهى دراسات بحق حافلة بالمعلومات جامعة لاشتات التفصيلات ، وقد ترجم الكتاب الى عدة لغات اوربية ، اما النسخة العربية الاصلية ، فقد بوشر اخيرا طبعه ، طبعة تمتاز بالتحقيق والتمام ، باهتمام المعاهد الجامعية الايطالية ، المخصصة للدراسات الشرقية ، وهو على وشك الانتهاء منه .

ويلاحظ على هذه المقدمة ان صاحبها لم يشفع الحمدة بالصلاة على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كما هو المعتاد فى ذلك العصر وما بعده من العصور الاسلامية ، وسبب ذلك واضح فى ان الكتاب الف لملك لا يومن بالرسالة المحمدية .

على ان المقدمة ضمنها بعض الآى القرآنية ، ولم يشر الى قرآنيتهما

طبعا ، للسبب السالف ، مثل قوله : « لعبرة لاولي الابصار » « فمن آياته خلق السماوات والارض » « فرفع سمكها » « وأخرج منها ماءها ومرعاها » فهذه واردة بالفاظها القرآنية ، الى جانب أخرى تصرف فيها ، مثل « وذكرى لذوى الخواطر والافكار » بدل « لذكرى لمن كان له قلب » ومثل « فأما الارض فبسط مهادها وارسى أطوادها » بدل « والارض دحاها » ، والجبال أرساها » .

والمقدمة في غنبا ، يسودها السجع ، وان لم يعمها كلها ، حيث نجدها تتخلص منه في مثل « وذرا وبرأ فأحسن ما صور » الا ان زدنا الفا بعد صور ، كما هو في نحو قوله تعالى : « وتظنون بالله الظنونا » « فاضلون السبيل » لهذا الغرض وهو مسموح به في السجعات كالقوافي الشعرية واسلوبها ، عموما ، أسلوب مشرق غير متكلف ، واضح ، يزيد في وضوحه ، ما يستعمل من عطف تفسير ومرادفات خفيف المؤنة في محسناته مقتصد في جناسه وطباقه ، قصر الفقر مزدوجها غالبا ، لا يختلف في هذا عن أسلوب عياض ، الا في تجنب التوريات والاشارات الى احداث التاريخ ونحوها ، وكذا غريب اللغة والآثار ، والكلمة الغريبة هي « تعسرى » بمعنى الضخم انعظيم ولعلها كانت رائجة لعده ، ويصح ان يعد في اساليب العهد المرباطى ، فهو لا يصور العهد الموحدى وان ادركه ولعل الادريسى لم يعايش الموحدى في وطنه ، وحتى لو كان ذلك ، فان من شأن هذه المقدمات عدم الانصياع لظروفها الزمنية ، اللهم الا ما كان من كتبها التى يكون لها مساس بالدولة وسياستها .

وعلى كل حال ، فأسلوبه في المقدمة ، كما ذكرنا ، وليس بيدنا بعدها ، الا ما ورد في داخل الكتاب ، وهو غالبا ، منطلق كما سنرى .

فهذه نماذج من أوصافه للبلاد التى زارها ، من ذلك قوله في مدينة القيروان :

أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن المغرب قطرا ، وأكثرها بشرا . وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، واتقنها بناء وانفسها همما ، وأرباحها تجارة ، وأكثرها جباية ، الى أن يقول : فسلط الله سبحانه وتعالى العرب عليها ، وتوالت الجوائح بها ، حتى لم يبق فيها الا أطلال

دارسة ، وآثار طامسة .

وبعد ما يصف طرابلس يقول :

« الا ان العرب اضررت بها وبما حولها ، من ذلك واجلت اهلها ، وأخلت بواديها وغبرت احوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها » .

ويقول في وصف قرطبة :

« ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس وام مدنها ، ودار الخلافة الاسلامية بها وفضائل اهل قرطبة اكثر واشهر من ان تذكر ، ومناقبهم ابهر من ان تستر ، واليهم الانتهاء في السناء والبهاء ، بل هم اعلام البلاد ، واعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى في الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والراتب ، وجليل التخصيص في المطاعم والمشارب . مع جميل الخلاق ، وحמיד الطرائف ، ولم تخل قرطبة قط من اعلام العلماء ، وسادة الفضلاء ، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة ، واحوال واسعة . ولهم مراكب سنية ، وهمم عليّة . وهى فى ذاتها مدن يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز . وفى كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات ، وسائر الصناعات : وفى طولها من غربيها الى شرقيها ثلاثة أميال الخ .

ويقول فى وصف مدينة اغيات :

مدينة يكنفها جبل (درن) ، فاذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بالجبل فمسبل ذوبانها الى المدينة . وربما جمد به النهر فى وسطها حتى يجتاز الاطفال عليه ، وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده . وهذا شئ عابناه بها غير ما مرة ، الخ

ويقول فى وصف مراكش :

ومدينة مراكش فى هذا الوقت من اكبر مدن المغرب الاقصى لانها كانت دار اماره لمنونه ومدار ملكهم ، ومسلك جمعهم ، وكان بها اعداد قصور كثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، واسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه

أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصاحمة تركوا ذلك الجامع معطلا مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه وبنوا لانفسهم مسجدا جامعاً يصلون فيه بعد أن نهبوا الاموال وسفكوا الدماء وأباحوا الحرم ، كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حللاً .

ويقول في فاس :

وبمدينة فاس ضياع ومعاش ومبان سامية ودور وقصور ، ولاهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم ، وجميع آلاتهم . ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الاسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها . وفواكهها كثيرة وخصبها زائد . وبها في كل مكان حمامات فيها عيون نابضة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودواميس مخرنية ونقوش وضروب الزينة . وبخارجها الماء مضطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مؤنقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي اهلها عزة ومنعة .

ويقول في مدينة سبتة :

فأما مدينة سبتة ، فهي تقابل الجزيرة الخضراء ، وهي سبعة جبال صفار ، متصلة بعضها ببعض ، معمورة ، طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها جبل موسى ، وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير ، وهو الذي كان على يديه افتتاح الاندلس في صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج ، يتجهز به الى ما جاور سبتة ، من البلاد ، لكثرة الفواكه بها ، ويسمى هذا المكان بليونش . وبهذا الموضع مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد .

وبلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المينة . واعلاه سور بناء محمد بن أبى عامر ، عندما جاز اليها من الاندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى اعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنیان أسوارها . وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمينة ، فمكثوا في مدينتهم ، وبقيت المينة خالية ، وأسوارها قائمة . وقد نبت خطب الشعراء فيها . وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة ، لكنها لا نجف البتة . وهذه الاسوار التي تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الاندلس لشدة

بياضها . ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم ، لانها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها ، الا من ناحية المغرب ، فان البحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولا يبقى بينهما الا اقل من رمية سهم . والبحر الذى يليها شمالا ، يسمى بحر الزقاق والبحر الآخر الذى يليها في جهة الجنوب ، يقال له بحر بسول ، وهو مرسى حسن ، يرسى به فيكن من كل ريح .

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد في اصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى « التن » الكبير الكثير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة ، تنشب في الحوت ولا تخرج ، وفي اطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم في ذلك دربة وحكمة ، سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان ، الذى لا يعدله صنف المرجان المستخرج بجميع اقطار البحار . وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا ونقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به الى سائر البلاد ، واكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان ، لانه في تلك البلاد يستعمل كثيرا . ومن مدينة سبتة الى قصر مصمودة في الغرب ، اثنا عشر ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر ، تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها الى بلاد الاندلس ، وهى على رأس المجاز الاقرب . الى ديار الاندلس ، ومن قصر مصمودة الى مدينة طنجة غربا عشرون ميلا .

ومدينة طنجة قديمة ازلية ، وارضها منسوبة اليها ، وهى على جبل مطل على البحر ، وسكنى اهلها منه في مسند الجبل الى صفة البحر ، وهى مدينة حسنة لها اسواق وصناع وفعلة ، وبها انشاء المراكب ، وبها اقلع وخط . وهى على ارض متصلة بالبر ، فيها مزارع وغلات ، وسكانها برابر ينسبون الى صنعها .

ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الاعظم ، آخذا في جهة الجنوب الى ارض ششمس (1) . وتششمس كانت مدينة كبيرة ، ذات سور من

(1) حث يوحد الآن حرائب « لكس » في الضفة المواجه لمدينة العرائش التى ببيت بعد ثلاثة مرون من هذا التاريخ .

حجارة ، تشرف على نهر سفدد ، وبينها وبين البحر نحو من ميل ، ولها قرى عامرة بأصناف من البربر ، وقد أفنتهم الفتنة ، وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم .

ثم يقول متصلا بهذه المدينة الخربة :

ومن تشمس الى قصر عبد الكريم وهو على مقربة من البحر ، وبينه وبين طنجة يومان ، وقصر عبد الكريم مدينة صغيرة ، على ضفة نهـر « لكس » ، وبها أسواق على قدرها ، يباع بها ويشترى ، والأرزاق بها كثيرة ، والرخاء بها شامل .

وبعد تعرضه للقصر الكبير هذا ، يتصل بمدينة أصيلا فيقول :

ومن مدينة طنجة الى مدينة أزيلا ، مرحلة خفيفة جدا ، وهي مدينة صغيرة ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير ، وفي أرضها أسواق قريبة . وأزيلا هذه ، ويقال أصيلا ، عليها سور ، وهي متعلقة على راس الخليج المسمى بالزقاق . وشرب أهلها من مياه الآبار .

وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدد ، وهو نهر كبير عذب ، تدخله المراكب ، ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدم ذكرها . وهذا الوادى أصله من ماعين ، يخرج من بلد دنهاجة ، من جبل البصرة ، والماء الثانى من بلد كتامة ، ثم يلتقيان ، فبكون منهما نهر كبير . وفي هذا النهر يركب أهل البصرة ، في مراكبهم بأمتعتهم ، حتى يصلوا البحر ، فيسيروا فيه حيث شاعوا .

ومن هنا يتصل بمدينة البصرة فيقول :

وبين تشمس والبصرة دون المرحلة ، على الظهر . والبصرة كانت مدينة مقتعدة عليها سور ليس بالحصين ، ولها قرى وعمارات وغلات ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب بها كثيرة . وهي عامرة الجهات ، وهواؤها معتدل ، وأهلها أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب .

وعلى نحو ثمانية عشر ميلا منها مدينة بابا قلام ، وهي من بناء عبد الله بن ادريس ، بين جبال وشعار متصلة ، والمدخل اليها من مكان واحد ، وبالجملة انها خصيبة كثيرة المياه والفواكه .

ثم يتصل بمدينة قرت (كرت) فيقول :

وعلى مقربة منها مدينة قرت ، وهى على سفح جبل منيع ، لا سور عليها ، ولها مياه كثيرة وعمارات متصلة ، وأكثر زراعتهم القمح والشعير وأصناف الحبوب ، وكل هذه البلاد منسوبة الى بلاد طنجة ومحسوبة منها (1) .

ويقول فى سلا :

ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر وكانت فى القديم من الزمن مدينة سلا على ميلين من البحر ، وموضعها على ضفة نهر أسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة ، وهناك قصبة فى البحر ، وأما شالة القديمة فهى الآن خراب وبها بقايا بنيان قديم .

وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول اليها من جهته وهى مدينة حسنة حصينة فى أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج ونصرف لاهلها ، وسعة أموال ، ونمو أحوال . والطعام بها كندر ورخيص جدا ، وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الاندلس يقطعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع ، وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ، ويتجهزون منها بالطعام الى سائر بلاد الاندلس الساحلية ، ترسى المراكب بها فى الوادى الذى قدمنا ذكره وتجاوز المراكب على فمه بدليل

يقول فى فضالة ترده المراكب من بلاد الاندلس وحائط البحر الجنوبى ، فتحمل منه أوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا ، وتحمل منه أيضا العنم والمعز والبقر . ومن فضالة الى مرسى آتفى 40 ميلا ، وهى مرسى مقصود ناتى اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير ...

وبقول فى لشبونة « ولشبونة على نحر البحر الاعظم وعلى ضفة النهر من جنوبه . وبقالة مدينة لشبونة حصن المعدن وسمى بذلك لانه عند هيجان

(1) هذا نص مليد يحدد ما كان عليه إقليم طنجة من الاتساع لذلك العهد .

البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فإذا كان زمن الشتاء قصد الى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به الى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الارض ، وقد رايناها عيانا ، ومن مدينة لشبونة كان خروج المغريرين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغريرين الى آخر الابد .

وذلك انهم اجتمعوا ثلاثة رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيم لاث شهر ثم دخلوا البحر فى أول طاروص الريح الشرقية فجزوا بها نحوا من أحد عشر يوما فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروث قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى وجزوا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا باخذه عد ، ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر اليها ، فقتصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلدها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقتصدوا اليها ليروا ما فيها ، فما كان غبر بعيد حتى احيط بهم فى زوارق هناك فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار فراوا رجالا شقرا زعرا ، شعور رؤسهم شعور سبطة وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة ايام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى سألهم عن حالهم ، وفيما جاعوا ، وابن بلدهم . فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا وأعلمهم أنه ترجمان الملك

فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم ، أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان ، بالامس من أنهم اقتحموا البحر ، لىروا ما به من الاخبار والعجائب وبقفوا على نهايته . فلما علم الملك بذلك ضحك وقال : للرجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جزوا فى عرضه شهرا ، الى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة نجدى .

تم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جىء بنا الى البر ، فأخرجنا وكفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل ، الى أن تصاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الاكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء ، وأصوات أناس ، فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا ، فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فطلونا من وتافنا وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا احدهم : اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقال : ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقتال زعيم القوم : والسفلى ؟ فسمى المكان الى اليوم « أسفى » .

فهذه النماذج نراها تختلف قوة وضعفا في استعمال الحلية البديعية ، فأكثرها استعمالا لها ما يتصل بالقيروان وطرابلس وقرطبة ، وأقلها ما يتصل بفاس وسلا ومراكش ، وما عدا هذه خال من تلك المحسنات تماما ، وهو ما يوصل بوصف أغمات وفضالة ولشبونة وما تضمنته من قصة خروج المغربين منها .

وهذه المحسنات لا تتعدى المحسنات اللفظية ، فليس فيها طباق مثلا بالمرّة ، بل فيها سجع وفيها جناس ، كما في قوله « غيرت أحوالها وغورت مياهها » و « أيسرها أموالا وأوسعها أحوالا » و « سعة أموال ونمو أحوال » و « دارسة وطامسة » و « وحسنة وحصينة » و « ودار ومدار » و « محنية ومبنية » .

على أن هذه الصنعة لم تكلف أسلوبه أية كلفة ، فهو كما قلنا سابقا أسلوب شتى مشرق ، واضح يستعين على وضوحه بما سلف من عطف تفسير ومرادف ، وغالبا ما يأتى بالنفصيل بعد الإجمال ، كقوله : « أضرت بها وبما حولها ، وأجلت أهلها ، وأخلت بواديها وغيّرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها » و « نجارها مياسير ، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة » وقوله : « فتحمل منه أوساقها طعاما : حنطة وشعيرا وفولا وحمصا » وبالرغم من أنه يتعرض للاوصاف المشابهة ، فإنه يتحامى

فيها التكرار ، ويخالف بينها ، كقوله كما نقدم في وصف القيروان « أم أمصار وقاعدة اقطار » مع قوله في وصف قرطبة « قاعدة بلاد الاندلس وأم مدنها » ويقول واصفا سلا « سعة أموال ونمو أحوال » مع قوله في القيروان « أيسرها أموالا وأوسعها أحوالا » وقوله في قرطبة « مياسير لهم أموال واسعة وقوله في سلا « ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها » مع قوله في مراكش « وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة » وقوله فيها وكان بها أعداد قصور ورحابها فسيحة ومبانيها سامية مع قوله في فاس « ضياع ومعايش ومبان سامية ، ودور وقصور » سوى هذا فقتصر الفقر حظ شائع بين هذه الألوان والتي سبقت فيما مضى بالمقدمة .

ويلاحظ عليه في قصة المغررين ، أنها خالية من كل زينة ، وأنه استعمل فيها لفظتين عاميتين ، وان التمس لهما أصل في الفصيح ، وهما « الطاروس والتروش » فالغالب أنه أنى بالقصة ، مروية بالفاظها الاولى ، وهو صنيع معروف في كتب تواريخنا ، كما في الكامل لابن الاثير والبيان العرب لابن عذارى ، قديما ، ومحاضرات التاريخ الاسلامي ، للخضري ، حديثا ، وبذلك نتوقف في الاعتماد على أسلوب القصة هذه عند حكمنا على الشريف الادريسي .

بعد كتاب الادريسي يأتي كتاب آخر ، يختلف بعض الاختلاف عن الاول ، اذ فيه الجانب التاريخي قوى جدا ، بل انه في قصد صاحبه يعد في التأليف التاريخية ، بخلاف كتاب الادريسي ، فهو كتاب جغرافية وصفية ، على طريقة ما تقدمه من كتب المسالك كما أن الجانب التاريخي فيه أسطوري يدل على قلة البضاعة التي كانت لصاحبه ، وعلى عدم تبصر بناموس الكون والخلقة ، وكتابتنا هذا تقويم للبلدان وخطتها وما الى ذلك ، تقويما علميا في أغلبه ، وان لم يخل من بعض الاساطير ، التي كانت مسلمة القبول لتلك العهود التي سلف ذكرها فيما قدمناه عنه .

لقد انتهى الادريسي من كتابه في العقد السادس من السادس ، وتلاه عندنا مؤلف آخر من تأليفه في العقد الثامن ، عند نهايته ، من نفس القرن وان كان الادريسي معروفا باسمه وموطنه ونسبه للناس ، فان هذا المؤلف لا يعرف عنه شيء ، والغالب أنه كان من مراكش السف

كتابه ارضاء لوزير من وزراء الخليفة الموحدي الثالث ، ابي يوسف يعقوب المنصور ، الذي ردد ذكره كثيرا في هذا الكتاب ، ودعا مرارا دعاء المقربين منه ، وأشاد بعمله احيانا ، كذلك ، كما ندد بمن يفاوئونه ، مما يدل على انه كان من كتاب الدولة ورجالها المقربين ، وان لم يعرف عنه الا كتابه ، ولم يعرف عن هذا الوزير الا اسمه الذي ذكره هو ، ولم نر لغيره ذكرا له .

فالكاتب اذن ، كان بايعاز من هذا الوزير ، كما كان كتاب الادريسي بايعاز من ذلك الامير ، ولكنه يختلف عن كتاب الادريسي في امور ، ان اسلوبه ، باستثناء المقدمة ، لا اثر فيه للسجع ولا لحلية بديعية اخرى ، وانه يخلله ببعض الابيات الشعرية القليلة ، كما يفعل البكري ، الذي نقل عنه منها ، وانه يطيل في ذكر القضايا التاريخية ، لدرجة ان ان القارئ يجد نفسه ، ينسى هدف الكتاب عندها ، بل ان المقدمة التي وضعها المؤلف نفسه ، تجعله يشعر بأنه مقبل على كتاب في التاريخ ، وهذا وان كان البكري ، قد سبقه اليه ، فوجدنا في كتابه بعض التواريخ ، التي يعد كتابه مصدرها الاول ، الا انه لم يطل طول هذا المؤلف في بعضها ، اما الادريسي فانه لا يتقف عند التاريخ الا وقفات قصيرة جدا ، فيها اشارات وايماءات ، وليس فيها سرد لقصة ، الا ما كان منه ازاء الفتية المغررين

وهناك جهة اختلاف اخرى في الموضوع ، فكتاب الادريسي يعد كتاب جغرافية لعالم ذلك الزمان ، فهو كتاب جغرافية للعالم قبل كل شيء اما كتابنا هذا ، فلا ينعدى افريقية الشمالية ، مضافا اليها ، مكة والمدينة ، اللتين زارهما ، حاجا كما يبدو ، فقد ابتدا بهما ، ثم عرج بعد ذلك على مصر ، فأطال في ذكر مدنها ، كما شفعها بتاريخها الفرعوني ، ومآثره ، التي على رأسها الاهرام ، وان لم يشاهدها عن كثب واستمر مغربا يذكر السواحل ، كما يذكر الدواخل والصحاري ، بمدنها ومحاصيلها واهاليها ، الى ان انتهى الى المغرب الاقصى فتجرد له ، وأوغل في جنوبه ، اذ انتقل من السوس الى السنغال ، ومن ثم الى غانة ، التي رجع القهقري منها الى « افريقية » حيث القيروان وغبرها وفي هذا الجزء اعتنى بذكر المسافات ووصف الطرق الوعرة ، ولكنه في ذلك كله كان ناقتلا ، ولم يكن مشاهدا ، ولهذا وقع في بعض الاخطاء التي لا نقرها الخريطة الجغرافية ، مثل ذكره لنيل مصر ، في غربى القارة السوداء .

فما عنوان هذا الكتاب ؟ انه « كتاب الاسنبصار في عجائب الامصار »
الذى لم يتردد ذكره في كتب تواريخنا الا نادرا ، كما نجد في كتاب روض
القرطاس لابن ابي زرع ...

وقبل ان ندخل الى صلبه ، لنعرض منها بعض النماذج ، نعرض
مقدمته الواردة ، كما يلي :

الحمد لله عالم الاسرار ، غافر الاضرار ، الواحد القهار ، العزيز
الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار نحمده حمد معترف
بوحدايته ، ونشكره شكر مفترف من بحر نعمته ، متقلب في ظل رحمته ،
ونصلي على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبيانات القاهرة ،
الاخذ عن النار بالحزات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى
آله الاخيار ، واصحابه الابرار ، صلاة باقية الى يوم الدين ، ونرضى عن
نجله الاظهر ، وسليته الأبر ، الامام المهدي الذى جدد رسم الدين بعد البلى ،
وجاهد في سبيل الله حق جهاده وابلى ، والى طريق الحق دعا النقسرى
والجفلى ، وعن الخلفاء الراشدين ، أئمة الهدى ، ومصابيح من رشد
واهتدى ، ونوالى الدعاء لخليفتهم المبارك الاسعد ، سيدنا أمير المؤمنين
يعقوب بنصر تتصل اسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر فوق ارادته .

وبعد لما كان العلم انفس ما يقتنى ، وأشرف ما به يعتنى ، لم يزل
ينقله خلف عن سلف ، ويحمله ذو شرف ، عن ذى شرف ، وجب ان يكون
أفضل ما يهديه مهدي ، أو يستهديه مهدي ، رغبة في الاتسام برسمه ،
والارتسام والدخول في رعيته ، والاستئثار بحياسة مآثر من تواريخ الامم ،
وسير العرب والعجم ، اذ كان المرء يقف منها على اخبار من غبر ، وآثار
من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت ، كأنها عادت الى الحياة
او كادت .

لم يبق شيء من الدنيا اسر به الا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة وفي الدفاتر من اخبارهم اثر

وقديما وضع الناس الواريخ ورتبوها ، ودونوا الاخبار وكونوها ،
حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شاردتها ، وما زال واضعوه متقلبون بين
اقلال واكثر ، واسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة الى غايبة

يضيفها ويسطرها ، كثيرا وما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم بالتوارخ المؤلف ، والتوالي المخرقة ، تفننا لمسراتهم ، ونرضيا لمبراتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الاول ، ولا عرفت اخبار الملل والدول ، ولذلك رايت الشيخ الاجل المعظم الاغر الاسنى ، الامجد المكرم ، ابا عمران ابن الشيخ الرفع ، المرحوم ابي يحيى بن وقتين ، ادام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد ابر على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على اهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ، ومراعاة الفقهاء ، وكانت همته السامية الى طراف الاخبار ، واثير اهل الآثار ، الى أن سادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعتنى الرغبة والنصدي لشكر النعمة الى أن أطرز باسمه كتابا يجمع بين الاخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك احسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه ، بمنه حسبما أردته ، ولما اتفق وصفه على على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، بعد أن قصدت فى اكثره التحقيق ، واطردت فى مستودعه التلقيق .

ننظر الى نسج المقدمة ، فنلاحظ هلهلة فى بعض أطرافها كما فى قوله : « المبعوث بالآيات الباهرة ، والبيئات القاهرة ، الأخذ عن النار بالجزات ، الداعى الى سبيل ربه بالآيات البينات » .

فنجد فى هذه الفقرة الآيات البينات تتكرر مرتين ، وان فرق أولا بين الموصوف وصفه بوصف آخر ، وهو قوله « الباهرة » ثم اقام هذه الصفة « البينات » مقام اسم موصوف بصفة أخرى ، وهى « القاهرة » وانتهى أخيرا الى وضعهما « بالآيات البينات » ولا خفاء ، فى ضعف الافتتاح بالحمد « لله على الاسرار ، غافر الاضرار » . فالحمد على الاسرار ، غامض الاغوار ، والوصف بغافر الاضرار ، بدل الذنوب انما اقتصره هذا السجع ، الذى امتد حبله بالراء فيما بعد ، وكان أحق بمكان « غافر » فى هذا ، كلمة « كاشف » هكذا « كاشف الاضرار » كما هو فى القرآن الكريم « كاشف الضر » او « كشفنا عنه ضره » ، و « فكشفنا ما به من ضر » و « كشف الضر » مما تردد ذكره كثيرا فى كتاب الله السدى كان يحفظه المؤلف بلا ريب .

ثم أن الوصل بكون الله « لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار » فيه ما فيه من هذا السهاد القابض لليدين ليلا ونهارا ، فالكلمات لا ترتاح الى معانيها ، مجاورا بعضها بعضا ، أو منكئا بعضها على بعض ، كمعنى القبض على معنى السهاد ، واطافة هذا الى الليل ثم النهار ، فهو في الليل معتول للناس ، حيث النوم والسبات فيه ، أما النهار ، فانما هو عندهم معاش ، كما في القرآن كذلك ، فالسهاد الذي هو الارق ، لا يصور في النهار عادة ، وان جعل بمعنى اليقظة فلا ينسجم مع الليل عادة للناس ، وقد جعل لهم لباسا وسكنا . وكان المؤلف في هذا استند على كونه تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » فتصرف هذا التصرف المريب ،، كما رأينا في نفى القبض عن السهاد ومن هذه الابهلة نجد كلمة « الدخول » في قوله « رغبة في الاتسام برسمه » والاتسام والدخول في رعيته « قد أحدثت نفورا في السياق ، فهي لم تات الا لتجلب الينا السجعة في « رعيته » انسجاما مع كلمة « رسمه » السابقة ، وكان في الامكان قبول ذلك عن صفاء خاطر ، ولكن الاتسام قبلها أزعجها ، ولا حاجة اليه ، الا ما فرضه الرغبة في الجناس به مع « الاتسام » قبله ، ولولا ذلك ، لكان الكلام بدونه ، هكذا « رغبة في الاتسام برسمه » والدخول في رعيته « لا ضيق فيه ولا عثر في سيره .

هذا ما يتصل بالنسيج ، اما الموضوع ، فواضح من المقدمة ، أن المؤلف هدف بها الى أن يبين قصده وهو التاريخ أساسا ، فبناه على البلدان ، بدل أن يبنيه على الدول وذكر ملوكها وتسجيل أحداثها ، فذكر بعضا من ذلك في سياق ذكره للبلاد

فأما تعرضه لمصر ، ففيه كثير من الخرافات التي كانت لعهد تحاك حول القديم ، نعى الفرعوني منه بصفة خاصة وهو على كل حال لا يعنينا هنا .

وأما تعرضه للمغرب ، فهو خال من هذه الخرافات ، لانه لم يتناول من قضاياه الا ما كان متصلا بتاريخه الاسلامي ، وهذا معروف مسجل تسجيلا دقيقا في توارىخنا المغربية والمشرقية ، وفي مقدمة هذه كتاب الكامل لابن الأثير .

نفى هذا الجانب ، نأتى مثلا بقصة هجرة ادريس الى المغرب وتأسيس

دولته به ، ثم اغتياله من قبل العباسيين ،، وهذه القصة قد أجمع عليها المؤرخون في تفاصيلها ، وأقدم ما بيدنا في تسجيلها ، كتاب مقاتل الطالبين لأبى الفرج الاصبهاني صاحب الاغانى والمتوفى اواسط القرن الرابع ، فهي لا تختلف عن غيرها ، وعما ذكره صاحبنا الا في جزئية او اثنتين منها سنذكرها والقصة الواردة في كتابنا ، هكذا ناقلنا عن أبى الحسن على بن محمد بن سليمان النوفلى :

أن ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه انهزم في وقعة فخ سنة 169 (تسع وستين ومائة) فاستتر مدة ، والحق السلطان في طلبه ، وضاعت عليه المذاهب ، ورغب في الهروب من بلد المشرق ، فخرج مع راشد ، وكان من موالى العلويين ، وأصله من البربر ، ليثويه في قومه ، ويأمن من عدوه ، وكان راشد عاقلا شجاعا ايدا ، ذا فهم ولطف وحزم ، فخرج به في غمار الحاج ، وغير زيه والبسه مدرعة من وحش الثياب ، وصيره كالغلام يخدمه ، وان امره أو نهاه أسرع . فسار به مستخفيا من موضع الى موضع ، حتى قربا من بلاد افريقية ، فترك الدخول به في بلاد افريقية ، وسار به الى بلاد البربر ، حتى انتهى الى بلاد فاس وطنجة ، فنزل به في مدينة ولىلى ، وكانت مدينة رومية قديمة ، بطرف جبل زرهون في الغرب منه ، ونسبى الآن تيسرة ، فنزل بها على اسحاق بن عبد الحميد الاوربى ، وكانت اورية آنذاك من أعظم قبائل بلاد المغرب ، وكانت لها مدن كثيرة ، منها مدينة سكوما ، وكانت على مقربة من فاس ، وكانت مدينة عظيمة لم يكن بالمغرب أعظم منها ، يقال ان موسى ابن نصير ، لما دخل بلاد المغرب ، نازل مدينة سكوما ، وحاصرها حتى افتتحتها عنوة ، واخذ فيها سبيا كثيرا ، وكتب الى امير المومنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، بقول له : قد بعثت اليك بسبى مدينة سكوما وهو مائة الف رأس . فكتب اليه الوليد بن عبد الملك : ويحك ، أظنها من بعض كذباتك ، فان كنت صادقا ، فهذا حشر الامم ..

وكذلك يقال ، انه قتل فيها ما لا يحصى له عد ، وكان اسحاق بن محمد الاوربى معتزلى المذهب ، فوافقه ادريس على مذهبه ، واتم عندده ، وامر اسحاق قبيلته بطاعته وتعظيمه ، وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد امير المومنين ، فوصله خبره ، فغمه ذلك ، فمشكا ذلك الى يحيى بن خالد .

فقال له : أنا اكفيك خبره يا امير المومنين ثم ارسل الى سليمان بن جرير الجزيري ، وكان رجلا من ربيعة متكلم ، ممن يرى رأى اليزيدية ، متعصبا لآل ابي طالب ، وكان جلدا شجاعا ... الى أن قال : فارغبه يحيى بن خالد فى المال، ووعدته عن نفسه وعن أمير المومنين بمواعد عظيمة، ودعاه الى قتل ادريس ، والتلطف فى امره ، فأجابه الى ذلك ، واعطاه مالا جزيلا ، ودفع اليه قارورة فيها غالية مسمومة ، ووجه معه رجلا من ثقاته ، فانطلق سليمان مع صاحبه ، فلم يزالا يتغلغلان فى البلاد ، حتى وصلا الى ادريس ، وكان ادريس عالما برياسة سليمان بالزيدية ، فلما وصل اليه قال ، انسى جثتك بنفسى وحملتها ما حملتها عليه ، لمذهبى فيكم أهل البيت ، فجئتك لا فى حاجة اليك ، الا لانصرك بنفسى ، فسر ادريس بقبوله ، وقبله أحسن قبول ، فأحسن نزله ، وأكرم مثواه ، وأنس به ، فكان سليمان يجلس فى البربر ، ويظهر الدعاء الى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحتج لاهل البيت كاحتجاجه بالعراق ، فأعجب ذلك ادريس منه ، ومكث عنده مدة ، وهو يطلب الغرة فيه ويترصده الفرصة فى امره ، فدخل عليه سليمان ، ومعه القارورة ، فلما أنبسط اليه ادريس وأخلى له وجهه ، قال له سليمان : جعلنى الله ، فذاك هذه القارورة فيها غالية رفيعة أوصلتها معى ، وأعلم انه ليس ببلدك طيب ، فجئتك بها ، ووضعها بين يديه ، ففحتها ادريس ، وشمها وتخلق بها ، وقيل ، أخرج سكيناً ، وقطع به تفاحة ، واعطاه النصف الذى يلى الجهة المسمومة من السكين ، ثم انصرف سليمان الى صاحبه ، وقال له ، قم ، قد تم مرادنا ، وقد كان أعد فرسين فركباهما ، وخرجنا يطلبان النجاة (الى آخر القصة) .

لقد أورد أبو الفرج ، ناقلا ذلك ، عن أحمد بن عبيد الله بن عمار ، وهذا عن نفس الرجل الذى نقل عنه بواسطة آخرين ، صاحبنا اعنى به علي بن محمد بن سليمان النوفلي ، قال هذا : حدثنى أبى وغيره من اهلى ، وحدثنى به أيضا علي بن ابراهيم العلوى ، قال : كتب الي محمد بن موسى يخبرنى ، عن محمد بن يوسف ، عن عبد الله بن عبد الرحيم بن عيسى (ثم ساق القصة) وفيها زيادة أن ادريس وصاحبه نزلا بمصر ، على رجل من موالى بنى العباس ، وأن ادريس قد أفضى اليه بأمرهما ، فهياً لهما الرحلة الى آخر القصة ، وبلغ الرشيدة خبره ، قال الاصفهاني :

فقال النوفلي خاصة في حديثه ، يعنى المروى ، وخالفه علي بن ابراهيم (الذى روى عنه سلفا) وغيره ، ثم انساق على نحو ما وجدناه في مؤلفنا ، ولكنه لم يذكر ما ورد عن راشد ، من انه كان من موالى العلويين ، واصله من البربر وهذا الوصف مهم ، ولابد ان يكون ، كما ذكر مؤلفنا ، هالفتة في الرجل ، الى هذا الحد ، وكونه بهذا الاخلاص ، كل ذلك يفترض ان يكون هذا الرجل من موالى البيت الفاطمى ، ثم الاتجاه الى البربر ، يفترض كذلك ان يكون الرجل منهم .

ولم يرد في قصتنا الأخيرة ، ذكر لاسحاق الاوربى المعتزلى ، وهى قضية مذكورة في غيرها ، ولها اهمية في هذا الاعتزال الذى ذكر مؤلفنا ، ان ادريس انساق اليه هذا المذهب ، بسبب من اسحاق نفسه ، وان كان الواقع ان الزيدية والاعتزال بينهما وشائج قوية ، وان عبد الله والد ادريس كان من رجال الاعتزال ، فلا شك ان ادريس كان معتزليا قبل ان يلتقى اسحاق هذا ، فالمذهب اذن ربط بين الرجلين قبل لقائهما في المغرب ، الذى كان قد انتشرت فيها الواسلية بدرجة قوية (1) .

كما انه لم يرد في القصة الأخيرة ، ان ادريس كان على معرفة بسليمان الشماخ ورياسته في الزيدية ، قبل ان يقدم عليه ، بل ذكر فيها ان سليمان مت الى ادريس بمذهبه ، وانه اى ادريس ، انس به بعد ذلك واجتباه .

هذا نموذج من الجانب التاريخي البحث الذى وجدناه في الكتاب ، ويليهِ نموذج آخر في قيام العبيديين بالمغرب ، لا يقل عن هذا ، كما ان فيه معلومات عن البرغواطيين وعن حاميم ، ذكرها البكرى في كتابه الجغرافى ، بنصوصها الادبية الشعرية ، مما يدل على ان صاحب الاستبصار تقصى البكرى ، تقصبا عظيما ، في الموضوع ، وفي المنهج كذلك الذى خلط بكثير من قضايا التاريخ .

وبعد هذا نسوق نماذج من وصفه للاقطار ومدنها ، كما يلى :

مدينة تلمسان ، مدينة عظيمة قديمة ، فيها آثار كثيرة ازلية ، تنبىء انها كانت دار مملكة لامم سالفه ، وهى في سفح جبل اكثر شجره الجوز ،

(1) انظر ما كتبناه في رسالة المغرب العدد 136 تحت عنوان « كيف أسس المولى ادريس مملكته »

وكان لها ماء مجلوب من عمل الاوائل ، من عيون تسمى « بوريط » بينها وبين المدينة ستة أميال ،، كانت تلمسان دار مملكة زناتة ، وحواليها قبائل كثيرة ، من زناتة وغيرهم من البربر ، وهى كثيرة الخصب رخيصة الاسعار ، كثيرة الخيرات والنعم ، ولها قرى كثيرة ، وعمائر متصلة . ومدن كثيرة ، ترجع الى نظرها .

وبعد ما يستمر فى وصف جهاتها وغلاتها ومياهاها ، يقول :

ومدينة تلمسان ، مدينة علم وخير ، ولم تزل دار العلماء والمحدثين ، وكان هذا المغرب الاوسط قد تملكه العلويون من بني ادريس ، وامرهم مشهور ، وتملكوا بلاد الاندلس وتسموا بالخلافة .

وهكذا نراه قد انهى هذا الوصف بملحمة تاريخية عن الادارسة .

ويقول فى مدينة فاس :

هى اعظم مدينة من مصر الى آخر بلاد المغرب ، ثم يقول فيها : ومدينة فاس مدينتان كبيرتان مفترقتان ، يشق بينهما نهر كبير يسمى بواى فاس ، يدور عليهما سور عظيم ، وبين المدينتين قناطر كثيرة ، وتطرد فيها جداول ماء لا تحصى ، تخترق كلتى المدينتين تسمى بالسوانى ، لابد لكل دار من ديار المدينتين منها ، وفيها عيون كثيرة لا تحصى عددا ، وفيها من ارحية الماء نحو 360 (ستين وثلاثمائة) رعى ، وهى فى الزيد ، وربما وصلت 440 (اربعمائة) ، والنهر الذى يخترق مدينة فاس ، ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجب ، فيها نحو 60 (الستين) فوارة ، فى دائرة ، يجتر منها هذا النهر الكبير ، بينها وبين المدينة نحو 10 (عشرة) اميال ، فى بسيط من الارض ، يكاد لا يتبين جرى الماء فيه ، لاستواء ارضه .

ومدينة فاس محدثة ، اسست عدوة الاندلس فى سنة 192 (اثنتين وتسعين ومائة) وعدوة القرويين فى سنة 193 (ثلاث وتسعين ومائة) فى ولاية ادريس بن الفاطمى ، ومن ذريته بفاس الى اليوم ، ونحن فى سنة 587 (سبع وثمانين وخمسمائة) (1) .

(1) المؤلف يكتنى بالارتام . اما الكلمات الموصوعة بين هلالين نهى منا .

ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح ، قد بنيت أكثر جنتاتها الملاصقة لها دورا ، وأضيفت إليها ، وفيها اليوم 3 (ثلاثة) جوامع للخطبة ، جامع عدوة الاندلس ، وهو جامع كبير متقن البناء ، يقال ، ان ابن عامر زاد فيه ، وجامع عدوة القرويين ، جامع كبير ، اكبر من جامع الاندلس ، وزيد في هذه المدة في هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر .

وبعد ما يطيل في وصف هذا الجامع ، وما زيد فيه من أبواب ، في حدود سنة سبع وثمانين وخمسمائة يتصل بالجامع الثالث « بقصبة السلطان ، جامع شريف معظم فيه الخطبة ، وأحدثها فيه هذا الامر العزيز (يريد يعقوب المنصور) — أدام الله اعتلاه — وبعد ما يفيض في ذكر محاصيل المدينة وغلاتها وما تمتاز به كل عدوة عن الأخرى ، يقول فيها :

وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب ، بل وبلاد المشرق والاندلس ، لا سيما في هذا الامر العزيز ، أيد الله دوامه ، ومنها يتجهز الى بلاد السودان وإلى بلاد المشرق ، ومنها يحمل النحاس الأصفر الى جميع الآفاق .

قال الناظر ، هذه الديانة العظيمة ، لما كانت على هذا الوضع المتقدم ، وفاضت عليها بركة الواضع لها ، وهو ادريس بن ادريس العلوي الناطمي رضى الله عنه ، نرب على هذا اتساع مكاسب أهلها ،، (واستمر واصفا لذلك) ثم نعرض للجانب التاريخي فقال :

وكان فيها من الولاة المثلثين ، رجال عظماء ، عقلاء فضلاء ، بادروا الى مخاطبة الخليفة ، أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وتساعدوا مع الوالى المتصرف بها ، فأدخلوا الموحدين ، أعزهم الله ، يوم الاثنين في العشر الاول من ذى الحجة سنة 540 (أربعين وخمسمائة) وسلمت أملاكهم وأموالهم ، وما زالت أحوالهم تنعم ، وأموالهم تتزايد ، مع الامن والدعة والسكون ، في ظل هذا الامر العالى يهدى الله ثم قال وذكرنا انه كان في الدولة اللمتونية رجال فضلا علماء حلماء ، وشهريهم فيها أغنت عن ذكرهم . وبعد كلام طويل اسنطرده فذكر وادى وانسيفر فقال : وهذا الوادى هو المعروف بأمر الربيع ، وهو مثل وادى سبو ، ولو عابنه اولو الامر ، أدام الله نصرهم ، لحدثوا عليه قنطرة ، على قوس واحد ، مثل قنطرة السيف المشهورة ،

وبمثل هذه الآثار تفتخر الملوك ، فهي من أعظم منافع البشر ، (وعاد الى فاس فقال) : وبالقرب منها أيضا قلعة يقال لها قلعة زيد ، فيها مسجد ، يقال ان عقبة بن نافع بناها ، وفي سياق هذا الذكر تعرض لبلاد تازا ، فقال :
وقد بنى ببلاد تازا في هذه المدة ، مدينة الرباط ، يريد رباط تازا وهي المدينة المعروفة ، التي قال فيها :

واسست هذه المدينة من نحو 20 سنة ، في حين توجه الخليفة ، الى فتح بلاد بنى الناصر (يريد بجاية) وشيدت سنة 568 مدينة الرباط على الطريق المار من بلاد المغرب الى بلاد المشرق ، وتسمى مكناسة نازا ، وانتهى الى ذكر جبال الريف ، فقال عن جبال فزار وفيه خشب الأرز العتيق وبعد كتاب الاستبصار الذي لا نعرف مؤلفه حتى الآن ، نتوجه الى كتاب آخر ، معاصر وان تأخر عنه شيئا في الجملة ، كما اختلف عنه في المضمون ، لانه كتاب تاريخي أدبي في عموده ، ثم انه جغرافي في هامشه ،

وبعبارة ، انه كتاب يصح أن يوضع ضمن الكتب التي نكون « دليلا » للبلاد ، تتناولها من جميع نواحيها ، ثقافة واسعة عنها ، تضم التاريخ والجغرافية وتاريخ الرجال ، والمستوى العلمي والأدبي الذي كان لعهدهم .

على ان المؤلف لم يكن مجرد عارض ، بل كان يتدخل بشخصه في نقد بعض المواقف والآثار ، بل كان يبرز بنفسه في ذلك الميدان وهو شخصية هامة فذة ، يعتمد عليها في فرع خاص من الأدب ، ذلك الفرع هو التاريخ ، اما هذه الشخصية فهي لابی محمد عبد الواحد ابن علي التميمي المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، والكتاب هذا هو أقدم مرجع لنا مغربي يعتمد عليه كل الاعتماد في التاريخ العام لهذه البيئات التي تضم الشمال الافريقي عامة والاندلس ، فحتى الآن ليس بيدنا مرجع آخر في تاريخنا السباسي اقدم من هذا المرجع الذي ضم الى جانب التاريخ جغرافية هذه البلاد وخططها في كتابه الذي قال في صاحبه المستشرق الروسي كراشكوفسكي في كتابه « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » انه العالم العربي الوحيد الذي اجتهد في ان يفصل بين منهجي الجغرافيا والتاريخ ، ويكرر هذا في حق عبد الواحد المراكشي الذي وهم فيه المستشرق

الاسباني سيكودي لوثينا ، فاعتقده الشيخ عبد الواحد الذي نقل عنه ابو الفدا والقلقشندي . حقيقة ان الناس اهتموا بالتأليف في التاريخ قبل عبد الواحد ، ولكن تأليفهم كانت لا تتجه الى التاريخ السياسي بل كانت تتجه غالبا للتراجم .

وعبد الواحد المراكشي هذا لا نعرف له الا هذا الكتاب ولا نعرف عن شخصيته الا ما ذكره هو نفسه عنها في هذا الاثر الوحيد الذي بيدنا فهو في هذا الكتاب يقول حينما يتحدث عن مراكش في القسم الجغرافي : (وبهذه المدينة اعنى مراكش مسقط راسي ، وهي اول ارض مس جلدي ترابها ، وكان مولدي بها لسبع خلت من ربيع الآخر سنة 581 (احدى وثمانين وخمس مائة) ، في ايام ابي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي ، ثم فصلت عنها وانا ابن تسعة اعوام الى مدينة فاس ، فلم ازل بها الى ان قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هناك ، مبرزين في علم القرآن والنحو ، ثم عدت الى مراكش فلم ازل مترددا بين هاتين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس في اول سنة 603 (ثلاث وست مائة) فأدركت بها جماعة من الفضلاء من اهل كل شان ، فلم احصل بحمد الله من ذلك كله الا معرفة اسمائهم ومواليدهم ووفياتهم ، وعلومهم ، انفردوا دوني بكل فضيلة ، ولا مانع لما اعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم) .

وفي مكان آخر من كتابه ينص على انه لازم بقرطبة عالما جليلا واديبا كبيرا نال منه الاعجاب والتقدير جدا ، ذلك الاستاذ هو ، الاديب والعالم الضليع ابو جعفر احمد بن محمد بن يحيى الحميري ، فلقد اتصل به عبد الواحد بقرطبة سنة ست وست مائة 606 وكان له اثره الفعال فيه ، فلازمه سننين يستفيد من علمه الواسع وادبه الغزير ، وهو حينما يصفه بكثير من الاعجاب والتقدير يقول : (واعانه على ذلك طول عمره) اذ توفي عن ست وتسعين سنة كما بنص على انه في هذه المرحلة كان — كما ورد في قصة له مع ولده — من جملة ما قرئ عليه نسخة من ديوان المتنبي وكانت نسخة جيدة لاستاذه الحميري . وفي زيارته هذه للاندلس ، اتصل بوالى اشبيلية ، الامير ابي اسحاق ابراهيم بن يعقوب وزير اخيه الناصر فكان هذا يخصه بكثير من الحظوة ، وكثيرا ما كان يتردد عليه ، كما

كان يقول له : « والله انى لاشتاق لرؤياك » ، وفى اول مقابلته له انشده قصيدة مدح ذكر منها بعض الأبيات ستأتى لنا ، فبها بعد ، كما انه اتصل بأمرأ آخرين من الموحدين مثل الأمير يحيى بن يوسف بن عبد المومن ، ويوسف بن محمد الناصر الخليفة الذى حضر بيعته العامة بهراكش سنة عشر وست مائة ، فكان هذا يلقاه وبختلى به كما ذكر هو نفسه مؤرخا لذلك سنة احدى عشرة وست مائة ، وبالجمله فقد انصل الرجل بالبلاط الموحدى وصار يهتم اهتماما زائدا ، بالسياسة وأحداثها ورجالها ، ولكننا نجده سنة أربع عشرة وست مائة يترك الملكة وكان بالاندلس فيتوجه الى الشرق بعد ما ودع صاحبه والى اشبيلية السابق الذكر ، فركب البحر من الاندلس وتوجه الى تونس ، الى قد أقام بها مدة من الزمن ومنها ركب البحر الى الاسكندرية فوجدناه بمصر سنة 617 هـ ، ثم وجدناه بالحجاز سنة 620 حيث كان يؤدى فريضة الحج ثم اتجه الى بغداد فانتقطع الى الدولة مرة أخرى حيث وجد بها وزيرا من وزراء بنى العباس حمله على تدوين اخبار المغرب وجغرافيته ووصف احواله وصفا مفيدا ، وبذلك ألف هذا الكتاب ، كما يقول ، غير مستعين فيه بغيره (الا من سبقوه بالتأليف فيما كان متصلا بالاندلس) ، وطبعا فانه أرخ للاندلس وأرائها لان الاندلس فى ذلك الوقت كانت لما تزل معتبرة ، جزءا من الملكة المغربية . وبذكر المستشرق الروسى فى موضع آخر من كتابه أن المراكشى استقر بمصر ، وكان بها اثناء حملة الصليبيين على دمياط ولا يفوت المؤلف وهو بالمشرق أن يذكر عن نفسه انه لم يستفد شيئا من المعارف فى مقامه بهذه البلاد ، التى كانت آنذاك تعج بالاحداث ويقول هذا فى كتابه الذى انتهى منه سنة 621 هـ ولا ندرى بعد ذلك هل استفاد من المشرق أم لا ، كما يجهل تماما عنه كل شيء فبها بعد فلا ندرى بالضبط سنة وفاته ولا المكان الذى توفى به ، فنجد مثلا مرجعا واحدا يذكر انه توفى سنة ثيف وعشرين وست مائة ، ثم نجد هذا المرجع نفسه فى طبعته الثانية يذكر انه توفى سنة ثيف واربعين وست مائة هذا المرجع هو الاعلام لخبر الدين الزركلى ناصا فى الاخير على اعناده على ما ذكره اسماعيل باشا البغدادى من انه توفى عام 647 وهو حجة .

والكتاب بالرغم من كونه مرجعا هاما من مراجع التاريخ المغربى فان صاحبه يعلن فى صراحة انه لم يسبق له فيما قبله ان ألف ، وانما كان

عمله هذا استجابة للرغبة التي أبداهها الوزير ، فهو يقول في آخر القسم التاريخي من كتابه :

(وهذا اصلحك الله منهي ما بلغ من اخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة ، وقد تقدم بسط القول عما يقع من التقصير او الخلل ، مع أن أصفر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وانما بعثته عليه الهمة الفخرية اعلى الله رتبها ، فما كان من احسان غالى تلك الهمة العلية ، نسبته وعنها منبعثه وما كان من غير ذلك فاعضاؤها يستره ومسامحتها تغمره ، وقد رسم مولانا حرس الله مجده ان يضاف الى هذا التصنيف ذكر اقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عددا ، من لدن برقة الى سوس الاقصى ، وذكر جزيرة الاندلس ، وما يملكه المسلمون من مدنها

وقد رأينا ان المؤلف انما ألف هذا الكتاب استجابة لرغبة هذا الوزير وتعريفا ببلاده وناريخها تعريفا يمكن أن يستفيد منه هذا الوزير ، وبذلك يقول في مقدمته .

(وبعد ، ايها السيد الذى توالى على نعمه ، واخذ بضبعي من حضيي الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه ، وقضى احسانه الى ومحبتة التى جبلت عليها ، بأن النزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه ، فانك سألتنى بواك الله اعلى الرتب ، كما عمر بك أندية الادب ، ومنحك من سعادة الدنيا والآخرة اوامر القسم كما جمع لك الدبير والقلم ، املاء اوراق تشتمل على بعض اخبار المغرب وهيئته وحدوده واقطاره ، وشيء من سير ملوكه وخصوصا ملوك المصامدة بنى عبد المومن ، من لدن ابتداء دولتهم الى وقتنا هذا ، وهو سنة احدى وعشرين وست مائة ، وأن ينضاف الى ذلك نبذة من ذكر من لقيته او رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وانواع اهل الفضل ، فلم ار بدا من اسعافك ، والمسارعة الى ما فيه رضاك ، اذ هى الغابة التى اجرى بها والبغية النى ائابر ابدا عليها ، ولوجوب طاعتك على من وجوه بكثر تعدادها ، فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى اليه واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه ، فهو الموئل والملاجئ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، هذا مع انى اعنذر الى مولانا ، فسح الله في مدته ، من

تقصير ان وقع بثلاثة أوجه من الاعتذار :

فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العى على طباعه ، فمهما وقع في هذا الاملاً من فتور لفظ ، أو اخلال بسرد ، فهو خليق بذلك ، والوجه الثانى انه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه واجعله مستندا كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصا فلم يقع الى لاحد منها تأليف أصلا خلا أئى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها . وهذا المجموع لا اعرفه الا سماعا . والوجه الثالث أن محفوظاتى في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت أوجبت ذلك هموم تزدحم على خاطر ، وغيوم تستغرق الفكر . فرغبة المملوك الاصغر من اجراء مولانا اياه على جميل عادته ، وحميد خلقته من التسامح والتغاضى ، لازال مجده العالى يرفع الهمم ويعتقد الذم ويوصل النعم ويعمر ربوع الفضل والكرم .

هذا اسلوب من نثره الفنى ، نستشف منه انه لم يكن يختلف كثيرا عن تلك الاساليب التى كانت موجودة عند المتأقين من كتاب عهده ، فهو يلتزم السجع ، وقلما يتخلص منه ، ولكنه سجع مقبول ، وصنعة غير متقلة بتلك الزينة البديعية من تلاعب بالالفاظ الجوفاء ومن بورية واقتباس ومطابقة مثلا ، كما كان عليه الحال لعهد وخصوصا في الشرق ، ثم انه مع ذلك يجعل اسلوبه — بالرغم من ذلك التأنق — خفيف الروح بالتزامه للجميل القصيرة وتوزيعه الفقرات ، وبذلك كان اسلوبه في هذا الكتاب اسلوبا شائقا ، فريدا عند معاصريه . فهو يختلف كثيرا عما عهد في كتب التاريخ في الشرق ، فاذا قارنا بين هذا الكتاب وبين كتاب « الفتح القسى في الفتح القدسى » للعماد الاصفهانى ، فاننا نجد البون شاسعا بين الاسلوبين ، على انه لم يلتزم حتى هذه الحلية البديعية بهذه الزينة الخفيفة البسيطة الا في مثل هذه المقدمة وما يتبعها من اوصاف لبعض المدن المحبة لديه ، وما يطرى به بعض الرجال ، أما فيما عدا ذلك فانه يرسل كلامه ارسالا ويسرد الحوادث والتراجم سردا لا تعمد فيه ولا صنعة ، مع جودة رصف .

وبعد فان علينا لزاما ان نلقى نظرة جزئية على القسم التاريخى من كتاب المعجب ، فنرى انه الى جانب التاريخ السبائى ينضمّن تصوير الحالة الادبية بالاندلس خاصة وبالبلاد الموحدى عامة ، وان كان في انشائه بالنصوص

الأدبية اقتصر أو كاد على ما صدر عن الاندلسيين ، ولم نجد للمغاربة إلا بيتين لابن حبوس وقطعة نثرية من مذكرة له كما سلف ، بالإضافة الى قصيدة قالها رجل من بجاية وأنشدها على قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين ، أو انشدت له ، ذكر استهلالها ، في ستة وعشرين بيتا ، ثم علق عليها بقوله : « وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منها ، ولم أوردتها في هذا الموضع ، لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها وهو قول ابن تومرت لأصحابه « لا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة » فأنى عبد الواحد بهذه الابيات وصفا للفكرة المذكورة .

كما انه ساق بعض العبارات التى أثرت عن الخلفاء الموحدين فى مناسبات شتى وسجل نموذجا من خطب جمعهم فيما سنرى قريبا .

والى جانب هذا كله ، فله نظرات صائبة فى النقد ، مثلا ، يقول فى الحصرى : كان هذا الرجل — أعنى الحصرى الأعمى — أسرع الناس فى الشعر خاطرا ، الا أنه كان قليل الجيد منه ، بعد ما وصفه بأنه كان « على سهولة الشعر خاطره وخفته عليه » . ويقول فى ابن حبوس : وكانت طريقته فى الشعر ، على نحو طريقة محمد بن هانىء الاندلسي ، فى قصد الالفاظ الرائعة والتعاقع الموهلة ، وإيثار التعبير ، الا ان محمد بن هانىء كان أجود منه طبعا ، وأحلى مهيعا .

ويقول فى أبى الربيع سليمان الموحّد « تفقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف على كلامه ، ورأيت بخطه أشعارا نازلة عن رتبة الشعر جدا ، فعلمت أن ذاك الأول ليس من نسجه » يشير بالاول الى كونه من شعر كاتبه ابن عبد ربه ، الذى قال فيه سابقا : ولأبى عبد الله هذا اتساع فى صناعة الشعر .

وعبد الواحد يتسم بالنزاهة فى ذكر حقائق التاريخ ، ولهذا فهو لا يفض من قدر المرابطين ، بل يصنفهم بالتشبيث برجال الادب وخصوصا منهم كتاب الاندلس ، الذى يجعل بلاط يوسف وابنه على يزخر بهم فيضاهون بنى العباس فى ذلك

وفى نظميه لحوادث التاريخ بالنوادر والفكاهات ، كان يشبه الى حد بعيد المسعودى فى كتابه مروح الذهب ، وزاد عليه انه تدخل بنفسه

فى هذا المرسح ، كما فعل فى تعرضه لشيوخه أبى جعفر الحميرى ، وما كان ينشده إياه من أشعاره ، فيلهج بها ويشهد احسانه لها ، ثم يأتى بقصة ، انشاده بيتين من شعره ، وترسم ابنه عصام فى نظمه بيتين على غرارهما وتعليق الاستاذ على ذلك بما سنرى .

وفى الكتاب نجده ، يأتى بفصول قيمة جدا ، على ما فيها من اختصار ، تتصل بسير المصامدة واخبارهم ، وقبائلهم واحداثهم العامة .

ومن المفيد ان نذكر هنا ما اتى به فى اقامتهم للجمعة وفى الصيغة التى كانوا يلتزمونها فى خطبة الجمعة ووصف طقوسها بدقة ، فيقول :

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم فى جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ويخرج معه خواص حشمه وبركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئ قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا النى يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء الفىء (تحول الظل) يا سيدنا أمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين) يريد بهذا القول استئذانه فى صعود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصا ، فاذا جلس الخطيب فوق المنبر اذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم فى نهاية الحسن ، قد انتخبوا لذلك من البلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فاول شىء يقول ، الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالحق بشيرا ونذيرا ، بين يدى الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فلا بضر الا نفسه ولا يضر الله شيئا ، أسأل الله ربنا ان يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فانا نحن به وله ، ثم يتعوذ فيقرأ سورة (ق) من أولها الى آخرها ، ثم يجلس فاذا قام الى الخطبة الثانية قال : الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرا من الحول والقوة اليه ، ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الذين انبعوه ففاتوا الانام جدا وعزما ، وانفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزما ، وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبى

عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسنى الفاطمى المحمدى الذى ايد بالعصمة فكان امره حتما ، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاما ولا ظلما ، وعلى وارث شرفه العميم قسميه رضى الله عنه فى النسب الكريم المجتبى لوراثته مقامه العلى ، الخليفة الامام ابى محمد عبد المومن بن على ، وعلى ابى يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص ، اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك ، المحبى سنة رسولك الخليفة الامام ابى يوسف امير المومنين ابن امير المومنين ابن امير المومنين . وعلى الخليفة الامام ابى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين . اللهم وانصر ولى عهدهم الطالع فى افق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام امير المومنين ابا يعقوب ابن امير المومنين ابن امير المومنين ابن امير المومنين . اللهم كما شددت به عرا الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الانام ونصرت به دين نبيك محمد فانقض له بالنصر المقرون بالكمال التام ، اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين والائمة المهتدين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم المهتدين بنارهم المقتبسين من انوارهم ، اللهم وايد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك ، وطائفة مهديك الذين اخبرت عنهم فى صريح وحيك ، انهم لا يزالون ظاهرين على امرك الى قيام الساعة ، وامدهم وكافة من انتظم فى سلوكهم من انصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتمكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأييدك اعز ظهير ، واكرم نصير . ثم يدعو وينزل فيصلى فاذا فرغ دعا الخليفة بنفسه ، وأمن الوزير على ما تقدم .. وهنا . تنتهى هذه الخطبة

فهذا الوصف مهم ، يتصل بالنشاط الادبى بعد التاريخ والحضارة المغربية ، وفيه تفصيلات انبثقت عن معاصرتة ومشاهدته قلما نعثر عليها اما الجانب الجغرافى الذى ذيل به الجانب التاريخى ، الذى يشمل الاندلس والمغرب ، بمعناه الواسع ، فيتناول باختصار غالبا ، ومن النادر ما يفسح له صدر قلمه ، ومن هذا القبيل ، وصفه لمدينة فاس ، التى قضى فيها باكورة شبابه ، وهو عاكف على حلقات التعليم بها .

وهكذا نجده يقول فيها : (ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما

اضطرب امر القيروان كما ذكرنا بعث العرب فيها واضطرب امر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر وأبنة محمد بن أبى عامر ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنه ، فنزل اكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غابة الحضارة واهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم ، وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك ، فانه ليس بالمغرب شئ من انواع الظرف واللباقة في كل معنى الا وهو منسوب اليها وموجود فيها وماخوذ عنها ، لا يدمع احد هذا القول من اهل المغرب

ويقول في مدينتى تونس وقرطاجنة :

(ولم تكن تونس هذه في قدم الدهر على أيام الافرنج مدينة وانما بنيت في اول الاسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها وانما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجنة ، بينها وبين تونس نحو من اربع فراسخ . وهذه المدينة اعنى قرطاجنة هي كانت حاضرة افريقية أيام الروم ، ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيته لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تأمله ، ويعتبر فيه من وقف عليه

ويقول في القيروان :

(وهي كانت — اعنى القيروان — دار المسلمين بافريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يولون عليها الامراء من قبلهم الى ان اضطرب امر بنى العباس واستبد الاغالبية بملك افريقية بعض الاستبداد

وبعد ذلك يأتى بقصة عيث الاعراب بالقيروان سنة 444 ويذكر هجرة اهلها الى الاندلس والى المغرب ، وان عقبا منهم ما زال معروفا بفاس ، كما يذكر في خراب القيروان بيتين لابى عبد الله محمد بن شرف القيروانى وهما :

ترى سيئات القيروان تعاضمت فجلت عن الغفران والله غافر !
تراها أصيبت بالكبائر وحدها الم تك قدما في البلاد كبائر ؟

الى غير ذلك مما ورد في هذه البلاد الافريقية والاندلسية ، التى عرف بها تعريفنا شاملا لذلك الوزير الذى الف باسمه الكتاب .

واخيرا نتصل بشعره ، وهو كما بالكتاب المذكور ، فنجد من قصيدته
التي مدح بها ابا اسحاق الموحدي ، هذه الابيات التي يقول مادحا اياه —
وكان صديقا له — فيها :

وعلينهم التفويض والتسليم	لكم على هذا السورى التقديم
بكم ، وانف الحاسدين رعيم	الله اعلاكم واعلى امره
لم تفتقده معالم وعلوم	احييتهم المنصور فهو كائنه
وحمى يحاط وارمل ويقيم	ومحارب ومنابر ومحارب

وفيه ايضا يقول :

فيها جذاذا والعلوج جثوم	يذر الصليب صغيره وكبيره
-------------------------	-------------------------

الى ان يقول :

وكان ابراهيم ابراهيم	فكانها حمص جمالا سارة
سيفها الاذفونش وهو ذميم	وارى طيلطله كهاجر اثرها
ويجوب نار الحرب وهى جحيم	ويحرق الاعداء فيما اضرمت

هذه الابيات لا تدل على مكانة عالية في الشعر ، وليس فيها من خيال
ولا من تعبيرات بلاغية بدیعة ، كما ان ما حاوله من تأنيق لم يسعفه بل
اننا نجده في البيت الرابع نستويه اجراس الحروف فيتشبهت بهذه الحاء
التي يأتى بها في المحابر فتسلمه الى المحارب فتسلمه هذه الى الحمى ومنها
الى يحاط ، ف تكررت الحاء اربع مرات كما تسلمه اوزان الكلمات في ذلك
البيت بالذات بعضها الى بعض في المحابر والمنابر والمحارب ، وهو نفسه
يشعر بهذه المنزلة المتوسطة في شعره فيتعذر — بالرغم من اشادة
استاذة — عنها في تواضع وكما حصل ذلك في هذين البيتين :

يا من له عن كناس	من المتيم قلبه
ما انت كاسمك فصح	وانما انت قلبه

فهذان البيان كذلك ، ان دلا على شيء ، فانما يدلان على بعض الذكاء
في استغلال هذا القلب ، الذي يصير مفتحا حتفا كما نرى وهو شيء كان
متعارفا جدا بين شعراء الاندلس على الخصوص كما عند ابن زيدون مثلا .

وقد ارتجل البيتين ، وهو بمجلس شيخه ، الذى كان يستدعى منه ذلك كعادته ، وكان فى المجلس زميل فى الطلب يدعى فنحا فلما انشدد البيتين ، طرب الاستاذ لها ، والتفت الى ابنه — وكان يدعى عصاما — وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعنى به طول نهارك ، ان كنت تقول مثل هذا والافاسكت ، فلما كان من الغد — كما يقول — قال لي رحمه الله ، أعلمت ما صنع عصام أمس ؟ قلت ، لا ، قال ، كان كما قالوا فى المثل « سككت الفا ،، » لم يزل أمس يعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد ، أخذ معنى بيتك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسحه ، جملة ، فقال :

سبى سوادى خشف فقوتى اليوم ضعف
سموه فتحا مجازا وفى الحقيقة حشف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت انا ، هذا والله أحسن من شعري ، فتغير لي وقال ، يا بنى ، دع عنك هذه العادة ، فان اسوا ما تخلق به الانسان ، الملق وتزيين الباطل ، سيما اذا اضاف الى ذلك الحلف الكاذب ، والله انك لتعلم ان هذا ليس بشيء والا فقد اختل ميزك ، وما اظن هذا هكذا . وبهذا يكون عبد الواحد على مستوى من الادب لا يصل اليه لا الادريسى ولا صاحب الاستبصار .

وبعد فقد كان الادب فى المغرب ، قد استوفى خصائصه كلها ، بنهاية القرن السادس ، سواء فيها الشعر والنثر ، وقد ذكرنا فى المضارين رجالا عديدين ، وبقي علينا أن نذكر رجالا آخر ، كان فى النثر من المؤلفين فى التراجم ، ولكنها تراجم رجال لم يتسموا بالعلم ، كما فعل القاضى عياض ، ولا اتسموا بالادب ، كما فعل بعض الاندلسيين ، وعلى رأسهم ابن ادريس ، بل كانت لهم صفة خاصة ، قد تجامع بينهم وبين العلم او الادب احيانا ، ولا تجامع بينهم احيانا أخرى .

انهم رجال التصوف ، بصفة خاصة ، رجال التصوف فى السلوك ، أكثر منهم رجال تصوف فى الطقوس والسموت .

اما المؤلف فيهم ، فهو ابن الزيات والكتاب الذى يعيننا منه هو كتاب « التشوف الى رجال التصوف » .

وابن الزيات هذا ، هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى التادلى ، ترجم له أحمد بابا التنبوكتى فى كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ناقلًا فى ترجمته هذه عن الحضرمى ، الذى حلاه بالشيخ الفقيه القاضى الأديب ، ثم ذكر بعد نبذة فيه ، أن كتابه التشوف ، حدث به الأستاذان الفاضلان ، أبو القاسم ابن الشاط ، وابن رشيد ، عن قاضى الجماعة ، أبى عبد الله محمد بن علي الشريف ، عنه أذنا .

وهذا الاهتمام يبرز ما كان لكتابيه من شغوف ورواج فى الوسط العلمى والأدبى ، لذلك العهد ، الذى كان المؤلف فيه ما زال حيا يرزق ، ياذن له ، فى تلقينه للناس ، والتحديث لهم فيه ، على طريقة مثبتة تقليدية عرفت بين رجال الحديث ، بصفة خاصة ، ثم شاعت بين غيرهم .

ولا عجب من هذا فان الوسط المغربى ، منذ القاضى عياض ، الذى تعرض للمتصوفة ، فى كتبه ، وكان يرأسل بعضهم ، وبصفة خاصة ، كان له اتصال بالصوفى الأندلسى ، ابن العريف الألمرى الصنهاجى (1) فكان يردد أصداء التصوف ورجاله خاصة ، والزهاد عامة .

وقد كان من هؤلاء الأخيرين ، أبو حفص الاغماتى ، وأبو الربيع الموحدى ، بل جنح الى طريقهم حتى الجراوى الشاعر ، الذى نجده يخمس معلقة امرئ القيس ، موجهًا إياها ، الى مدح الرسول عليه السلام . وهى طريقة للمتصوفة ابتدعوها فى عدة قصائد ؛ لأبى نواس وغيره .

بل أن الأمداح النبوية نفسها ، التى اعتنى بها الجراوى فى حماسته اعتناء خاصا ، فجعلها فى الواجهة الاولى منها ، والتى لم يختصر مما ورد فيها ، كما اختصر فى غيرها ، ما انتعشت انتعاشا بالغا ، الا على يد المتصوفة . ويكفى فى هذا المجال البوصيرى سلطان الأمداح النبوية ، فيما بعد ، والذى ما مدح ببردته وهزئته ، الا بعد أن تصوف ، ولزم عقر داره ، منكبا على أمداحه العظيمة .

وبعد فلنعد الى كتاب التشوف ، لنلقى عليه نظرة ، فى نسجه وفى ترتيبه . لقد بدأ بالمقدمة التى نجده يقول فيها :

(1) كانت بينهما صحبة ومكانة ، كما فى « تاريخ الفكر الأندلسى » لبالنشيا ترجمة مؤنس

فانه لم يخل زمان من ولي من أولياء الله تعالى ، يحفظ الله به البلاد والعباد ، وكانت طائفة منهم عظيمة بأقصى المغرب ، أهملت أخبارهم ، وجهلت آثارهم ، حتى ظن من لا علم له بهم ، انه لم يكن منهم بأقصى المغرب أحد ، وانه استغرب أن يكون به ولي أو وتد .

وهيهات ، هيهات ، ليس الامر كذلك ، فاطلب تجد ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد جاء في الصحيح من فضل أهل المغرب ، ما لا يدفعه دافع ، ولا ينازع في ثبوته منازع ، كمثله ما روينا من طريق مسلم بسنن الحجاج ، بسنده الى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » (ثم ذكر رواية أخرى عن سعد كذلك) : لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق » و « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق في المغرب » ...

وذكر بعد سوقه للروايات المختلفة ، أن أبا بكر الطرطوشي نزيل الاسكندرية ، قال في رسالته المشهورة التي بعثها الى السلطان بمراكش : والله لا أعلم ، هل أرادكم بذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أو أراد أهل المغرب ، لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين ، والاعتناء لآثار من مضى من السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، فشرعوا بهذه الآثار شرفا ، وشغفوا بهذه الفاخر شغفا .

والرسالة التي أشار اليها ابن الزيات ، كانت موجهة الى يوسف ابن تاشفين ، كما يبدو ، لانه الذى كانت له صلات قوية بالمشرق ، وكان له صيت ذائع فيه ، خصوصا بعد الظفر العظيم الذى ناله ، بمعركة الزلاقة . وقد توفي الطرطوشي عام عشرين وخمسمائة بعد يوسف بعشرين سنة .

وبعد ما يستطرد المؤلف ، بأشياء لا نهنا ، يقول :

ولما خفي على كثير علم من كان بحضرة مراكش ، من الصالحين ومن قدمها من اكابر الفضلاء ، رايت أن أفرغ لذلك وقتنا ، أجمع فيه طائفة أدون أخبارهم ، واضيف الى ذلك من كان من أعمالها ، وما اتصل بها

من اهل هذه العدوّة الدنيا ، وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها ،
وان كان من غيرها ، اذا كان مماته بها ، وذكرت من هو من اهل هذه
العدوة ، وان كان مماته بغيرها .

فالكتاب ، اذن ، زيادة على كونه خاصا بالمتصوفة ، يرتكز على اهل
مراكش واعمالها بالذات ، ويتناول غيرهم من الاندلسيين في غير ذلك ،
لكونهم توفوا بها وقد حلوا فيها (1) .

واسلوب المقدمة ، اسلوب مشرق ، يجنح الى الجاحظ ، في نحو قوله :
« وكيف يكون ذلك كذلك » وقوله « أهملت اخبارهم وجهلت آثارهم »
« وهيهات هيهات ، فاطلب تجد » .

وقبل أن يقف وقفة لغوية ، عند كلمة الصوفية ، افادنا بكون كتابه
« مشتملا على اضراب من افاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد
والورعين ، وغير ذلك من ضروب اهل الفضل ، فان اسم الصوفى يصدق
على جميعهم » .

وهكذا نجده يعمم في اطلاق كلمة الصوفى ، ولكننا نستغرب منه
اهمال القاضي عياض في كتابه ، ومع ذلك فان الرواية عنه وردت بالكتاب ،
كما نجد في ترجمة عبد العزيز التونسى .

وكذلك نستغرب منه انه لم يذكر فيه ، شيخ المتصوفة بالمغرب آنذاك ،
وشيخه بواسطة ، ابا العباس السبتي ، مع أنه قد أفرد بالتأليف الذي
سماه « مناقب الشيخ أسى العباس أحمد السبتي » وفيه يقول :
سمعنا من فقرائه واصحابه الذين شاهدوا بركته ..

وبعد فقد قال المؤلف :

صدرت هذا المجموع بسبعة ابواب لازمة ، هي كالمدخل اليه : الباب
الاول في صفة الاولياء ، الباب الثانى في حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم ،
الباب الثالث في محبتهم ، الباب الرابع في زيارتهم ومجالستهم ، الباب
الخامس في حسن الثناء ووضع القبول لهم في الارض ، الباب السادس في

(1) كما وجدنا فيما بعد بفعل مؤرخها وقاضيه العباس بن ابراهيم ، رحمه الله .

اثبات أحوالهم ، الباب السابع في اثبات كرامتهم ، ويشتمل على حملة فصول

هذا هو ترتيب الكتاب الذي قال فيه صاحبه :

قد شرعت في تصنيف هذا الكتاب شهر شعبان المبارك من سنة سبع عشرة وستمئة ، ولم أتعرض فيه لأحد من الأحياء . وأكبر من في وقتنا هذا ، ممن هو حي الشيخ الصالح الصوفى أبو محمد صالح بن ينمارن ابن غفيان الدكالي ثم المجايرى نزيل رباط آسفى ، وهو الآن لا يفتر عن الجهاد والمحافظة على المواصلات والأوراد ، ومن كلامه « الفقير ليس له نهاية إلا الموت » فهذا أحد المغاربة ، الذين ورد ذكره عرضاً ، وخارج تلك الأبواب .

أما غيره من الذين ورد ذكرهم ضمن التراجم السبع والسبعين والماتين ، فنذكر منهم بعض من اتسموا بالعلم خاصة ، مثل الشيخ أبى عمران الفاسى ، صاحب الشهرة العظيمة فى القيروان والأندلس ، بعد المغرب والذي يعود له الفضل فى تأسيس أعظم دولة مغربية ، فى القرن الخامس .

ومثل وجاج بن زلو اللمطى ، من أهل السوس الأقصى ، أخذ عن أبى عمران المذكور ، ثم عاد إلى السوس ، فبنى داراً سماها بدار المرابطيين ، لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه .

ووجاج هذا هو الذى كتب إليه شيخه أبو عمران ، ليختار من تلاميذه من يبعثه مع إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم الكدالى أمير صنهاجة إلى الصحراء بهذا الكتاب :

أما بعد إذا وملك حامل كتابى هذا ، وهو يحيى بن إبراهيم الكدالى ، فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقارئهم القرآن ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، ويفتقهم فى دين الله ، ولك وله فى ذلك الثواب والأجر العظيم ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

فلما سلمه الأمير يحيى بن إبراهيم هذا الكتاب ، انتدب لذلك تلميذاً له هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، مؤسس الدولة المرابطية بعد .

ومثل أبى محمد صالح بن عبد الله ابن حرزهم الفاسى ، عم أبى الحسن علي المشهور ، كان أبو محمد قد رحل إلى الشرق ولقي أباً حامداً

الغزالي ، فأخذ عنه ، ثم عاد الى فاس ..

ومثل أبى عثمان سعيد بن ميموناس الرجرجى ، جد أبى عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهد المؤلف .

ومثل أبى الحسن على بن حرزهم ، السالف الذكر ، وهو ابن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن حرزهم الفاسى ، كان فقيها عالما حافظا ، قال :
اعتكفت على قراءة احياء علوم الدين للغزالي ، فى بيت مدة من عام ، فجددت المسائل التى تنتقد عليه ، وعزمت على حرق الكتاب ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل ، فوجدتها موافقة للكتاب والسنة .

كان تقدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة ، للقراءة عليه والاخذ عنه ، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريرته ، فجلس أبو الحسن تحته ، ثم قال للأمير أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه ؟ قال : نعم ، فقال له أبو الحسن انزل الى مكانى وأكون أنا فى مكانك ، وهكذا ينبغي أن يكون المتعلم مع المعلم . فأجابه الأمير الى ذلك ، فنزل عن سريرته وجلس عليه أبو الحسن ، فلأزمه وأخذه بسلوك طريق الآخرة .. وساق المؤلف أخبارا عنه فى العلم والزهد وغيرهما .

ومثل أبى شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى ، من أهل بلد أزمور ، ومن أشياع أبى يعزى المشهور ، كان فى ابتداء أمره معلما للقرآن الكريم .

ومن أخباره التى رواها أبو موسى عيسى الجزولى النحوى ، أن والى أزمور أراد قتل جماعة من أهل بلده ، فجاء أبو شعيب شفيعا فيهم ، وكان أسمر اللون ، فلما رآه والى انتهره ... وبعد محنة امتحن بها ، أمر أن يرد عليه ، فلما جاءه شفعه فى قومه .

وساق له أخبارا كثيرة ، وهو المعروف ضريحه بمدينة أزمور ، حتى عهدنا هذا ، بمولاي بوشعيب .

ومثل أبى يعزى يلقب بن ميمون ، كان قطب عصره وأعجوبة دهره والى الناس فى مناقبه ، روى عن أبى علي الصواف ، أنه قال : رأيت أخبار الصالحين ، من زمان أويس القرنى ، الى زمننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبى يعزى وشيوخه كسرون ، مذكور بعضهم فى هذا الكتاب .

ومن ولده أبو علي يعزى الذى يكنى به أبوه ، خلف أباه فى مكانه ، ولحق بالأولياء ، فكانت له شهرة تدانى شهرة أبيه ... ودون هؤلاء فى الشهرة كثيرون ، مثل أبى عبد الله مالك بن مروان اللجوسى الأيلانى ، وأبى محمد يرزجان الجزولى الفقيه المالكى أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن ياسين ، فقيه المصامدة لعهد ، وأبى عبد الله محمد بن اسماعيل الهوارى ، من أغمات وريكة ، كان على سنن أهل الفضل والدين ، نسخ كتاب الأحياء ، فعمل به ، وأبى عبد الله البيهقى الكباد ، من سبته ، وأهل الفضل والدين ، وأبى عبد الله التاودى ، من أهل فاس ، كان معلما من أصحاب أبى يعزى ، وأبى الربيع سليمان الصنهاجى ، المعروف بالتمسانى ، شيخ أبى بكر المعروف بالمواق وأبى العباس أحمد المعروف بالحصار ، وكان وثاقا بمدينة سلا ، وأبى علي سالم بن سلامة السوسى أصله من تارودنت ، درس الفقه بفاس وبأغمات ، واستقر بسجلماصة . وأبى على يغمور بن خالد اليرصجى ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وكان مدرسا للفقه ، ثم اعتزل الناس ، وأبى عبد الله محمد ابن الأمان الجزولى المعلم ، من مراكش ، وأبى محمد وين يوفى ، تلميذ الفقيه يغمور بن خالد ، وأبى بكر يحيى بن محمد بن وزرج ، أخذ عن أبى بكر بن العربى ، وهو شيخ أبى الحسين ، المعروف بابن الصائغ ، كان من أهل العلم والعمل ، وأبى عمران موسى بن اسحاق الوريكى المعلم ، من أهل مراكش ، صحب أبا العباس بن الجباب وغيره ، وأبى يعقوب يوسف بن عبد الله المعلم ، أصله من داي من بلاد تادلا ، وأبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن مومن المرادى ، من أهل أغمات وريكة ، إمام الفريضة بجامعة ، وأبى العباس أحمد بن عبد السلام الدكالى ، من أهل العلم والعمل . وأبى العباس أحمد بن عبد الصمد الصنهاجى الجباب ، كان من أهل المعرفة بعلوم الاعتقادات ، وأبى محمد عبد الرزاق الجزولى ، كان من كبار المشايخ ، وأبى عبد الله محمد بن علي الفندلاوى ، المعروف بابن الكتانى ، من أهل فاس ، وكان آخر أئمة المغرب ، كما يقول المؤلف ، فيما أخذه من علوم الاعتقاد ، عن أبى عمرو الاصولى ، وأبى محمد يسكر بن موسى الجراوى الففجومى ، من تادلا ، ثم نزل فاس ، تفقه على أبى خزر ، ومثل أبى ابراهيم اسماعيل ابن وجماتن الرجراجى ، كان من أكابر العلماء ، وأبى على عمر بن عمران السماللى ، كان فقيها ، وأبى الحسين يحيى بن محمد الانصارى ،

عرف بابن الصائغ ، من أهل سبتة ، وأبى تونارت ولجوط الهنتفى ، كان فقيها فاضلا ، وأبى وجاج عفان بن اسماعيل المطماطى ، كان من أئمة العلم بالقرآن ، وأبى الصبر أيوب السبتى ، وأبى علي وتبير بن يرزيجن الرجراجي ، تلميذ أبى عبد الله محمد بن ياسين الفقيه ، وأبى محمد عبد الله بن عثمان الزرهونى ، كان من العلماء بطريق التصوف ، حافظا لآخبار الصالحين ، وأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن العطار ، من أهل فاس ، كان عارفا بعلوم الاعتقاد ، وأبى عبد الله اللخمي المعروف بابن الحجام ، الواعظ .

سوى هذه النراجم ، له سماعات من المغاربة ، مثل أبى موسى عيسى الجزولى النحوى ، وأبى العباس أحمد بن ابراهيم بن محمد الأزدي البسطي ، وعن هذا تلقى كثيرا من الأخبار .

ومما يسرعي النظر في هذا الكتاب انه لم تخل فيه مدينة من مدن المغرب وقراه الا ذكر منها رجال ، احتفظوا بمكانهم العلمية وغيرها فمن سبتة الى طنجة الى القصر الكبير الى مكناس ، الى سلا وفضالة الى ازمور وتادلا وبها « داي » الى أغمات ايلان ووريكة ، الى تارودنت وأدوز بالسوس . وغير هذه من المدن والقرى ، بله العاصمتين فاس ومراكش ، اللتين تردد ذكرهما في كثير من رجالهما ، مما يطول ذكره لو تتبعناه .

ويلاحظ على المؤلف ، انه كان على حصيلة عظيمة من حفظ الشعر ، فقلما يأتى بترجمة ، لم يتمثل فيها بأبيات ، ومقطوعات وقصائد ، جلها ما كان لشعراء اسلاميين غالبا . ولا غرو في هذا الاطلاع ، فتد كان الرجل على ضلع وافرة في اللغة وآدابها ، أهله ، لأن يشرح مقامات الحريري ، قبل ان يشرحها ، الشريئى الاندلسى . فمثل هذا العمل العظيم لا يتأتى الا للفظاحل من الأدباء وكبار اللغويين بصفة خاصة .

ولعل السبب في كون ابن الزيات التادلاوى لم يذكر ضمن الرجال الذين ترجمهم القاضى عياضا ، مع انه أقام بتادلا قاضيا عليها وكان من رجال التصوف لا محالة أن القاضى عياضا لم يكن من أولئك الزهاد الذين اهتم بزهدهم ابن الزيات ، أكثر من اهتمامه بالتصوف الذى كانوا

عليه ، فالزهد هو السلوك الذى يكون عليه المتصوف ، وهو الذى رعاه ابن الزيات ، لم يراع التصوف كطريقة لها معالمها العلمية والأدبية ، وهذا ما كان عليه عياض ، ولم يكن يلبس مرقعة المتصوفة ويزهد فى الحياة (1) .

ومهما يكن فقد شاهد العهد الموحدى ، بشدة ادب الزهاد والمتصوفة ، حتى فى أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فجنحوا اليه بل مارسوا التصوف أدبا وسلوكا عرفه الاندلس من أمد بعيد ، فالزهديات قد عرفت فى تلك القصائد التى نظمها ابن عبد ربه وسماها المحصات لما سبق منه من غيرها كما عرف التصوف عند ابن مسرة ، وكلا الرجلين عاشا فى القرن الثالث وأوائل الرابع ، وكلاهما أيضا كانت له صلة بالشرق . وغالبا ما كانت تلك الصلة عن طريق القيروان ، ويعتقد بعض الباحث ان التصوف فى الاندلس كان يتستر فى جلبابه كثير من المبادئ المستهجنة والمذاهب المتطرفة ، التى كانت لا تروق الدولة ، ولا الراى العام ، وذلك مثل الخارجية والتشيع والاعتزال ، وقد ظهر بهذا كله وبقوة ابن مسرة كما قلنا فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وكون له مدرسة ظل اتباعه حافظين على مبادئها وعرفوا بالانتساب اليها (2) وكان كأبيه معتزلى المذهب ، ومعلوم ان الاعتزال كان مضطهدا فى الاندلس ، اما المغرب فقد عرف الاعتزال فى فجر تاريخه الاسلامى وفى القرن الثانى ، بل عرف دولا اعتزالية فى هذا القرن ، ثم اختفى هذا المذهب فيما بعد (ولا ننسى ان تاريخنا يسجل أن الذى تنازل للمولى ادريس عن مملكته كان معتزليا) وعلى كل فان المغرب لم يعرف التصوف على ذلك العهد المتقدم الذكر الذى عرف به فى الاندلس ، حتى اتصل المغرب به اتصالا وثيقا وقد رسبت به راوسب التصوف والزهد ، ومن بين الاندلسيين اللاحقين لأولئك الذين ظهرت الزهديات فى شعرهم

(1) وفى ترجمة عياض بنهرس الفهارس نجد تنبيها نقل فيه عن « كتاب المجد الطارف والتالد » لمحمد الأمين الصحراوى ورد فيه قوله : « ولا يضر منصبه كون صاحب الشوف لم يذكره من رجال التصوف ، مع انه أقدم ومائة من جميع من ذكر فيه ووجه العذر أنه التزم فيه ذكر الزهاد العباد أى الذين انقطعوا لذلك »

وكذلك نستغرب منه عدم ذكره فى الكتاب لأبى العباس السبتي شيخه ، ولكنه وان لم يذكره فيه فقد أفرد بالتأليف الذى سماه « مناقب الشيخ أبى العباس أحمد السبتي » وميه يقول : « سمعنا من فقرائه وأصحابه الذين شاهدوا بركه (نسخه بالخراطة الرباط رقم 396 وبخراطة القرويين رقم 313 ، وقد ذكره صاحب الاعلام فى الجزء الاول ، كما نص عليه ابن سودة فى دليله) كذا وكذا ... »

(2) سبق من رجال المغرب فى الفصل الاول من كانوا من تلاميذ ابن مسرة .

على هذا العهد عبد الله بن السيد البطليوسى ، شيخ القاضى أبى الفضل عياض وقد تأثر به القاضى به بل انه انتحى فى كتابه بعض المناهى الصوفية ، كما نجد ذلك فى رسالته التى كتبها وبعث الحاج القاصدين بها الى المقام النبوى ، فهى من تقاليد المتصوفة .

وعموما ظهر أثر الزهديات والتصوف فى المغرب فيما خلفه ادباؤنا لهذا العصر من شعر ونثر ، وسنرى ضمن من سنذكرهم بعد أن أبا حفص عمر السلمى كان بين هؤلاء المتصوفة ، ويتحدث تلميذه التجيبى عنه بأنه طلب منه أن يجمع فى كتاب يؤلفه له أخبار العباد والزهاد أما الزهاد من رجال الاندلس ومن المتصوفة الذين وفدوا على المغرب فكان منهم غير من شهروا بالاندلس عبد القادر التبى والاستاذ المتصوف على بن محمد بن خليل ، الذى كان يدرس التصوف فى مدارس المغرب لذلك العهد الموحدى بالذات . وهذه نقطة مهمة ، لان المتزهد أو المتصوف قد يكون سلوكه كذلك من غير أن تكون له فكرة التصيف الذى كما نعلم فى مدروسنا أنه يقوم على مبادئ معروفة وقواعد معينة ، وهو ما يهمنى هنا فى الأدب حينما نجد له اثرافيه ، وعلى ذلك فكون هذا العالم الاندلسى على بن محمد بن خليل كان يدرس بمدارس المغرب الصوف ، مما يعد شيئا له أهميته فى هذا العصر .

ولا شك أنه كون أتباعا فكان من تلاميذ هذا الاستاذ الادباء المغاربة مثل ابن الملقوم والسلالجي ثم الخطابى على حين كان هناك أساتذ غيرهم يلقنون مبادئ النصوف ورجال آخرون من المغاربة أنفسهم مثل عبد الله الفخار السبتي وتلميذه أبى العباس السبتي وكان هذا الأخير يعيش بالمغرب فى اواخر هذا القرن وأوائل السابع (ويكنى لنبرهن على شيوع الزهد والتصوف فى الاوساط المغربية بين الخاصة والعامة فى ذلك الحين ان الناس صاروا يعتقدون فى يعقوب المنصور انه تصوف وزهد فى الملك وانقطع

كان ابن الزيات من رجال القرن السادس وأوائل السابع ، اذ توفى عام 627 أو 628 ، وهو من رجال الفقه والقضاء والتصوف والأدب وكتابه المذكور يضم رجالا من المغرب عموما والاندلس ، ويهمنى منهم الاول الذين نجد من بينهم من عاصروا العهد المرابطى بل حتى من تقدم هذا العهد ، كأبى عمران الفاسى ، وآخرين كانوا من العهد الموحدى ، عايش بعضهم

المؤلف ونقل عنهم روايات وحكايات . والكتاب يضم كثيرا من الاشعار ، الا انها ليست كلها مغربية ، كثير منها شرقي من الجاهلية والاسلام ، من السموال الى المتنبي مثلا وقليل منها للأندلسيين أو المغاربة الناشئين بالاندلس وغيرهم ، وأقل هذه جميعا أبيات للأفريقيين التونسيين ، وقد نسب كثيرا من الاشعار غير المشرقية لأصحابها ، أما غيرها فاكفى بذكرها ، على سبيل الاستشهاد الصوفي الذي يحول الكلام الى مقاصده .

وبالرغم من أن الكتاب ، لقاض من قضاة الموحدين ، فهو لا يذكر منهم احدا ، على حين يذكر من المرابطين مثل علي بن يوسف ، وابنه تاشفين ، يقول في حكاية ينقلها ، تتصل بهذا الملك « لما خرج تاشفين بن علي من مراکش الى وهران كان يمشى بجيوشه في سند الجبل ، فلما قرب من بلاد تادلا قات لخاصته : لأرينكم رجلا صالحا ، فتقدم بهم الى مكان أبي زكرياء (الجراوى) فدخلوا عليه مثلثمين ، لا يعرف من هو السلطان ، فرفع بصره بديهة الى تاشفين ، وقال له : أنت هو ؟ فالى أين تذهب بهذا الخلق ؟ تهلك عباد الله ؟ فقال له : لم يدعنا هؤلاء القوم ، تم سلم عليه وخرج عنه ، فقال أبو زكرياء : سبحان الله ، هذا الرجل لا يرجع الى هذه البلاد ، قد انقرض دولته .

ولا يهمل حتى بعض العوام الذين شهروا بالتصوف مثل عبد السلام العزفى المراكشى .

وعلى كل حال ، فهذه الاقليمية في تراجم رجالنا ، تعد من أقدم ما عثرنا عليه بكتابنا هذا ، الذى لم يكن وحده لابن الزيات ، بل ألف غيره ، مثل شرح مقامات الحريري الذى وصف بأنه « نبيل جدا » ، كما أن « له تأليف في صلحاء المغرب » .

والمؤلف ، تثقف في بلاده فهو « لم يدخل الأندلس وقد صحب أبا العباس السبتي ولقى ابن حوط الله السلاجى .

وقبل أن نودع كتاب التشوف ، نريد أن ننعطف بنظرنا الى رجال ، كانوا من متصوفة القرن السادس وأوائل السابع ، ذكرت اشعار في تراجمهم ، غير منسوبة ولكنها في مصادر أخرى نسبت اليهم ، وهؤلاء هم ، أبو جبل يعلى الفاسى ، وعثمان السلاجى الفاسى ، ثم عثمان بن منفاد السجلماسى .

والحق أن أبا جبل يعد من رجال القرن الخامس ، فانه كما في روض
القرطاس ، توفى سنة ثلاث وخمس مائة وهو ما في الكتاب السالف الذكر
وما في جذوة الاقتباس لابن القاضي ..

أما الشعر الذي عينا فهو هذه الابيات :

سافر لتكسب في الأسفار فائدة فرب فائدة تلقى مع السفر
ولا تقم بمكان لا تصيب به دينا وان كنت بين الظل والزهر
فان موسى كليم الله أعوزه علم تكسبه في لقيه الخضر

فهذا شعر — ان صح له — لا يقل في مستواه ، عما حفظ للقاضي
عياض في نفس المعنى ، ان لم يفقه في صياغته ، ويمكن أن يعد ضمن
النماذج الجيدة ، التي تمثل الشعر في القرن الخامس ، الذي اشتدت فيه
الرحلة الى الشرق ، ونال منها هذا المتصوف الذي لقي بمصر ، أبا الفضل
عبد الله بن حسن الجوهري الواعظ ، كما بالجذوة ، فحضر في حلقة درسه
بجامع مصر ، وهو على منبره .

والشعر الذي ذكر للسلاجي ، هو هذه القصيدة :

إذا العلم لا تغشى غرائسه قلبى
ولا شاقنى منه الى المنهل العذب
ولا أنا ممن جاوز الدرب ناهضاً
اليه ولا أرضى مقامى من رب
ولا كان حظى منه الا حكاية
على الناس أتلوها فحسبى اذن حسبى
ليس عجيباً أن نفسى حقيقتى
وما سلمها سلمى ولا حربها حربى
تمر بنا الأيام تحنت لجاجة
وما ينقضى يومى عليها ولا عتبي
ايا ذات نفسى فارقتى بي فانها
لطائف تستولى فتنبى بما تنبى
هى العروة الوثقى هى السنة النبى
يمر عليها مقتفى اثر الركب

ولا ترض بالحظ الخسيس سفاهة
فمثلك من قد حل في المنزل الرحب
تجافوا عن الدار التي أصبحوا بها
على غربة واستوطنوا حضرة القرب
وان كان لا ينجيك الا ركوبها
فماذا التجافي عن مجاورة الرب

أشار الى مضمونها ابن حبوس في داليته ، وبعدها نجد منها نفحة
في قول الفخر :

نهاية اتمام العقول عقل
وأرواحنا في وحشة من جسمنا
واكثر سعي العالمين ضلال
وحاصل دنائنا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجال قد رأينا ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من رجال قد علت شرفاتها
رجال فمانوا والجبال جبال

وكان السلاجي له مكانة تقريه من مثل هذا العالم المعقولي ، اذ كان
منكبا على كتاب الارشاد في علم الاعتقاد لامام الحرمين الجويني ثم لما
اتقنه لخصه في كتابه « المقدمة البرهانية » وكان لامام الحرمين في عهده شأن
عظيم ، يشير اليه ابن حبوس في قوله :

وبصرت بالطوسي ينفق حوضه
وأبى المعالى مجملا ومفصلا
يريد بالطوسي الغزالي ، وبأبى المعالى الجويني النيسابوري المعروف
بامام الحرمين ، والبيت من قصيدة في مدح عبد المومن الموحدى وهى بكتاب
نظم الجمان ، لابن القطان ، يقول في مطلعها :

بخليقة المهدى سيدنا اغتدى
نهج العلوم معبدا ومذلا
ومن شعر السلاجي قوله مخاطبا قومه من فاس :

خذوا ضمانى ان لا بفلحوا أبدا
ولو شربتم ممداد الكتب بالصحف
انتم صفار كبار عند انفسكم
هل يستوى من يقيس الدر بالصدف
فالبيان ينبئان عن شاعرية في صاحبهما ، ولذلك لا يستبعد أن تصدر

عنه تلك القصيدة السالفة توفى السلاجى عام أربعة وسبعين وخمسمائة .
ومن تلاميذه كثيرون عرفوا بفاس وغيرها ، بل كان منهم رجال الاندلس

وأخيرا نجد قصيدة عثمان بن منعماد السجلابى هكذا :

طبيب بذكر الله فاك فاته	لاجل ما فاهت به الانواه
طفئت مصابيح العتول فكلنا	يمسى ويصبح فى ظلام هواه
كم مدع علما لو استخبرته	لو جدت اكثر علمه دعواه
ما للفتى لا يرعوى وصباحه	ومساؤه يعظاته بسواه
تلقيه نياها على من دونه	ولسوف يعطشه الذى ارواه
سبحان من لم يعتصم من امره	من عاقل مستعذب بلواه
والعيش بلوى عاقل فتعجبوا	من عاقل مستعذب بلواه
ان زيد يوم واحد فى عمره	نقضت على مقدار ذاك قواه
وكأنه والموت سدد سهمه	فأصاب مقتله وما اخطاه
والمرء ينشر كالرداء الى مدى	فاذا انقضى جاء الردى فطواه

وهذا البيت الاخير منبثق من قول الشاعر :

والمرء يبليه بلاء السريال تعاقب الاهلال بعد الاهلال

فالآيات الاولى نسبها اليه ، ابن ابي زرع فى كتابه « روض القرطاس »
والآيات الثانية ، نسبها اليه المديونى فى شرحه للمقدمة البرهانية ،
والآيات الاخيرة نسبت اليه ، فى كتاب الذخيرة السنية .

وجميعها لم ترد فى التشوف منسوبة الى قائلها ، وقد اعتمد صاحب
روض القرطاس ، والذخيرة السنية ، على كتاب التشوف ، وهو لا يأتى
بترجمة الا شفعها بأبيات ، لا يذكر قائلها ، فلو كانت لأولئك المترجمين ،
لكانوا كلهم شعراء ، ولوضعنا يدنا على ذخيرة غنية من شعر المتصوفة ،
فى القرنين الخامس والسادس ، وهذا — كما نرى — بعيد كل البعد ،
فان من هؤلاء كثيرين لم يعرف عنهم نظم البتة ، وفيهم من كان اميا لا صلة
له بالتعلم ، فبالاحرى ان ينظم الشعر الرائق .

على ان غيرهم عرفوا ببعض النظم ، وذكر فى ترجمتهم ، شعرا ، لم
ينسبه كذلك ، مثل عبد الله بن حريز ، المعروف بابن تخميست ، والشعر

الذى ذكره هو :

ولها ركبت البحر نحوك قاصدا ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتك بالاخلاص والموج طامح بصدق وداد لم يكن قبل معتلا
ايا منقذ الغرقى ويا ملهم التقى وياصدا يبقى اذا اذهب الكلا
لوجهك ذل البر والبحر خاضع وحق لهذا الخلق أن يالف الذلا

فقد عرف لابن تاخميست نظم مثل قوله :

اخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماث على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

توفى ابن تاخميست بمدينة فاس عام ثمان وست مائة .

أما أبو جبل يعلى الفاسى، فقد ذكر أنه كان جزارا، فيستبعد — عادة — أن تصدر عنه تلك الأبيات ، وقتلنا « عادة » لأنه لا مانع في واقع الأمر ، أن يكون مثله شاعرا ، خصوصا أن كان من رجال التصوف ، الذين لا يتورعون عن مثل هذه الحرف ، بل كان من غيرهم في مصر الشاعرا الجزار ، كما كان بالاندلس كذلك ، وأعرف بالمغرب من كان له ضلع في الأدب ، من الدباغين ، وما زال في عصرنا هذا من المثقفين البارزين ، من يتولى حرفة الخياطة للبذل .

فالمغرب كالاندلس ومصر فيما مضى ، لم يكن يضيق عطنه بالادباء والعلماء يزاولون حرفا مختلفة ، وإن كانت لا تتناسب مع منصبهم ، كالدباغة والخرازة مثلا ، وهنا تذكرت بعض الادباء المعاصرين والعلماء ، كانوا يحترفون الخرازة ، منهم من قضى نحبه ، رحمه الله ، ومنهم من لا يزال على قيد الحياة ، حفظه الله ، وجميع هؤلاء ليسوا من المتصوفة ، الذين لا تعنيهم الدنيا بقدر ما تعنيهم الآخرة ، والكسب الحلال الذى كانوا يتحرونه ، ومنهم أبو جبل المذكور

فتصوفهم هذا كان مدعاة لأن يزاولوا هذه المهن ، النى تعد عند المجتمع الارستقراطى ، مهنا متواضعة ان لم تكن وضيعة في نظر أولئك المشمخرين المتكبرين ، وخصوصا في المدن التى كانت مساجدها وجوامعها تقوم بمهمة التعليم للجميع ، فلا تفصل الناس بعضهم عن بعض ، ولا تحول مجالسها

بينها وبين أى انسان يحضرها أو يستمع اليها ، وبقدر ما كانت تلك الجوامع على رتبة عالية في تعليمها ، بقدر ما كان الذين يحضرونها أو يستمعون اليها ، من مطلق الناس ، على رتب عالية متفاوتة في ثقافتهم (1) .

ومهما يكن فإن العصر الموحدى الذى استبحر فيه الادب بشتى الوانه وأغراضه لابد من ان نلاحظ ملاحظات عامة على هذا العصر فنرى ان الادب فيه قد تعرض الى انقلاب عظيم واحداث خطيرة تناولت المجتمع في كيانه ونظمه وعقليته وفي وجدانه أيضا ، تناولت كل ذلك تناولاً قويا وهزته هزة عنيفة فوجدنا له اثرا في الادب نظمه ونثره ، في رسائله وفي تأليفه ، فلقد طرأت على المجتمع المغربى مرحلة سياسية شاهد فيها مصرع دولة فتية قوية كانت تتصف بالبساطة في كل شيء ، وكانت تتعلق بالشرق تعلقا رمزيا ، فتخطب لخليفة بغداد وتثبت اسمه على سكتها وتلتزم السواد في الويتها ، ويرتدى ملوكها الاردية التى يبعث بها ملوك العباسيين ، ثم لا تفتا ان تنطوى صفحتها من الوجود وان تحل محلها دولة أخرى على العكس منها تماما ، معتدة في كل شيء ومختلفة عنها في كل شيء ، فهى معتدة في تفكيرها وفي عقيدتها الاشعرية التى تواجه التوحيد ، وتعالج مسائله بفلسفة افلوطينية وترمى المرابطين الذين كانوا سلفيين بالتجسيد ، وتسهم في رسائلها بالمجوسية وتخص نفسها بالتوحيد ، فهى الفئة الموحدة ، ودولتها هى دولة الموحدين ، وتعمل جاهدة على تعميم التوحيد بتلك الطريقة وكما تعتقده بكل الوسائل وتسطر فيه صفحات بالعربية حيناً وبالبربرية حيناً آخر ، كما تتناول مسألة الخلافة والامامة بعقلية ما كانت تعرفها سالفاتها ولا سولت لها نفسها ان تخوض فيها ، ولكن هذه

(1) وأبرز مثال لذلك مدينة ناس ، وجامع القرويين منها ، فقد كان هذا الجامع ، حينما كان التعليم به ، يقوم بدور معال في تثقيف الشعب ، فكان من الدباغين ، مثلاً ، العلامة محمد ابن ركرى الماسى ، الذى كان يتردد على مجالس العلم بالقرويين (كما هو مذكور في محاضراتنا في تاريخ التشريع الاسلامى ص 110) .
وبهذا كان جامع القرويين ، لا يقوم بهمة تثقيف الشعب ، ويقرب الشقة بينه وبين العلماء محسوب ، بل قد يرتفع بعضهم الى مستوى العلماء ، الذين قال لى أحدهم - رحمه الله - انه كان يبيع المناع « الايقاما » وكان يعد من العلماء الكبار والادباء الشعراء ، درست عليه ، وشاهدته يكتب الشعر ارجالا على بلاط الزليج .
أما في غيرها ، فقد كان يقال ، بطوان يقفل دكانه ، حينما يحضر طلبته الكبار ، فيلقى عليهم دروسه ، بالمسجد الذى كان يؤذن به رحمه الله ؛ لا يريد من ذلك جزاء ولا شكورا ، كما كان بها معلم « نران » يدرس للطلبة المرشد المعين ، وحدادان أصبحا من العلماء الاسلام .

تتناول هذه المسألة بشيء من تفكير الاعتزال وكثير من تفكير التشيع ، ذلك المذهب الذى كان يلفظ نفسه بالمشرق على ان يبعث في المغرب ، لكن بعثه هذا كان منقطع النظر ، فهو لم يبعث كما كان حيا ، وانما بعث على صفة أخرى تمايزه في كثير من الملامح ، بعث حيا قويا متطرفا لا يقول بها الشيعة ، ولكنه يقول بالجهر بالفكرة والمخاطرة بالعمل لدرجة ان اضيف اليه مذهب الخارجية ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

نظر الموحدون الى المشرق فوجدوا الفاطميين يلفظون أنفسهم الاخير ، كما وجدوا الدولة العباسية العوبة تتارجح في بغداد ، وهى في الواقع لا تختلف في مصيرها عن ذلك المصير الذى كان الفاطميون يواجهونه لهذا قطع الموحدون صلتهم سياسيا بالمشرق فلم يعترفوا بالخلافة فيه كما كان يفعل المرابطون ، وانما قالوا نحن خلفاء للمؤمنين ونحن وجدنا الموصوفون بصفة الائمة المعصومين ، كما نظروا الى تلك البساطة التى كان يخلد اليها المرابطون في شخصية فقهاءهم الخامة ، فراوا ان لابد من القضاء عليها ، وان يعملوا فكرهم في اصول الدين مباشرة ، فامروا باحراق كتب الفروع ولجأوا الى الاصول او بالاحرى لجأوا الى الكتاب والسنة ، مباشرة وتركوا ما عداها ، وبذلك رفعوا تلك الفكرة التى كان ينادى بها الامام ابن حزم الاندلسي ، لان الظاهرية في الحقيقة كان معناها عنده هو الاجتهاد ، فلم يكن ابن حزم مقلدا في الحقيقة لداود الظاهري وانما كان مجتهدا يدعو غيره الى هذا الاجتهاد ، ولا يريد ان يتقيد فيه ، وعلى هذا سواء اقلنا ان الموحيدين دعوا الى الاجتهاد ام انهم قالوا بالظاهرية ، فهم على كل حال قد نبذوا كتب الفروع ونشروا في المغرب راية الاجتهاد التى كانت قد انتكست على عهدهم بالمشرق .

أما ما حدث للمجتمع المغربي في كيانه فقد وجدناه ينضاف اليه بعد الاندلسيين هؤلاء العرب الذين كانوا قد اتجهوا الى المغرب اواخر القرن الخامس ، الا انهم لم يصلوا اليه ولم ينحشروا فيه الا في هذا القرن ، وكانت الدولة نفسها تستملهم بشعرائها وكتابهها وتستعملهم في جيشها ، وفي بعض الاحيان كانوا فرقا خاصة بهم ، بل انهم ظلوا عمدة الدولة ، وسنرى فيما بعد ان المامون سيأينى بهم من اشبيلية ، محاولا ان يقضى بهم القضاء المرم على اشياخ الموحيدين .

هؤلاء العرب بالرغم مما كانوا موصوفين به من بداءة وجفوة فانهم حملوا معهم الى المغرب ادبا شعيبا معظمه ، وكان هؤلاء لابد لهم ان يؤثروا في خيالات المغاربة ولابد ان يعملوا عملهم في تقويم اللهجات العامية بل كان منهم من هو على حظ من الفصحى خصوصا الرؤوس ، ومنهم الذين كانوا يخاطبون بتلك الرسائل ويستمالون بتلك القصائد التي كانت تفد عليهم من الموحدين ، فكان لا محالة ان يحسب لهؤلاء حسابهم في المحيط الشعبي .

ومن مخاطباتهم بالفصحى ، قصيدة ليعقوب المنصور ، سجلها السرخسي في رحلته ، وساقها المقرئ في نفح الطيب ، هكذا :

(يا ايها الراكب المزجي مطيته)	على عذافرة تشقى بها الأكم
بلغ سليمي على بعد الديار بها	بينى وبينكم الرحمن والرحم
يا قومنا لا تشبوا الحرب ان خمدت	واستمسكوا بعرى الايمان واعتصموا
كم جرب الحرب من قد كان قبلكم	من القرون فبادت دونها الامم
حاشى الأعارب ان نرضى بمنقصة	يا ليت شعري هل تراهم علموا
يقودهم أرمنى لا خلاق له	كانه بينهم من جهلهم علم (1)
الله يعلم اني ما دعوتكم	دعاء ذى قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لأمر يستعان به	من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزي رسول الله عن نسب	ينمى اليه وترعى تلكم الذمم
فان انينم فحبل الوصل متصل	وان ابيتهم فعند السيف نحتكم

وقد راينا ما صدر عن الجراوى في استمالتهم وكذلك هناك قصائد اخرى نظمها ابن الطفيل على لسان أبى يعقوب في هذا الصدد .

وبعد فهذه حصيلة الدور الاول بشعرائها وكتابها ومؤلفيها وبعد ذلك يأتى الدور الثانى وهو الذى يمثل عهد الانحلال وضعف الدولة .

الفصل الثانى :

لقد حل القرن السابع فحمل الينا بوادر الانحلال الذى أصاب هذه الدولة . وكانت اول تلك البوادر ، ما منى به المغرب من كارثة ساحقة ، في

(1) بريد تراتوش .

تلك الوقعة المشنومة ، وقعة العقاب — كما تقدم — ، ثم تلا ذلك استبداد الأشياخ بخلفاء الموحدين ، وضرب رؤس بعضهم ببعض ، وتحريض أولئك الامراء على الانتزاء بالاطراف ، ثم قيام الاندلسيين انفسهم على الدولة والثورة على امرائها ، ثم ما انتهو اليه أخيرا من طرد الموحدين من بلادهم بالجملة ، واستنصار هؤلاء الامراء بملوك النصارى القشتاليين ، الذين استولوا على بعض المدن الهامة كقرطبة ، وما تلا هذا كله من حصولهم على امتيازات بداخل المغرب نفسه ، متقابل مساعدات قدموها للأمير فالخليفة المأمون ، كل هذه العوامل ، عجلت بسقوط دولة الموحدين الذين لم يعرفوا الاطمئنان فيما بينهم منذ قيامهم .

وهكذا فقد بدا الانحلال داخل البيت الموحدى الذى وجدنا لاوائل هذا القرن خليفته المأمون يعلن على الملأ لعن مهديهم محمد بن تومرت ، فيقول وهو يخطب على منابر مراكش :

« لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم » الا لا مهدي الا عيسى وانا قد نبذنا امره النحس وتبع هذا احداث جسام ظهر خلالها اديب عمل فى ركاب الدولة ، وامتدت به الحياة ، الى اواسط القرن السابع وقد ظهر الزهد والتصوف فى ادبه ، ظهورا بينا طامحا وهو ميمون الخطايبى الفاسى ، الذى درس علم التصوف — فيما درس — واخذ من العلماء بطريق الآخرة ، كما يقول ، يعنى علماء الصوفية .

لقد شاهد هذا الاديب احداثا دامية مرت بالمغرب ، وكان مشاركا فى بعضها ، ولكنه تفهت الدنيا فى عينيه ، فتركها وانقطع الى الله الذى باعه نفسه وماله ، ولجا الى الامداح النبوية ، بدل ان يتجه بها الى الامسراء والملوك ، والوزراء والكبراء ، كما كان يفعل فيما قبل .

نعم ، شاهد موقعة العقاب ، التى منى بها المغرب ، فانهزم ماديا ومعنويا ، وشاهد الملوك بعدها العوية فى أيدي الاشياخ من الموحدين وشاهد اقتطاع المغرب الشرقى ، من الدولة الكبيرة العظيمة ، وشاهد الاندلس تتحفز للانفصال عن هذه الدولة ، وتتدخل فى شؤونها الدولية النصرانية ، فتضرب رؤوس امرائها بعضها ببعض ، بل تنقل جيوشها الجحافل الى المغرب ، وقد استنصر بها خليفة موحدى على

خصومه ، كما أن النصارى من غير الاندلس ، صاروا يمدون أعناقهم إلينا ،
وقد استضعفونا فهاجموا مدينة سبته ، وكادوا يحتلونها .

كان ذلك الخليفة ، هو ادريس الملقب بالمامون ، الذى كان منقطعا
إليه ، ميمون الخطابى ، وهو أمير باشبيلية ، ولزمه وهو خليفة بعد
قتال شعرا فى جانبه السياسى ، منافحا عنه مهاجما لغيره ، وكان المامون ،
وهو قاصد الى المغرب من الاندلس ، يتضرم قلبه حنقا على أشياخ الموحدين ،
وعلى شيخهم الأكبر ، محمد بن تومرت ، فجاء الى العاصمة ، وقتك بهم
فتكته الكبرى ، وسفه أحلامهم ولعن مهديهم على المناير ، فقتل ، أنه
المهدى المزعوم ، لا المهدى المعصوم ، وأوعز الى ميمون ، أن يناله بالقذف
والنكير ، فقال :

وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
فأسر حسوا فى ارتغاء يبتغي بحاله نسجا على منوالها

ثم اشتبك المامون مع ابن أخيه ، يحيى ابن الناصر ، الذى بويع فى نفس
السنة التى بويع فيها ، فجرت معارك كان فيها يحيى ، قد ضربت عليه
قبته الحمراء ، فسقطت تلك القبة ، وهرع إليها العرب الذين كانوا فى
صفوف المامون ، فقتل ، ميمون فى الحادثة ، موجها الخطاب الى يحيى :

انظر الى القبة الحمراء ساقطة لما رأت مضر الحمراء عن كئيب
من كان أولى بها ان كنت ذا بصر العجم أو معدن العليا من العرب
وانما سجدت لما سهت وغدت فوق التراب فكانت أعجب العجب

هكذا كان الخطابى ، فى جانب المامون ، ولكن الاحداث ، كانت تنخر
فى كيانه ، وتجعل موقفه من سيده ينهار ، فى النهاية ، وبعد موته حسرة
وقبل أن نتصل بأدب الخطابى ، وهو متزهة متموصف ، نلتفت الى قصيدة ،
كان قد رثى بها ابنا لوزير ، واستهلها بقوله :

أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور	أرجة الصعق يوم النفخ فى الصور
به الخليفة من ايتاع محذور	أم هذه الارض اظهارة لما زجرت
وبانت الشمس فى طي وتكوير	أم الكواكب فى آفاقها انثرت
وشابه الليل فى اثواب ديجور	ما للبهار تعمري من ثياب سنا

قد كان للصبح طرف زانه فلق مقسم الخلق بين الدجن والنور
فما الملم الذى غشى بدهمته اديمه عنبرا من بعد كافور
أصيح لتسمع من انبائها نبأ يطوى من الانس فيها كل منشور
وانظر فان بني عدنان ما حشروا الا لرزء عظيم القدر مشهور
وافى مع العيد لا عادت مضاضته فشاب سلساله الاصفى بتقدير

يلاحظ على هذا الاستهلال ، ان الابيات الثلاثة الاولى مستاقمة بحذاء القرآن ، فالاول منها ، فيه من قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الارض » وقوله : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » والثانى من قوله « اذا رجت الارض رجا وبست الجبال فكانت هباء منبثا » والثالث من قوله « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت » وقوله « اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت » وبعد هذا تأتى الابيات المتكلفة بتهويلاتها ، تكلف الشاعر في اظهار الفجیعة المفتعلة منه ، ولا شىء فيها يسترعى النظر ، الا التصنع الذى يسود جميعها ، ومنه البيت الرابع ، الذى تأتى فيه ، بعد ما استغل قول مهمل :

وصار الليل مشتملا علينا كأن الليل ليس له نهار
فقال هو :

ما للنهار تعرى من ثياب سنا وشابه الليل في اثواب ديجور
ثم استعان في البيت الخامس ، بصنيع قول ابن عبد ربه :

غزال زانه حور

او قول غيره :

تمر قد زانه حور

فقال هو :

قد كان للصبح طرف زانه فلق مقسم الخلق بين الدجن والنور
ولا ندرك قيمة لتقسيم خلقه بين الدجن والنور ، الا ان يكون الشاعر اقحم فيه قول طرفة :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

فتحول التقصير الى التقسيم ، واوتى بالنور ليقابل الدجن ، من ناحية ، ولتعتمد عليه القافية من ناحية اخرى .

أما البيت السادس :

فما الملم الذى غشى بدهمته اديمه عنبرا من بعد كافور
فان صرخة المصيبة فى المصراع الاول ، تتحول الى تهقمة مرح ، فى المصراع الثانى ، الذى نجد فيه الظلام مشبها بالعنبر بعد ما كان الضوء مشبها بالكافور ، فهذا التشبيه لا مقام له هنا فى تصوير الفاجعة ، التى عم فيها الظلام واخفى النور من الوجود ثم بعد ذلك نجد الانس كان منشورا فطواه الحزن بأساه ، وان هذا النبأ العظيم قد انحشر له عرب عدنان ، فانقلب العيد الى مأتم فظيع ، لا اعاده الله علينا بمضاضته ، التى كدرته ، فجعلت سلساله الاصفى عكرا آجنا .

ومن ناحية اخرى فان صياغة الالفاظ ، تحكم على الشاعر بأنه ما كان صناعا فيها ، فقد لاحظنا تكرار الصعق فى البيت الاول :

ارجة الصعق يوم النفخ فى الصور أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور
وسنرى نحوا من هذا فى ديباجة وثيقته النثرية ، بعد ما نتعرض لشعره ، حينما تزهد ، وهو تلك القصيدة الطويلة التى تنيف على المائة بنيف وثلاثين ، يستنهلها بقوله :

حتيق علينا ان نجيب المعاليا	لنفنى فى مدح الحبيب المعاليا
ونجمع اشنيات الأعارض حسبة	ونحشر فى ذات الاله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كنيبة	لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم	مضاربها تنسى السيوف المواضيا
لنطلع من امداح أحمد أنجما	تلوح فتجلو من سنه الدياجيا
كواكب إيمان تلوح فيهندي	بأنوارها من بات يدلج ساريا
سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه	سجود لجبرى كل ما كنت ساهيا
فلا مدح الا للذى بهديحه	تطيع اذا ما كنت بالمدح عاصيا

نفى هذه الأبيات الثمانية ، وجدنا فعل « تلوح » يأنى فى المصراع الثانى بالبيت الخامس ، تم فى المصراع الاول بالبيت السادس وهذا من

قبيل الضعف الذى اوماننا اليه ، فى اول بيت من مرثيته ، فلا يشفع لهذا كون الاول فى « انجما تلوح » والثانى فى « كواكب تلوح » وتلك « تجلو الدياجيا » وهذه « يهتدى بانوارها من بات يدلج ساريا » .

وعلى العموم ، فالابيات الاربعة الاولى يطبعها الطابع الحربى ، باجابة صريح المعالى ، وافناء جيش المعانى ، وجميع اشتات الاعارض وحشر انفار القوائى ، وقود كتائب الاشعار ، لنصر الهدى وارداء العدى ، بالسن البيان التى هى سيوف صوارم ، دونها فى الفتك مواضى السيوف فى مضاربها ، وبعد البيتين اللذين وقع فيهما التكرار الذى اشرنا اليه ، يأتى البيت السابع ، الذى استغل فيه ما يعرف بسجود السهو فى الصلاة لجبرها ، حيث قال :

سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه سجود لجبرى كل ما كنت ساهيا
وقد تقدم هذا الاستغلال فى قوله سلفا :

وانما سجدت لها سهت وغدت فوق التراب فكانت اعجب العجب
وهذا ان دل على شئ فانما يدل على فقر الخيال الذى كان عليه الشاعر ، وانه لا يتعدى معلومات اولية يعرفها المصلون ، وتعبيرات فى جلها قرآنية ، يستحضرها الحافظون ، وما كان اكثرهم لعهد وعهدنا .

واخيرا نجد البيت الاخير دليلا على كونه ، اقلع عن مدح الملوك ، وانه كفر بمدح النبى عن ذلك الذى اعتبره معصية ، فاناب الى الله وبقية الابيات فى القصيدة عبارة عن سرد شمائل النبى عليه الصلاة والسلام ، ما كان منها قبل النبوة وما كان بعدها ، وما عرفت له من معجزات ، بعضها قاطع بالكتاب والسنة ، وبعضها ليس كذلك ، وهو مذكور فى كتب القصاص والسيرة النبوية عندهم فيقول فى الاولى :

واعظمها الوحي الذى خصه به	فبلغ عنه امرا فيه ناهيا
تحدى به اهل البيان بأسرهم	فكلهم الفاه بالعجز وانيا
وجاء به وحيا صريحا يزيده	مرور الليالى جدة وتعاليا
تضمن أحكام الوجود بأسرها	وحكم القضاء متبنا فيه ناهيا
وأخبر عما كان أو هو كائن	يرى ماضيا أو ما يرى بعد آتيا

ووافق أخبار النبيين كلهم وتمم بالغيات منها المباديا
وما كتبت يمناه قط صحيفة ولا رى يوما للصحائف تاليا
عليه سلام الله لا زال رائحا عليه مدى الأيام منا وغاديا

فهذه الاوصاف من القرآن الكريم بعضها ، وجلها مما ورد في الشفاء
للقاضى عياض ، وهى على كل حال مرصوفة ، لا يتخلله الا نحو تكرار
« باسره » فى البيت الثانى ، مع اسرها « فى البيت الرابع ، وبنفى
الموضع من البيتين ، ولا شك انه ينؤ به البيت الاخير ، فى قوله :

عليه سلام الله لا زال رائحا عليه مدى الأيام منا وغاديا

فهذا الجار والمجرور ، المتكرر فى « عليه » نشعر جميعا بقلقه فى
الصياغة وان كان المعنى سليما حيث ان عليه الثانية متعلقة برائحا
والاولى بسلام .

اما الوثيقة التى اشرنا اليها ، فهى عبارة عن عقدة بيع ، باع
نفسه وجوارحه لله تعالى ، فقال فى مقدمتها (كما فى جذوة الاقتباس) :

يقول العبد الذى اعترف بما اقترف لمولاه ، واقر له بما اضاعه ،
لا بما اطاعه ، على ما منحه من النعم وأولاه ، الميمون بن علي الخطابى :

جبر الله بالتقوى كسره ، وفك من حبائل الدنيا أسره : لم ازل مدة
أيام ، بل عدة اعوام ، اخال كل مخل بدينى ، واستظل من اطالة البطالة بكل
مضل يردىنى، واخالف كل صالح، وأحالف كل طالح غير مفلح، وأجر اذيل المجون
على أرض الراحة ، واطلق عنان مهر الغفلة فى ميدان النسيان فيطيل جماعه
ومراحه ، راكبا مطايا التسويف دون اهمال ، مستوطنا فرش الكسل
والانهماك فى الشهوات والانهمال ، مستوطنا ربع التصايب بقله الاعمال ،
وكثرة الآمال ، سالكا سبيل الهزل وطريقه ، تاركا قبيل الجد وفريقه ،
لا اتنى عنانى الى ما يعينى ، ولا ازال أعانى ما يعينى ، ولطائف الله عز
وجل النى يضيق عن حمل اصفرها الامكنة الفسيحة ، ولا يطيق بلوغ
شكرها الالسنه الفميحة ، صافية الورود ، صافية البرود ، وقد طنبت على
تبابها وأرواقها ، وخلعت بعنقى ثيابها واطواقها ، واطردت بماء النعمة
مذانبها وانهارها ، وتساوى فى القدوم بالكرم ليلها ونهارها ، وأنا مع ذلك

لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السننى ولهوا ، الى أن أجرى الله عادة احسانه وجوده ، وأرادت مراداته السائقة السابقة اخراج العبد المذكور من عدم الغفلة ، الى ظهور الالهام ووجوده ، فسلط رعد الخوف على سحائب سمائى ، فكشفها وجلاها ، وحل بساحة أرضها سكر السلو ، فسكرها من سهوا وخلاها ، وسل من سويداء قلبه محبة غيره ، فنزهاها عنه وسلاها ، فلاح اصباح النجاح ، وأذن ليل الغفلة بالصباح ، ونادى منادى الوطة بمنار العزلة « حي على الفلاح » وصاح كالىء صبح النجح بالسفر المعرسين « شدوا المطى فقد سال نهر النهار » ومال جرف الليل وانهار ، وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح ، فأفاق العبد المذكور من نوم الركون الى السكون والكرى ، وشمر للسير ذبوله ، وضرر للسبق خيوله ، اذ سمع « عند الصباح يحمد القوم السرى » .

هذا نموذج من نثره الفنى ، وهو كما نرى لا يعتمد أولا الا على التلاعب بالالفاظ والقراءة الصوتية فيما بينها كما فى : « اعترف بما اقترف » « بما أضاعه لا بما اطاعه » و « كسره » مع « أسره » « أخال كل مخل » واستظل من اطالة البطالة بكل ظل مظل « وأخالف كل صالح مصلح وأحالف كل طالح غير مفلح » « لا أثنى عنانى الى ما يعينى » ولا أزال أعانى ما يعينى « صافية الورود ضافية البرود » وأوراقها « مع أطواقها » لا أزيد الا غفلة عن القصد السوى وسهوا ، ولا استزيد الا اشتغالا عن المقصود السننى ولهوا و « أرادت مراداته السائقة السابقة » و « سكر السلو فسكرها » بعد « جلالها مع خلاها » ثم « وسل من سويداء قلبه » « فلاح اصباح النجاح » و « سال نهر النهار » « وانفجر عمود الفجر بنوره الوضاح فلاح و « من نوم الركون الى السكون والكرى » وشمر للسير ذبوله وضرر للسبق خيوله » .

هذا من ناحية الصياغة اللفظية أما من ناحية المعانى التى تضمنتها تلك الصور التى لا تخلو من جمال فقد وفق فيها الى حد بعيد ونسقتها احسن تنسيق . وقد عملت فيها شاعريه وخياله فتشارك فيها نظمه ونثره ، كما أشرنا الى ذلك فيما سلف .

وكان يعاصره أديب عظيم كاتب شاعر هو محمد بن عبدون بن قاسم

المكناسى ، الذى كان ضمن الذين أدركوا أواخر الموحدين وأوائل المرينيين الذين توفى بعد ولاية عاهلهم يعقوب المنصور ، بسنتين أو ثلاث أعشى سنة ثمان وخمسين وسنمئة أو تسع وخمسين على الخلاف فى ذلك .

اذن فقد عاش هذا الاديب فى العهد المضطرب ، بالنسبة لمكناس ، خاصة ، وكان اضطرابها هذا قد جنح بها الى مبايعة الحفصيين والاتسلاخ من الدولة الموحدية ، كما فعلت مثل هذا سبته ، وطنجة والقصر الكبير وسجلماسة بالمغرب واشبيلية بالاندلس ففى هذا العصر كان تفضيها أبو المطرف أحمد بن عميرة ، يكتب بيعة أهلها لأبى زكريا الحفصى ، وقد تعرضت لهجمات بنى مرين وعجز الموحدون عن الدفاع عنها ، وكان ذلك اثر وفاة الرشيد الموحدى ، حيث انه فى عهد السعيد الموحدى قامت بعد ثلاث سنوات من تلك الوفاة ثورة عارمة بمكناس ، تزعمها أبو الحسن علي من بنى العافية ، وهم من بيوتات مكناس القديمة ، ينتهون الى موسى بن أبى العافية الشهير فى عهد امتداد سلطان الفاطميين والأمويين على ساحة المغرب ، فكان شأنهم عظيما بهذه المدينة ، وقال فيهم ابن عمير :

مكناس مكناسة بيض الظبا ظباؤه محمرة عادية
وساحة الانس بها أصبحت عافية لولا بنو العافية

ومهما يكن ففى خضم هذه الأحداث التى شهدتها مكناس ، وفى هذه الانقلابات السياسية التى جمعت بين مكناس واشبيلية كان أدينا ابن عبدون يصدح بشعره ، ويتأنق بنثره ، ويجول ويصول بعلمه ، كما نجد له فيما وصفه به صاحب الذخيرة السنية ، اذ قال « تولى بمكناسة الفقيه الاستاذ المقرئ الكاتب البار ، محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجى ، اديب وقته ، وشاعر عصره » .

وعلى هذا فقد تولى الأديب الكتابة السلطانية ، أخذا من الوصف بالكاتب البار ، وكذلك من وصف ابن غازى له ، بأنه « حائز قصب السبق فى الشعر والكتابة » فالغالب أنه كان كاتباً لبعض أمراء الموحدين ، وبعيد أن يتولى الكتابة لذلك الناصر الذى لم يطل عهده ، ولا لأولئك المرينيين ، الذين لم يعيش فى ظلهم الممتد الى مدينته ، الا بضع سنوات تلال ، وهو شيخ على شفا القصر .

كان ابن عبدون يتردد على فاس للأخذ عن شيوخها والارتواء من
معين العلم والأدب بها ، وقد جمعت بينه وبين علماء وأدباء جلة ، كان
منهم مالك بن المرحل الملقب الميلاد والسبتي الاستيطان ، ففى
« جنى زهر الآس فى بناء مدينة فاس » أن الأستاذ المزياتى كان جالسا تحت
الثريا الكبيرة بالقرويين ، ومعه ابن عبدون الأديب ومالك بن المرحل ،
ومحمد بن خلف ، فأنشد الأستاذ ارتجالا :

انظر الى ثرية نورها يصدع بالألواء سجع الفسق
فقال ابن عبدون :

كأنها فى شكلها ريسوة انتظم النور بها فاتسق
ثم قال ابن المرحل :

أعيذها من شر ما يتقى وفجأة العين برب الفلق
ثم قال ابن خلف :

باهى بها الاسلام ما اشرقت كاساتها عند مغيب الشفق
وبهذا ونحوه كان ابن عبدون قابضا على ناصية النظم ، أما النثر
الفنى الذى كان به كاتباً ، فسرى بعض نماذجه بعد الفراغ من عرض
نماذج — وان كانت كذلك قليلة بيدنا — من شعره .

فمنها قوله فى مدينته مكناس :

ان تفتخر فاس بما فى طيها وبأنها فى زيهـا حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيان هواؤها والماء

فهذه مناظرة بين مدينتين ، سرى بعد من يوسع نطاقها ، كما فعل
ابن الخطيب الذى علق على البيتين ، بالتنويه بصاحبها فقال ، لما ذكرهما
فى كتابه « نفاضة الجراب : « لله دره »

وكأنى بابن عبدون على قدرة فى الوصف ، الذى قلت فيه بضاعتنا ،
اذ نجده يبرع فيه بقطع عديدة ، كأن يقول فى مصباح :

تلألأ مصباحنا فاكسى بهيم الدجا من سنهـا نحول

كأن الذبالة نسوارة ومن حولها الدهن ماء يجول
إذا رويت نعمت نضرة وان ظمئت اخذت في النبول

ويقول في المشيب :

لما نراعت للمشيب بمفرقى شهب أغرن على شبلي الأدهم
أبدى التهم من أحب أما درى أن الليالى حسنها بالأنجم

ويقول في نهر قذفت فيه مصابيح :

انظر الى النهر يحكى الأفق اذ قذفت فيه مصابيح ذادت عنه أحلاكا
جالت به سرج شبهتها شهباً على قواعد قد حاكين أفلاكاً

ويقول، في نهر أيضاً ، وردته عصابة طير :

أما ترى النهر في انصبابه كأنه الصل في انسيابه
قد انتحت به ظمء طير مقتحات على جنبه
تنقع من مائه أواما وتلقط الحب من حبابه

وهو وصف قد استهوى بعضهم ، بتشبيه انصباب النهر بانسياب
الصل ، فقال فيه « انه غريب » ولكن لا بدع ولا غرابة فيه فقد تقدم ابن
زنباع شاعرنا بما يربو على قرنين من الزمان ، فشبه تشبيهاً أدق وأوفى ،
اذ قال :

وتصويت فيها فروع جداول تتصاعد الإبصار في تصويبها
تطفو وترسب في أصول ثمارها والحسن بين طفوها ورسوبها
فكأنها هى موجسات أساود تنساب من انقابها للصبوبها

فكان الإبداع هنا في المشبه الذى هو فروع جداول ، لا النهر في
انصبابه ، ثم ركب فيها بأن جعلها تطفو وترسب في أصول الثمار ، وكذلك
جعل المشبه به حيات موجسة خائفة ، فهى تنساب من انقابها ، فتبدو ،
لتخفى في مضائق الجبال والوديان ، وهى اللصاب ، فكان هذا التشبيه
النمطى قد اسنجم شرائطه من الجمال في صوره .

وبعد ذلك التشبيه ، نجد في المصراع الأخير ، استعارة لباس بها ،
ولكن لا بدع فيها ، بالتقاط الحب من حباب ماء النهر وقد تقدم له تشبيهه

الثريا الكبرى في جامع القرويين ، بربوة انتظم فيها النور واتسق ، وهو جميل ، يوحى به عظم تلك الثريا وكثرة ما يوقد بها من مصابيح ، على اتساق نظيم .

ومن غزلياته هذه الأبيات :

يا جيرتى ومن استجرت بهم عوضتمونى بالوداد قللى وشغلتكم بالي بهجركم ما هكذا فعل الكرام بمن علقتم حبل محبتي بكم ما كان اندى ظل عيشتنا اذ نجتنى ثمر المنى ذللا نجلو الهموم بحث صافية وعرى العقول متى تحل بها عودوا الى عادات وصلكم حاشاكم والفضل شيمتكم واذا ابيتم غير جوركم ان شئتم قتلنى فما انذا	من جور عزهم على ذلى وأبدلتكم الانصاف بالمطل وباله عن كل ما شغل منهم تعود أجمل الفعل بحياتكم لا تقطعوا حبل اذ كان منتظما بكم شملي في روض أنس وارف الظل مزجت بخمر الاعين النجل أحدهما آلت الى الحل لا تحرمونى لذة الوصل ان تعقبوا الاخصاب بالمحل فالجور منكم غاية العدل لا تحذروا من طالبي ذلي
---	--

ففى هذه نجد الخمر تذكر بعد أبى الربيع ، كما نجد غزلا مذكرا ، وهو نادر شاذ جدا فى الشعر المغربى ، قبل العصر العلوى وقد استقل فى قوله « نجتنى ثمر المنى ذللا » قوله تعالى : « كل من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » وهو تجاوز فذللا وصف للسبل لا الثمر ومن ناحية الصنعة ، لا شئ به ، الا هذه الاستجارة من جور العز على الذل ، والبيت الاخير نظر فيه الى قول صريع الفوانى :

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذلي
والى قول ابن عبد ربه فى معارضته :

أطلاب ذلى ليس بى غير شاذن بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذلي
ولا شك انه استفاد منهما معا ، وربط شراب الراح الوارد فى الاول ،

بسحر العيون الوارد في الثاني ، ولكنه جعله خمر الأعين بدل سحرها ،
وهو لا جديد فيه ، فمن قبل بسطة ترون قال ذو الرمة البدوي :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر
وقد لمحت « الباب » غيلان ، لشاعرنا فقال :

وعرى العقول متى حل بها احداهما آلت الى الحل
ومن اخوانيات ابن عبدون ، قوله ، مجيبا صديقا له من اشبيلية
قال ابياتا ، جاء فيها :

يا سيدى قد سرت عن غريكم مشرقا أبكي على غريتي
فأجابه ادينا :

مللت دنيأى لبين دنا	من صاحب ملتته ملتي
فرقت اذ جدت به فرقة	حلت عرى صبرى اذ حلت
وكنيت أنسيت بأنسى به	نوائب الدهر التى جلت
لا احمد الحال اذا كنت يا	احمد عنى نائى الحلة
وكيف يسلو عنه ذو روعة	عليه اسيف الهوى سلت
لا اهل بالبين ولا مرحبا	فأدمعي من اجله انهلت
كم شت من شمل وكم ثل من	عرش وكم فرق من ثلة
ان غبت او أغبيت زورا ففى	طيفك ما يطفىء من غلتى

ففى هذه الابيات نجده يركن الى التلاعب بالالفاظ ، وقتلما يركن الى
المعانى في استلالها ، بعد ما ورد في المصراع الاول من دنو البين ، وهو
لا جديد فيه ، فكثيرا ما نسمع ازف البين ، وازمع البين ، ونحو ذلك ، اما
التلاعب بالالفاظ ، ففى التفريق حين جدت الفرقة ، وحل العرى اذ حلت ،
و « أنسيت بأنسى » و « لا احمد الحال يا احمد » و « يسلو ذو روعة عليه
اسيف الهوى سلت » و « لا اهل بالبين » انهلت به الادمع و « شت من
شمل وثل من ثلة » و « غبت او أغبيت » و « طيفك يطفىء » .

فابن عبدون ، استنادا على هذه النماذج ، كان شاعرا متأنقا ،

أكثر منه شاعرا ، شاعرا بوجودانه ، منطلقا على عواهنه ، وهى كلها بجذوة الاقتباس (1) .

هذا ما يصل بشعره ، أما نثره فلا نعرف منه الا ما يأتى .

كان ابن عبدون لسان بلديه ، ولهذا نجده يكتب الى المامون لما هاجم أهل زرهون مكناس ، رسالة يقول فيها :

فالعبيد أيدكم الله هالكون لا محالة ، وحياتهم فى حيز الاستحالة ، الا ان يتدارك الله تعالى بلطفه ، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه ، ومعلوم ان هذا القطر حماه الله ثقل الغرب ، والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب ، فإغاثته واجبة ، فالعجل العجل ، قبل بلوغ الاجل ، والغياث الغياث ، قبل تمكن الفساد والاعباث ،،،

ثم وصل الرسالة بشعر فى المعنى طويل ، كما يقول ابن عذارى ، فمنه :

امام الهدى سمعا لدعوة شاك	ثوى بين هلاك رهين هلاك
واوشك ان يغتال مكناسة الردى	وتبكى على من نحتويه بواكى
احاطت بها الاعداء من كل جانب	فقد قعدت منها بكل شراك
وقد زارها من أهل زرهون هونها	وبثوا لها التطليق بعد ملاك
وابناء فازاز لها مستفزة	فها هى تشكو كل أروع شاك

كما نجده فيها بعد يجدد بيعة أهل مكناسة للسعيد أبى الحسن المعتضد بالله على بن أبى العلاء المامون الموحد ، وهى هكذا :

الحمد لله مقدر الأمور ، ومصرف المقدور ، ومخرج عباده من الظلمات الى النور ، عالم السرائر ، ومنور البصائر ، ورافع الدرجات ، وواضع الخطيئات ، « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وسع كل عاص حلمه ، واحاط بكل شىء علمه ، ونفذ فى كل موجود حكمه ، لا راد لما به حكم وامر ، ولا ناقض لما احكم وامر ، قدر الاشياء واتقن الانشاء ، واتى ملكه من شاء ، واسس بالامامة مبانى الديانة ، واوصل بها للرعايا

(1) لابن القاضى

أسباب الرعاية ، وأمد من أهله لورثة مقامه الاسمى ، واختاره لامنته العظمى ، بالانجاد والاعانة .

ومنها بعد تمام الدعاء والصلاة والرضى ، كما بالبيان (1) .

اللهم ارض خليفتك فى عبادك ، المرتسم فى ديوان اوليائك وعبادك ، الامام المؤيد ، والحسام المهند ، الاتقى الاظهر الاعلى المعتضد بالله امير المؤمنين ابو الحسن ابن سيدنا الخليفة الامام المامون امير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين ، رضى بيلغه امله فى الدنيا والدين ، ويحكم لدولته السعيدة ، ومدته الحميدة ، بالتمهيد والتمكين ، ويجعل كلمته الباقية الى يوم الدين ، اللهم كما انتقيته من اكرم جرثومة ، وسددته لاقامة حدود الله المرسومة ، فضاعف اللهم فى قلوب رعاياه حبه ، وايد بالملائكة والروح عصابته وحزبه ،،

ومنها ايضا :

ومن شكرت فى الخدمة آثاره ، فحقيق أن تغفر زلته وتمحي آثاره ، وإن العبيد من اهل مكناسة قد اجتمعوا ووقفوا موقف الاستكانة والمذلة ، وقرعوا سن الندم عما صدر عنهم من زلة ، واستشعروا لباس الانابة ، وبادروا لهذه الدولة المعتضدية بالاجابة ، وانفقوا جميعا على ان جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله امير المؤمنين ، أبى الحسن ابن الائمة الراشدين ، اعلى الله يده ، ونصره وايده ، حسبما تقدم مستوعبه الشروط ، مستوفاة العقود والربوط ، لم يستثنوا فيها فصلا ، ولا اغفلوا من عقودها فرعا ولا أصلا ، بنفوس مغتبطة ، ونيات على الوفاء بما التزموه من عقودها مرتبطة ، واشهدوا الله وملائكته على انفسهم بذلك وهم به عالمون ، « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقيدوا عليه شهادتهم فى تاسع عشر شهر ذى الحجة من عام ثلاثة وأربعين وست مائة .

فهذه نماذج من أدب ابن عبدون شعرية ونثرية مائتة بليغة .

وقد انتهيا فيما مضى من تصوير الادب العربى عندنا ، وما تسلط عليه

(1) لايس عذارى .

من تلك التيارات الاجتماعية والفكرية والسياسية (1) فجعله كل ذلك يجنح الى نوع من الخواطر المستسلمة ، التي اتسمت بطابع الزهد ثم التصوف ، وكان لهذا انعكاس تجلى في الامداح النبوية والتوسلات بالمقام الشريف .

والحق ان هذا لم يكن وليدا لتلك الهزات العنيفة ، التي اضطرب لها المغرب ، على اوائل القرن السابع بل انما وجدنا في القرن السادس نفسه ، علائم للتصوف ، كانت مستوردة من الأندلس ، التي كانت قد انتهت الى ما انتهى اليه المغرب في القرن السابع ، مع اختلاف في طبيعة هذا الانتهاء ، فالقاضي عياض ، يصح أن يعد من المتصوفة ، وقد كان شيخه في ذلك ابن

(1) وأهمها هذه الانقلابات المحزنة كانت أنتك من تلك الانقلابات التي ثلت عرش المرابطين : لان هؤلاء ما انهاروا حتى كانت دولة الموحدين تسيطر على الموقف وسرعان ما انماست دولة أخرى أقوى نفوذاً وأشمل عظمة. أما مصرها فكان محزناً؛ الأندلس استنسر بعائها ثم صار ملوك الطوائف بها أضعف مما كانوا عليه أيام المرابطين الذين لبوا شمل البلاد متحدين . ولم تستطع دولة المرينيين أن تضم اليها بتواطئها مع بني الأحمر إلا جبل طارق والرندة والجزيرة الخضراء في بعض الأحيان ، هذا ما انتهى اليه الأندلس الذي كان أيام الرشيد وهو عاشرهم تتميزق أشلاؤه فكان الأسبان يحتلون مدناً عظيمة بشرق الأندلس ، مهاجر منها مهاجرون كثيرون الى المغرب ، من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة وغيرها ، وطلبوا من الرشيد أن يمنحهم مكاناً خاصاً بهم ، على عادة الأندلسيين معين لهم مدينة « الرباط » ليعمروها ، وكتب لهم بذلك ظهيراً ، من انشاء كاتبه أبي المطرف ابن عميرة ، جاء نيه : هذا ظهير كريم للمتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ، ومن حرى من سائر بلاد الشرق مجراهم ،،،، حين أنهى ذو الوزارتين ،،،، أبو على ابن ،،،، خلاص (كان آنذاك على سبته) ما أصابهم من الجلاء ،،،، ويلتمس لهم مكاناً للقرار ،،،، وعند ذلك أذن لهم ، أعلى الله تعالى أذنه ،،،، في النقلة الى رباط الفتح ،،،، وان يتخذوا مساكنهم وأرضه بدلاً من مساكنهم وأرضهم ،،،،، وان يتوسعوا في الحرث ،،،، على عادتهم ببلادهم كتب في الحادى والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وبهذا نرى أن هجرة أندلسية قوية ، كان لها خطرهما في عمارة مدينة ، كما كان لها لا محالة أثرها في الحركة الأدبية ، بعد ما كان من أبرز رجالها ، أبو على ابن خلاص وابن عميرة ، وان كان هذا الجو المضطرب بالفتنة ، جعل هذين الرجلين يضطربان ولا يستقران على حال ، وسرعان ما نجدهما يميلان الى الحفصيين ، ويكتب أحدهما وثيقة ببيعة الكتاسيين لهم ويبيع الآخر ببيعة السبتيين اليهم ثم توجه الأسبان الى الغرب فاحتلوا اشبيلية التي هاجر منها الى سبته ابن أبى الربيع استاذ ابن رشيد الذى تحدث عنه في رحلته (توفى عام 688) فقال وهو في حلقة ابن النحاس بمسجد مصر الأعظم وقد سأله الشيخ . من أين تدومك ؟ قال ، قلت من المغرب ، قال من الاسكندرية قلت من بعد ، قال ، أمن تونس ؟ قلت من بعد ، فقال ، اذن « حوى » المغرب ، قلت نعم ، فقال ، من أى بلاده ؟ فقلت من سبته ، فكان أول ما ماتحنى به ان قال ، أيمش سيدنا أبو الحسين ابن أبى الربيع ؟ قلت نعم ، فقال ، ذاك شيخنا ، افادة بوصول كتابه اليتيم ، يريد شرحه لكتاب الأيضاح الفارسى ،،،، ثم قال لى ، اقرا عليه ؟ قلت نعم ،،،، الجبل والأيضاح والكتاب ، فلما ذكرت الكتاب ، قال : فاعبر الى آخر القصة التي وقعت له يوم الأحد 7 رجب 684 .

السيد البطليوسى، كما سلف، كان يسترشد من الصوفى الإلمرى ابن العريف ومع هذا فاننا ان قسناه بزهاد أوائل القرن السابع ومتصوفاتها ، كان هذا منا قياسا مع وجود الفارق ، فعباض لم يتخل عن الدنيا ، وهو القاضى الذى يمارس شئون الناس ، ويتزعمهم ويثور على الدولة بهم وان كانت له نصائد فى الامداح النبوية ، فانها كانت مبنقة عن كتابه الشفا ، مستانة من السيرة النبوية الصحيحة ، التى تختلف جدا عما جاء فى امداح مبهمون الخطابى ، فتصوفه ما كان عبارة عن تجرد الانسان وانقطاعه عن عالم الكائنات ، انقطاعا كليا الى الله .

كلا فلم يكن منه ولا من غيره ، هذا الجانب السلبي ، الذى طمح فى الشرق بشطحات المتصوفة ، لدرجة ان صار اصحابه لا يفهمون ولا يفهمون ، فصاروا ضحايا الظاهر ، وحقت عقوبة الموت على بعضهم ، كالحلاج ، لقد كان تصوفنا رشيدا واعيا ممثلا لاوامر الله ، متجنبنا لنواهيه ، فى اخرج الاوقات واعوص الظروف .

لقد وجدنا — غير الامداح والتوسلات — للقاضى عياض ، خطبة ، يحض فيها الناس على التوكل المطلق والالتجاء الى الله والاتكال عليه فى كل الامور ، ولكن هذا ان كان منطلقا للصوفى ، فالامتداد فيه لا ينتهى عند الانتهاء الصوفى ، انه معنى المسلم الحق ، الذى يسلم نفسه لله ، الذى وعده فقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شىء قدرا » والذى قال : « بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه » فهذا الاستسلام ، كان مبعثا للايجابية فى المسلم ، لا العكس « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

فلو جعلنا هذا النوع من التوكل تصوفنا ، لقلنا ان كل مسلم متصوف ، ولهذا لا نستغرب ان يكون من أبطال الحروب متصوفة المغرب ، الذين فهموا التصوف بهذا المعنى الايجابى ، كابن الصبر ايوب السبتي ، الذى استشهد فى موقعة العقاب .

اما النصوص السلبي الذى نعنيه فى القرن السابع ، فهو الذى تمثله وثيقة الشاعر الخطابى ، الذى تقدم ذكره ، وشعره فى مدح الرسول ،

فهو تصوف بمعنى الاستغراق والتجرد المطلق والفناء في الذات القدسية ،
فناء لا حراك به ، الا ان يكون التعبد والتهجد .

ولقد تخطت الامداح النبوية ، مرحلة أخرى فاتصلت بالنعال ومدحها
والتوسل بها ، وشاعت شيوخا خلقت أدبا نسميه أدب النعال
وقد كان هذا الادب مجلوبا إلينا من الاندلس كذلك ، كما جلب منه الزهد
والتصوف ، فقد اشتهر في الاندلس به ، أبو الربيع الكلاعي المتوفى أوائل
القرن السابع ، وهو صاحب « الاكتفا في سيرة المصطفى » كأنه هذا به
كتاب الشفا ، ولكنه زاد فيه هذا العنصر الجديد ، ثم قلده ابن فرج السبتي ،
فنظم على حروف المعجم منظومات التزم فيها لزوم ما لا يلزم ، كما فعل المعري ،
ولكن منظوماته كانت « القطع الخمسة في مدح النعال المقدسة » الى أن
بلغ الراجح بمالك بن المرحل (1) .

فمدح النعال المقدسة ظهر في المغرب بسبته ، بعد ما كان قد ظهر في
الاندلس بقرطبة ، على يد ابن القطاع منها في القرن الخامس ، فعمل هذا
كان منبعثا ، عما شاهده هذا الناظم فيها ، من مسيحي الاسبان في
الاحتفال بالنديقي الذي اعتقدوا فيه صورة المسيح ، قد انطبعت عليه ،
لما مسح به وجهه ، ولا عجب في هذا فسنرى العزفي يتأثر بهذا الصنيع ،
ويؤلف كتابه الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، كما سيأتي في موضعه
بعد ، وعند منتصف هذا القرن بالذات .

واذا كانت سبته بطبيعتها من الرباط ، صاحبة الفضل الاول ، بالمغرب ،
في تناول الجناح النبوي ، بالكتابة في السيرة ، ثم بالنظم في الامداح النبوية
ثم النعال ، فانها ستستمر في هذا الطريق الشريف ، بامداح مالك ابن
المرحل ، الملقب المولد والسبتي الموطن ، يصاحبه العزفي السبتي بمولدياته
التي سنذكرها .

لقد ولد مالك ابن المرحل عام اربعة وستمئة ، وتوفى عام تسع
وتسعين وستمئة ، فهو خير من يمثل المرحلة الادبية التي كانت قد انتهت
بوفاء ميمون الخطابي سنة سبع وثلاثين وستمئة .

(1) نعم يعتبر مالك بن المرحل من العصر المرنى ، وان كان قد عاش أواخر العصر الموحدى
ونحن نعدّه من هذا العصر الأخير لا محالة .

كان ابن المرحل ، يفوق الخطابي ، بأدبه وعلمه الواسع ، مؤلفا في العلوم وناظما فيها ، منظومات يربو بعضها على الالف بيت مشاركا في شتى العلوم ، كما كان متناولا بشعره شتى الأغراض ، وفيها الهجاء ، الذي عرف بين الأشخاص في المغرب لأول مرة بسبب ما كان بينه وبين ابن أبي على ابن رشيقي المرسى نزيل سبتة كما كانت مشادة نحوية مع ابن أبي الربيع الأشبيلي نزيلها أيضا وعالمها النحوي في العصر الذي كان ابن مالك الجياني بالمشرق نحويه كذلك .

والذي يهمننا من ابن المرحل ، اشعاره في الامداح ، وعلى رأسها « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخرى » وهي التي رتبها على حروف المعجم ، والتزم افتتاح أبيانها كلها ، بحروف الروى ، على أن يحمل كل حرف منها عشرين بيتا .

وله منظومات أخرى ، وهي المعشرات النبوية ، التي يضم كل حرف منها — بعده حرفان زيادة على النمط السابق — عشرة أبيات الى جانب الامداح النبوية فله العشریات الزهدية ، على نمط ما تقدم أولا ، وله أخرى عشرونية في الموضوع ، على نفس النمط الاول كذلك .

فمن الوسيلة الكبرى قوله ، في حرف الهمة :

الى المصطفى اهديت غر ثنائي	فياطيب اهدائي وحسن هدائي
ازاهير روض نجتني لعطارة	واسلاك در تصطفی لصفاء
اكاليل من مدح النبي محمد	بها حازت الآداب كل بهاء
اضفت الى ميلاده غزواته	وما عن لي من آية وإياء
أردت رضی ربی بها فهو أرتجى	وربی کریم لا یضیع رجائی
أحق الرايا بالثناء مضاعفا	نبی له فی الوحي كل ثناء
امام هدى صلى النبيون خلفه	وصلی علیه اهل كل سماء
امين على الوحي الكريم وانما	هو السر لم يودع سوى الامناء
أضاءت به الدنيا فمن وجهه سرى	الى الشمس والاقمار كل ضياء
أسرته تهدى السرور وكفه	تكف من الاعداء كل عداء
اتانا بقرآن كريم مفصل	جلا صدا الازهان اى جملاء

أمان يعم المومنين ومنمة
أيا عتقاء المصطفى ان حقه
أما كنتم من قبله في شقاوة
أترجون في يوم القيامة غيره
الم تعلموا عذر النبيين في غد
اليه يشير ابن البتول اذا رأى
وحظ جسيم من سننى وسناء
عظيم فكونوا أكرم العتقاء
فلولاه هل كنتم من السعداء ؟
اذا قيل هل للناس من شفعاء ؟
وقولهم لسننا من الأثراء
ضجيج الورى في حيرة وعناء

فهذا مدح اشبه بأن يكون من المولديات التى تلقى على عامة الناس ،
فالطابع الخطابى فيها أقوى من الطابع الشعري ، خصوصا في أواخرها .
وجمالها الفنى ، لا يعدو أن يكون في هذه الجناسات ، مع التشبيهات التى
اكل عليها الدهر وشرب ، فمن التحلى بالحلية اللفظية « اهدائى وهدائى »
و « تصطفى لصفاء » و « آية وإيائى » و « أسرته والسرور »
و « كفه تكف » و « الأعداء وعداء » و « سننى وسناء »

وهذا الأخير وجدناه عند معاصره البوصيرى في همزته بالبيت :

لم يساروك في علاك وقد حا ل سننى منك دونهم وسناء
ومن التشبيهات :

أزاهير روض تجتنى لعطارة وأسلاك در تصطفى لصفاء
أضاعت به الدنيا فمن وجهه سرى الى الشمس والاقمار كل ضياء
وان كان هذا الأخير يدعيه المتصوفة الحقيقة المجردة ، التى لا تقترن
بتشبيه ولا استعارة فيه .

وبعد هذا تبقى القصيدة كأنها نظم ، يقول فيه صاحبه :

أضفت الى ميلاده غزواته وما عن لي من آية وإياء
أردت رضى ربي بها فهو أرتجى وربى كريم لا يضيع رجائي
وأخيرا يتوجه الى السامعين بقوله :

أيا عنقاء المصطفى ان حقه عظيم فكونوا أكرم العتقاء
ويستمر في الأبيات الأربعة الباقية ، يخاطبهم بذلك الخطاب الذى
أشرنا اليه .

هذا من ناحية التناول ، أما من ناحية المحتوى ، فهي لا تخرج عن شمائل النبي ، والتذكير ، بما ورد في القرآن عنه ، في نحو « وانك لعلى خلق عظيم » وهو الذي يعنيه بقوله « نبي له في الوحي كل ثناء » وهذا هو ما سيعنيه بعد ابن الخطيب في قوله :

ايروم مخلوق ثناءك بعد ما اثنى على أخلاقك الخلاق
ومن معشراته قوله في نفس الحرف :

أمالى الى قبر النبي مبلغ	ثناء فقد أثنى الزمان ذمائي
أمانة مشناق حمى الدمع جفنه	فما طاف طيف النوم خوف جهائي
أمانى كانت لى زيارة قبره	وأرضى روض يانع وسماي
أمال قناتي بعد حسن اعتدالها	زمان ارانى النقص بعد نمائي
أما توى الاعضاء الا اقلها	وأعطش روضي حين انضب مائي
أما رى مثيبي في سني وقد رمى	فؤادى على نوسى فكيف رمائي
أما رى الروى لو أبلغتني ناقتى	فلم تبقتني ظمآن بين ظمء
أما رى جميع المسلمين محمد	وأكرم مبعوث من الكرماء
أما رى الورى مما يخافون حبه	فيا حب شعشع آدمي بدماء
أما رى الاسى عيني وسعر أضلعي	فخذ بيدى ياراحم الرحماء

فهذه الأبيات ، كغيرها من فيئتها ، بلغت الغاية في تصنعها ، فكل بيت منها ، يبتدى بحرفين ، وينتهى بهما ، على غير الترتيب الاول وبينهما الألف ، وبذلك تكون البداية بثلاثة أحرف ، تكون بها النهاية كما قلنا فيها ، ففى البيت الاول مثلاً بدايته « أما » ونهايته « مائى » .

والأبيات ، من حيث المضمون ، فيها تشويق الى قبر النبي ، وفيها ذكر الهرم الذى ادركه ، على اشتياقه للمقام النبوى الشريف ، وأخيراً يذكر النبي بالصفات التى تقدمت ضمن ما ذكر فى الأبيات قبلها ، وهى فى فنّها على كل حال أجمل من سابقتها ، ولاشك أن هذه صدرت عن الشاعر بعد أن قطع أشواطاً فى مدحه عليه السلام ، وهذه المعشرات عرف بها ابن الفهاد ، المتوفى عام سبعة وعشرين وستائه ، بعد الكلاعى بثلاث سنوات ، مما يظهرنا على أن الأندلس ، كانت نصطبّخ بهذه الألوان من الأمداح ، سواء منها ما اتجه الى النبي مباشرة وما كان الى النعال

ومن العشرينية ، قوله في حرف الباء ، الذى يتبدى وتنتهى به الابيات :

يدأوى عذار من بياض مشيب	بأى لسان أم بأى طبيب
تريك طلوعا مؤذنا بفروب	بياض كما لاحت كواكب سحرة
على كاذب حلو اللسان خلوب	بشيرا نذيرا لاح كالفجر صادق
وليس جوابي منك غير وجيب	بني ابك لي ان البكا يبعث البكا
غرورا فان نهلك فغير عجيب	بحارا ركبناها بغير سفائن
فان ضحكت سني فضحك مريب	برثني يوما آية في براءة
فلم تتغير لاختلاف خطوب	بنيت لها قلبي على كرة الأسى
وسالمت مآقيه كمثل غروب	بكى صاحبي حتى اذا مال في الترى
وقلت له هذا مقام كئيب	بسطت له كفي وقبليت كفه
على نغم من انة ونحيب	بحقك لا تبرح اطارك لوعتى

فهذه أبيات كذلك على مستوى من الجمال الذى لمحناه في الابيات
التي قبلها ، وفيها اقتباس من امرئ القيس والخنساء وغيرها

ومن قوله في النعال :

وما دعائي والدواعي كثيرة	الى الشوق ان الشوق مما اكاتمه
مثال لنعلي من احب حذيتيه	فها أنا في ليلي ويومي لاثمه
أجر على رأسى ووجهى اديمه	والثمه طورا وطورا الازمه

وهكذا يستمر في هذه القصيدة وغيرها مبعجا للنعال النبوية ، مفرقا
في اكبارها ، كما فعل ابن فرج السبتي وغيره ، فيما بعد عندنا
فاذا قلنا ان القرن السابع عصر الامداح النبوية والنعال الشريفة والمولديات ،
فان هذا صادق الى اقصى ما يكون الصدق وقد تحقق هذا لأول الامر بمدينة
سبته ، التي كانت على اتصال وثيق بالاندلس ، كما نقدم فكان حامل الامداح
النبوية فيها شاعرنا مالك ابن المرحل ، الذى اتينا بنماذج مختلفة من
امداحه تلك ، وكان يعاصره الفقيه ابو العباس احمد العزمى الذى ألف
في المولد النبوى كتابه « الدر المنظم في مولد النبى المعظم » .

ولم يكن هذا التوجه الى الجناح النبوى الكريم ، قاصرا على
الشعب ، بل وجدنا حتى الخليفة الموحدى المرتضى عمر بن أبى ابراهيم بن

يوسف بن عبد المومن ، قد تزهد وتموف ، وصار ينظم في الموالد ،
فيقول :

وافى ربيع قد تعطر نفحه	اذكى من المسك العنيق نسيما
بولادة المختار احمد قد بدا	يزهو به فخرا وحاز عظيما
بشرى بشهر فيه مولده الذى	ملأ الزمان علاؤه تعظيما
ضاعت به شرق البلاد وغربها	وتألفت أرجاؤها تنعيما
فاعتز أمر الله يوم طلوعه	وغدا به دين الاله تويما
فاعرف لهذا الشهر حقا قدره	فلقد غدا بين الشهور كريما
شهر كريم جاء فيه محمد	صلوا عليه وسلموا تسليما

وله شعر في الزهد وفي رثاء نفسه والتهوين من خلافته ، نجده بالبيان
المعرب .

نعود الى مالك بن المرحل ، فنجده ، وقد تكالب النمارى على
المسلمين بالاندلس ، ينظم قصيدة ، يستنفر فيها المجاهدين المغاربة .

استنصر الدين بكم فاستقدموا	فانكم ان تسلموه يسلم
لا تسلموا الاسلام يا اخواننا	واسرجوا لنصره والجموا
لاذت بكم اندلس ناشدة	برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها انه	لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ما هى الا قطعة من ارضكم	واهلها منكم وانتم منهم
لكنها حدت بكل كافر	فالبحر من حدودها والعجم
لهفا على اندلس من جنة	دارت بها من العدا جهنم
استخلص الكفار منها مدنا	لكل ذى دين عليها ندم
ترطبة هى التى تبكى لها	مكة حزنا والصنا وزمزم
وحمص وهى أخت بغداد وما	ايامها الا الصبا والحلم
استخلصوها موضعا فموضعا	واقعدوا واحتكموا وانتقموا
وقتلوا ومثلوا واسروا	واحنلوا وايتموا وايموا
ايام كان الخوف من اعوانهم	والجوع والفتنة وهى اعظم
حتى اذا لم يبق من حيائها	الاذماء تدعيه الذمم
دعوا العهود واعيدوا وما دروا	بانها بجلكم تعصم
ظنوا وكان الظن منهم كاذبا	ان ليس لله جنود تقدم

يغضب للإسلام حين يظلم
يحفظها شبابكم والهرم
عدوا على جيرانهم واجترموا
ان قد رمتهم بالشعاع الانجم
من نحوكم احظاهم التقدم
واقترعوا عليهم واقتسموا
واحبستهم نعم ونعم
عنهم وانتم في الامور احزم
الأجر فيها وافر والمغنم
وعزموا ان يهزموا فهزموا
ومن رماح في ذرى تحطم
زلت لاهل الصدق منهم قدم
كريمة ففاض منها الحكم
وحبه في فعل ما يقدم
يكبر عيسى قولهم ومريم
خلقا يصح جسمه ويسقم
وابنا ولا صاحبة ولا ابنم
مال ولا خوف نعيم يعدم
والحور عن يمينه تسلّم
يدعون مهما كبروا واحرموا
افى ضمان الله ما يتهم
او عودة صاحبها مكرم
الى الذى من ربكم وعدتم
خلقا لهم تلفت اليكم
لا تطعم النوم وكيف تطعم
سواكم رداء أين الهمم
ودمعه من الحذار يسجم
هو الغيث أو اسار أو دم
فيه لنا الخير فانت الملهم
انت بما فيه الصلاح اعلم

ما صدقوا ان وراء البحر من
ولا دروا ان لديكم حرمة
لو عرفوا قبائل العدو ما
اليوم يدري كل شيطان بها
نقدمت نحوهم طليعة
فانتصفوا للدين من اعدائه
وامتلأت ايديهم من السبا
يا اهل هذى الارض ما اخركم
تسابق الناس الى مواطن
تعزز الكفار في ديارهم
فمن سيوف في رؤوس تنحنى
وقامت الحرب على ساق فما
باعوا من الله الكريم انفسا
اخرجه من بيته ايمانه
ما هم الا قتال امّة
تشرك بالله وتدعو معه
وتدعى ان له صاحبة
لم يثنه عن عزمه اهل ولا
كيف وعدن تحت ظل سيفه
والله راض عنه والخلق له
اخواننا ماذا القعود بعدهم
هل هى الا جنة مضمونة
خذوا السلاح وانفروا وسارعوا
ان امام البحر من اخوانكم
ونحوكم اعينهم ناظرة
والروم قد همت بهم وما لهم
كلهم ينظر في اطفاله
أين المفر لا مفر انما
يا رب وفتنا والهننا لما
يا رب اصلح حالنا وبالننا

يا ربنا ما داؤنا شيء سوى ذنوبنا فارحم فانت ترحم

فهذه أول قصيدة نراها تتوجه الى مخاطبة الشعب وابتنفاره على أعداء الاسلام ، وهي في أسلوبها نراها تنزل عن مستوى الأسلوب الذي عرف لمالك بن المرحل ، لأنها قصيدة نظمت للشعب فهو كلام موجه الى العامة واشباه العامة ، من المجاهدين الذين يحملون السلاح ولا يحملون الاقلام ، وقد ما قال البلاغيون ، عند تعريفهم للبلاغة « هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال » ومن مقتضيات الحال مراعاة المخاطبين ، ولهذا قالوا « خاطب الناس على قدر ما يفهمون » فالحكم على الأديب بما له من انتاج ، لا بد ان يدخل في الحساب والتقدير ، ملابسات عديدة ، فيها الزمان والمكان والافراد أو الجماعات ، الذين لهم اتصال بذلك الانتاج ، من قريب أو بعيد ، زيادة على أحوال الأديب نفسه ، وما كان يعتوره عند انتاجه ذلك من عوامل نفسية واجتماعية وغيرها ، قد تكون قاسية عليه ، أو منتعشة له ، خائفة له أو منطلقة به في الفضاء .

ففى هذه القصيدة ، يذكر المجاهدة المغاربة ، بكون الدين يستنصرهم من وراء البحار ، فلا يجمل بهم ان يسلموه الى أعدائه يذكرهم بالاخوة الاسلامية ، التى تلزمهم ان يهرعوا للدفاع عنها ، وشد أزرها ، فى الاندلس التى لاذت بهم تناشدهم برحم الدين فعليهم أن يرحموا من يسترحمهم ، لأن الرحمن لا يرحم من لا يرحم ، كما فى الاثر « الراحمون يرحمهم الرحمن » فأخذ الشاعر بالمفهوم ، كما اخذ به محمد ابن الهبارية فى « الصادح والباغم » اذ قال :

وقد علمت واللييب يعلم بالطبع لا يرحم من لا يرحم

ويركز الشاعر على هذه الاخوة المشترك ، بأننا منهم وهم منّا وأرضهم ما هى الا قطعة من ارضا ، لكن الكفار أحرقوا بها ، والبحر من ورائها ، فوالهفة على الاندلس من جنة أحاطت بها جهنم ، واستخلص الكفر منها مدنا يعرض المسلم عليها الانامل ندما ، فهذه قرطبة تبكى لمحنها مكة والصفا وزمزم ، وهذه اشبيلية اخت بغداد ، قد سقطت تحت اقلام النصارى ، فانتهبوها وقتلوا أهلها ومثلوا بهم ، وأينموا الاطفال وأيموا النساء ، قد أعانهم على هذا الخوف والفئنة والمجاعة ، فاستنزفهم ذلك ،

وعندئذ لوح لهم العدو بالعهود فوثقوا بها ، ولكنه سرعان ما خانها وفتك بهم فتكته الكبرى ، كان العدو ما علم أن وراء البحار رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يغضبون لهم ويقتحمون البحار والخطار لنصرتهم ، وقد حفظ شبابهم حرمة الجوار في هذه العدو ، التي لو حسب الأعداء حسابها لما عدوا عليهم لقد آن اليوم الذي تقذف فيه الشياطين بالشهب ، التي تتقدم بها طلائع الرحمن في أولئك الرجال ، الذين ينتصفون من أعداء الحق فتمتلئ أيديهم بالسبايا والغنائم ، فيا أهل العدو ، ما أخرجكم عن نصرتهم وقتال أعدائهم وأنتم أحزم في الأمور ، فقد تسابق من قبلكم إلى مواطن الجهاد الذي يتضاعف فيه الأجر والمغنم ، وقد تعزز الكفار في ديارهم وعزموا أن يهزموا ، ولكنهم كأن قد هزموا ، وقطفت رؤسهم سيوف الأبطال وقصعتهم رماحها ، وقامت الحرب على سوقها ، وثبتت أقدام المجاهدين ، لأنهم باعوا الله أنفسهم وأموالهم ، لما دعاهم إلى رحمته ، فكان حيهم يقدم المجاهد بين يديه ، فيضرب بسيفه ليرضى ربه ، أما ميتهم ، فهم في رضوان من الله ورحمته ، وقد ازدحموا ببابه ، بعد ما خرج من بيته بدافع الإيمان ، ورغبته في تقديم ما يجد عند الله جزاءه الأجر والثواب ، وهكذا نجد هذه القصيدة الخطابية تستحث الناس وتحضهم بخلاف القصيدة التي أجاب بها ابن الأحمر عن يعقوب ، المريني ، فهي في منها الرأى ، لا نسبة لها بتلك ، يقول فيها :

أنا أجبنا صرخة المستنجد
قمنا لنصرته ولم نتردد
من عضبها والصبح لم يتجرد
أحد بسير خيولنا في الفرقد
أنا نروح بها وأنا نفتدى
كانت تطير بنا ولم تتردد
إلا الجهاد ونصر دين محمد
ملك تقدم في الجيوش لمرصد
هيهات ما الماء الأجاج بمورد
ومشارب ومزارع لم تحصد
يتوقعون الموت أن لم نوجد

شهد الإله وأنت يا أرض اشهدى
لما دعا الداعى وردد معاننا
نسرى له بأسنة قد جردت
لولا الأسنة والسناك ما درى
والخيل تشكونا ولا ذنب سوى
لو أنها علمت بنا في قصدنا
الله يعلم أننا لم نعتقد
ثم اعترضنا البحر وهو كأنه
فترامت الخيل العطاش لورده
يا خيل أن وراعنا ماء روى
واحبة بين الفوائد أصبحوا

تجرى دموع جفونه لمقيد
ومروع لا يستقر بمرقد
ولهم مزيد تحبب وتودد
مثل الحمام الحائمات الورد
نفذت عزائبها ولم تتعدد
كالشمس يوم طلوعها للأسعد
ان الحوادث لا تجيء بموعد
منا بكل مؤيد ومسدد
ودنا المراز وقيل للبعد ابعد
بسطوا لنا الآمال بسط معهد
ولنا بها ملك رصين المحتد
فمزود منهم وغير مزود
يبقى لكم فى الارض موضع مسجد
لمثالنا فى جوكم لم تعهد
بل كان ذا منا وان لم نشهد
فيكم فيرجع من مضى بتزيد
ويكون يومكم يقصر عن غد
ان لم تمد حبالها فكان قد
حتى ابتدئتم بالمكان الابد
ادراك من ود قديم متلد
ويصول بعد تذلل وتعبد
وتركتها لكم ولم اتعهد
دون العدا والله خير مؤيد
منكم لكنتم بالحضيض الأوهد

من مطلق العبرات الا انه
ومفجع لا يستلذ بمطعم
اخواننا فى ديننا وودادنا
نسرى بأجنحة البزاة الى العدا
واستقبلت بحر الزقاق بعصبة
فاستبشروا فى أفتهم بطلوغنا
حتى بفتنا القوم فى اوطانهم
ثم التقينا بالذين استصرخوا
حتى اذا جئنا وجاءوا نحونا
ازور جانبهم واشهد بعد ما
أو ما رأونا قد تركنا أرضنا
وأطاعنا قوم كثير أسرعوا
أترون ان عادوا الى اوطانهم
ام نحسبون بوارقا نشأت لكم
برماحكم نفحت وعنها امطرت
انا أردنا ان رغبت قومنا
حتى ترون بلادكم معمورة
فاليوم قد اوحشتمونا وحشة
يا ليت شعرى ما بدا منا لكم
تالله لولا ودنا فيكم وما
ومخافنا ان يستطيل عدوكم
لخرجت من هذا البلاد بمن معى
أو ما علمتم اننا ايد لكم
لولا رجال من مريين رفعوا

الى آخر القصيدة التى تفوق سابقتها كثيرا ، لان هذه صادرة بلسان
ملك ، فى خدمته شاعرنا ، وتلك كانت تلقى على الشعب فى جامع
القرويين ، فتأثر لها المسنمعون ويكون ، ويهرع منهم للتطوع فى صفوف
المجاهدين ، على اثر سماعها .

ولابن المرحل اغراض عديدة طرقها فى شعره ، فالى مدح النبى

مدح المرينيين ، الذين كان احد كتابهم ، كما هجا ، والغز ونسب ووصف
وافتخر ، وخاطب الاخوان ، بنحو ما خاطبهم عياض فيما سلف ، وكان
الشعر يسلس له في كل ما يريد ، فنظمه للعلوم ، نجده مشرقا ، على
غير ما نجد عليه عند الناظمين فيها ، بل اننا نجده يعقد صداقا بشعره بذلك
الاشراق ، كأين يقول فيه :

وبعد هذا الذى قدمت من كلم فان عالما الاهداف وفاضلنا الـ
ارجو به النجح فى ورد وفى صدر
سأبقى ووالينا الموعود بالظفر
(وبعد ثمانية أبيات من الاشادة بالافاضة الحميدة يقول)

لما رأى نجله الذئب السرى أبا الـ
سوفاء بلغ ما يبغيه من وطير
قد نال رتبة آباء له كرموا
فى عنوان الشباب الناصر الخضر
(وبعد بيتين يقول) :

دعاه دعوة من يرجو المزيد له
وان يراه من الأبناء فى نفس
الى الالهى حفظوا احسابهم وحموا
منه العلا من بطاح طيب الأزر
فقال أمرك يا مولاي املك لى
فالعبد فى كبر كالعبد فى صفر
(وبعد بيت يقول) :

فاختار صهرا كريما واستخار له
مولى متى يستخره عبده يخسر
فى خطبة خطبت فيها السعود على
منابر العز فى حفل وفى حضر
(وبعد ستة أبيات يقول) :

كريمة من بنى حجاج اصطفيت
منهم كما تصطفى الاعلاق من درر
(وبعد بيتين) :

فأحمد الله بالوفيق بينهما
عقد النكاح فأمضى موثق المرر
على الكتاب الذى بالحق أنزله
الاهنا وبتييسير لمدكر
(وبعد بيتين كذلك) :

على صدق دنائير وجملتها
من المائين ثلاث صرفها عشر
النقد من ذاك ثلثاه وقد برئت
من ذاك ذمته بالدفع فهو برى

الى ثلاث اماء فائتقان من الـ
تتلوهما من بنات الروم واحدة
وصار ذلك في قبض المصونة ام الـ
بنت الكرام التي عزت بمنصبها
(وبعد ثلاثة أبيات يقول) :

وذاك عن اذن قاضينا الاجل ابي
عبيد الله اخى نهر بنى النضر
(وبعد بيتين يقول عن العروس) :

وأن تكون لديه بالامانة والمأ
وذاك معروف امساك لمسكته
وحسن صحبتها حق عليه لها
خوذ عهدا على الازواج في السير
مرت والا فتسريح بلا غير
اليه من ذاك من أمر لمؤتمر

الى آخر القصيدة التي تناهز التسعين بيتا .

هؤلاء الذين تقدموا، كلهم أو جلهم كانوا في ركاب الدولة، أو على اتصال بها ، في السياسة أو في الحكم، ومنهم القضاة كما رأينا، ولهذا تردد ذكرهم في كتب التواريخ ، السياسية غالبا ، أما غيرهم فقليل ما نظفر بأحاديثهم ، ومن هؤلاء الأحاد ومن القضاة أيضا محمد بن حسن بن عمر الفهرى السبتي المعروف بابن المحلى ، كان من تلاميذ ابن خروف وابن الشلوطين وأبى الصبر أيوب ، وغيرهم من كبار علماء العربية بسبته ، فخرج أدبيا بارعا كاتبًا بليغا ، ناظما ناثرا ، نحويا ماهرا ، حسن القيام على تفسير القرآن ، عاقدا للشروط مبرزًا في العدالة ، وغير هذا يشهد بتفوقه تولى قضاء سبته ، بعد الشريف أبى الحسن بن أبى الشريف ، واستمر حتى وفاته سنة إحدى وستين وستمائة ، وولادته عام 582 . ومن قبل القضاء ، كتب عن أبى عبد الرحمن يعقوب بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، أيام ولايته حاضرة فاس ، ثم صحبه الى مراكش ومن شعره :

تعشق قلبا أنت مطلبه
(ما رام صرف) هوى خلق ليغلبه
وكيف يرجو وصالا من تبعده
وكيف يخرب ربع أنت تعمده
أو يذهب الشوق روحا أنت مذهبه
الا وجبك يدعوه فيغلبه
أو كيف يخشى بعبادا من تقربه
بل كيف يعمر مسكون تخربه

وقال اهل الهوى شأن الهوى عجب
والعتب في سلوة الاحباب موثعه
وكل حال الهوى صعب مسالكه
يا من اناجيه والاشواق توهمني
كم طيبة لك بالالطاف توجبها
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته
رفقا به فهو في حالي مناقضة
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه
منأى أنت وحسبي أن تكون منى
كن كيف شئت فمالي عنك منصرف

فقلت ان سلوى عنك أعجبه
عذب ولكن عتاب السر أعذبه
على الحب وسمع العذل أصعبه
نيل الوصال كان الشوق يوجبه
عند اللقا ومناي منك أطيبه
حتى تكون بما ترضى تقلبه
فالقبط يحزنه والبسط يطربه
وخشية الرد تقصيه فتحجبه
ياواهبها رغباتي قبل أرغبه
فما لعبد سوى مولاه مطلبه (1)

هذه القصيدة فيها ربح من قصيدة ابن زريق البغدادى :

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
والغالب أن موضوع قصيدتنا كان المدح لأمير من أمراء الموحدين ،
ولعله المذكور قبل ، ينم عن هذا البيت الثالث قبل الاخير .
ومنة الجود تدنيه فتؤنسه وخشية الرد تقصيه فتحجبه
وقد اقامها على هذا النقيض الذى احسن وصفه تمام الاحسان ، وقد
أسفر عن هذا النقيض البيت :

ففى هذا الاعتذار الوارد فى البيت قبل السابق :

رفقا به فهو في حالي مناقضة فالقبط يحزنه والبسط يطربه
وعلى كل حال فالإبيات في نفسها رقيقة شفافة ، على غموضها في
مقصدها ، وربما تكون من قبيل المناجاة الالهية :

يامن اناجيه والاشواق توهمني نيل الوصال كان الشوق يوجبه
كم طيبة لك بالالطاف توجدها عند اللقا ومناي منك أطيبه
فارحم تقلب قلبي فهو شيمته حتى يكون بما ترضى تقلبه (2)

(1) الاعلام للعباس ابن ابراهيم ، وما بين هلالين في هذه وفيها بعدها فهو منا استظهارا .
(2) لعله يومئ الى الحديث « يا مطلب القلوب ثبت قلبى على دينك » وحينئذ فهم محاكاة الهبة .

ومن هذا النسب — ان كان — الرقيق قوله من قصيدة :

أبوح بما القاه فهو مباح	مقبلي أرباب المحبة باحوا
إذا باح من قبلي ولم يلق بعض ما	لقيت فاني ما علي جناح
الهابنا لا تحسبوا الصبر بعدكم	سخيا ولا أن الدموع شحاح
وان فنيتم أجسادنا وقلوبنا	فتلك المهود السالفات صحاح
سمحت لكم بالنفس كي أريح الرضي	على ثقة أن السماح رباح
فؤادى منتاد اليكم مذل	فمالي إذا ليج العذول جماح
وهى من سبيل ان أطير اليكم	وقد حص بي ريش وقص جناح
تغير وقتي بعدكم فكأنما	صباحي مساء والمساء صباح
وأوحشتم فالكل في الاذن نائح	لدى وآفاق الوجود (صياح)
وما تفضل الأيام أخرى بذاتها	ولكن أيام الملاح ملاح
خرست عن الشكوى اليكم مهابة	والسن حالي بالغرام فصاح
تمتع لحظى سنة في جمالكم	فان لاحظ الاغيار فهو سفاح
وياعجبا انني اسير وانني	اناشدكم أن لا يتاح سراح
إذا هز أرباب السماع تواجد	فحظي منه زفرة وصياح
فها أنا عند الباب منوا أو اطرءوا	فما لي عنه كيف كان براح

وهو نسب يمكن أن يكون في الذات الالهية كذلك ، فيه انسياب ماء
الجمال الشعري ، ولا ينبو فيه الا « الكل » في البيت :

وأوحشتم فالكل في الاذن نائح

أما « الاغيار » في البيت :

فان لاحظ الاغيار فهو سفاح

فيشفع لها كونها أصبحت من تعابير المتصوفة ، الذين ربما كان منهم
هذا الاديب ، على أن « الكل » نفسها ، صارت من استعمالهم وكذلك يعد
من هذا القبيل نونية :

غرامي دعاني والعذول نهاني
 اما علما اني على الشحط والنوى
 يقولون لي من ذا دعاك لما نرى
 ضمان على قلبي الاسى بعد بعدهم
 اعلل نفسي بالسلكو تعللا
 اذا خفق البرق اليمان بأفتكم
 وان همت مزن السحاب بأرضكم
 رعى الله جيران العذيب وأهله
 هم وعدوا بالغور ثم تراوغوا
 وصدوا على صدى وبالخيف خوفا
 لئن حجبوا عن ناظري فكأنهم
 وان عميت أنباؤهم حيث يمموا
 وعندي ما لا يمكن الشرح لفظه
 أوري بسلع والعذيب وحاجر
 اليس قبيحا من نفوس نفائس
 وأذكر سكان العذيب تسترا
 (أسر بقلبي) من هو القلب كله
 (ومن هو ان) لاحظت لم أر غيره
 (واني لا) ستحييه أن أشكو الهوى
 ومن فضله وجدى به وتولمسي
 ظهرت على حبي له فكأنما

فوجد وعذل كيف يجتمعان
 مقيم واني والهوى أخوان
 فقلت دعاني حبه فدعاني
 اذا لم يكن يوم اللقا بضمان
 وتلك أمان ما بهن أمان
 أقابل ذاك الخفق بالخفتان
 يغالبيها دمي على الهملان
 وان أترعوني من هوى وهوان
 وهم عنفوا بالعنف من بدلان
 وبانوا ببذات البين صوب أبان
 لقلبي يراهم فيه رأى عيان
 فسرى يراعيهم بكل مكان
 وان كنت وان (والفصيح) بيان (1)
 وتلك مغان ما لهن معان
 بأيدي الغواني المصبيات عوان
 وما ذكر سكان العذيب بشائي
 ومن ذكره في خاطري ولساني
 على أنه اذ لا أراه يراني
 وما لي بما حملت منه يدان
 ومن جوده ما أشتكى وأعاني
 يراني لمعنى الحب حين يراني

والآيات الأربعة الأخيرة من هذه ، واضحة في كونه يعنى الذات
 الإلهية ، ويسود هذه القصيدة التلاعب بالالفاظ ، الذى ولع به المتصوفة ،
 كما نجد في أساليب المتصوفة ، من العرب والفرس خاصة ، فمن أولئك ابن
 الفارض ، مثلا ، ومن هؤلاء عبد الله الأنصارى والسبب في هذا النوله بها
 والرمز فيها ، وهم أهل رمز منذ القديم ، وفيهم الحلاج ، الذى قال :

(1) بالأصل « والفصل » ولا يستقيم ولا يتزن إلا بـ « الفصيح » والكلمة قبله مصححة
 لم يستحسن لى حوالب منها . وقد رحلنا إلى « الذيل والتكملة » الذى نقل عنه ابن ابراهيم
 فلم نجد به صاحب الترجمة ولا شعره . كما أن هذا التصحيح حفوظ عليه في الطبعه
 التى أخرجها الأستاذ بن منصور .

أرى قديمي أراق دمي

وكانت سببة قد أصبحت موطن المتصوفة ، وفيها قبل ذلك العهد ،
مثل أبى العباس السبتي وعلى المسفر ، الذى ترنم بقصيدة ، قالها من
سبقوه ، من المتصوفة واحتفظ بها فى جيبه ، حتى اطلع عليها بعد الوفاة ،
فاعتقد أنها له ، ووقع فى هذا الخطأ الحاتمى ، وتبعه بعضهم ، فوقع فيما
وقع فيه ، ولو اطلع على ما صدر عن هؤلاء الاقدمين ، وعلى مرأى ومسمع
من الحاضرين ، لما وقع فيما وقع .

والقصيدة التى نعيها هى النونية :

قل لاخوان راؤني ميتا فبكوتي اذ راؤني حزنا
ذكرها ابن العربى فى محاضرات الابرار ، وقد اكتشفنا فكشفنا خطأ
فيما نشرناه ، منذ خمس عشرة سنة أو يزيد وفيها نعى المحاضرات ،
ذكر أبيات أخرى له ، وهى :

يا أيها المبتلى بزمي	تبد علم الله ما تقول
فأقول ان خف فى لسانى	أخائننى وزنه الثقيل
وحافظ كاتب شهيد	يكتب عني الذى أقول
من حاسب النفس كل حين	لم يتهاون بما يقول

ومن الادباء المغمورين عثمان بن سعيد بن تولو القرشى التينلى ،
المولد ، والمنوفى بمصر عام 605 ، وهو القائل فيها :

يا أهل مصر رايت أيديكم	عن بسطها بالنوال منقبضة
فمذ عدمت الغذاء عندكم	أكلت كتبى كائنى قرضة

ومنهم محمد بن على السلالقى ، توفى كذلك فى نفس التاريخ ، ويقال
انه كانت له شهرة بمراكش ، ومن شعره :

أرى يجمع شملى بكم	أبندا يا أهل نعمان الأراك
كل يوم أنا شاك منكم	وعليكم أنا طول الدهر باك

وبعد فان الدولة كانت تختلف عن سابقتها بأنها قامت على اكتاف
العلم والأدب ، ولم تقم على أساس الرباط والجهاد المجرد ، فكان من

ملوكها وأمرائها ادباء سبق ذكرهم ، وعلى رأسهم عبد المومن ، الذى ورث
بنيه وأحفاده أدبا ثريا .

فمن البنين ، أبو عمران ، ومن الاحفاد أبو الربيع ، ثم من جاء بعده
من بيت الخلافة ، الى ان لفظت انفسها الأخيرة .

ويذكر ابن عذارى فى بيانه ، بعض القطع الشعرية لأبى عمران ، بعد
ما وصفه بأنه من الأدباء والخطباء الشعراء . كتب اليه قاضى مراكش ،
عند تغيبه ببيتين تعتمد فيهما — لا محالة — قافية عويصة ، لاعتمادها على
الثناء ، فأجابه بديهة بقوله :

أتتينا منكم درر فحلت	محلا أوجبت منا انبعاثا
ولولا العذر من سبب قوى	لصرنا نحوكم حثا حثا
ولاكننا نسير بحال ود	اليكم مصبحا يوم الثلاثاء

وقال وقد انحس المطر عن مراكش التى كان بها ، ثم أمطرت السماء :

وغيث همى فوق متن الربى	فشبهته جود أهل السيادة
اتانا على رغبة فائتتى	وقد بلغ الكل منا مراده

وكتب الى أخيه الأديب أبى زكريا ، صاحب بجاية بالابيات :

من ساد وهو صغير كيف تحسبه	يقيقه ربي اذا ما كان فى الكبر
ومن يقول أمير المومنين أبى	فتلكم الغاية القصوى لمفتخر
أضحت بجاية فى التمثيل هالته	وظل يطلع فيها مثبه القمر
بدر بلا كلف در بلا صدف	ماء بلا كدر نار بلا شرر

وأجمل ما فيها البيت الأخير .

هذا ما كان فى أوائل الدولة ، أما فى أواخرها ، وهى تلفظ نفسها
الأخير ، فقد تقدم من ذلك بعض ما قاله الخليفة المرتضى ، فى ربيع الاول
شهر المولد النبوى . وفى أيامه الأخيرة ، نجده يرثى نفسه ، وقد مثل لعينيه
مصيره المفجع الذى سرعان ما انتهى بقتله ، فى قصيدة خماسية ، يقول فيها :

تهر المنية تحت الترب أسكننى	وما أخذت من الدنيا سوى كفى
فيابنى ويا الفى ويا سكنى	تالله لو كان لى حكم على زمنى

يوما من الدهر ما فارتكم أبدا

تركتهم بين تشتيت ومجتمع وبين باك من اللذات ممتنع
ونسوة بالفنا يكيين من جزع البست من بعد عرى أهون الخلع

وما مددت لهم يوم الوداع يدا

انا الغريب بأرض ضاق مسلكه مع البنين ولكن كنت أملكه
ما كان ظنى صفير القوم أتركه في حجر مرضعة يحبو فتمسكه

بالرغم منى تركت المال والولدا

طمعت في الروح أن يبقى معى فأبى لما تحقق أن الأمر قد وجبا
ونال صرف زمانى كل ما طلبا وصرت مستوحشا من جملة الغربا

وعند قطع رجائى لم أجد أحدا

عين الزمان أصابتنى بنظرتها وذهبت عزتى في طول مدتها
عجبت من بطئها عنى وسرعتها وكيف مازجنى تلوين صبغتها

في حين فارق منى روحى الجسدا

وقد ذكر له ابن عدارى غير هذا ، وقال انه وقف له على سفر مجلد
من شعره .

ولنقف عند هذا الحد نحدد به خطوط الأدب المغربى فنجد فيه أدبا
يشمل الشعر والنثر كما يضم اليه حركة التأليف التى ظهرت فيه بمظهر
قوى وبنشاط يصوره المغرب نفسه . بعد ما كان عالة على غيره أو منتجا في
غير أرضه أو متجليا في انتاج غير المغاربة في تطره . وقد لاحظنا ان هذا
الادب بدأ يتخذ لنفسه كيانا يتميز به — بعض الشيء — عما كان عليه
من تقليد محض للاندلسيين ، وأنه صار يشق لنفسه طريقا وسطا على

احد جانبيه الاندلسى وعلى الآخر الشرق الذى كان قد حهل منه — بعد
الاندلس — كثيرا من ثقافته مباشرة وذلك بواسطة جماعة من الاءاء
كان منهم محمد بن تومرت اذ اننا فى هذه المرحلة بالذات وجدنا الاتجاه الى
الشرق يتوى فى رجال المغرب .

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى

فهرس الموضوعات

الصفحة

- | | |
|---|--|
| 5 | توطئة في نواة هذه الدراسة وما طرأ عليها |
| 7 | منهاج الكتاب وما تضمنه من أبواب |
| 9 | المقدمة في نشأة هذا الادب ومراكزه الاولى |

الباب الاول

- | | |
|----|---|
| 17 | فيما قبل العهد المرباطى ، وما سجل به من آثار قبلية في تلك المراكز المذكورة آنفا |
|----|---|

الباب الثانى

- | | |
|----|----------------------------|
| 29 | العهد المرباطى |
| 32 | ابن زنباع ، أو ابن بىاع |
| 52 | القاضى عىاض |
| 86 | شعراء آخرون ونقف من آثارهم |

الباب الثالث

- | | |
|----|---------------|
| 91 | العهد الموحدى |
|----|---------------|

الفصل الاول

- | | |
|----|----------|
| 91 | ابن حبوس |
|----|----------|

الصفحة

116	الجرأوى
168	أبو حفص الأغماتى
184	أبو الربيع الموحّد
252	أبو جعفر ابن عطية
263	أبو عقيل ابن عطية
270	الشريف الإدريسي
284	مؤلف كتاب الاستبصار
294	عبد الواحد المراكشى
305	يوسف ابن الزياد التادلى
314	من أشعار متصوفة القرن السادس وأوائل السابع

الفصل الثانى

321	من العهد الموحّد
322	ميمون الخطابى
328	ابن عبدون الكناسى
338	مالك ابن المرحل
349	محمد بن حسن ابن المحلى
353	شعراء آخرون ومنتف من أشعارهم



صدر عن :

- روضة التعريف بالحب الشريف 1-2
- محمد اقبال مفكرا اسلاميا
- الخوازم في بلاد المغرب
- سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1-2
- تأملات في الأدب المعاصر
- كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة
- الأصول : دراسة ايتسيمولوجية
- مناهج البحث في اللغة
- اللغة العربية مبناها ومعناها
- اللغة العربية بين المعيارية والوصفية
- المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين
- المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1-2
- تاريخ الشعر العربي
- أبو تمام الطائي
- أحاديث عن الأدب المغربي
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم
- رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1-2
- زهر الأكم في الامثال والحكم 1-3
- لأبي علي الحسن اليوسي
- وقعة وادي المخازن
- فلسفة بيكون
- تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية
- عالم شاعر الحمراء
- دفنا الماضي
- الأدب السياسي عند عبد الكرم غلاب
- تحقيق د. محمد الكتاني
- د. محمد الكتاني
- د. محمود اسماعيل عبد الرازق
- د. محمود اسماعيل عبد الرازق
- د. ابراهيم السولامي
- الحسن المرادي :
- تحقيق د. علي سامي النشار
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. تمام حسان
- د. محمد نجيب البيهتي
- د. محمد نجيب البيهتي
- د. محمد نجيب البيهتي
- د. محمد نجيب البيهتي
- العلامة عبد الله كنون
- العلامة عبد الله كنون
- تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
- تحقيق د. محمد حجي
- و د. محمد الأخضر
- د. ابراهيم شحاتة حسن
- د. الحبيب الشاروني
- الدكتور لبيب يونان رزق
- الأستاذ عبد الكريم غلاب
- الأستاذ عبد الكريم غلاب
- الأستاذ أحمد فطري

رقم الابداع بالخرانة العامة 1981 / 384

مطبعة النجمل الجديدة
الدار البيضاء

الشمس : 30.00 درهما